AUB LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866

UNIVERSITY
LIBRARY

S.U.B. LIBRARY

كتاب

962
B98tA
v.4

B98tA
v.4

تاريخ

الامة القبطية

(وكنيستها)

« تأليف السيدة ا . ل . بتشر الانكليزية »

« المجلد الرابع »

« ثمن جميع المجلدات اربعون غرشا صاغا »

طبع على نفقة صاحب جريدة مصر سنة ١٩٠٧

طبع بمطبعة مصر بالفجاله

الفصل الحادي والستون

تخريب الكنائس وهدمها

سنة ١٣٠٠ مسيحية و١٠١٦ للشهدا و٧٠٠ للهجرة

أن الوقائع التاريخية التي جرت في غضون الجيل الثامن للهجرة الموافق الجيل الرابع عشر للمسيحيين هى اعظم شاهد صادق يدلنا على عظم الاضطهاد الشديد الذي عاناه الاقباط على يد الحكام المسلمين الذين تعاقبوا حكم مصر في ذلك الجيل

ولو أن المؤرخين المسلمين قد اثبتوا واكدوا أن تلك الاضطهادات قد جلبها الاقباط على انفسهم اي انهم كانوا السبب في وقوعها عليهم وقد جارى المؤرخون المسيحيون اخوانهم في اثبات ذلك بلا بحث في الحوادث والوقائع للحصول الى الحقائق التاريخة كما هي عادة اغلب المؤرخين الافرنج فقد كانوا يستعملون كلمات نيبل المؤرخ الفرنساوي (حدث بسبب خطأهم) الا اني قد فحصت تلك الوقائع التاريخية فحصاً دقيقاً في تاريخ المقريزي الذي يعتبر اصدق مؤرخ مسلم وبعض كتب تاريخية اسلامية اخرى توجه هذه التهمة الى الاقباط فاتضح لي بعد التمعن أن اولئك المؤرخين لم يكونوا على ثقة تامه من اثباتها . فالحقيقة التي تجلت لي بعد البحث والمقارنه التاريخية في اسباب ذلك الاضطهاد العظيم هي أن الاقباط كانوا يشكون من الغطرسة والقساوة التي كانت تقع عليهم ويقولون انه مادامت الحكومة الاسلامية لاتستغنى عنهم في

دوائرها فيجب ان يعيش هولاء الموظفون احراراً وليس ارقاء تحت سلطة الحكام المسلمين واعتقدوا ان هذا الاحتجاج لاشك فيه ولذلك كانوا يرفضون الرضوخ للمعاملة المؤثرة ويعترضون على الاوامر القاسية التي كان المسلمون في الازمنة السالفة يجبرونهم على اتباعها بقصد اذلالهم ومضايقتهم فلبسوا العمامة البيضاء بدل السوداء التي قد كان حرم عليهم تغييرها لتكون شعاراً مميزاً لهم وتمكن كبار موظفي الحكومة منهم بالسير في الشوارع على ظهور الخيل ووراء الواحد منهم كثير من مقدمي العرائض يطلبون قضاء المصالح العموميه والخصوصيه . فلما آنس المسلمون هذا الخروج عن المألوف من الاقباط ولاحظوا تنفسهم الصعداء من تلقاء انفسهم ونالوا حريتهم بأيديهم عقدوا النية على اتخاذ الوسائط العقوبة لاذلالهم فاقر كبار المسلمين على طلب هدم كل الكنايس المسيحية وتنفيذ كل مواد قانون العقوبات الصارمة على جميع افراد الاقباط . وقدموا هذين الطلبين لمحافظ القاهرة فانكر عليهم تنفيذ الطلب الاول وهو هدم الكنائس ولكنه لم يجسر على رفض الطلب الثاني . فاستقدم في الحال البطريرك يوحنا الثامن وكبار اعيان الاقباط واليهود واخبرهم انه لايكون مسئولا عن العواقب الوخيمة التي تحل بهم اذا كانوا لايرضخون للقوانين والشرايع التي يطلب منه تنفيذها

فكتب في الحال البطريرك يوحنا الثامن الى جميع الابروشيات يحضهم ويدعوهم الى التشديد على الشعب القبطي بلبس عمامة وحزام زرقاوين وان

لا يركبوا الخيل والبغال مطلقاً ومن يخالف هذه الاوامر يحرم من عضوية الكنيسة وانه لا بد من الرضوخ لاوامر القوة الحاكمة

فلم يقتنع المسلمون بذلك بل هدموا بعض الكنائس بالقاهرة كانت مشيدة حديثاً ثم طلبوا من البطريرك انه يغلق كل الكنائس الباقية بلا تخريب فابى البطريرك تنفيذ هذا الطلب فلم يلحوا عليه بالتنفيذ واهمل ذلك قليلا ولكن في اثناء هذه الفترة قام هياج وشغب شديدين بين المسلمين واعقب ذلك هدم وتخريب كل الكنائس . فلم تغد وقتئذ حكمة البطريرك ولا قوة سياسته السلمية بالتأثير في اطفأ نيران هذا التعصب ولا تهدية تلك العاصفة الشديدة

ثم عمد الحكام المسلمون ثانياً لرفت كل الموظفين الاقباط من دوائر الحكومه . وقام بعد ذلك جماعة الاوباش والرعاع من المسلمين يزدرون ويستهزئون بالاقباط ويرجمون المارين منهم في الطريق العمومي ويتحرشون بمن يركب حماراً صغيراً (وهي الركوبة الوحيده التي صرح للاقباط بركوبها) ويطرحونه أرضاً بحالة وحشيه ويمثلون به أفظع تمثيل . وكانت المشاغب والاضطهادات فكانت على اشدها في مدينتي الاسكندريه والفيوم ووقعت اضطهادات وتعذيبات عموميه عظيمه على اقباط هاتين المدينتين واستفحل امرها حتى لم يكن في وسع الحكومه منعه أو تحاشيه . وحرّم الاسلام على الاقباط الاحتفال بعيد النيل (١) الذي قد حل أوانه

(١) أمر السلطان بإبطال عيد النيل المذكور بحجة افراط الاقباط في شرب

وقتئذ (ويعرف عند الاقباط بعيد الشهيد) وصارت ارواح وأملاك الاقباط واليهود على السوأ في جميع انحا الديار المصريه تحت خطر الهلاك في ساعة واحدة . هكذا كانت أحوال مصر مدة ثلاث سنوات حتى اتفق مجيء وفد الى الديار المصريه من قبل ملك بارسلونه يحمل فدية اسيراً من عيته كان قد أخذه سلطان مصر في حرب (والاغلب في حرب سوريا) فانذعر اعضأ ذلك الوفد وارتعدت فرائصهم مما شاهدوه من اضطهاد الاقباط وسوء الحاله العموميه في مصر فهزتهم نخوة المرؤة والعاطفه الدينيه والتمسوا من السلطان أن يسمح باعادة فتح الكنائس لذويها ومقابل ذلك يقدمون له مبالغ مالية عظيمة بصفة هديه علاوه على الفديه التي يقدمونها له عن اسيرهم . فقبل السلطان منهم هداياهم وتسامح في فتح بعض الكنائس وتخفيف الضغط عن الاقباط . ولكن المقريزي ذكر في تاريخه بان السلطان لم يسمح الا بفتح كنيستين فقط . ثم أثبت أيضاً ان السلطان بعد ان اعتق الاسير البارشلوني واطلقه ليرحل مع اصحابه عاد فأمر

الخمر اثنأ هذا العيد وذلك لان الاقباط كانوا يحتفلون في ٨ بشنس من كل سنه باقامة هذا العيد في ناحية شبرا بجوار النيل ويسمونه (عيد الشهيد) زعماً منهم ونقلا عن آبائهم الفراعنه أن النيل لايفي الا اذا ألقوا فيه تابوتاً من خشب فيه أصبع من أصابع آبائهم المائتين فكانوا يجتمعون من سائر القرى القريبه على اختلاف درجاتهم ويكثرون من الغنا والترتيل وشرب المسكر فكانوا ينفقون مبالغ فاحشه في هذا السبيل وكان فلاحو شبرا يعتمدون على وفاء مال الاطيان مما يبيعونه من الخمر ايام هذا العيد

بعدئذ باقتفاء اثرهم في الطريق والقبض عليهم فلحقتهم رجال السلطان واوقفوهم ونهبوا ما كان معهم واسترجعوا ما أعطاهم السلطان واخذوا الاسير ثانياً وألقوه في السجن مكبلا بالسلاسل الحديديه . وفي سنة ١٣٠١ مسيحيه بينما كان الاضطهاد على اشده في بحر الثلاث سنوات المذكوره تمرد سكان الصعيد من المسلمين وعصوا وتذمروا من حكم المماليك وكان هؤلاء المسلمون من سلالة العرب الذين كانوا ضاربين في تلك الاقاليم القبليه وقد رحلوا اليها من بلاد العرب . فأرسل السلطان كثيرين من المماليك الامرا لقمع تلك الثورة في الصعيد فادي هؤلاء المماليك مأموريتهم بحالة وحشيه وقلوب قاسية لا تلين ولا ترحم ان اعملوا السيف فى اعناق معظم السكان حتى امتلا الفضاء بالجثث وقبض هؤلاء المماليك على محنة عشر الفاً من اصحاب الاراضي ووضعوا ايديهم على أراضيهم واموالهم . وراح فى هذه المذابح كل من المسلم والقبطي والبريء والمذنب وفي بعض الاقسام لم يبق رجل واحد على قيد الحياة ماعدا النسا والاطفال الذين اخذهم الامرا اسرى أرقاً وفى السنة التاليه أعقب ذلك الخراب والهلاك زلزلة عظيمه زادت فى انحطاط البلاد وعم بسبب ذلك الخراب . وقد خربت هذه الزلزله بلادا كثيرة أخصها مدينة قوص التي دمرت عن آخرها . وأما اربع مدن العاصمه (مصر والقاهره ومصر القديمة وبابليون) فلم يصبها شيء من الزلزلة لان يد الاعداء قد سبقت الزلزلة نخربتها واهلكت من فيها

وشعر السلطان الشاب بتعاسة حالته فى مملكته . اذ تحقق بعدئذ

بالتدريج شيئاً فشيئاً ان اضطهاده للاقباط وشدة ضغطه عليهم لم تأت الا بالوبال وسوء الحال وتعميم الفوضى . وفضلاً عن صيرورة الاحكام المدنية الى الفوضى والارتباك فانه رأي مع كل ذلك عدم رضا رعاياه المسلمين عنه ولم يعرف كيف يرضيهم ولاسيما الامراء المماليك الذين كان يخافهم ويخشاهم كثيرا والظاهر ان الحوادث الطبيعيه من زلازل وقحط وطاعون وغيره . اثرت في اخلاق المصريين فجعلتهم عديمي الثبات فانقسموا احزابا ضد بعضهم ثم عادوا فاتحدوا على خلع الناصر السلطان الشاب وهذا ماكان يتوقعه منهم كما تقدم

ففي سنة ١٣٠٩ مسيحيه لما زادت متاعبه من كثرة الشكاوي والمنازعات وشعر بسؤ المصير ورأى انه لا يقوي على دفع هذه الويلات وخاف على حياته من الهلاك فتظاهر بالرغبة في الحج الى بيت الله الحرام وزيارة المقام النبوي فسار مع بطانته الى الكرك تاركا الملك وما فيه الى المماليك وكانه له في الكرك ثروة عظيمة تبلغ نحو سبعة وعشرين الف دينار ومليون وسبعماية الف درهم فاستولى عليها وحصن المدينة ثم ارسل ختمه السلطاني الى مماليك مصر واخبرهم بتنازله عن الملك وفوضهم في انتخاب من يريدونه وتوليته سلطاناً عليهم في مصر . فوصل اليهم كتابه في ٢٥ رمضان سنة ٧٠٨ هجرية فبايعوا الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير (بيبرس الثاني وهو احد مماليك الملك المنصور بن قلاوون ويؤيد ذلك انهم وجدوا بين اسلحته سيفا منقوشا عليه اسمه ومشفوعا بلقب

(المنصوري والسيفي) وبعد ان بايعوه لقبوه بالمظفر

وفي اواخر السنة المذكورة كان قد اتفق صاحب قبرص مع الصليبين لغزو دمياط بحراً فخاف بيبرس الثاني من غزو الافرنج لبلاده ودخولهم القاهرة فاتفق مع الامراء المماليك على اقامة سد عظيم يمتد من دمياط للقاهرة حتى يتعذر وصول الافرنج ايام الفيضان في النيل الى دمياط . فجمع في الحال ثلاثين الف رجل وستماية رأس من البقر لحمل الاثقال وادوات البناء وانتهى من بناء هذا الجسر العظيم بعد شهر واحد فكان طوله من دمياط الى قليوب وعرضه اربع قصبات من اعلاه وسته من اسفل ومشي فوق عرضه ستة من الخيل جنبا لجنب . ومن اثار بيبرس الثاني جامعه المشهور بالقاهرة باسم جامع جانشكير في الجملية لا يزال يصلي فيه الناس الى الان وهو على شكلا جامع السلطان حسن

ثم عاد الملك الناصر وتاقت نفسه الى الملك والعظم والنفس البشرية ميالة بطبيعتها الى العلى فوبخ نفسه وندم على استقالته وتخليه عن مملكته لاحد مماليكه فعمد الى اتخاذ الوسائط اللازمة للحصول على العرش المصري للمدة الثالثة ففي شعبان سنة ٧٠٩ هـ بارح الكرك بعد ان اقام فيها احد مماليكه المدعو ارغون وسار لى دمشق اولا فرحب به اهلها بصفته السلطان الاصلي الحقيقى ثم بايعوه عليهم فجند بواسطة امرأها جيشا عظيما وسار به الى مصر . وبوصوله اليها كان لحسن حظه ان احد زعماء المماليك في مصر المدعو برلك قد نبذ طاعة بيبرس فلما علم بقدوم

فلما علم بقدوم الناصر اسرع لملاقاته بالترحاب . اما بيبرس فخاف على نفسه ولم ير سبيلا لنجاته من الخطر الا بالهروب فاشهر استقالته في الليلة الاولى من شهر شوال بعد ان اسرع فجمع كل الاموال التي في خزينة القلعه والتي يقال انها تبلغ نحو ٣٠٠ الف دينار كان اغلبها مجموعا من نهب الاقباط الذي وقع أخيراً وكثيراً من الجمال والخيل وهم هارباً الى مصر العليا على امل الاستيلاء عليها فوقف في طريقه خارج القاهره جمع عظيم من اسافل القوم واوسعوه رجما وشما فصار يرشقهم بما معه من النقود وسار حتى وصل الى اخميم . وفي اليوم الثاني من مبارحته القاهره دخلها الملك الناصر باحتفال عظيم وهي ثالث مرة تولى عليها وكان ذلك اليوم عيد رمضان فصار العيد عيدان وفي الحال اقتفى اثر بيبرس الهارب ومن معه وقبض عليهم واسترجع الاموال التي مع بيبرس ثم قتله

وكان سن الملك الناصر وقتئذ خمسة وعشرين سنة صرف ١٦ منها في مقاساة الاهوال من المماليك حتى عرف كيف تؤكل الكتف وكيف يثبت قدمه في السلطنه وظل باقي ايام حكمه نحو ثلاثين سنة وبعضهم يقول ثلاثة وثلاثين حتى توفى لكنه أظهر في هذه الدفعه اختلافا عظيما في الاحكام والنشاط اكثر من المرتين الاولى والثانيه. وعلمه الاختبار ان يحامي عن الاقباط بكل قواه ويحميهم من نهب واستبداد المماليك والتعصب الديني من مواطنيهم المسلمين. واشغل نفسه في عمل اصلاحات عموميه عظيمه وفي تمهيد تأسيس حكومة منظمه لتلك البلاد المختلة النظام

ولكن نية السلطان الحسنة وميله الذلك وان كانا قد اثرا في ايجاد الاصلاحات ولكنه كان في غالب الاحيان لا يمكنه ان يتغلب على اطفاء نار التعصب العام التي تأجج من كل صوب فبعد عشرة سنوات من اعتلائه العرش في هذه الدفعه الاخيره اي سنة (١٣٢٠ هـ) وقعت فظائع عظيمه ساقت الاقباط قهرا بعامل تأثير رد الفعل الطبيعي لمقابلة الشر بمثله بقصد الدفاع عن انفسهم .

ومن المعلوم ان معظم النار من مستصغر الشرر فان السلطان الناصر اراد ان يبني رصيفا على شاطئ النيل لتحسين منظر ميدانه(١) ومما يحسن ملاحظته واثباته ان شاطئ النيل سنة ١٣٢٠ هـ لم يكن كما هو الآن لان النهر قد تحول مجراه كثيرا لجهة الغرب ومحل مجراه القديم ملآن بمنازل القاهره الحديثه بل هو القاهره المتوسطه نفسها لانه بعد ان تحول مجرى النيل كما تقدم اقام الناس المنازل في الحال بعد ان جفت الارض على المجرى القديم . وفي عصر الناصر ابن قلاوون كون طمي النيل جزيرة حديثه ما بين القاهره وبولاق فبني عليها الناس في الحال مسجدا وطاحونه وكثيرا من المنازل بحدائق فيحا حتى اصبحت منتزها لسكان الفسطاط . وقيل انه في سني الفيضان كانت تغمر تلك الجزيرة بالماء وتتحول شوارعها

---

(١) معنى لفظة ميدان هنا اي محل لتعليم الركوب فيه ولكنه اسم على غير مسمى لان التمييز على غير الواقع فان هذا الميدان كان عبارة عن متسع عظيم امام احد قصور السلطان الشاهقه اعتاد ان ينزل فيه يوميا من القلعه .

الى ترع وكان السكان ينتقلون فيها بالقوارب اما فرع النيل الشرقي الذي يطفو ماؤه على مدينة الفسطاط فكان دائما فسيح الشواطئ وعند ما ينقضي زمن الفيضان تنشف شواطيئه حالا . والعصر الثامن من التاريخ الهجري مملؤ بالادلة التي تثبت خبر تكون جزائر نيلية جديده كثيرة العدد اصبحت بتوالي السنين جزأ من شاطئ القاهره الشرقي وينبئنا تاريخ ذلك العصر ايضا عن النفقات الباهظه التي كان ينفقها حكام مصر المسلمين بقصد التسلط على سير النيل الطبيعي ومحاولة منعه تغيير مجراه فكانت تروح اتعابهم ادراج الرياح والبقعه التي خصص السلطان فيها بناء جسره كانت ملأي بالسكان مع انها اشبه ببوغاز لم ينشف تماما بعد الفيضان وعلى قطعة ارض قديمة مرتفعة كانت قد شيدت كنيسة الظهري . واتفق أن السلطان الناصر اراد حفر مجرى مياه من النيل ليدخل فيه الماء لوسط الجزيرة واتفق في هندسة ذلك المجرى أن الكنيسة تعترضه في طريقه فاما أن تهدم واما ان تظل قائمة في وسط المجرى والماء حولها . ولو تركت هكذا منفردة في الجزيره وحدها وسط المجرى تكون في شكل ظاهر يستلفت الانظار وهذا يعتبر عيباً في نظر المسلمين لانه لا يصح في اعتقادهم إن تكون كنيسة للنصارى ظاهرة بهذه الكيفية ولما أشاروا على السلطان بضرورة ازالتها من موضعها صعب عليه ذلك ولم يصدر امراً بهدمها بل امر فقط بالحفر حولها بالقرب من جدرانها حتى تسقط من نفسها عند ما يختل الجدار فلما حفروا حولها واصبحت الكنيسة

معلقة في الهواء بقيت مع ذلك ثابتة في موقعها ولم تسقط وعندئذ تذمر الفعله المسلمون وازداد هياجهم وتأججت نار التعصب في قلوبهم في جميع انحاء القطر بحالة شديده مزعجة لانهم راؤا أن السلطان يلاطف الاقباط ويحامي عنهم ويحافظ عليهم فانتهز المتعصبون من المسلمين هذه الفرصه فاوقعوا بالاقباط اهوالا عظيمه ولكن لم تعلم كيفية وقوعها ولا من الذي دبرها بل انفجرت براكين ذلك التعصب وطار لهيبه في الفضاء فجأة واليك البيان: في يوم جمعه من ايام شهر يونيو الشهير بشدة قيظه في مصر أعطيت اشارة في ساعة صلاة الظهر وقت اجتماع (المؤمنين) في المساجد في كل من مدن القاهرة والاسكندرية ودمنهور واسيوط ومنفلوط وقوص واصوان وخمسة مدن اخرى من اشهر مدن القطر. وبعد انتهاء الصلاة قام درويش يظهر انه ليس مصريا وخرج في وسط الجمع المحتشد بغتة في جامع القلعه وتقدم الى الامام عند المنبر وصرخ باعلا صوته وهو يرتجف ويتكهرب كأنه قد نزل عليه وحي من السماء فأخذ يصيح الله اكبر — الله اكبر — ياإخواني المؤمنون — فلنتقدم ونهدم كنائس النصارى

ومما يحسن ملاحظته هنا ان المسلمين كانوا لا يحتاجون الى من يكرر عليهم هذه الدعوى — وفي اللحظة التي انتهى فيها ذلك الدرويش من دعوته سمع في الحال صراخ هائل في ثلاثة اماكن في القاهره . في جهة الحفر امام كنيسة الظهري . وفي جامع القلعه — وفي كلية الازهر العظيم بل واول كنيسة هدمت كنيسة الظهري التي كانت معرضة لنظر

المتعصبين التي لم يترك فيها حجر على حجر وقد سرقوا كل الاشياء الثمينه فيها ثم ركضوا الى كنيسة ماري مينا في حي الحمرا وهذه الكنيسة كانت منذ زمن مديد موضع الاحترام لدى الاقباط عموما وكانوا يرسلون اليها نذوراً من جميع انحاء البلاد المصريه حتى اصبحت خزينتها في ذلك الوقت اغنى خزائن المملكه المصريه على الاطلاق ليس فقط لكثرة الاموال بل ولكثرة الامتعه الجميله والاواني الثمينه الفاخره وغير ذلك من الاشغال الفنيه الغريبه وكانت محاطه بشبه مستعمره يسكنها الاقباط الزاهدين في العالم في مساكن متفرقه حول الكنيسة

فتسلق أولئك الرعاع المتعصبون جدران تلك المنازل وفي مسافة ساعة واحده كانوا قد هدموها عن آخرها وضربوا ساكنيها المساكين ونهبوا ما يملكونه ولم يمكنهم الدفاع عن انفسهم ولما كان اهم اغراضهم السلب والنهب اكثر من الهدم لم يكملوا هدم تلك المباني بل تركوها زاحفين على كنيسة العذارى بقرب الساقيه التي كانت مجاورة لهذه الكنيسة ويسكن على مقربة منها عدد كبير من الرهبان والراهبات. فكسر المتعصبون الابواب ودخلوها هاجمين واخرجوا منها ما يزيد عن ٦٠ راهبة قد كن التجأن اليها هاربات من هذه الوحوش فنزعوا ثيابهن عن اجسادهن وسلبوا كل ما وجدوه معهن وما هو داخل الكنيسة من الاشياء الثمينة ثم اشعلوا فيها النار واشعلوها أيضا في كنيسة اخرى بقربها ولما لم تنطف نار التعصب بعد زحفوا من القاهره الى جهة الجنوب قاصدين بابليون

ولكن كانت قد سبقتهم اخبارهم الى بابليون فلما علم الاقباط بذلك اسرعوا الى غلق بوابات الحصن القديم وكان داخل سوره ستة كنائس واستعد الاقباط داخل الحصن للدفاع عن انفسهم وكنائسهم وكانت في اثناء ذلك قد وصلت الاخبار للسلطان الناصر وعلم بما اتاه اولئك الثائرون وعن وجود عصابة أخرى كانت تنوي هدم كنائس الموسكي وحارة الزويله فارسل السلطان في الحال لتحقيق هذا الخبر ومعرفة الاسباب التي دعت لذلك فلما عرف حقيقة الامر قام في الحال بنفسه مع رجاله ليمنع هذه الاخطار ويوقف المشاغبين والثائرين عند حدهم . ثم اتاه نباء بان قصر الشمع (اسم اطلقه العرب على حصن الرومان في بابليون) محاصر بالثائرين والاقباط داخله يجاهدون في الدفاع عن انفسهم ولكنهم لا يثبتون في دفاعهم ما لم تلحقهم نجدة قوية

فاصدر السلطان امره باعداد هذه النجدة فركب في الحال الامير اوجامش واخذ معه اربعة من الامراء وفرقة راكبة واسرعوا الى بابليون ثم تقدم قائد الفرقة وسبق الامير اوجامش واجتهد ان يبدد شمل المحاصرين ولكنه صد حالا اذ اخذ الثائرون يرجمونه بالحجاره حتى تقهقر وعاد الى جنوده

وكان الامير أوجامش قد وصل فرأى المتعصبون شارعين في حرق البوابة التي بذلوا كل قوتهم في كسرها فلم يمكنهم ذلك فلما رأي الامير هذا الامر اشهر سيفه في يده امام جنوده وصاح على قائد الجنود بالهجوم

على الثائرين ففي الحال تفرق الثائرون وفروا هاربين من حول ذلك السور . وانتهز الامير أوجامش هذه الفرصه فاعلن بصوت عال ان من يبقى في هذه البقعه بعد ساعة من الزمن يعرض نفسه للموت العاجل

فتفرق الجمع على اعقابهم باسرع ما يمكن وبذلك سلمت كنائس الحصن من العبث والتدمير وعلاوه على ذلك فان أوجامش ظل في هذا المكان حتى صلاة العشاء خوفا من ان هولاء الثائرين يعودون الى هجومهم على الحصن . ولما عاد الى القاهره في المساء اصدر اوامر صارمه لقائد الحرس ليسهر طول الليل برجاله حول الدير وترك معه خمسون جنديا للحرس ولكن الامير (الماز) الذي يظهر انه لم تصدر له اوامر تخول له حق قمع هذه الثوره وحماية الكنائس وجد ان الذين امرهم الامير اوجامش بالبقاء للحراسه قد ناموا كلهم فاسرع مهرولا واخبر السلطان بذلك

ثم أمر السلطان الناصر بالقبض حالا على ذلك الدرويش الذي نادى على المصلين في جامع القلعة يدعوهم لتخريب الكنائس فقيل له انه غير موجود . وكانت الشوارع ملآى من الذين تجاروا على نهب الاقباط وهدم كنائسهم . ولما استدعت الحكومة رؤساء العصابات والمتهمين في هذا الجرم الفظيع وشرعت في التحقيق معهم قالو أن السلطان نفسه هو الذي امر بهدم وحرق الكنائس ولم يمكن الحكومة ان تثبت التهمة على احدهم ولكن الذي قاله هولاء الطغاه لا يصح تصديقه واسناده الى السلطان الناصر ومن ثم أخذت ترد كل يوم على السلطان خطابات من الاقاليم

المصرية تنبئ بحدوث ثورات مثل ثورة القاهرة تهدم وتحرق فيها الكنائس القبطية . فاغتاظ السلطان غيظاً شديداً وسخط على رجال حكومته وامر بوجوب معاقبة زعماء الثورة عقاباً صارماً . فلما رأى الامراء اصراره على تنفيذ هذا الامر اجتهدوا بكل صعوبة في التأثير عليه وارجاعه عن عزمه واوضحوا له ان في الامر سراً عجيباً لا دخل فيه لبني البشر لانه لم يكن لاحد ما حتى ولا للسلطان نفسه أن يحقق من الفاعل والمتسبب الاصلي في هذه الثورات مع شدة رغبة السلطان في الوقوف على معرفته . وبذلك التأثير امكنهم أن يقنعوا السلطان بان يعتقد أن يد الله هي التي ارادت معاقبة الاقباط نظراً لما ابدوه من الغطرسه فخرب الله كنائسهم (١) فهذه الاحوال المحزنة لم يمكن الاقباط احتمالها . واصبحوا حانقين متذمرين لعدم انصافهم من هولاء الاعداء وخيف أن يكون بعض ظن

---

(١) أن الكنائس التى هدمت وحرقت وامكن حصرها هي : ـ في القاهرة كنيسة الظهري وكنيسة داخل اسوار القلعة في المحل المدعو خرائب التتر وكنيسة في حي الحمرا وكنيسة العذاري بقرب السبع سواقي وكنيسة ماري مينا وكنيسة حارسي العهود وكنيسة في حي الاروام وكنيسة جهة الحربية وكنيستين في حارة الزويله وكنيسة قرب مخزن الهوا وكنيسة في الخندق واربع كنائس في اسكندريه وكنيستان في دمنهور واربع كنائس في مديرية الغربية وثلاثة كنائس في مديرية الشرقية وستة كنائس في مديرية البهنسا وثمانية كنائس في مديرية أسيوط ومنفلوط واحدى عشر كنيسة في مدن اسيوط واصوان والمنيا وكنيسة في اطفيح وتسعة كنائس في الفسطاط ودير البغل وعدد عظيم لا يمكن حصره من الكنائس والاديره .

المسلمين حقيقة من تدبر مكيدة بواسطة رهبان دير طره المعروف بدير البغل انتقاما لانفسهم من مضطهديهم

وبعد مضي شهر من تاريخ تخريب الكنائس وهدمها واذا بنار شبت فجأة واخذت تحرق البيوت في عدة نواحي من مدن القاهرة والفسطاط . ودامت النار مستعرة من يوم السبت لغاية يوم الاحد مساء وكل ما اراد الناس أن يطفئوها في جهة تظهر في جهة اخرى واتفق في ذلك الحين ان قامت زوبعه شديده ساعدت النار على التدمير والتخريب فكانت هذه النار تقلب البيوت على اعقابها وتهوي بها الى الارض والرياح تقلب القوارب والمراكب في البحر وهكذا تعاهد الريح مع النار على اتلاف المدينة . ثم تلبد هواء المدينة كله من الدخان حتى اصبح كضباب كثيف وطلع الدراويش واولياء المسلمين على مآذن المساجد كلها يصرخون ويصيحون طالبين من الله أن ينقذهم من هذا المصاب . وجاء مساء ليلة الاثنين والهواء لم يزل يحمل اصوات الصياح والعويل والنار تزداد التهابا بحالة وحشية مريعة وفي صباح يوم الثلاث امر السلطان بغلق كل بوابات المدينه وامر باحضار جميع السقائين ليحضروا المياه بالقرب ويساعدوا في اطفاء الحريق ثم أمر النجارين والبنائين أن يهدموا البيوت القريبه من النار قبل أن تصل اليها ليحصروها في نقطة واحده . وهكذا لم يبق احد مهما كانت درجته ورتبته الا اخذ يساعد بنفسه في انقاذ البلاد من النار وامتلاء الشارع العظيم الذي يبتدي من باب الزويله بالماء حتى اصبح

اشبه بنهر عظيم . ثم خمدت النار ولكن كان كل يوم يظهر حريق جديد مع سهر وتيقظ رجال الحكومة واخيراً اعلن السلطان أن سكان كل ناحية يلزم أن يضعوا زيراً أو برميلا من الماء في كل شارع من جيبهم الخاص ليكون الماء جاهزاً عند الضرورة فارتفعت اثمان الازيار والبراميل الى درجة عظيمه . ثم ظهرت في الحال غاغة عظيمة وتصفيق حاد في الشوارع وصياح هائل من المسلمين قائلين أن النصارى هم سبب حرق المدينة واخيرا في يوم الجمعة شهر (يوليو) قبض على راهبين خارجين من كلية القاهرة بعد أن ظهرت النار في جدران تلك الكلية وتأكد المسلمون أن هذين الراهبين هما اللذان اشعلا النار وابلغ السلطان الامر عند القبض عليهما فامر في الحال بتعذيبهما وما كاد أن ينزل الامير بهذا الامر من القلعة الا ورأى المسلمين المحتشدين قد قبضوا على راهب آخر وجدوه في جامع الظاهر يحمل على ظهره عدة اكياس من النفط والزفت ولما طرح على الارض لتعذيبه امام الامير اقر انه اعطى هذه الاكياس ليضع واحداً منها في جامع الظاهر

واقر ايضا الراهبان الاخران اثناء تعذيبهم انهما من دير البغل وانهما هما اللذان أحرقا كلية القاهر . فلما رفع الامر الى القاضي كريم الدين الذي التهمت منزله النار ونجا بنفسه اقترح استدعاء بطريرك الاقباط لانه لابد أن يكون عالما بسر ما اتاه شعبه من هذه الامور المنكرة ولا بد انهم استشاروه في كل امر . وكان البطريرك وقتئذ يوحنا التاسع الذي

اخلف يوحنا الثامن بعد بضعة اشهر فا حضره رجال الحكومة الى القاضي في ظلام الليل تحرسه فرقة من الجند خوفا من أن يصيبه اذى من ايدي هولاء القوم الثائرين . ولما جاؤا بالثلاث رهبان امامه وسألهم عما فعلوه اقروا ثانياً امام القاضي كريم الدين انهم عملوا ذلك نكاية بالمسلمين الظالمين الذين حرقوا كنائسهم فلما سمع البطريرك ذلك أزرفت عيناه الدموع واوضح للقاضي انه يوجد بعض الاقباط قد حملهم التعصب الديني أن ينتقموا لانفسهم من رعاع المسلمين الذين هدموا كنائسهم . فصرح القاضي كريم الدين (١) للبطريرك أن يعود لمركزه بكل احترام وخرج معه فاستحضر له بغلاً وامر بعض رجاله أن يسيروا في حراسته حتى يصل الى البطريكخانة ولكن جماعة الاوباش المتوحشين الذين كانوا يملاون الشوارع عرفوه واحتاطوا به وكادوا يمزقونه اربا لو لم يسر بجانبه ضابط الحرس حتى ابعده عنهم ووصل الى مقره بسلام وفي صباح اليوم الثاني بينما كان القاضي خارجا من منزله كعادته ومتوجها الى القلعة احتاط به ايضا كثيرون من هولاء الاوباش وهم يصيحون حوله ويتهمونه بالكفر لتعرضه لحماية النصاري الكفار الذين حرقوا منازل المؤمنين (المسلمين) فلم يخف منهم كريم الدين بل تشجع وسار توا فقدم تقريراً للسلطان فحواه انه يوجد بعض من جهلاء الاقباط هم الذين ينسب اليهم هذا التعدي الفظيع فامر

(١) أن كريم الدين هذا هو قبطي الاصل وعائلته قبطية منذ جيل تقريباً قبل أن يعتنق الاسلام

السلطان باستمرار تعذيب الرهبان المسجونين تعذيباً اشد من الاول بدرجة قاسية جداً لكي يعترفوا ويدلوا على اسماء بعض اغنياء الاقباط او ذوي النفوذ فيهم فيقبض عليهم في الحال ولكن الرهبان وهم في اشد درجات العذاب ظلوا مثابرين على اعترافهم الاول امام البطريرك والقاضي واثبتوا أن اصل المؤامره مدبرة بواسطة اربعة عشر راهبا من رهبان دير البغل تعهد ثمانية منهم بحرق القاهرة وستة بحرق الفسطاط . اما بابليون فاقروا بعدم مسها بسؤ وسبب ذلك ان تلك المدينة القديمه كان كل سكانها من الاقباط في تلك الايام كما هو الغالب فى هذه الايام . ولما اعترف الرهبان فى هذه الدفعه بان زعماء هذه الفظائع هم رهبان دير البغل ارسل المسلمون رسلا كثيرة في الحال الى دير البغل ليخرجوا كل الرهبان الذين يجدونهم فيه ويأتون بهم اسرى الى القاهره فاتوا في الحال بكل من وجدوه في دير البغل وحرقوا منهم اربعه احياء في وسط الجمع الذي كان محتشداً حولهم

ومن اللحظه التي اعترف بها اولئك الرهبان باخوانهم المتآمرين اشتد هياج المسلمين في القاهره والفسطاط لدرجة شديده جداً تفوق الجنون وتحمسوا حماسا هائلا ولم يعد احد يبالي باوامر الحكومه ولا يرهب قانونها . وصاروا كل ما يقابلون قبطيا في الطرق يذبحونه ويأخذون ماله بلا خوف ولا محاسبه من الضمير . ثم كروا جميعا مهرولين الى السلطان يحتجون عليه لتساهله مع الاقباط ومنحهم آيات العز والسلام

من مده عشر سنوات وفي ذات يوم في الصباح بينما كان نازلا من القلعه الى الميدان رأى الشوارع محتشده بالوف من الاوباش والثائرين كموج البحر وهم يصيحون عليه باعلا صوتهم قائلين — الله ينصر الاسلام فلم يبال بهم السلطان واستمر في طريقه ولكن ما كاد ان يصل الميدان حتى اخبره قائد الحرس انهم قبضوا على اثنين من الاقباط وهم يحرقون منزلا فامر السلطان بحرقهما احياء في الحال امام الجم المحتشد وبينما هم يحرقون الرجلين حسب امر السلطان واذا بالقاضي كريم الدين مر بملابسه الرسميه من مكان الحريق فبصر به جماعة الاوباش فاوسعوه رجما بالحجاره فركض من امامهم ليختفي عن نظرهم فاقتفوا اثره حتى دخل ميدان السلطان فشاهد السلطان الجم العظيم الثائر خلف القاضي فسأله عن السبب فابلغه ما كان من امر رجمه بالحجاره فاغتاظ السلطان غيظا شديداً واصدر امره للامراء لتحقيق هذا الحادثه . فقال الامير سيف الدين بضرورة ارسال رسول يسأل الثائرين عما يريدون وقال الامير جمال الدين انه من المعلوم ان مسألة كراهة الموظفين الاقباط كانت في اواخر المسائل المطروحه امام نظرنا ولا لزوم الآن لاتخاذ وسائط شديده ضدهم ويكتفي الآن في عقابهم بعزلهم حالا من جميع وظائف الحكومه فلم يصادف هذان الاقتراحان قبولا لدى السلطان فامر رئيس بلاطه ان يستصحب معه اربعة من الامراء وعدداً من المماليك ويطوفوا القاهره من اول الميدان حتي باب الزويله ومنها الى باب النصر ويبددوا شمل

الثائرين ويضربونهم ضربة قاضيه ولا يدعون احدا يقف في وجههم وامر أيضا قائد الحرس ان يحافظ على باب اللوق وشواطي النهر ويقبض على كل هارب من هذه النواحي بلا استثناء ويحضره الى القلعـه ثم قال متحمسا (وحياة رأسي اذا لم تستحضر لي كل من رجم القاضي كريم الدين بالحجاره فاني ساقطع رأسك بدلهم!!)

فخرج الامراء من حضرة السلطان . ولما كانوا في الحقيقة ميالين لما يفعله الثوار والمشاغبين وراضين سراً عن تصرفاتهم الممقوته تعمدوا الامهال والابطاء في اتمام مأموريتهم حتى يكون ذلك التأخير فرصة سانحة لهولاء الثائرين فيهربون ويتفرقون كل الى سبيله فكان ذلك التدبير العجيب حسنا في بابه فانه ما كاد الامراء يسيرون للتجول في البلد حتى تشتت المحتشدون بانتظام واختفوا في الحال ولم يبق نفر واحد منهم باقيا ليقبض عليه رجال السلطان حتى ولا خدام اولئك المتحمسين لان الاخبار كانت قد انتشرت فيما بينهم كالبرق فهرب الناس عدواً كالارانب وقفلت بوابات كل الاسواق ووصل الطوافون الى بوابة النصر دون ان يقبضوا على فرد واحد بينما كان قائد الحرس من الجهة الاخري يطوف بولاق وشواطئ النهر وقد قبض على كثير من الشحاذين والملاحين (عساكر البحر) وكثير من عابري الطريق فاوقع هـذا الصنيع رعباً شديداً في الاهالي لدرجة انهم صاروا يلقون بانفسهم في النيل الذي كان وقتئذ عميقا فيسبحون فيه ويهربون الى بر الجيزه وقبل غروب الشمس كان قد وقع

من اولئك البؤساء الذين لم يمكنهم الهروب في يد قائد الحرس ما ينوف عددهم عن مائتي شخص فاحضروهم امام السلطان . فلم يقل السلطان ناصر ابن قلاوون كلمة بشأنهم ولم يحقق اذا كانوا مظلومين أو ابرياء بل أمر في الحال بتقسيمهم الى ثلاثة اقسام . قسم يعلق على المشنقة . وقسم يقطع افراده الى شطرين . والثالث تقطع اياديه . فصاحوا جميعا واخذوا يولولون وينوحون متضرعين للسلطان قائلين ان لا شأن لهم في رجم القاضي كريم الدين بالحجاره

فبكي الامراء وتضرعوا للسلطان ليعفو عن هولاء القوم الابرياء وكانت نتيجة هذا التوسل ان رجع السلطان عن امره الاول ولكنه امر قائد حرسه ان ينصب المشانق على شكل خط مستقيم يبتدئ من باب الزويله لغاية سوق الخيل ويعلق صباح اليوم الثاني على كل مشنقة واحدا من هولاء الاسرى التعسا الذين اخذو عرضا من الطريق وسيقوا للموت ظلما بطريقة وحشية وكان الامراء الذين مروا امامهم غير قادرين على التمالك عن البكا والتحسر . ولما علم القاضي كريم الدين بان الشارع الذي سيمر منه مكتظا بالجثث اليشريه بسببه لم يمكنه المرور وتخلصاً من رؤية هذا المنظر المريع فغير طريقه الى القلعه ومر من شارع آخر

وفي صباح اليوم الثاني صعد السلطان على المنبر وامر باحضار قسم آخر من اولئك التعساء الذين تصيدهم قائد الحرس فلما مثلوا امامه أمر أن تقطع ايادي وارجل ثلاثة منهم . ولما رأى الامراء أن غضب السلطان

في ازدياد خافوا أن يمسهم بضرر فلم يمكنهم أن يتعرضوا للدفاع عنهم وانفق من محاسن الصدف وصول القاضي كريم الدين فرفع عمامته وتقدم راكعاً امام السلطان على الارض يتضرع اليه ملتمساً العفو عن هولاء التعساء الذين يعتقد انهم ابرياء ولم يقترفوا اثماً. فقبل السلطان رجاءه ومنحه ارواح هولاء الاسرى بشرط أن يرسلوا للاشغال الشاقه في اعماله الاصلاحية على شاطئ النيل . ثم امر ايضاً بانزال جثث المشنوقين . ولكنه ما كاد ينزل السلطان من فوق المنبر حتى حدث فزع وانزعاج عظيم لشبوب الحريق في المنازل وقيل أن جامع احمد ابن طولون والقلعة نفسها كان يتهددها خطر الحريق وفي صباح اليوم الثاني قبضوا على ثلاثة من الاقباط من اعضاء لجنة مؤامرة الرهبان السرية

ودام منظر الحريق المرعب في القاهرة مدة اسبوع حتى جنت الناس من شدة الرعب واخذ السلطان يبذل كل قواه في تهدئة الخواطر واطفاء الحرائق. وصار الاقباط يختفون تحت الارض خوفاً على حياتهم واصبح المسلمون والاقباط معاً يذهبون فريسة لغضب السلطان وهياج الاوباش وفي يوم السبت من الاسبوع الثاني كان الخطب على أشده ولما نزل السلطان من القلعة الى الميدان رأى خلقاً كثيراً من الرعاع والاوباش يزيدون عن العشرة الآف نفس قد احتاطوا به وجميعهم يحملون قطعة قماش زرقاء عليها رسم صليب ابيض ولما صار السلطان في وسطهم صاحوا جميعاً بصوت واحد — فلتمحي كل الاديان ما عدا الاسلام !! — الله

ينصر محمد !! فيا ائمة الاسلام وقادة لوائه ساعدونا على الكفار ! ـ لا ترحموا النصارى ! ـ

فرأى السلطان نفسه على شفا جرف هار بين ثورة عمومية كبيرة وعلم ان ما أمر به من تعذيب المتآمرين على حرق المدينة وحرقهم احيأ لم يطف ظمأ الثائرين من المسلمين المشتاقين لشرب دمأ الاقباط فضاق ذرعه وخمدت شجاعته ورجع الى الميدان ومن هناك ارسل رئيس بلاطه يعلن الجمع المحتشد من المسلمين انهم احرار في قتل كل قبطي يجدونه وينهبون امواله !! فلما سمع القوم هذا الاعلان هزوا الفضاء بضجيج صياحهم واخذوا يمجدون السلطان لتصريحه لهم بما يريدون واخذوا يتراكضون كالبرق لتنفيذ هذا الامر

ولنترك القارئ الكريم الآن يتصور هذا الخطب الجسيم الذي يشيب لهوله الولدان وتلك المذابح الهائلة التي تقشعر منها الابدان

فاصبح الاقباط بالاجمال كاغنام تساق بالالوف الى المجزر . وذكر المؤرخون المسلمون ذلك الحادث في تواريخهم ومؤلفاتهم على وجه العموم ولم يشيروا اليه الا تلميحاً ولكنهم ذكروا بالتفصيل العذابات التي توقعت على الاقباط الذين بقوا احياء ونجوا من الذبح وهذه العذابات كانت من نوع التعذيب الذي وقع عليهم في العصور السالفة وهي تمييز الوان ملابسهم عن ملابس المسلمين بطريقة أجبارية وتعليق اجراس في اعناقهم عند دخولهم الى الحمام حتى يحاذر المسلمون الذين يكونون فيه لئلا يتدنسون

منهم ولا يجوز لقبطي الاستخدام في أي محل عمومي أو في دائرة أحد الامراء أو في أية وظيفة من وظائف الحكومة في الاقاليم . وكل قبطي يظهر لابسا عمامة بيضاء أو راكباً فرساً أو بغلا يسوغ ذبحه بيد أول مسلم يراه أو يقابله في الطريق وتصبح امواله غنيمة لقاتله والذي كان يسمح لهم بركوبه هو الحمار فقط على شرط أن يركبوه بالعكس . وبينما كان السلطان جالساً في ديوانه يجهز هذه القوانين كان القتل والنهب مستمراً على اشده حتى مل المتعصبون القاتلون الذبح وعافت نفوسهم مناظر الدماء وابتدأ ضميرهم الميت يحيا ويوخزهم نخفوا شر العاقبة وافاقوا من سكرهم فكفوا يدهم عن القتل بعد أن تأكدوا انهم نفذوا اوامر السلطان بحرارة اشد مما يجب وقالوا بعدئذ انه من الضروري أن حكومتنا الاسلامية تؤمن علينا ثانية وطلبوا منها عفواً عاماً عن كل ما فعلوه مع الاقباط وفي صباح اليوم الثاني ظهر هياج وأخذ المسلمون يحتشدون وقصدوا سلطانهم ليشكروه وكانوا يصفقون مبتهجين . وقيل أن السلطان لما رآهم كذلك تبسم ضاحكا عليهم فرحا بخلاصه من شرهم !!

ولكن ذلك السكون لم يدم طويلا بل انه في الليلة التالية تأججت النيران ثانياً في القاهرة وانتشرت بسرعة هائلة في انحاء المدينة حتى خيف على القلعة ذاتها من الاحتراق وظل الاقباط مختبئين داخل منازلهم أياماً طويلة وظلت الكنائس مقفلة مدة سنة ونصف حتى أرسل امبراطور البيزانطيوم (اليونان) وملك اسبانيا وفوداً لحكومة مصر يتضرعون

اليها لاتخاذ الوسائط التى تمنع تعذيب الاقباط اخوانهم في الدين . لانهم خافوا أن يكون عدد عظيم منهم قد اعتنق الاسلام في تلك الظروف المدلهمة . اما البطريرك فلم يصبه ضرر وظل عائشاً مدة كل تلك الاضطهادات التي حلت بشعبه وعاش بعد ذلك خمسة عشر سنة . اما اثناسيوس الثالث بطريرك الكنيسة الملكيه فلم يجسر على المجيء لزيارة ابرشيته فى الديار المصرية وقت تلك المحن وظل كل تلك المدة فى القسطنطنية منهمكا في المشاكل التي كانت قائمة بين الامبراطور والاكليروس فى تلك المدينة واخيراً طرده الامبراطور من القسطنطنية فكان يخشى الحضور الى القطر المصري فنزل فى جزيرة امبوعا ومنها توجه الى اليونان حيث طرح هناك فى السجن

وكان ذلك الرجل كباقي رجال الاكليروس المصريين مكبا على مطالعة الطب فشفى سجانه وكان ذلك سببا فى خلاصه ولا نعرف اذا كان قد رجع الى مصر بعد ذلك ام لا

اما قانون العقوبات المختص بالاقباط فى ذلك الحين فلم يكن يسري مفعوله على اليهود ولكنه يظهر انهم نالوا انصبتهم من الامان وتخلصوا من عذابات الاقباط . وذكر المقريزي حكاية فى تاريخه وقعت بين يهودي وقبطي وهو انه كان لاحد الاقباط مبلغاً طائلاً من المال على احد اليهود فلما رفت القبطي من وظيفته فى الحكومة اصبح محتاجاً لماله لينفقه فتوجه الى منزل القبطي على غير ارادته وصار يتوسل اليه أن يرد له ما عنده من

الدين . فما كان من اليهودي الا أن اعطى اشارة الانزعاج والاضطراب من مداينه متظاهراً انه كان يقصد ايقاع الضرر به ففي الحال أجتمع جمع كثير من المسلمين ليقبضوا على القبطي ويقتلوه فاسرع القبطي المسكين واختفى داخل منزل اليهودي وتضرع الى زوجته أن تحافظ عليه من يد القاتلين فحن قلبها عليه وخبأته تلك الليلة بشرط أن يتنازل عن الدين الذي له على زوجها

وقبل أن تسمح له هي وزوجها بالخروج من منزلهما اجبروه أن يكتب لهم صك مخالصه بدينه

ولما تناقص الاضطهاد سنة ١٣٢٥ مسيحية وصل للسلطان الناصر خطاب من امبراطور الحبشه بضرورة اعادة بناء الكنائس التي هدمها المسلمون وحسن معاملة الاقباط والا اضطر أن يهدم كل مساجد المسلمين في مملكته ويحجز مجرى النيل عن مصر فضحك الناصر من هذا التهديد وطرد وفده دون أن يرد على خطابه فعادوا من حيث اتوا ولا ينبئنا التاريخ بعد ذلك ماذا تم لمساجد المسلمين فى الحبشه اما النيل فيظهر انه لم يحجز مجراه

وفي سنة ١٣٢٧ مسيحية ثار المسلمون على الاقباط ثورة كبيرة وهدموا كنيسة القديسه بربارة . وكانت حجة المسلمين فى هدم هذه الكنيسة أن الاقباط لما استأذنوا السلطان فى اعادة بنائها كبروا مساحتها ولم يتم بناء الكنيسة بعد هدمها ولم تزل آثارها باقية وراء قصر الشمع

بمصر القديمة . وفى تلك السنة مات بطريرك الاقباط يوحنا التاسع وأخلفه بنيامين الثاني

وصرف السلطان الناصر ابن قلاوون باقي ايام حكمه فى الاصلاحات(١) الداخلية فابطل الضرائب الظالمة وهي ما كان يؤخذ من الرجل زكاة عن ماله ولو فقد منه ذلك المال فاذا مات الرجل يؤخذ من ورثته وغير ذلك من اشكال الضرائب التي لا محل لتفصيلها هنا وبذل كل قواه فى تشييد المباني الفخيمة . وفي سنة ٧١٧ هـ بنى جسراً بين بولاق وميت سيرج لحجز مياه النيل عند الفيضان لان الارض كانت واطيه فعند الفيضان كانت تجري المياه حتى نقطة قسم الازبكيه الآن وبعد بناء ذلك الجسر كفت المياه وتكونت هناك جزيره دعوها جزيرة بولاق ثم اتصلت بالبر وصارت مرسى للسفن ولا تزال باقية الى اليوم حيث يوجد قسم بولاق

ولكثرة مبانيه وعماراته جدد تقريبا مدينة القاهره وكان الفضل في ايجاد عدة مدارس وكليات ومساجد ينسب اليه . وكذلك انشاء عدة

(١) كان الاقباط ايام السلطان الناصر يقيمون احتفالا في ٨ بشنس من كل سنة يسمونه عيد الشهيد على ضواحي النيل عند شبرا توارثاً عن اجدادهم الذين كانوا يعتقدون ان النيل لا يفي الا اذا القوا فيه تابوتاً من الخشب فيه اصبع من اصابع ابائهم المائتين فكانوا يجتمعون على أختلاف درجاتهم من القرى الى تلك النقطة ويكثرون من الغناء والسكر واللعب وينفقون مبالغ عظيمة في هذا الاحتفال وكان فلاحو شبرا يعتمدون في وفاء خراجهم على مايكتسبونه من بيع الخمر فابطل الملك الناصر هذه العادة ولم يعد أحد يستعملها الى الآن

اسبله عموميه وفي سنة ٧١٨هـ بني جامعاً في القلعه دعاه الجامع الناصري وكان يصلي فيه مع حاشيته وبنى بجانبه جامع محمد علي المدعو الجامع العتيق وتستعمله الحكومة المصرية في هذه الايام مخزنا للمهمات العسكريه ولكنها اخلته اخيراً وعرضته لفرجة السائحين ويرى الناظر على يساره جامع محمد علي في القلعه

وكانت مدة حكمه الاخيره كلها سكون وسلام ولم يخرج من مصر الا لزيارة الحج مرتين وتزوج بابنة ازبك خان ملك التتر سنة ٧٢٠ هـ ومن ضمن اصلاحاته العظيمه انه نزح الخليج الناصري سنة ٧٢٧ هـ وكان معدا للملاحة وقتئذ ويوصل الاسكندريه بالنيل وكان على وشك التلف قبل تطهيره وسنة ٧٢٨ هـ أنشأ سبعة جسور سنة ٧٢٩ هو شاد مرصداً في الميدان وقصراً على انقاض قصر الاشرف انتهى منه سنة ٧٣٤ هـ وبنى جسور شبين سنة ٧٣٥ هـ . وجامع عظيم بجانب جامع ابيه في شارع النحاسين لم يزل معروفا باسمه للآن يرى الناظر عند الدخول اليه اعمدة ملتفة يقال ان الملك الاشرف ابن قلاوون اتي بها من عكا تذكاراً لانتصاراته هناك . وفي الجامع كتابة تدل على ان الذي بناه هو السلطان محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي سنة ٦٩٨ هـ والمقريزي يقول ان بناءه كان في سنة ٧٠٣ هـ وان الملك العادل كتبوغا هو الذي شاد اساسه ولكنه معروف للآن باسم الملك الناصر .

وحفر الناصر ترعة اخرى بين الخانكه وسرياقوس وقوى شواطي النيل وشاد داراً كبيره تدعى دار العدل وعيونا كثيرة ومدارس عالية واتم البيمارستان الذي كان قد شرع ابوه في بنيانه واوقف له اموالا ولما كانت اميال المماليك الامرآء متجهة للسلب والنهب فيظهر انهم كانوا غير راضين عن حكومة الناصر ونظامها فاصبح في عينيهم حقيرا ولما ادرك حقيقة اميالهم بحسن ذكائه دبر لهم امراً يشغلهم به عنه فاخذ يرسلهم حملات متتابعه لمحاربة النوبه وسلبها

وهذه كانت عادة سلاطين مصر في معاملة من ينازعونهم العرش فيشغلونهم عنهم بمحاربة السودان فلما وصل المماليك الى النوبه وحاربوها وارغموا سلطانها للخضوع عادوا الى مصر فرجع النوبيون الى طاعة ملكهم الذي رفض ثانيا ان يقسم يمين الطاعه والخضوع لسلطان مصر.

ولكن من الاسف ان كل روابط المسيحيه والوطنيه السودانيه انحلت وتلاشت سريعا بسبب دوام اختلال الاحكام وفسادها الناتج من تجارة الرقيق القهريه وغزو المسلمين المتتابع للبلاد النوبيه بسبب قيام مدعي نوبي جديد يطالب بالعرش وكان الناصر شديد الولع بتربية الخيل حتى قيل انه في بضع سنين من مدة حكمه كان يأتي الى اصطبلاته سنويا نحو ثلاث الاف جواد وفي سنة ١٣٣٧ م (٧٣٨هـ) فجع بفقد احب انجاله اليه وهو الامير اندق ولم يبرأ الناصر من المرض الذى اصابه حزنا على وفاة ابنه المذكور وظل بدائه حزينا حتى توفى في ٢١ ذى الحجه سنة ٧٤١هـ

الموافق ٦ يناير سنة ١٣٤١ وفاضت روحه وهو بمفرده ودفن حالا في الليل بغير احتفال وكان عمره ٥٧ سنة ومدة حكمه ٤٤ سنة وبضعة اشهر وبموته ماتت مشروعات عظيمه كان يجتهد في اتمامها وكان المماليك بعد مماته يتشاجرون كالطيور الجارحه عند وقوعها على الجثث الباليه لكي يعيدوا احكام الفوضى والفساد التي قضى عشرون سنه في ازالتها(١) ومحوها وتوفى الناصر عن ثمانية اولاد ذكور تناوبوا الملك بعده الواحد بعد الاخر الا ان تنصيبهم وخلعهم كانا بيد احزاب متضاربه من المماليك الامراء فكانوا لا يستقرون على حال ولذلك كانت مدة حكمهم قصيرة كما ترى

وكان اولاد الناصر كلهم قاصرون عند وفاة ابيهم الا واحد منهم وهو ارشدهم الامير سيف الدين ابو بكر فسمح الامراء بمبايعته فاعتلى عرش ابيه ولقب بالملك المنصور ولكن بعد اربعين يوما من حكمه عزله الامراء المماليك ونفوه الى قوص في مصر العليا وظل هناك حتى توفي سنة ٧٤٢ هـ وفي يوم خلعه سطا المماليك على نساء أبيه واهانوهن ونهبوا متاعهن .

ثم اخذوا منهن طفلا من اولاد الناصر في السادسه من عمره اسمه علاء الدين قوجوق فبايعوه عليهم سلطانا بهزء وسخريه ولقبوه بالملك

---

(١) كان الناصر قبل وفاته يسيء الظن في كل واحد من الامراء والكتاب والمورخون المعاصرون له يؤكدون انه سم على الاقل مايةوخمسين شخصا واستولى على اموالهم وذلك لاعتقاده انهم يتآمرون على قتله

تولى الخلافه بعد المعتضد بالله سنة ٧٦٣هـ وفوضوا اليه مبايعة من يشاء . لان الخلفاء بعد أن فروا من سوريا واتخذوا القاهرة مقراً لهم قبل ذلك الحين بمائة سنة كانت لهم منذ مهاجرتهم سلطة روحية دينية محترمة نافذة المفعول على العالم الاسلامي كله ولو انها ليست مؤثرة ادارياً . ولما رأى المتوكل ذلك حاذر كثيراً من المخاطره بمركزه اذا سلم بمطالب الامرآء فكتب اليهم يقول (اختاروا من بينكم من تشاؤن وانا اصادق على ذلك) وفي هذا الوقت علم الامرآء أن السلطان الاشرف الذي افتكروا انه مات رجع للقاهرة وكان مختبئاً بمنزل احد اصحابه فاسرعوا في الحال وهجموا على ذلك البيت وخنقوا الاشرف قبل أن يغيثه احد أو ينقذه من ايديهم وكان ذلك في ١٥ ذي الحجة سنة ٧٧٨ هـ

وبايعوا بدله ابنه الصغير علاء الدين علي وكان عمره وقتئذ ٧ سنوات وكانت حداثته الشفيع الوحيد لاعتلائه العرش ففرح بالعرش لحداثته ولم يدر انه مدفنه ولقبوه بالملك المنصور السادس وعينوا له وصياً يدعى الامير لاين بك ثم ابدلوه بالامير قرطاى واخيراً قبض الامير برقوق على هذا المركز العظيم وحفظه لنفسه لان هذه الوظيفة غاية ما كانت ترمي اليه مقاصده وما تتطلع اليه نفسه

وكان والد برقوق صبي من المسيحيين (المماليك) اشتراه تجار الرقيق من بلاد الشركس ليبيعوه في اسواق مصر فاشتراه الامير يلبغا سنة ١٣٦٤ مسيحيه والزمه بترك الديانة المسيحيه واعتناق الدين الاسلامي

كما هي العادة في معاملة باقي المماليك وكان له ابن يدعى برقوق ادهش الامير يلبغا بجماله وذكائه ونشاطه فارسله لدار التعليم المصريه فبرع في الفقه وسائر العلوم الاسلاميه فرقاه الى درجة أمير وكان برقوق عند قتل سيد والده الامير يلبغا ذو كفاءة وامتياز بمهارته وحذاقته بين كل مماليك يلبغا فزجه قاتلو يلبغا في السجن مع اخص اصحابه المدعو بركه بعد ان شتت باقي حرس يلبغا . فتوصل برقوق بعدئذ بمهارته أن يخلص نفسه من قيود السجن فهرب منه وخدم عند منجك حاكم دمشق حتى استدعاه ثانيا الملك الاشرف الى مصر قبل قتله وعينه قائد فرقة من المماليك وبعد قتل السلطان الملك الاشرف ظل برقوق يخدم ابن الاشرف علاء الدين الطفل بامانة واخلاص لما اسداه اليه والده من المعروف وظل بوظيفة نائب ووصي للسلطان الطفل لان هذه كانت جل رغائبه كما تقدم

وكانت ماجريات الاحوال في النوبة (السودان) من زمن سائرة من ردئ الى اردأ لكثرة تداخل سلاطين مصر في امورها وعدم اتفاقهم مع امرائهم فى مصر وكثرة تقاطعهم فانهم كانوا دائما يتفقون ويتكاتفون معا لبذر بزور الحروب الاهليه وانتشار تجارة الرقيق في السودان

وحدث ان احد ملوك النوبه الصالحين الذي صرف اغلب مدة حكمه في محاربة مزاحميه في الملك ومدعي العرش تمكن بمساعدة حكومة مصر وتعضيدها فعقد اتحالفا مع قبيلة عظيمه تعرف بقبيلة اولاد كنز وتعاهدوا

مع اشراف قبيلة نو بيه اخرى عظيمة البأس واشهرت القبيلتان معاً حربا ضد جميع المسلمين وقطعوا كل الطريق ما بين اصوان وسواكن فقام يلبغا نائب السلطان من مصر يقود حمله عظيمه من المسلمين قاصداً السودان لقهر اوليك القوم متظاهراً بالمودة الى الملك الحاكم في النوبه فتمكنوا بهذه الخدعه أن انقضوا عليهم فجأة وقامت معركه هائله انجلت عن هلاك قبيلة اولاد كنز عن اخرها وخراب مدينة دنقلا فلم يبق من سكانها أحد على قيد الحياه على ان الفظائع القاسيه الوحشيه التي اتاها المماليك في حملتهم هذه هيجت الدم في عروق سكان اقليم اصوان فاحدثوا ثورة هائلة اخمدها المماليك بهذه الطريقه الوحشيه البربريه أيضاً

ولما كان برقوق بوظيفة نائب السلطان علي بن شعبان الطفل كان حاكم اصوان أميراً جباراً عاتياً فاق بقساوته ووحشيته عن كل امثاله من المسلمين خصوصا في مماملة من يقع تحت يده من افراد قبيلة اولاد كنز فانه كان يمثل به اشنع تمثيل. وارسل للسلطان الطفل اثني عشر رأسا من رؤوس هولاء المقتولين بعد تعذيبهم ومائتي اسير احيا من جهة الكنوز مكبلين بالسلاسل بصفة هديه وبما أن الضغط والمقاومه يظهران القوة الكامنه كما هو الناموس الطبيعي الذي لا مرد له لم يستطع اولاد كنز السكوت على تلك الفظائع البربريه فقاموا اخيراً دفعة واحده ضد ألامير حاكم أصوان ونزلوا على مدينة أصوان يسلبون وينهبون ما فيها وتسلطوا على كل اقليم أصوان ودام نفوذهم عدة سنوات كان فيها هذا الاقليم كأنه ليس من

اقاليم المملكه المصريه .

ولكن قبل قيام أولاد كنز لهذا الغزو كان السلطان الطفل قدتوفى في ربيع أول سنة ٧٨٣ هـ بعد أن حكم أربع سنوات واربعة اشهر خدمه في خلالها الامير برقوق اصدق خدمه . وبويع بدله أخيه زين الدين حاجي وكان عمره ست سنوات ولقب بالملك الصالح (الثالث) وبقي على الاريكه المصريه نحو سنتين ويقول بعض المؤرخين سنة ونصف فقط ثم سئم برقوق من أخفاء مقاصده وطمعه في الملك فخلعه ونفاه في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ هـ واستلم مقاليدالمملكه المصريه رسميا بدله في سنة ١٣٨٢ مسيحيه (٧٨٤هـ) برضى الامرا والخليفه المتوكل بالله والوزراء والعلماء

وكان الصالح الثالث آخر من حكم من مصر سلالة قلاون رأس دولة المماليك الاولى المساة بالبحريه او التركمانيه حيث حكمت مصر نحو ماية ستة وثلاثين سنة كان اولها امرأة وآخرها صبي وقامت بعدها دولة المماليك الثانيه المعروفه بالمماليك الشراكسه التي ابتدأ حكمها برقون كما سيجيء في الفصل التالي وجلس برقوق على العرش المصري ولقب بالملك الظاهر وفي ابتدأ حكمه سمع بمجيء تيمورلنك الفاتح التتري الشهير على حدود سوريا لاجل افتتاحها فحشد جيشا عظيماً من مصر وسافر الى سوريا فاوقف تيمورلنك عند حده ولم يكد يرجع بعد نصرته الى مصر وكان قد قضى نحو ثلاث سنوات على عرشها حتى ظهر له عدو داخلي يزعزع اركان ذلك العرش اذ علم أن الخليفة المتوكل بالله كان يدعو الامراء ويدس

الدسائس لخلعه فاتفق برقوق مع المشايخ والائمه والعلماء على خلع ذلك الخليفة فخلعه وسجن في القلعة سنة ٧٧٨ هـ واعلن العالم الاسلامي بخلعه فبايعوا شخصاً آخر اسمه عمر اخا ابراهيم ولقب بالواثق بالله فلم يعش الا سنة ثم توفى سنة ٧٧٨ هـ فنصب برقوق بدله ابا يحيي ذكريا عمر ابن الخليفه المستنصر بالله ولكنه لم ينل الحظوى في عيني برقوق فخلعه في جماد اول سنة ٧٩١ هـ اكراما لخاطر المتوكل ثم ندم برقوق على خلعه فاخرجوه من السجن واراد اعادته الى الخلافه ورد شرفه اليه ولكن المتوكل لم يسامح برقوق على خلعه من الخلافه ولم ينس هذه الاساءة فلم يقبل بدعوته الى الخلافة . فتواطأ مع مناطش احد الامراء على خلع برقوق فخلعاه بموافقة بقية الامراء ومستشارى الدوله بعد أن حكم ست سنوات وسبعة اشهر وبضعة ايام ثم سجنوه في قلعة الكرك

وفي ٦ جماد آخر سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩ مسيحية) استقدموا السلطان حاجي آخر رجال المماليك البحريه الذي كان قد خلعه برقوق وبايعوه وابدلوا اسمه بالملك المنصور بدل الملك الصالح ولكن لم يتمتع بارتقاء العرش للمرة الثانية الا ثمانية اشهر فقط وحدث من الامور الغريبة في اثناء هذه المدة القصيرة بمدينة القاهرة ما يستحق النشر في بطون التاريخ عن نهاية حكم دولة المماليك البحرية في مصر

وتحرير الخبر انه كان قدمضى في ذلك الحين نحو ستة وثلاثين سنة من عهد قيام الاضطهاد الشديد ضد الاقباط الذي اضطر عدداً عظيماً الى

أن يتركوا دياناتهم المسيحية وقلل عدد الثابتين في ايمانهم وكانت في ذلك الحين تحدث ثورات منشاؤها التعصب ضد الاقباط ومع أن الحكومة كانت وقتئذ تحذر من وقوع هذا التعصب وتقاومه فان مضايقة الاقباط من السلمين كانت دائمة مستمرة

ويبعد عن الظن بان الاقباط الذين اسلموا في سنة ١٣٥٥ مسيحيه كانت لهم يد في تحريك هذه الثورة ضد اخوانهم الاصليين سنة ١٣٨٦ لان عدداً كثيراً من هولاء المرتدين كانوا تحت نير وضغط المسلمين كباقي الاقباط المسيحيين

ولم يذكر التاريخ أن المسلمين اظهروا سرورهم ورضايتهم من هولاء الاقباط المرتدين الا واحد منهم وهو (الجاحد) ميخائيل شعبان فان هذا الرجل كتب المسلمون كثيرا عن مركزه الاداري السامي الذي ارتقى اليه بعد ارتداده بثلاث سنوات . ولما اعلن اسلامه طار المسلمون به فرحا والبسوه حلة ثمينه واركبوه بغلا من بغال السلطان وداروا به في موكب عظيم حول المدينه ثم كافأوه بذلك المركز الخطير السامي في الحكومة

ومن عهد جلوس البطريرك متى على الكرسي المرقسي سنة ١٣٧٥ مسيحيه ظهر الشعور الديني والحماس الوطني بين الاقباط ورجع كثير من المرتدين الى دياناتهم المسيحيه الاصليه

وفي سنة ١٣٨٩ مسيحية دخل القاهره جمع عظيم من الرجال والنساء وصاروا يصيحون باعلا صوتهم قائلين (نحن نصارى نحن نصارى)

وانهم تركوا ديانة الانبياء الكذبة وانهم لم يتركوا دينهم الأصلي الاخوفا من اضطهادهم . وكان غرضهم من هذا الاعتراف العلني أن يكفروا عن خطاياهم السابقه ويتطوعوا للاستشهاد

فاحتاط بهم المسلمون وحاولوا ارجاعهم الى الاسلام ولكن ذهب سعيهم سدى وصاحوا جميعا بصوت واحد قائلين قد اتينا الى هنا لنكفر عن خطايانا ونقدم ارواحنا لتكون قربانا على مذبح فادينا يسوع المسيح فنتال منه المغفرة

فلما أعيت المسلمين الحيلة قصدوا ارهابهم بالتعذيب فابتدأوا بتعذيب الحل ... فوا الكثيرين كقطيع الغنم الى الميدان العظيم تحت نوافذ م... سة الصالح وابتدأوا بقطع رؤوسهم الواحد بعد الآخر . فلم يؤثر ذلك المنظر الفظيع على ثبات النساء في عزمهن وابدين الاصرار حتى الموت فامر احد القضاة الحاضرين احد الحراس أن يسوقوا النسوة بلا امهال الى سفح الجبل تحت القلعه ويقطعوا رؤوسهن . فنفذ هذا الامر على ان الكثيرين من الناس حتى من المسلمين انفسهم لاموا ذلك القاضي على اعدام اولئك النسوة البائسات

ولم يقتصر ذلك الاضطهاد الفظيع على اقباط القاهرة فقط بل تناول ايضا الخارجين عنها . اذ أنه بعد تلك المذبحه العظيمه ببضعة ايام قبضوا على راهب وصاحبه وثلاثة نساء وقطعوا رؤسهم وحرقوهم وكان ذنب الاول وعظه ضد الدين الاسلامي والثانيين لوقوفهم امامه وتشجيعه لينال

نحو الاستشهاد . وفي آخر تلك السنه المشؤومه قبض المسلمون على بطريرك الاقباط وحاخام اليهود والقوهما في السجن وفرضوا على البطريرك فديةمايه الف درهم والحاخام خمسين الف . الا ان قساوة الامير منطش والخليفة المتوكل اللذان كان فى يدهما القوة والسيطره على السلطان الشاب لم تكن قاصره على الاقباط فقط بل على جميع المصريين فادي ذلك الى تذكر الناس أحكام برقوق العادله . فلم تمض سنة عليه في سجنه حتى أستقدموه باجماع الأراء .

فعاد وتربع على عرش الدولة المصريه في ٤ صفر سنة ٧٩٢ هـ وتعلم برقوق هذه المره ان يستأثر بالملك وكان اول عمله مذبحة عموميه حيث بادر حالا الى الملك المنصور وقتله هو وكل من كان على دعوته من أحزابه تخلصا من دسائسهم . ثم اصلح خارجية البلاد ووطد الامن في انحاءها ولعدم ثقته بمقاصد احزاب الخلفا تداخل بينهم واخذ يسير غورهم ويفرق بينهم حتى لا يتحدوا على خلعه

الفصل الثالث والستون

المماليك الشراكسه

سنة ١٣٩٠ ميسيحيه و ١١٠٦ للشهدا و ٧٩٢هـ

جلس الملك الظاهر برقوق اول سلاطين دولة المماليك الشراكسه

للمره الثانية على العرش المصري سنة ١٣٩٠ و٧٩٢ هـ وظل هذه المره عشر سنوات وفى سنة ٧٩٤ هـ اهداه قرا يوسف امير الدوله الماديه مدينة تبريز فرد له برقوق هذا الجميل بهدية ثمينه وفوضه بفتح مايستطيع من البلدن على شرط ان يكون واليا عليها ولكنه اتى بعد ذلك بسنة دون ان يفتح شيئا ومعه احداعوانه فارين الى القاهرة من وجه تيمورلنك لانه ظهر في ذلك الوقت قائدان عظيمان مسلمان كانا يجاهدان في اوربا واسيا لينالا السيادة في هاتين القارتين . وكان احدهما تيمورلنك القائد التتري الشهير والثاني بايزيد ابن مراد رابع سلاطين عائلة الدولة العثمانية التركيه الظافره وهي التي كان قد قارب وقتئذ صبحها البزوغ وسميت بالعثمانيه نسبة لاول سلاطينها عثمان الملقب بالغازي لانه غزا آيالات المملكه الرومانيه الشرقيه . وقبل مجي قرا يوسف وصاحبه الى القاهره كانا قد طلبا من عمانوئيل أمبراطور القسطنطينية وقتئذ ان يؤمنهما فخاف منهما لانه كان فى ريب من نجاته من يد بايزيد الفاتح التركي العظيم لانه تهدد القسطنطينية بدخولها واوشك ان يكون الحاكم المطلق في العالم الشرقي كله لو لم يفاجئه القائد التتري بجيشه من الوزراء فاوقفه عن مقاصده واصبحت اسيا ترتعد بين يدى فاتحين عظيمين شديدي البأس فلما تلاطمت امواج قوتهما هناك اهتزت لهما افريقيا واضطربت مصر من قوة دوي تلاطمهما

وبعث كل منهما وفداً الى سلطان مصر وكانت مطالب الوفدين من

برقوق تختلف عن بعضها اذ طلب وفد تيمورلنك الى برقوق بخشونة وفظاظة ان يخضع له فى الحال وأن يسلم له قرا يوسف وصاحبه احمد ابن عويس الملتجئان اليه اما وفد بايزيد فطلب الى برقوق أن يتعاهد معهم سلميا . وأن يقرهم الخليفه رسميا على سلطنة الاناضول

فطيب برقوق خاطر وفد تيمورلنك ولاطفهم فازدادوا فجورا فأمر بقتلهم . واجاب طلبات وفد بايزيد وعقد المحالفه معه

فشق على تيمورلنك قتل سفرائه لانشغاله وقتئذ في تجريد حملة مهمة لفتح الهند مما اخره عن الانتقام لهم ويقول بعض المؤرخين أنه ساق جيشه للانتقام من مصر فمر بالرها وحلب وفتحهما في طريقه لكنه قبل وصوله الى حدود مصر توقف لغرض في نفسه لاجل تمهيد افتتاح مصر بطريقه اخرى

على أن برقوق كان دائما متيقظا نخاف عاقبة قتل سفراء تيمورلنك فحصن البلاد واكثر من الجند والسلاح واستعد للهجوم والدفاع وتأهب لمجيء العدو وكان يتحين الفرص لاصلاح حال مملكته فنظم الحكومة بكيفية دلت على مقدرته في تكوين الحكومات المنظمه على طرق امتن من حكومة القوات الاستبداديه التي حكم بها مصر رجال دولتى المماليك البحريه والشركسيه

وقلل ضرائب الحبوب والغى ديوان العوائد التى كانت تؤخذ على الاثمار والفواكه الوارده بمينابولاق الدكرور وكان يهب المساعدات للعلم

والعلماء المسلمين ويجعلهم تحت رعايته ويتصدق كثيراً على الفقراء

وبنى مدرسة كلية دعاها المدرسة الظاهرية نسبة له ومدينة القاهرة مديونة له بأثرين من آثارها العظيمة اولهما جامع يعرف الى الان بجامع السلطان برقوق وكان قد بناه ليجعله قبر ابنته وهو بجوار جامع الملك الناصر في شارع النحاسين . وثانيهما مقام لعائلته في النقطة المعروفة بقبور الخلفاء وكان بين مشاهير رجال العلم والادب في ايامه المؤرخ المعروف بتدقيق كتاباته التاريخية الحقيقية وهو اشهر مؤرخي الاسلام على الأطلاق المعروف باسم المقريزي وكان هذا المؤرخ من سلالة العرب الاصلية وقد صرف اغلب اوقاته في الدرس والمطالعة في احوال شؤون جميع الامم فتضلع من علم التاريخ وكان لمصر الحظ الاوفر من كتاباته حيث وصف احوالها وصفاً وافياً

ولد هذا المؤرخ العظيم في مدينة القاهرة سنة ١٣٦٤ مسيحية وكانت محبته وميله الطبيعي الى طلب العلم السبب الاكبر في انتصاره على صعوبة البحث في المواضيع التاريخية وادق الحقائق الدينية وتاريخ سلسلة الشعوب والقبائل وكان يتوق لتلقي العلم والاطلاع على الحقائق التاريخية من الاقباط واليهود مما يدل على انه فطر على الميل المجرد لاكتساب العلم بلا مراعاة للتعصب الديني كما كان شأن غيره من المسلمين. ولو أن تاريخه عن الاقباط تشم منه رائحة الكراهه من مسلم يتظاهر في كتابته باحتقار تلك الكراهة لهولاء القوم ولكنه على كل حال اعترف عند

تدوين الحقائق التاريخية بذكاء الشعب القبطي

وذكر بعض تفصيلات مهمة عن الاضطهادات التي قاساها الاقباط البؤساء

وكتب كثيراً في علم الفقه والتاريخ واللاهوت ووصف البلدان واسهب في وصف حكم القاهرة الاهلي . وكان ذو سلطة رسمية على جامع عمرو القديم في الفسطاط وجامع الحاكم في القاهرة واحد معلمي كلية معاويه وقد شغل وظيفة قاضي مدة من الزمن

ولما ارتقى برقوق سنة ١٣٩٠ على العرش المصري كان المقريزي في مقتبل العمر لا يتجاوز السنة السادسة والعشرين ولا بد أن يكون قد مدحه عند عودته للسلطنه في المرة الثانية ورحب برجوع البلاد الى حكم رجل عاقل مفكر ارقى كثيراً من اولئك المماليك الذين حكموا البلاد بالسلب والحرب والاضطهاد

وكان برقوق ميالا لتقاليد عشيرته كباقي المماليك الامراء فصرف مبالغ وافرة في شراء المماليك (الصبيان) الاوروباويين وجمع منها آلايات في خدمته الخصوصية يركن اليها عند الحاجة . وكان له ولع خاص في اقتناء الاسلحة والخيول استعدادا للحرب . ونظم الجيش المصري بطريقة جديدة اكسبته قوة ومنعة فبعد ان كان فرقا تشتغل كل فرقة منه تحت قيادة امير من الامراء فتنهب وتسلب البلاد التي تحل بها . جمع هذه الفرق تحت سلطة واحدة وهي قوة الحكومة الرئيسية التي رتبها كما يأتي :

اولا — (اتابك العساكر) وهو قائد عام للجيوش المصرية

ثانيا — (رأس نوبة الامرأ) وهو رئيس الامرأ

ثالثا — (امير الذلوه) وهو رئيس الطوبجيه

رابعا — (امير المجلس) وهو الرئيس الاكبر للبلاط

خامسا — (امير الباخور) وهو رئيس السواري

سادسا — (دوادار) وهو حامل ختم السلطان وقاضي العدليه

سابعا — (رأس النوبه الثاني) وهو رئيس الامرأ الثاني

ثامنا — (صاحب الحجاب) وهو اشبه برئيس التشريفات

تاسعا — (النائب) وهو محافظ القاهرة

وتكون من هولاء التسعة رؤسا حكومة رئيسية عليا خاصة وقد القى السلطان برقوق في يدهم مقاليد الحل والربط اوكانت كيفية حكمهم انهم يجتمعون بالخليفه والامرأ والقضاة وحكام المدينه ويشاورونهم في الشوءون التي يعرضها عليهم السلطان وهو صاحب السلطة في تنصيبهم او عزلهم — فهم بهذه الكيفية اشبه بمجلس تشريعي اعلى — وقد اعطى برقوق السلطة لهذا المجلس في انتخاب سلطان جديد في المستقبل اذا وقع تنافس وتزاحم على تولي الملك

وفي سنة ١٤٠٣ مسيحية (٨٠٦ هـ) حلت بمصر مجاعة شديدة ويقول المقريزي في كتابه عن تلك المجاعة انه تصادف وقوع احدي بناته في مرض وقد اشترى لها كتكوتين دفع ثمنهما اربعة وسبعين قطعة من الفضة

ولم يحدث اضطهاد وحقيقي للاقباط في مدة حكم برقوق للمرة الثانية الا دفعه واحده

وتفصيل ذلك أن احد الامراء لشدة تعصبه تعهد بهدم كنيسة قبطية كان الاقباط يشتغلون فيها بعمل خمر التقديس المعروف عندهم بالابارك . فسرق ذلك الامير ٤٠ الف جره من الخمر المذكور وامر بكسرها امام باب زويله في الميدان الذي تحت القلعه وسكب الخمر احتراماً لناموس الديانه الاسلاميه التي تحرم شرب الخمر

واقترح في المجلس الاعلى اضطهاد الاقباط . ولكن برقوق كان أعقل من أن يصادق على مشروع كهذا يعتبر خرقاً لمبداء الحكومة الدستوريه وامر بقتل رجل اعلن اعتناقه الدين الاسلامي بعد ترك دينه المسيحي

وبينما كان مشتغلاً بتنفيذ مشروعاته اصيب بداء النقطه ومات في يوم الجمعة ١٥ شوال سنة ٨٠١ ﻫ وهو في الستين من عمره فأسف عليه المصريون اسفاً شديداً لعدله ويقظته ورفقه بهم

وبعد وفاته بايعوا ابنه البكر فرج زين الدين الملقب بابي السعادة وكان عمره ستة وعشرون سنة ولقبوه بالملك الناصر وتمت مبايعته بلا جدال ولا نزاع وفي اول حكمه قام لقمع الثوره التي أثارها الاتابك يطمش وتنم الفرساني حاكم سوريا بتواطوءمع بلبغا السالمي حاكم حلب فهزمهما وقتلهما مع اعوانهما ولكنه لم يكد ينجو من هذه النازله حتى داهمه ما هو اشد وطأة واصعب مراساً الا ان تيمورلنك الفاتح التتري الشهير

بعد أن انتهى من حروبه وانتصاراته في الهند وبغداد وسيواس وملاطيه سنة ٨٠٣ هـ اعاد فتح حلب وحمص بعد حرب شديدة نخاف فرج وفر الى مصر فجمع رجال حكومته واستعد للدفاع عن البلاد وفي اثناء ذلك كان تيمورلنك يحارب مع بايزيد التركي بعد فتح حلب فسكن روع فرج لاشتغال تيمورلنك عنه ولكن مالبث أن سمع بانتصار تيمورلنك على بايزيد في الاناصول واسره سنة ٨٠٤ هـ في واقعة انقره التي كانت القاضيه على القوات العثمانية . نخارت قوى فرج وقنط من الفرج وبيناهو في حيرته جاءه وفد من قبل تيمورلنك ومعهم فيل هندي لفرج وقد اخبروه أن مطلب قائدهم العظيم من سلطان مصر هو أن يعترف بالخضوع له وبنفوذ سلطنة التتر على مصر ويبعث اليه باحمد ابن عويس وقرا يوسف اللذان كانا محتميان عند والده برقوق ورفض تسليمهما للوفد الاول الذى قتل افراده من مدة عشر سنوات . فلم يسع فرج الا الاذعان لقضاء الله والتزم بامضاء فرمان سيادة التتر على مصر واقر انه قائم بحكم مصر بالنيابه عن التتر فاشترى سلامة البلاد بهذا الاعتراف واصبحت مصر في حوزة التتر . ولكن ابي فرج أن يسلم احمد وقرا يوسف وقال انهما احتميا به وبوالده وحقوق الضيافه تمنعه من تسليمهما لعدوهما فيكون هو الجانى عليهما ولكنه وعد بسجنهما وسجنهما بالقلعه ارضاء لتيمورلنك وفي سنة ٨٠٦ هـ شرقت مصر لبطؤ الفيضان في النيل فهلك في مدينة قوص وحدها ١٧ الف نفس ومدينة اسيوط ١١ الفا وغير ذلك في مدن اخرى

وفي ١٧ شعبان من السنة التالية ادرك تيمور القضاء المبرم في اوترار وتنازع أبناءه على سلطنة ابيهم فاغتنم فرج تلك الفرصه للتخلص من سلطة التتر وافرج عن ضيفيه المسجونين فعادا لبلادهما وتأهب لاسترجاع سوريا الا ان المماليك الامرأ بعد وفاة تيمورلنك بسنتين ضيقوا عليه في قصره لانهم حسبوا خضوعه للتتر خيانه وجبنا وايقنوا بعدم صلاحيته للملك فخلعوه وتنازل لهم هو ايضا عنه حفظا لحياته وذلك في ١٦ ربيع اول سنة ٨٠٨ هـ بعد أن حكم ٦ سنوات وخمسة اشهر و١١ يوم . وبايعوا اخيه عز الدين عبدالعزيز

ثم خرج فرج من قصره واختفى في مكان غير معلوم ولم يمكنهم معرفته فظنوه قتل ولكن لم يمض شهران على تولية اخيه حتى ظهرت للمماليك خيبة ظنهم بعبد العزيز فملوا منه وندموا على اسقاط فرج فلما سمع بذلك ظهر من مكمنه ففرح به الناس ورجال الدولة واسترجع السلطنه ثانياً في جماد آخر سنة ٨٠٨ هـ ونفى اخوه عبدالعزيز الى اسكندرية فعاش فيها اشهراً قليلة حتى توفى في ٧ ربيع آخر سنة ٨٠٩ هـ ولكن بعد أن عاد فرج الى منصبه ثانية ظل غير قادر على استرجاع شهرته التي افقدها بقبوله شروط تيمورلنك القاسية . ولكنه عزا دمشق وغيرها من مدن سوريا واهتم براحة الرعية فساد الامن واطمأنت القلوب واكتسب بذلك اعادة ثقة الناس به الا انه صادفته بعد ذلك باربع سنوات ثورة دينية ذهبت بخيانه

وتفصيل ذلك انه في سنة ٨١٣ هـ قام أحد مماليك الظاهر برقوق وأخذ يدس الدسائس ليتوصل لان يكون سلطانا لمصر وهذا المملوك هو ابا نصر الملقب بالشيخ المحمودي الظاهري وكان الملك الظاهر برقوق قد عتقه ورقاه الى رتبة امير ووعده بوظيفة عسكرية سامية . وكانت دسائسه انه استعان بالخليفة المستعين بالله الذي تولى الخلافه بدل المتوكل . وكان الخلفاء العباسيون منذ استئصال شوكتهم من بغداد وهروب الخليفة منها اواحتمائه عند بيبرس في القاهرة قد فقدوا كل سلطتهم السياسية وصارت الرعيه لا تغيرهم الا في حد السلطة الدينية التي كان لهم حق الرئاسة العليا بها على جميع العالم الشرقي وكما اصبح البابا في الايام الحاضرة في سلطته الدينية على العالم الغربي . وكان المسلمون يلقبون الخلفاء بائمة الدين . فقام الامير الشيخ المحمودى بجداء المعهود وقال للخليفة المستعين بالله انه بحيله سياسية عظيمة يمكنه أن يعيد اليه السلطة الزمنية تماما ويسترجع اليه قوة الخلافة السابقه واغراه بقوله (أن الناس ميالون اليك بكليتهم ومستعدون لمبايعتكم والخضوع لاوامركم) ولما كانت انفس البشريه مياله بالطبع لحب السلطة والسيادة تحركت تلك الاميال في قلب الخليفة ووافق الشيخ المحمودي على ما اقترحه عليه . واتفقا على تدبير تلك الدسيسه اثناء وجود السلطان فرج في دمشق . فاوقد الشيخ المحمود شرار الثورة في الخفاء باسم الخليفة المستعين بالله ثم اتفق مع الخليفة على استقدام السلطان من دمشق لكي يخمد تلك الثورة

ويطفيء نارها فلم يوافقهما الامراء على استقدامه فانفذا اليه يطلبان منه التنازل عن الملك فاجاب أن جوابه على ذلك هو حد السيف وارتاب ايضاً الامراء في امر الثورة وقالوا أن الواضع لجرائمهما هما المحمودي والخليفة ولا سيما بعد أن دوى صدى لعنة وحروم الخليفه الاعظم في انحاء المملكة ولكن لما كان للتأثير الديني في النفوس شأن عظيم اعرض الناس عن مساعدة الامراء وازعنوا لاعلان الخليفة عن خلع فرج اذا صدر خطاً شريفا بتوقيعه فجاء تأثيره على الناس اقوى من حد السيف وهذا نصه (انا نصرح بخلع فرج عن سلطنة مصروسوريا والسلطان الحقيقي عليهما الآن هو الخليفه سلالة النبي صلعم ونائبه فطوبى لمن ازعن له وويل لمن اعرض عنه والسلام)

فهذا القرار الموجز اوجدنا تأثيراً غريباً ولما داروا به بين الجيوش اعرضوا عن السلطان فرج وقابل العالم الاسلامي ذلك النباء باندهاش وصاروا مضطرين قهراً للخضوع لسلطة الخليفة الزمنية . ولما لم يبق نصير للسلطان فرج حاول الفرار فلم يفلح اذ قبض عليه المماليك وقادوه امام الخليفة فانتحل له الخليفة ذنبا يستوجب المحاكمة فقال انه لكثرة ما انفقه في محاربة التتر اضطر أن يفرض ضرائب فوق العادة على الاهالي فساء حالهم ورفعوا اليه (أي الى الخليفة) ومجلس الائمه والفقهاء عرائض الشكوى بانه خرب البلاد وافلس الاهالي واعظم من ذلك انه تمرد على الخليفة ظل الله على الارض فكان ذلك ذريعة للحكم على فرج بالاعدام

فقتلوه في ٢٥ محرم سنة ٨١٥ هـ الموافق ٧ مايو سنة ١٤١٢ مسيحية خارج اسوار دمشق وتركوا جثته ملقاة على الارض وبعد مقتل فرج اصبحت السلطه الروحية والزمنيه بيد الخليفة المستعين بالله فاخذوه باحتفال مهيب بين التراتيل والاناشيد الاسلامية وداروا به في وسط القاهرة حتى وصلوا الى قصر السلطان في القلعة فبايعه هناك الشعب والامراء وقواد الجيوش وحلفوا له يمين الطاعة ولقبوه بالملك العادل . فلما استلم مقاليد الاحكام وظف الشيخ المحمودي رئيسا لشوراه ولقبه بالوزير الاعظم وهذا غاية ماناله بعد جهاده في تدبير الفتن والدسائس واسترجاع السلطة الزمنية للخليفه

واول شيء قام به هولاء المحسون للخليفه الديني أهلاك الاقباط واليهود معا . فتعين ثلاثة عمال من كبار الموظفين المسلمين ليقوموا باحصاء عدد هولاء العنصرين وحصر منابع ثروتهما وانشأ بامر الخليفه بالعماره الملاصقه لجامع الحاكم مكتب تسجيل مخصوص لهذا الغرض يقيدون فيه اسماء مواليد ووفيات هذين العنصرين ثم قسموا اليهود والاقباط الى ثلاثة طبقات فيدفع اكبار اغنياؤهم كل فرد عن نفسه اربعة دنانير جزية سنوية والطبقة الثانية دينارين من الطبقة الثالثه وهم الفقراء دينارا واحدا .

وحكم الخليفه نحو ثلاث سنوات تقريباً ولو أنه ضايق الاقباط واليهود ولكنه اصلح احوال المسلمين وابطل رزائلهم وتعنتهم وعاقب المعتدين منهم ليعيد الامن ويظهر لياقته لمركزه وانصف المظلومين وبذل

العطاء فاحبه الاهالي ولكنه ضغطه على المعتدين قلل من شهرته واوجب اعراض المماليك عنه .

اما الشيخ المحمودى فكان فى اعتقاده انه لم يقم بتلك الثوره خدمة للخليفه بل لاغراضه التي لم ينلها ورأى انه خرج المعمعه بصفقة المغبون واصبح آله في يد الخليفه فاضمر له الشر وعزم على خلعه ولكنه استعمل الحزم والتأني واغتنام الفرص خوفا من فشله في سياسته فوطد علاقاته مع الامرا واقنعهم بطريق البساطه والاخلاص بضعف الخليفه وخموله فضلا عن كونه ليس مصريا فاستمال قلوبهم واشتد ازره بهم وقويت شوكته ثم شكي للخليفه من منصبه فولاه نيابة الملك في ٨ ربيع اول من تلك السنة فصار اقدر على تنفيذ ما ربه ثم كثرت احزابه واعوانه واصبحت ازمة البلاد في قبضة يده فطلب من الخليفه أن يمنحه لقب ملك ويشاركه في السلطنه فاجابه الى طلبه خوفا من نفوذه ولقبه بالملك المؤيد ولكنه لم يقنع بذلك فاراد اتمام بغيته والانفراد بالسلطة فحجر على الخليفه وحبسه في قصره . وكان الخليفه قد احسن بزيادة نفوذ المحمودي والخطر المحدق به منه واستعمل سلاحه الديني الذي كان سببا لاعطائه السلطة الزمنية ولكنه وجد هذا السلاح غير ماضي بل عديم التأثير بالمره فاصدر حكما بخلع الشيخ المحمودي بخطه الشريف كما فعل عند خلع السلطان فرج ولكن هذه الحيل السياسية الممتزجة بالدين لم تفلح فهزأ الشيخ المحمودي والامرا بذلك الحرم وقبضوا على الخليفه وخلعوه بحجة انه تمرد على

رفيقه في السلطنه (الشيخ المحمودي) وسجنوه ثم نفوه الى الاسكندريه سنة ٨١٨ هـ

واقاموا اخاه داود خليفه مكانه ولقبوه بالامام المعتضد بالله وانيط بالرئاسة الدينية فقط كما كان اخوه قبل نجاح المحمودي في دسائسه

اما المحمودي فخلا له الجو وتربع على عرش السلطنة المصرية وسعى في اكتساب ثقة الاهالي واتبع خطة الخليفه المستعين فانصف المظلوم وساعد الفقير فامنت الرعيه وسعدت البلاد وبقي ذلك الحكم العادل نحو ثمان سنوات وخمسة اشهر

وذكر المؤرخون المسلمون اسم الملك المؤيد (المحمودي) مقرونا بالحسنات وكان معاشراً للمقريزي فرافقه الى دمشق مع الحمله التي قامت لمحاربة فرج وكان المقريزي يتقلب في عدة وظائف مهمة في حكم الملك المؤيد . ولكنه مع كل ما ذكره المؤرخون عن حسناته فانهم لم ينسوا تدوين اخبار مضايقته وضغطه على الاقباط حيث صرح لمماليكه باضطهادهم ومعاملتهم بالقسوه . وقائد الحرس الذي كانت وظيفته قاصرة على تلقي اوامر السلطان اغتصب من الاقباط مبالغ عظيمه من المال فضلا عن ضريبة الخمر التي فرضه عليهم ليفرق على جنده وكانت تلال وخرائب بابليون عبارة عن مخازن ومستودعات لتجار الخمر الاقباط لانه بابليون كانت وقتئذ لم تزل آهله بالسكان الاقباط . فامر قائد الحرس جنوده أن يحتلوا ذلك الحي كانه مدينة اجنبيه وصرح لجنوده بنهب الخمر اللازمة لهم

ولما كانت الديانة الاسلامية تحرم شرب الخمر فلم يمسوه بل امر القائد بتكسير الاواني الملآى واتلاف الباقي وامر جنوده بالاستمرار في السلب والنهب فاضطر الاقباط الى ارضائهم بمبالغ عظيمة من المال حتى تركوا لهم المدينة

وكان البطريرك متى قد توفى اثناء حكم الخليفه المستعين بالله . واخلفه على الكرسي المرقسي رجل من اهالي الجيزة يدعي غبريال . فتولى رئاسة الكنيسة ثمانية عشر سنة على أن اغلب تلك السنين وأن كانت مملوءة بالمتاعب والاضطهادات الا انه تمكن فيها من وضع كتاب الطقوس القبطيه بالرغم فضلا عن اعماله الاصلاحيه المفيده وكان غبريال علمانيا وكاتبا من كتبة الحكومه قبل أن يدخل في خدمة الكنيسه ويصبح بطريركا لها فكان ارتقاءه لذلك المركز الديني العظيم مجلبة احتقار واضطهاد . وكان فقيراً يعتمد في الحصول على قوته الضروري على احسان الشعب وكان اذا اراد أن ينتقل من مكان لآخر يمشي على اقدامه وبالاجمال فان معيشته كانت مثل افقر واحد من أبناء رعيته

وبعد أن كان دخل البطريرك يتناقص شيئا فشيئاً أخذ يتزايد رويداً رويداً بما كانت ترسله الحبشه لامها الكنيسة المصريه من الاعانات ولكن لما ارتقى غبريال بطريركا عليها كفت الحبشه عن ارسال تلك الاعانات بحجة أن البطريرك غبريال كان رجلا علمانياً ومستخدما في الحكومه فهولاء

يليق لهذه الوظيفه (١)

وفي ايام حكم الشيخ المحمودي (الملك المؤيد) اعيدت احكام الاضطهاد الواضع على الاقباط

وفي سنة ١٤١٨ مسيحيه (٨٢١ هـ) دعي البطريرك غبريال للحضور امام مجلس الحكومه الاعلى (وهو المجلس الذي انشأه السلطان برقوق) وهدده اعضاء ذلك المجلس بالموت لان الاحباش الذين تحت سلطته الدينيه يضايقون التجار المسلمين النازلين في بلادهم

وبعد مناقشات طويله اقروا كما هي العاده اوقات الاضطهاد على طرد كل الموظفين الاقباط من خدمة الحكومه كانت تعتبر شرفا عظيما عند المصريين ولا يزال اثر ذلك الاعتقاد باقياً حتى الان. وابتدأوا هذا العمل بقبطي الفضيل كان سكرتير للوزير الاكبر (ناظر النظار) فصدر امر السلطان بسجنه وتعذيبه . ثم عروه من ثيابه وصاروا يجرونه في شوارع القاهره وحوله خلق عظيم من رعاع المسلمين وامامه موظف مسلم يصرخ اثناء سيره قائلا (هكذا سيحل بكل موظف قبطي في خدمة السلطان)

ومن كان ينتظر وقوع ذلك كما حصل في القرن السابق وكانت النتيجة أن اسلم كل الاقباط الموظفين في دوائر الحكومة ولكن أقباط ذلك

(١) نحتمل ان عدم لياقته ترجع الى كونه كان متزوجاً ومن أعوايد الاقباط ان لا يصح بتاً رجل من ذوي الوجاهه بلا زوج ولا يصح انتخاب رجل ليكون بطريركا يكون قد تزوج قبلا

الجيل الذين حجدوا ايمانهم كان المساعد لهم على ذلك الظروف حيث كانت كنيستهم واقعه تحت تصرف البطريرك كيرلس الممقوت واعماله الشريره. ولو أن أبنا الاقباط الذين كانوا على عهد البطريرك متى وغبريال تعلموا الترفع من ذلك السلوك الرديء

واختفى باقي كبار الموظفين الاقباط في منازلهم حتى يتضح للمسلمين أن حكومتهم لا تستغني عنهم . ثم ارتد بعد ذلك بعضهم لشدة المضايقه والاضطهاد وخصوصا ليسهل عليهم بعد اعتناقهم الاسلام أن ينتقموا لا نفسهم من مضطهديهم .

وفي تلك السنة سرقت رأس ماري مرقس كاروز الديار المصريه من الاسكندرية في مركب ايطالية فكانت اعظم مصيبة حلت باقباط مصر وفي ذلك الوقت فجعت البلاد المصرية بارزاء كثيرة توالت عليها وهي القحط والمجاعـه والوبأ فامر المؤيد بالحج الى قبر برقوق فتوجـه بنفسه في مقدمة الحجاج الذين كانوا يحملون القرآن وقام اليهود باحتفالات عظيمة دينية وكذلك الاقباط حيث اشترك جميع سكان البلاد المصرية بالصلوات والتضرع الى الله سبحانه وتعالى بان ينقذهم من شر هذا الطاعون.

وبني الشيخ المحمودي (المؤيد) في مدة حكمه جامعا جميلا يدعى جامع المؤيد بالقرب من باب زويله وتوفى في ٩ محرم سنة ٨٢٤ هـ وبعد وفاته عادت القلاقل وجرت الفظائع الدمويه تزاحماً على العرش فتولى بعده ثلاثة سلاطين وخلعوا في خلال سنة واحدة اولهم نجل المحمودي

شهاب الدين احمد الملقب بالملك مظفر وثانيهم هو المظفر سيف الدين تتر الملقب بالملك الظاهر وهذا توفى في شهر الحجه وبويع ناصر الدين محمد ولقب بالملك الصالح وهو ثالث من حكم في خلال هذه السنة فخلعه وصيه سيف الدين برس باى بعد أن حكم اربعة شهور وكان برس باي مملوكا رفعه سيده الملك الظاهر تتر الى رتبة الامراء فنجح في تأسيس الملك لنفسه ورفع مقامه وبقي محافظا على مركزه بحسن سياسته فظل قابضا على العرش حتى الممات

الفصل الرابع والستون

الفتح العثماني

سنة ١٤٢٢ مسيحية و ١١٣٨ للشهداء و ٨٢٥ للهجره

اعتلى برس باي عرش الدوله المصريه في ٨ ربيع آخر سنة ٨٢٥ هـ الموافق سنة ١٤٢٢ مسيحية ولقب بالملك الاشرف . واصله مملوكاً كما تقدم فلما احبه سيده الملك الظاهر تتر فوق عن باقي مماليكه اعتقه ورقاه وجعله وصيا على ابنه

واستبشر الناس خيراً به لانه في أول سني حكمه تزايد وفاء النيل فعمر البلاد بخيرات عميمه وكثر محصول الغلال والحبوب فشبع الفقراء واتخذوا ذلك فالا حسنا بتولي سلطانهم الجديد وقد صدق فالهم اذ تمتعت مصر بسلام وهناء داخلي مدة السنتين الاوليتين من حكمه لانه كان

كالشيخ المحمودي حكيما رحيما برعيته وقد رمم عدة مدن ومبان وشاد في القاهرة جملة آثار جميلة منها جامع الاشرفية بسوق العطارين بناه سنة ٨٢٦ هـ . ووطد دعائم سلطانه بحسن سياسته

ولما كان دوام الحال من المحال عادت الثورات المعتاده في سوريا ففي سنة ٨٢٧ هـ ثار الامير بنيق النجاشي والي دمشق فقام وضربه ضربة أخمدت انفاسه وخمدت الثورة في الحال وكان ذلك بمساعدة أمير زنجي اسمه عبد الرحمن فولاه برس باي بعدمعاقبة الثائرين على سوريا بدل النجاشي مكافأة له وهذه الثوره كانت أول وآخر ما حدث من القلاقل المصريه في أيامه ومما يستحق الاعتبار نجاح برس باي الباهر في حملاته الصغيرة المتتابعه ضد الافرنج فقد تغلب عليهم واخضع جزيرة قبرص لسلطته وارغم ملكها يوحنا لوسينيان الثالث بالخضوع له وجعله من اتباعه وولاه سلطنته المصريه بعد أن فرض عليه الجزيه . فقبل بذلك واصبحت قبرص مستعمره مصريه في ذلك الوقت

وبعدئذ طلب ملك قبرص من مولاه برس باي سلطان مصر أن يؤجر له فرقة من مماليكه المسلمين ليحارب الامرا المسيحيين لشجاعتهم وبأسهم في الحروب لان شهرة هولاء المماليك المسلمين كانت قدطبقت الافاق ولا سيما في اوربا وقد أرسل الملك المذكور قائد فرسانه سفيرا ليبلغ الحكومة المصرية هذا الطلب ويرجو السلطان اجابته — وكانت قد كثرت الطلبات على برس باي بطلب هؤلاء المماليك وانهالت عليه

الاموال لاجل استخدامهم في الحروب اضعاف ماتعهد به مع الملك يوحنا الثالث الذي لما رأى ذلك أعلن احتماءه تحت لواء خصم برس باي وهو مراد الثاني سلطان العثمانيين فان هذا الاخير بعد أن فشل اخذ يقوي مركزه شيئا فشيئا حتى أصبح خطراً على السلطنة المسيحية في اوربا والسلطنه الاسلاميه في مصر والشام . ولكن برس باي عمل بدهائه على عقد عدة معاهدات سلمية مع السلطان مراد ابن محمد تدل على عظيم شوكة برس باي فالتزم السلطان مراد أن يخابر برس باي بطرق سلميه بشأن ملك قبرص ويتوسط له بالعفو عنه لعصيانه واعلان احتماءه بالعثمانيين ثم ارسل سفيراً برسالة الى الحكومة المصريه يطلب فيها عدم مخاطرة السلطان برس باي بارسال مماليكه لملك قبرص كما وعده ففي الحال أصدر برس باي امره لسفير ملك قبرص بالرجوع لبلاده دون أجابة طلبه ثم ارسل المماليك (ولم يذكر التاريخ اذا كان برس باي رد المال لملك قبرص ام لا)

وفي سنة ١٤٢٧ مسيحية (٨٣٠ هـ) توفى البطريرك غبريال وظل الكرسي البابوي خاليا عدة شهور وكان يسوس ادارة الكنيسة راهب من دير طره يدعى ميخائيل ويقول المقريزي أن ذلك الرجل انتخب بطريركا على الاقباط ثم خلع الا ان اسمه لم يدرج في كشف بطاركة الاقباط . ولا شك انه كان لذلك الراهب حزب قوي من الاقباط يعضده في الانتخاب لانهم كانوا ميالين بحسب تقاليدهم القديمة لانتخاب

بطاركهتم من الرهبان ولكن اغلبية الاصوات فازت بانتخاب من يدعى يوحنا (ابو الفرج) . وكان مشهوراً ومحبوبا عند قومه وكان يشغل وظيفة كاهن اول لمدرسة قبطية عظيمة في المكس

ويقول المقريزي انه في سنة ١٤٢٩ (٨٣٢ هـ) اكتشفت دسيسة غريبة . وهي وجود معاهده سرية بين الافرنج (الصليبيين) وامبراطور الحبشة لاشهار حرب دينية مقدسة لمحو الديانة الاسلامية من العالم وكيفية ذلك أن يزحف امبراطور الحبشة برجاله على مصر والسودان براً من الجنوب والافرنج بحراً من الشمال . وكان السفير والنائب عن الحبشة في اوربا الذي تمت على يده تلك المخابرات تاجر مسيحي سافر من الحبشة بطريق السودان ومصر ثم سافر منها بحراً الى اوربا وكان متنكراً في طريقه مدعياً انه رجل مسلم وتمت مخابراته السياسية بنجاح عظيم وتقرر أن تلبس الجنود في ذلك الحرب الصليبي لباسا مطرزاً فيه شكل الصليب ومنقوشاً عليه بحروف ذهبية اسم الهاتي (١) وبعد اتمام المخابرات وعودة ذلك السفير العظيم الى بلاده وصل الى الاسكندرية نخانه احد عبيده فقبض عليه قبل أن ينزل الى البر وجأوا به امام السلطان برسباي ومعه راهبان حبشيان وعدد عظيم من تلك الملابس العسكرية المطرزة التي اتفق مع الافرنج عليها كما تقدم

فعقد قضاة مصر جلسة لمحاكمة ذلك التعيس وحكموا عليه بالاعدام .

(١) احد القاب امبراطور الحبشة

ولكن قبل اعدامه اركبوه جملاً وساروا به بين تهليل وتكبير في شوارع بولاق والقاهرة والفسطاط ومشي امام الجمل احد المسلمين كان يصرخ باعلا صوته (هكذا يعامل كل من يقدم سلاحاً لاعدائنا)

ثم قطعوا رأسه بالقرب من كلية الصالح امام جمع عظيم

اما امبراطور الحبشة فخارت عزائمه لعدم عودة سفيره اليه

وتوفى الملك الاشرف برس باي يوم السبت ١٣ ذي الحجة سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٨ مسيحية) في السنة الستين من عمره بعد أن حكم ١٧ سنة و٨ اشهر و٦ ايام وهو ما لم يتمتع به احد من السلاطين المماليك . وكانت مصر في ايامه سعيدة خارجا وداخلا . ويقول المؤرخون انه كان اجدر الملوك الشراكسة بالمدح لعلو همته وتدربه على ادارة الاحكام وفي عهده كانت الحكومة المصرية على غاية النظام فأمن الناس على ارواحهم ولاسيما العلماء كالمقريزي الذي كان لم يزل على قيد الحياة طول مدة حكمه فحماه من اعدائه وشجعه في اعماله الادبية وقيل أن في مدة حكمه انيرت شوارع القاهرة بالمصابيح ليلا وخليت من المتشردين وقطاع الطرق والوقائع الدموية وعم الامن في كل ارجائها ومما يذكر لبرس باي مقرونا بالثناء ويدل على سمو مداركه انه ابدل جميع التذللات والتعطفات التي كانت تقدم للسلطان بتقبيل اليد فقط

وبويع بدله ابنه جمال الدين يوسف الملقب بابي المحاسن ولقب بالملك العزيز ولكنه لم يبق على عرشه اكثر من ثلاثة شهور حيث تمرد

الامرأ المماليك عليه كعادتهم عند تولي ملك ضعيف وتخاصمه ايضا مع سيف الدين جقمق اتابك جيشه فانتهي الخصام بعزل جمال الدين ومبايعة جقمق بدله في ١٩ ربيع اول سنة ٨٤٢ ﻫ وكان جقمق اذ ذاك في التاسعة والستين من عمره ولقب بالملك الظاهر ومع جهاده العظيم للحصول على العرش المصري فانه قد نال مبتغاه لحسن حظ البلاد دون حدوث وقائع حربية أو قلاقل داخلية

وبعد ارتقائه على العرش المصري سنة ١٤٣٦ مسيحية عقد مجمع فلورنس المشهور وكانت نتيجة انعقاده عودة اتحاد كنيستي اليونان والرومان ولكن لم يلبث ذلك الاتحاد الا قليلا ثم عادا الى الانشقاق . وكانت الكنيسة المصرية ايضا قد ارسلت نائبا عنها لحضور ذلك المجمع يدعى يوحنا وهو رئيس دير انبا انطونيوس المشهور ولكنه وصل الى فلورنس متأخراً بعد أن خرج مندوبو الكنيسة اليونانية من المجمع فتحصل يوحنا هذا على قرار من اعضاء المجمع بقبول كنيسته المصرية ضمن ذلك الاتحاد العظيم في جلسة المجمع القادمة . ولكن رفضت الكنيسة اليونانية شروط الاتحاد التي صادق عليها مندوبيها في مجمع فلورنس . وظهر بعد ذلك في مصر ان السعي لذلك الاتحاد الكنائسي لم يكن له تأثير يذكر ولم يهتم له الاقباط كثيراً مع انه يوجد روح الشعور الرقيق بين الكنائس (١)

(١) يقول مورخو الرومان الكاثوليك أن ذلك الاتحاد الوقتي كان المقصود منه عودة خضوع الكنيسة القبطية الى سلطة بابا روميه (كما كانت خاضعة

وفي سنة ١٤٤٠ م مسيحية دهم مصر وباء هائل

وفي سنة ٨٤٦ هـ توفى الامام المعتضد بالله فبايعوا أخاه بالرحم ولقبوه المستكفي بالله وكان صديقاً لجقمق وتوفى سنة ٨٥٤ هـ وكان تقياً فتخاصم الاعيان على حمل نعشه وكان جقمق ضمن من حملوه فبويع اخوه خليفه بدله ولقب بالقايم بامر الله فسلك هذا الخليفه غير مسلك سابقيه فبغضه السلطان جقمق وخاف من دسائسه سيما انه كان قد بلغ الثمانين من عمره ولم تعد له مقدرة على مقاومة دسائس الخليفه فتنازل عن الملك لابنه فخر الدين عثمان سنة ١٤٥٣ مسيحيه (٨٥٧ هـ) ثم توفى في ٢٩ صفر من تلك السنة وهي السنة التي اضمحلت وتلاشت فيها الامبراطوريه اليونانيه للبيزانطينين وفتح فيها السلطان العثماني محمد الثاني ابن مراد مدينة القسطنطينية وهي حصن المسيحيين المنيع القديم

وبعد مبايعة فخر الدين عثمان وتلقيبه بالملك المنصور قام الخليفه

له من قبل) ولكني اقول انها لو كانت خاضعة له من قبل كما يقولون لما كان يعين بطريركاً خاصاً له في ابروشية الاسكندرية ذاتها التي فيها البطريرك القبطي مما يثبت صحة الانفصال وعدم الخضوع ومع ذلك فانه لم يكن الغرض من قبول الكنيستين اليونانية والقبطية بالدخول في مجمع فلورنس الخضوع للبابا بل مجرد المصالحة والمسامحة بين الكنائس الشرقية والغربية ولم يحبط ذلك السعي الا لما رأى رجال الكنيسة اليونانية والكنيسة القبطية ادعاءات بابا رومية الغربية وطلبه السلطة العليا لنفسه فكان هذا سبب رفض اليونان والاقباط شروط ذلك المجمع وانكارها لما عرضت عليهم وادركوا سوء القصد من ذلك الاتحاد

بدسائسه التي كان يخشاها جقمق طمعا بالسلطه الزمنيه فالف حزبا من الامرأ وحملهم على عصيان فخر الدين فانتشبت ثورة بسبب ذلك انتهت بخلع فخر الدين في أول ربيع آخر سنة ٨٥٧ هـ بعد أن حكم شهراً ويوما واحداً ولكن تحت بعد ذلك الاحزاب عن نصرة الخليفة فخابت مساعيه وبايعوا مملوكا حسنا اسمه ابو النصر فحكم مصر ثمان سنوات وقد قال الخليفه في نفسه أن هذا السلطان اقرب الى اللحد منه الى العرش فلننتظر وفاته ولما انتظر ست سنوات ولم يمت عمد الى الدسائس فعلم به السلطان فوبخه وامر بخلعه فقال له الخليفه (من اين لك ان تخلع الخلفا ولهم وحدهم أن يولوا ويعزلوا) فاجابه بالنفي الى الاسكندريه فظل فيها حتى مات. وفي أول سني حكم ابو النصر توفي بطريرك الاقباط واخلفه رجلا يدعى متى لم يعرف عنه الا القليل في التاريخ. ثم وصل ابو النصر سفيرا من قبل ملك الحبش يوصيه خيراً بكنيسة الاقباط المصريه لانه كان يضطهدها وهذا دليل كبير على أن احوال البلاد كانت في ايامه في تعاسة وفساد وقد ظهر بعد البحث أن المماليك الامراء اوقدوا النيران عدة مرات في احياء مختلفة من المدن المصريه ولاسيما الاحياء التي يسكنها المسيحيون واليهود ليكون لهم فرصة للسلب والنهب. وتوفي ابو النصر يوم الخميس ١٥ جماد أول سنة ٨٦٥ هـ بعد أن حكم ثماني سنوات وشهرين و١٦ يوما

وتولى بعده ابنه شهاب الدين احمد الملقب بابي الفتح ولقبوه بعد مبايعته بالملك المؤيد ولكنه لم يحكم الا اربعة شهور فقط بالاسم وعزل

في ١٨ رمضان من تلك السنة

فبويع بدلا عنه مملوك يوناني الاصل وهو احد مماليك برس باي كان قد رقاه الى اعلا مراتب مماليكه . وكان يدعى سيف الدين خوش قدم فلما اعطى العرش سنة ١٤٦١ مسيحية (سنة ٨٢٥ هـ) لم تظهر منه تلك الغطرسة التي كان يبديها من سبقوه وتولوا على العرش من المماليك الشراكسه الاتراك فاكتسب محبة المصريين لانه نظم الحكومة وكان وديعا متواضعا وحكيما بارآ حليما محبا لرعيته ساهرآ على راحتهم محبا للاداب اليونانية ومحافظا عليها وكان يلقب بالرومي ولا يستوزر الا من يأنس فيهم النزاهة والنشاط وكان هذا سبب ازدياد محبة المصريين واخلاصهم له ويقول المؤرخون انه افضل من حكم مصر من سلاطين الاسلام ولما كان السلطان صاحب البلاد حكيما بهذا المقدار وهو رأس الامة وامامها فلذلك اقتدى به رجال حكومته فساد الامن في البلاد وحكم خوش قدم ست سنوات ونصف دعاها المصريون بالايام الذهبية لان بلادهم لم تحلم بمثلها من قبل ومن العجيب انه حتى في خلال هذه الايام السعيدة انتهز الامراء المماليك فرصة سانحة فاوسعوا البلاد سلبا ونهبا في الاحياء المسيحية في مصر القديمة ولما اشتهر انتظام الاحكام في مدته اخذ السائحون الاوربيون يفدون الى الديار المصرية بلا خوف لزيارة الاماكن المقدسة ولا سيما بساتين البلسم بالمطرية وهليوبوليس وبعد ذلك بزمن قليل زارها ايضا بعض السياح الالمانيين سنة ١٤٨٣ مذ كان قايت باي على العرش المصري وقال السياح

أن السلطان قفل في وجههم النبع المقدس والشجرة اللتان كانتا في قصره القائم في هليو بوليس (عين شمس) وسمح لهم فقط بزيارة النقط المقدسة وقالوا في كتابتهم عن تلك السياحة أن اشهر واهم المناظر في حديقة ذلك القصر حمام جميل يمكن لثلاثمائة شخص الاستحمام فيه في آن واحد وفي الغالب انه يشبه الحمام الموجود الان في حدائق قصر شبرا

وفي سنة ١٤٦٦ مسيحية توفى البطريرك متى واخلفه على الكرسي المرقسي البطريرك غبريال السادس

وفي تلك السنة ايضاً اي في عشرة ربيع اول سنة ٨٧٢ هـ توفى السلطان خوش قدم وسنه ستون سنة فبكاه المصريون جميعاً واسفوا على موته كثيراً واخلفه مملوكان آخران ولكنهما خلعا بعد زمن يسير . اولهما ابو سعيد بلباوي الذي لقبوه بعد مبايعته بالملك الظاهر فكان على عكس سلفه اذ استعمل الاستبداد واعاد الاحكام الفوضوية الى عهدها الاول ولما سأت حال البلاد كرهه الناس فلم يمض ٦٦ يوماً على مبايعته حتى خلعوه في ١٧ جماد اولى من تلك السنة وبايعوا بدله الامير ابا سعيد تمار بوغا الملقب بالظاهري ولقبوه بالملك الاشرف فسلك خطة سلفه وكان عاتيا مستبداً فكان حظه كحظه وخلعوه بعد شهرين من مبايعته واخيراً رشحوا للعرش مملوكا من مماليك السلطان جقمق لا يعرف له اصل ولا حسب ويدعى قايت باي الذي يعتبر اشهر سلاطين مصر من المماليك وله قبر معدود من اشهر الآثار العربية الباقية الى الآن ارتقى قايت باي

العرش المصري سنة ١٤٦٨ مسيحية وظل جالسا على ذلك العرش نحو ثلاثين سنة مع أن البلاد كانت وقتئذ في اضطراب بسبب مصادرة العثمانيين لها ولكنه لعلو همته وحسن سجاياه ظل قابضا على ازمة الاحزاب فثبت في مركزه واصبحت البلاد في اطمئنان وقد صرف اغلب أيامه في صد هجمات العثمانيين التي كانت آخذة في الازدياد حتى كادت تقلب عرش المماليك وتمحو أثر حكومتهم ولكن الستة سنوات الاولى من حكم قايت باي مرت على مصر وهي في سلام تام . وفي ايام الحروب العظيمة الطويلة ضد العثمانيين لم تضطرب البلاد الا قليلا لان رحي الحرب كانت قائمة في سوريا وآسيا الصغرى

واسباب وقوع الحروب مع العثمانيين انه كان قد وصله خبر انتصار محمد الثاني سلطان العثمانيين على ملك الفرس المدعو اوزون وكانت توجد وقتئذ محالفة بين الفرس والمصريين وقد رأى قايت باي بذكائه ان ذلك التحالف سيستفز غيرة العثمانيين لفتح سوريا فاحترس لذلك وارسل حملة عظيمة على حدود سوريا ولكن العثمانيين لم يهتموا بفتحها كما توهم لانهم كانوا يهتمون بفتح البلاد المسيحية ولكن ذلك لم يقلل من خوف قايت باي من العثمانيين لانه كان شديد الحذر وبصيراً بالعواقب فضلا عما يعلمه من بأس العثمانيين فاراد أن يخلي نفسه من مسؤولية ضياع السلطنة المصرية وذهابها الى يد الاجانب ونسبة الاهمال اليه في ذلك ولو أن عدوه اشد منه مراسا فاضطر أن يتنازل عن الملك للامراء المماليك فادركوا سر

سياسته ولم يقبلوا منه ذلك التنازل واجبروه على البقاء على العرش لشدة احتياجهم اليه واستعانتهم بمواهبه العالية في مثل تلك الظروف الحرجة ولكنه لم يكد يقبل بالبقاء في منصبه حتى بلغه نبأ انتصار العثمانيين على النصارى وعزمهم على فتح سوريا فتحقق ظنه لكنه قبل أن يخرج محمد الثاني سلطان العثمانيين من الاناضول ادركته المنية فتخاصم ابناؤه على الملك والهاهم ذلك عند فتح سوريا فكانت مصائب قوم عند قوم فوائد لان قايت باي انتهز فرصة هذا الاختلاف وانسحب راجعا بجيشه الى مصر

ثم تحارب ولدا السلطان العثماني بعد الخصام فانهزم احدهما المدعو جم والتجأ الى قايت باي بمصر فاكرمه ولكن خاف من هجوم اخيه بيازيد على مصر للانتقام منه فاستعد للهجوم بدل أن ينتظر دور الدفاع فقطع طريق الحج على الاتراك واسر وفداً قادما من الهند بمهمة سياسية للسلطان بيازيد وفتح ادرنه وترسوس اللتين كانتا في حوزة بيازيد وكان بيازيد ينتظر وقوع فرصة لفتح البلاد المصرية فكانت اعمال قايت باي هذه ضالته المنشودة ولكنه استعمل الحزم في مهاجمة المصريين فطلب من قايت باي تعويضا عن الخسائر فكان جوابه مهاجمة الجيوش العثمانية فقاومه مقاومة شديدة فتقهقر امامه الى غلاطيه فعزز قايت باي جيشه بخمسة الاف رجل وهجم على العثمانيين على غرة في مضايق الجبال وذبح منهم عددا كبيراً وتحصن من بقي منهم في ترسوس وادرنه فارسل اليهم

قايت باي اشهر قواده الامير الازبكي فسار لنجدته وطرد العثمانيين من تينك المدينتين . فشق على بيازيد ضياعهما وانفذ قوة عظيمة بقيادة صهره احمد ابن امير بوسنا واصله البانيا اعتنق الاسلام . ولما التحمت قوته بقوة الازبكي هجم احمد هجمة قوية ولكن رجاله لم يثبتوا في الهجوم فمازت عليهم الجنود المصرية ووقع احمد اسيراً في يد الازبكي فعاد به الى القاهرة ظافرا وبنى جامعه المشهور المعروف بجامع الازبكية تذكارا لانتصاراته على العثمانيين في سوريا ولقبت باسمه كل الارض الفضاء التي حول الجامع ولو أن هذا الجامع اندثر الان الا أن ذلك الخط المتسع العظيم لم يزل معروفا بخط الازبكية الى الآن وهو من اشهر نقط القاهرة الحديثة

ولم يعان الاقباط اضطهادات مقصودة في مدة حكم قايت باي وكانت الحكومة تستخدم منهم كثيرين في اشغال الهندسة المعمارية لبنأ الجوامع والمدارس الكلية في القاهره واعظم المباني المعمارية التي تمت في ايام قايت باي بالقاهرة كانت من وضع هؤلاء المهندسين الاقباط . وجلس على كرسي الكرازه المرقسيه في حكم قايت باي بطريركان لأن البطريرك غبريال كان قد توفى سنة ١٤٧٥ مسيحيه واخلفه البطريرك ميخائيل السادس واخلف هذا الاخير سنة ١٤٨١ مسيحية البطريرك يوحنا الثاني عشر ولكن لم يعلم عن هذين البطريركين (١) الاخيرين في التاريخ الا شيئاً قليلا

(١) سنة ١٤٨٤ مسيحيه ذبح كل رهبان ديري انطونيوس وبولوس وظلت

اما السلطان بيازيد فاستشاط غضبا من انكسار صهره فارسل حملة قوية بقيادة من يدعي علي باشا لمحاربة المصريين فعبرت الحمله البوسفور في ٣ ربيع آخر سنة ٨٩٣ هـ فاوجس قايت باي خيفة فعمد لمصالحة بيازيد بواسطة صهره احمد فرفض بيازيد ذلك بتاتا وسار بجيشه والتقى بالمصريين في أدرنه وترسوس واخذ هاتان المدينتان منهم بعد حرب هائلة ثم سار لارمنيا الصغري فخضعها واخذها كلها اسيراً وارسله لمصر بدل صهره احمد

فارسل قايت باي الامير الازبكي ثانيا لاسترجاع آدنه وترسوس من العثمانيين فقام ذلك القائد الباسل وضرب العثمانيين فغلبوه أولا ثم تقوى وغلبهم ثانيا واسترجع المدينتين منهم وعاد ظافراً للقاهرة مرة أخرى فخلع عليه قايت باي خلعا ثمينة

ثم عرض قايت باي شروط الصلح مع العثمانيين في فرصة انتصاره عليهم فهدده بيازيد انه ان لم يتنازل له عن أدنه وترسوس بالتي هي أحسن سيدعو كل الخاضعين لآل عثمان تحت لوائه في جهاد عام ويفتح مصر فتحا مبينا

فرضي قايت باي باهون الخسارتين وتنازل عن المدينتين.

وفي سنة ٨٩٦ هـ ١٤٩١ مسيحيه دخلت تينك المدينتان

الصوامع (الادبره) مهجورة نحو ثمانين سنة .

وفى ذلك الحين اندثر القسم الاعظم من المكتبه القديمه واخذ عرب الباديه يستعملون مجلداتها الثمينه وقودا !!

في حوزة العثمانيين فتصالحوا مع المصريين . وعاش قايت باي خمسة سنوات في سلامة تامه بعد مصالحة العثمانيين وتوفي في ٢٢ ذي القعدة سنة ٩٠١ هـ ١٤٩٦ مسيحية بعد ان حكم ٢٩ سنه و٤ شهور و٢٠ يوماً فبكاه المصريون لعدالة حكمه ومن آثاره جامعه المعروف باسمه الى هذا اليوم في القاهره خارج القرافه مع انه قد اهمل اهمالا كليا وهو بالقرب من جامع ابن طولون الذي هو اقدم منه كثيرا وفي هذا الجامع يوجد مقامه وهو مثال لما بقي من مدافن المماليك في تلك الجهة ولقايت باي جامع آخر في جزيرة الروضة يشاهد الى الآن هناك

وبايعوا بعده ابنه ابو السعاده محمد ولقب بالملك القاصر ولكنه كان رجلا وحشيا ظالما احمقا ديدنه الانغماس في اللذات البهيمية ولو كلفه ذلك الى ارتكاب شر الآثام وقد مضى ستة شهور في حكمه بهذه الكيفية كانت خاتمة نصيبه في الملك لان توحشه عم الجميع حتى المماليك الغشم اذ سلخ احد مماليكه حيا فهاج عليه هؤلاء المماليك وخلعوه وبايعوا بدله احد مماليك ابيه المدعو قنصو الملقب (بابي الخمسماية) لانه في الاصل ابتيع بخمسماية دينار وهذا الاخير بعد أن امضى ستة شهور في جهاد عظيم في تنظيم الاعمال عجز عن ذلك والتزم بالتنازل عند الملك اختياراً . فاعدوا نجل قايت باي ثانية ولكنه لم يبق في السلطنة الا ٨ شهر ونصف ثم ذبحه المماليك في ١٦ ربيع اول سنة ٩٠٤ الموافق ينار سنة ١٤٩٩ واخلفه ثلاثة سلاطين بالتوالي في مدد قصيره جداً اولهم عم قنصو ابو خمسماية

واسمه قونسو الثاني الملقب بابي سعيد ولقبوه بالملك الظاهر ولم يقبل هذا المنصب الا بالرغم عنه ثم خلعوه بعد عشرين شهراً وبضعة ايام . واخلفه ثانيهم قنسو الثالث جان بلد ولقبوه بالملك الاشرف وخلع في ١٨ جماد آخر سنة ٩٠٦ بعد أن حكم سبعة شهور . وثالثهم سيف الدين طومان باي من مماليك قايت باي فحكم ثلاثة شهور ثم قتله الامرأ بعد أن اختبأ اربعين يوما ومن ذلك يظهر أن الامرأ المماليك بعد وفاة قايت باي لم يبالوا باي محذور وبعد قتل طومان ثالث هؤلاء السلاطين في ذي القعده سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠١ مسيحية) صمم اولئك المصريون القائلين على حصر الاحكام في يدهم. فاجتمع المماليك والاعيان وفوضوا كبار مشايخ الاسلام لينتخبوا لهم سلطانا واصبح الشعور العام في مصر وسوريا نحو هذا الغرض قويا جداً حتى ان المماليك اصبحوا غير قادرين للتعرض الى ذلك فاجتمعوا معا وصاروا يتداولون فيما بينهم وبين كبار مشايخهم وانتظروا من تقع عليه القرعه من اهل اللياقة ليحكم عليهم

اما المشايخ فانهم لم يتجاسروا ايضا على ابداء اي اقتراح واخيراً انتخبوا مملوكا عجوزاً من مماليك قايت باي وهو الامير قنسو الرابع الملقب بالغبوري وكان رجلاً عفيفا تقيا مخلصا محترما من الناس ولم يكن له نصيب في ما تخاصم عليه باقى الامرأ ولا في ما كانوا يدسونه من الدسائس بل انه منذ اعتقه سيده وصار حرا عاش عيشة السكينة والهدؤ واظهر احترامه وشفقته لكل من يلجأون اليه

ولما وقع عليه الانتخاب اندهش الامرأ لهذه الصدفه ووقع لديه هذا الامر موقع الاندهال ورفض في الحال قبول ذلك المنصب وقال لمنتخبيه (بكسر الخاء) انه تعود أن يكون مأموراً لا آمراً ومحكوماً لا حاكماً . ولكنهم اجمعوا أن صدق نيته واخلاصه وثقة الناس به جعلتهم أن لا يقبلوا سلطانا عليهم سواه فلم ير بداً من الرضوخ لصوت الشعب وقبل السلطنة على شرط أن يقسموا له انهم اذا لم ترضيهم حكومته لا يقاومونه بالعصيان أو القتل بل يسره اذا جاوه يوما والزموه بالاستقاله من منصبه فيستقيل منه حالا ويعود الى معيشة السكينة والهدو كما كان اولا

جلس قنسو الغوري الرابع على العرش المصري في غرة شوال سنة ٩٠٦ هـ ١٥٠١ مسيحية ولقبوه بالملك الاشرف وظل على عرشه مدة ١٥ عاما واول ما استلم مقاليد الاحكام اخلص في الحكم واصدر اوامر نظامية صارمة نفذت حتى على الامرآء فاطمأنت البلاد وعم الامن وقام باصلاحات عمومية مهمة في مصر فابتنى المدارس والمساجد في القاهرة منها مدرسة وجامع ينسبان اليه وهما مدرسة وجامع الغوريه في اول شارع الغوريه بالسكة الجديدة . ومدرسة في شرق الشارع والى جنوبه مدفن فيه مقام بعض عائلته والى الغرب الجامع وهو اعظم مشاهد القاهرة البديعة المنظر في ذلك الشارع والى الشمال سبيل جميل . ولكن لكي يقوم بتلك الاعمال المهمة ولكي يقوم بنفقات الاستعدادات الحربية التي كانت ضرورية وقتئذ

دفاعا عن البلاد التزم بتحميل البلاد ضرائب ثقيله وكان معظم ذلك الحمل الثقيل واقعا على الاقباط كالمعتاد

ووقع الغوري في عداء مع عدو اوربي جديد وهم البرتغاليون الذين لما استولوا على بلاد الهند اضروا بالعلاقات التجارية بينها وبين مصر وكانوا ايضا يتداخلون وقتئذ في شؤون الحبشة (١) فالتزم بتسيير اسطول حربي عظيم في البحر الاحمر ليهدد البرتغاليين ويحمي تجارة بلاده ويمنع التعرض لها. ففي سنة ١٥٠٨ مسيحية انتصر عليهم في واقعة خارج شواطئ بلوخستان . ولكن في السنة التالية تغلبوا عليه وطردوه باسطوله الى مصر فعاد وكل مراكبه الحربية محطمة . فلم يثن ذلك عزمه بل جدد اسطوله وعاد به الي الهند قاصداً فتحها ولكنه شعر بعد ذلك بخطر بتهدد بلاده فالتزم بالعودة للدفاع عنها . وذلك انه في سنة ١٥١٢ مسيحية (٩١٨ هـ) لما كان نجلي السلطان بيازيد العثماني متخاصمين وقد تقاتلا مع بعضهما واخذا يتنازعان على عرش ابيهما بعد موته فالذي قهر منهما جاء الى مصر ودخل في حمى الغوري وطلب مساعدته ولما كان السلطان المصري طبعا عالما بالخطر الذي يهدد به بلاده سلاطين العثمانيين الذين كان طمعهم في الفتح وقوتهم آخذتان في الازدياد التزم بمقابلة كركور اللاجئ اليه بالترحاب والصداقه العظيمه ورضى مساعدته على اخيه الذي كان وقتئذ سلطانا على

(٢) سنة ١٥٠٢ مسيحية زار بطرس الشهيد سلطان مصر الغوري في مهمة ارسله بها اليه فرد يناند وايزابلا حاكمي اراجون .

عرشه بالقسطنطنية بلقب السلطان سليم الاول فامد الغوري كركور بعشرين بارجه حربيه يهجم بها على القسطنطنية ولكن لسؤ الحظ قد اشتبكت هذه العمارة المصرية في طريقها الى القسطنطنية في حرب اسطول الصليبين بقيادة الامير القديس يوحنا فهزم الاسطول المصري وراحت كل قطعه غنيمة باردة للصليبين في البحر الابيض المتوسط

ولم تقتصر الخسارة المصريه على ذلك بل أن خبر عزمها على فتح القسطنطنيه قد أتصل بمسامع السلطان سليم الاول فاستوجب ذلك سخطه واثارة غضبه على مصر . وهكذا قد جلبت مساعي الغوري عداوة خصمه المره وعزمه على فتح البلاد المصريه والسورية من حيث كان يقصد سحقه ولكن تأكد أن الظروف القهريه قد حولت مساعيه الى ضرر وخطأ فاسرع الى تدارك ذلك الشر فعقد محالفه مع الملك اسماعيل شاه الفرس الذي كان واقعا في حرب عظيمه مع سلطان العثمانيين الباسل . ولما قامت الجيوش المتحدة المصريه والعجميه لمحاربة العثمانيين لم تبال الجيوش العثمانية بكثرتها فضربتهم ضربة قوية تفرقوا على اثرها أيدي سبا فعمد قنسو الغوري لمخابرة السلطان سليم في أمر الصلح طالبا قبول أي شروط يعرضها عليه الا أن خضوع الغوري جاء متأخراً لانه لما وصل أعضاء الوفد الطالب لهذا الصلح لدى السلطان سليم خروا ساجدين امامه وعرضوا عليه طلب مولاهم . فحنق عليهم واحتقرهم ورفض طلب الصلح وقال لهم (لقد فات الاوان فارجعوا وقولوا لسلطانكم ان القدم

لا تعثر بحجر واحد مرتين وها أنا ذاهب لزيارته في القاهرة فليستعد للدفاع أن كان قادراً عليه)

فعادوا واخبروا الغوري بذلك فجمع اليه كل الايات المماليك وباقى جيوشه كلها وسار لملاقاة الجيوش العثمانيه قبل وصولها حدود سوريا فتقابل بهم في مرج دابق قرب حلب فانتشب الحرب انتشابا شديداً واظهر فيها الغوري بسالة واقداما عظيمين الا أن الرجا بفوز المصريين النهائي كان مقطوعا ليس فقط بسبب أن الجيوش العثمانيه كانت كلها من رجال الانكشاريه البواسل فقط بل لان الجيش العثماني كانت متوفرة لديه أحسن المعدات الحربيه الحديثة بينما كان الجيش المصري مؤلفا من ارقاء اورباويين الذين اشتراهم العثمانيون وربوهم للغرض الحربي فقط

فكان العثمانيون يستعملون البارود المخترع حديثا في المواقع فيرشون المصريين رشاً ويحصدونهم حصداً وكان سلاح المصريين الحراب والرماح والسيوف فقط فلما ضربت المدافع الجناح الايمن والايسر من الجيش المصري الذي كان يقوده المماليك الامراء ضربة مريعه اوقعت الرعب في قلوبهم وبددت شملهم فسلم قائدا الجناحين للعثمانيين وكان الغورى نفسه قائداً لقلب الجيش فعمل حركة يريد منها لم شعث جيشه ولما حول شكيمة جواده سقط من فوقه لشدة الزحام فسحق تحت سنابك خيل المماليك الراكبه وذلك في ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ هـ بعد أن حكم ١٥ سنة وتسعة أشهر و٢٥ يوما . وبموت الغوري اصبحت دولة المماليك على

وشك الاضمحلال . وكان الغوري قبل مبارحته القاهرة هذه المرة قد استخلف عليها ابن أخيه طومان باي الثاني فلما اتصل خبر موته بالامراء في القاهرة اسرعوا بمبايعة طومان باي ولقبوه ايضا بالملك الاشرف وكان باسلا مقداما

فلما رجعت جيوش عمه منهزمه الى القاهره جدد حملة قوية لمحاربة العثمانيين الذين كانوا قد وقفوا للاستراحة في سوريا فظن طومان باي أن الرمال المتراكمة هناك تحول دون وصولهم الى مصر فزاد نشاطا وحزما في اعداد تلك الحملة ولكنه ظل اشهراً يقلب نظام الجيش ليمده لذلك العمل العظيم فانه كان عارفا بعجزه وبضرورة موته في الحرب ولو أن هذا الاعتقاد المحزن كان مجهولا

ولكنه لم يكد يتم استعداداته حتى خاب ظنه حيث ورد كتاب من السلطان سليم هذا نصه :

(من السلطان سليم خان ابن السلطان بيازيد خان سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان ابن السلطان الخ الى طومان باي الشركسي —

الحمد لله رب العالمين الخ . أما بعد فقد تمت ارادتنا الشاهانيه وهلك اسماعيل شاه العجم المرطوقي اما قنسو الكافر الذي حملته القحه على مناوأة حجاجنا الى بيت الله الحرام فقد نال جزاءه منا . ولم يبق لدينا الا أن نتخلص منك فانك جار عدو لنا والله سبحانه وتعالى يساعدنا على معاقبتك اذا شئت اكتساب رحمتنا السلطانية اخطب لنا في جوامع مصر

واضرب النقود باسمنا وتعالى الى اعتابنا واقسم على طاعتنا والاخلاص لنا والا ...... الخ)

فلما رأي طومان باي ما يحويه هذا الكتاب من التهديد حنق واصر على المقاتلة وفضل الموت في ساحة الحرب عن التسليم فقوى حصون دمياط والحدود السوريه وكان قد اشترى ثمانين مدفعا من فينيسيا ولكن المماليك لم يكونوا يستطيعون استعمالها فكانت الجيوش العثمانية اقوى من الجيوش المصرية بكثير

وسار طومان باي بكل رجاله وعدده لملاقاة العثمانيين وعسكر عند الصالحيه . اما السلطان سليم فسار من مرج دابق وافتتح في طريقه غزه والعريش ولما علم بوجود الجيوش المصرية في الصالحية وتأهبهم للدفاع حتي الموت عرج في طريقه عند الصالحية ووصل الخانكة قرب القاهرة وقام بجيشه لمهاجمتهم من الخلف فالتقى الجيشان عند بركة الحج يوم الجمعة ٢٣ يناير سنة ١٥١٧ مسيحية و٢٩ ذي الحجه سنة ٩٢٢ هـ ووقعت بينهما معركه هائلة اظهر فيها المصريون بسالة شديدة ولما كانوا لا يعرفون البارود ولا المدافع كما تقدم كان قوص النصر معقوداً للعثمانيين وهلك المماليك الامراء عن آخرهم وفر الباقون للقاهرة مع قائدهم طومان باي الذي جمع اليه كثيرا من العربان بعد ان ارضاهم بالمال وتعاهد معهم على طرد العثمانيين . ولكن قبل وصولهم كان السلطان سليم قد عسكر في جزيرة الروضة وحصنها حتى ان كل من يهجم عليها لا يعود الا بالخسارة .

فلما هجم طومان باي مع العرب على السلطان سليم هجمة اليأس رده خاسراً . فعاد للقاهرة وحصنها على نية الحصار وزاد في استحكامات القلعة واقام طابية في كل شارع وفي كل منزل واعطى السلاح لكل من يقدر على حمله للدفاع عن الوطن ولكن رغماعن كل هذه الاستعدادات التى اظهرها طومان باي وامراؤه ومحاربة المماليك مستقتلين دخلها العثمانيون عنوة وامعنوا فيها وفي الفسطاط وبابيليون قتلا ونهبا وحرقا بعد استلام القلعة وذبح كل المماليك الذين فيها اما طومان باي الذي لم يصادفه الموت الذي كان يتمناه في ميدان القتال تمكن من الفرار حيث عبر النيل وحده في قارب الى بر الجيزه ثم سار منها قاصداً الاسكندرية حيث كان يؤمل أن يقوم ثانياً منها بجيش يحارب به جماعة العثمانيين ولكنه سقط في ايدي قبائل العربان الرحل فقبضوا عليه وباعوه للسلطان سليم . وكانت تظهر على السلطان سليم امارات الغلظة والقساوة والتجرد من الشهامة والشرف فلما رأى السلطان سليم عدوه الباسل مغلولا تحت قدميه في حالة القنوط واليأس عطف عليه وفك قيوده وعامله باللطف والاكرام ووضعه في سجن صحي واذن له بالحضور في المؤتمرات التي كان يعقدها السلطان سليم للمداوله في امر تنظيم البلاد وبعد أن درس منه ما تعلق بمحصول البلاد وخراجها وحكومتها ولما تأكد من عدم الاحتياج لمشورته أمر حرسه أن يشنقوه خارج المدينة فعلقوه تحت رواق باب زويله بكلاب من حديد في ١٩ ربيع اول سنة ٩٢٣ هـ . وهكذا كانت آخرة السلطان

الاخير من دولة المالك الشراكسة وبقتله انتهت تلك الدولة بعد أن تسلط مماليكها على مصر نحو ١٣٩ سنة ومن ذلك الحين اصبحت المملكة المصرية تحت احكام استبدادية بشكل جديد اردأ كثيراً من استبداد المماليك لانه وان كان السلاطين المماليك كان اغلبهم غشوما مستبدا الا انه كان على الاقل له صالح في البلاد التي اغتصبوا حكمها

ومن ذلك الحين اصبحت مصر آيالة عثمانيه كبرى وصارت فريسة لحكام تعاقبوا الحكم عليها وكان هم كل منهم السعى في ما يعود لنفعه الشخصي وسواء عليه اذا خربت البلاد أو عمرت قبل استدعائهم للقسطنطنية الامر الذى لا مناص منه وقبل أن تضيع منهم رعوية السلطان بينما أن قوة البلاد الحقيقية كانت تؤول شيئاً فشيئاً الى البكوات من المماليك الظالمين.

الفصل الخامس والستون

من ردئ الى اردأ

سنة ١٥١٧ مسيحيه و ١٢٣٣ للشهدا و ٩٢٣ للهجره

وأمر السلطان سليم بدفن طومان باي قرب قبر عمه قنسو الغوري وبعد مضي ثلاثة ايام على دفنه دخل السلطان سليم عاصمة الديار المصرية ظافراً في غاية ربيع أول سنة ٩٢٠ هـ الموافق ابريل سنة ١٥١٧ مسيحية وظل فيها حتى حضر المماليك الامراء وقدموا له يمين الخضوع والطاعه وبعد ذلك سار الى الاسكندريه في فرقة من جيشه لوضع الحماية عليها اما أهلها فكانوا كعادتهم لا يهمهم تغيير الحكام فلم يخف سليم من عدم تسليمهم . اما الاقباط ففرحوا بدخول العثمانيين لبلادهم وانقاذهم من ايدي المماليك الظالمين ولكن يوجد بينهم قليل منهم كان ينظر الى العواقب نظراً بعيداً ويعرف أن وضع النير العثماني يتبعه ضغط اثقل مما هو حاصل وقتئذ خضعت عاصمة القطر المصري للسلطان سليم دون أن تحتاج لضربة واحدة ثم عاد سليم للقاهرة لتأسيس نظام الحكومة الجديد بنفسه قبل أن يرجع الى القسطنطينية

وابتدأ نظاماته بعمل استبدادي ليضمن لنفسه خضوع المسلمين التام والاخلاص له . وكان الخلفاء العباسيون لا يزالون في القاهرة تحت حماية السلاطين المماليك يمارسون مهنة الافتاء الدينيه بين العالم الاسلامي كله ولو أن سلطتهم غير محدوده بكيفية تشبه تمام الشبه حالة بابا رومية

الحاكم على كل العالم الكاثوليكي الروماني ولكن كان من مبدأ السلطان سليم عدم وجود رئيس ديني او زمني سواه وقد رأى ان سلطته لا تؤيد الا اذا قبض على السلطه الدينيه ايضا وكان الخليفه اذ ذاك المتوكل على الله (الثالث) الخليفه الثامن عشر من الدوله العباسيه الثانيه وكان تحت تصرف السلطان سليم فاجبره على التنازل له عن سلطته وكل حقوق وظيفته وقد تم ذلك فعلا ونودي بين الناس انه من الآن فصاعداً اصبح السلطان سليم العثماني الخليفه الديني ونائب النبي الكريم على الارض وسيد البلاد الوحيد وصاحب السلطة الروحيه والزمنيه على كل العالم الاسلامي . ومن ذلك الحين انتقلت الخلافه الدينية من الدوله العباسيه التي آخرها الخليفه المتنازل الى الدوله العثمانيه التي كان أول خلفاءها السلطان سليم الاول

وكان يوجد رجل من اعوان قنصو اسمه خير بك كان اول من سلم للعثمانيين وخان وطنه لما آنس ضعفا في جانب جيش بلاده في واقعة مرج دابق العظيمة فظل السلطان سليم حافظا هذا الجميل حتى اذا توطدت اقدامه في مصر عينه واليا عليها من قبله بصفة نائب السلطان أو بحسب اصطلاحات العثمانيين الرسمية (باشا مصر) ولكن لاحتراس السلطان سليم السياسي ولكونه كان يود تأييد سلطته دائما في مصر خاف أن يترك اميراً مثل خير بك في هذا المركز وربما تتوق نفسه الى العظمة فيسعى في الاستقلال . فاخذ يفكر في طريقة تكفيه موؤنة هذا الخطر فعمد الى تأسيس ثلاث قوات في مصر تراقب بعضها الاولى (الباشا) وهو الحاكم

الاكبر ويكون نائبا عن جلالة السلطان ويبلغ الاوامر السلطانية التي تصدر له من الاستانة الى رجال الحكومة والشعب مع مراقبة تنفيذها ولا يكون للباشا سلطة على الجيش ولا يقدر أن يعمل شيئا بدون رضى وتصديق مجلس خاص يتشكل من الاغوات (ضباط الجيش) وهو مجلس شورى الباشا ولهذا المجلس الحق في ايقاف تنفيذ اي أمر يصدره الباشا وان يستأنفوا اوامر الباشا عند الاقتضاء في الاستانة للبت فيها ولهذا المجلس العسكري الشوروي الحق في خلع الباشا من مركزه اذا ظهر لاعضائه وجه الشبهة والخيانة منه . والقوة الثانية (الجيش) حيث جعل السلطان سليم جيشه المحتل لمصر ١٢ الف جندي ٦ الاف من السواري و٦ الاف ياده وجعل مقر ذلك الجيش في القاهرة والمراكز الرئيسية في القطر وقسمه الى ستة (الآيات) جعلها كلها تحت قيادة قائد عام جعل مقره القلعة فكان فيها اشبه بأسير من اسرى الحكومة مسلوب في حريته الشخصية لان السلطان حرم عليه الخروج من القلعة مهما كانت الاسباب وتنقسم تلك الالايات الى

(١) آلالايات المتفرقة وهم نخبة الحرس السلطاني

(٢) آلايات الجاويشية وهم من صف ضباط جيش السلطان وقد عهد اليهم جباية الخراج

(٣) الآيات المهجانه

(٤) آلايات التفقجيه وهم حاملو البنادق

(٥) آلايات الانكشارية وهم نخبة القبائل الخاصة للعثمانيين

(٦) آلايات العزب

وعلى كل الاي ضابط يلقب (بلاغا) ومعه الكخيا والباش اختيار والدفتر دار والخزندار والروزنامجي والقوة الثالثة (المماليك) وهم بقايا دولتي المماليك المنقرضين والغرض من وجودهم حفظ الموازنه بين الباشا وآلالايات لانهم في الاصل كانوا خصما للفريقين . وغرضهم الانتصار للضعيف من القوي المستبد . وكان اول قائد عام لجيش الاحتلال العثماني على مصر احد كبار قواد السلطان سليم واسمه خير الدين فجعل هذا القائد فرقة من الستة فرق تحت امره الخصوصي وجعل افرادها من المماليك المصريين ولكن السلطان سليمان ابن السلطان سليم ألف له على تلك القوة فرقة مركبة من المماليك الامرأ ايضا وهم الذين قبلوا الخدمة في بلادهم تحت اوامر السلطان العثماني . وانتخب السلطان سليم اثني عشر من المماليك الامراء الذين نجوا بحياتهم بسبب خضوعهم للسلطان الفاتح واعطى كل منهم لقب بك وقسم القطر المصري الى اثني عشر (مديرية) وعين هولاء البكوات المماليك مديرين على تلك المديريات ويلقب بالسنجق ولا يعين ولا يعزل السنجق الا بمصادقة مجلس شوري الباشا المتقدم ذكره

فهذه الترتيبات الدقيقة التي تدل على ذكاء السلطان سليم وسمو أدراكه قد نجحت وافادت فعلا وقد كان غرضه من وضعها استبقاء السلطه له في مصر مع بعده عنها في الاستانة ولكنه رأى في ذلك صالحه ولم يراع صالح

البلاد التي فتحها لان هذه الترتيبات لم تكن في حد ذاتها آيلة لسعادة البلاد لانه لايخفى أن تقاطع المصالح واختلافها وجعلها تحت اوامر كثير من الرؤساء والحاكمين يقود طبعا الى وجود القلاقل والمتاعب في البلاد فجميع السكان من مسلمين واقباط شعروا بصيرورتهم وانتقالهم من رديء الى ارداء واتضح لهم اخيراً أن القوة الحربية وان كانت لم تتحد مع بعضها بحسب نظامها ولكنها قد اتحدت على الاضرار بالمصريين واصبح الاقباط ايضاً يتألمون من شكل الاستبداد والمظالم الجديدة وعدم اتباع مبداء العدالة . والى ذلك الحين لم تمت الفنون والصنائع اليدوية في مصر وفضلا عما كان يعضدها به السلاطين المماليك فان السلطان الاجنبي (سليم الاول) قد نشطها وشجعها كثيرا كما هي الطبيعة الغريزية في الاتراك واغلب الصنائع العظيمة التي تشاهد الي الآن في المساجد والكنائس المصرية يتصل تاريخ وجودها بالنصف الاخير من القرن الثالث عشر وكل القرن الرابع عشر وهي المدة التي حكمت فيها دولة المماليك الامراء على مصر

وكان السلاطين الامراء يضطهدون الاقباط بلا رحمة ولا شفقة كل ما اوغر المسلمون صدورهم عليهم ولكن اصحاب الحرف والفنون من الاقباط وعلماءهم والمهندسين المعماريين والمصورين والمذهبين والمزخرفين والكتاب وعلماء التشريع وحفاري الخشب والمطرزين ونساجي الحرير وبالاختصار كل من اشتهر في اية حرفة أو صنعة كانوا معافين من الاضطهاد وخطأهم محتمل ومن يعتنق الاسلام منهم ينشط اكثر ويكافأ

مكافأة عظيمة وفي زمن الفتح العثماني اعتنق الاسلام كثير من ارباب تلك الصنائع من الاقباط ولكن السلطان سليم ما كان يهمه ذلك وما كان يميز بين المصري المسلم والمصري القبطي . وقد اصدر امره بارسال عدد عظيم من اشهر ارباب الفنون والصنايع المصرية بلا تمييز في الجنس والمذهب الى القسطنطينية . وكانت اوامره شاملة عامة وكانت تنفذ بلا شفقة ولا رأفة حتى أن شعراء من المسلمين قالوا انه بسبب جمع هولاء الصناع لديه قد أمات في مصر اكثر من خمسين محل صناعي

وفرض السلطان سليم جزية سنوية ثابتة على مصر وقدرها ستماية الف غرش علاوة على الغنيمة التي اخذها معه الى القسطنطنية وهي الف حمل جمل من الذهب والفضة بخلاف الهدايا والاسلاب الاخرى كما روى احد المؤرخين المسلمين

وعاش السلطان سليم ثلاث سنوات فقط بعد فتح مصر وكان قبل وفاته قد رسم الخطه التي تتبع في ادارة مصر وبعض مشروعات اخرى توفى قبل ابرازها الى حيز الوجود فتولى تنفيذها ابنه السلطان سليمان الذي لما تولى العرش العثماني سنة ٩٢٦ هـ كان عمره ٢٦ سنة ولبث حاكما نحو نصف قرن وقد انشأ ديوانين آخرين بدل الديوان الواحد الذي انشأه ابوه عرف بالديوان الكبير والديوان الصغير ورئيسهما الباشا الذي جعل مركزه في القلعة تحت ملاحظة قومندانها الاغا وتقرر أن يجدد انتخاب هذا الباشا سنويا ومن شأن الديوان الكبير أن ينظر الاشغال العمومية التي

لا تتعلق بالباب العالي اما الديوان الصغير فينظر في الحوادث اليومية والادارة الثانوية

وخصص السلطان سليمان البكوات المماليك الذين اقامهم ابوه واضاف اليهم ١٢ بيكا آخرين للاعمال التي فرق العادة فصاروا اربعة وعشرين بيكا وانشأ ايضا فرقة عسكرية سابعة من المماليك ولكنه احدث تغييراً عظيما في اقطاع الاراضي المصرية لانه لما عجز عن ايجاد طريقة لاحصاء الاراضي المصرية وثروتها رأى أن يحل تلك الصعوبة باقرار صريح واصدر فرماناً صرح فيه بانه المالك الحر الوحيد (١) لجميع الاراضي المصرية ثم فرق كل الاراضي المصرية على شكل اقطاعات على مزارعين كثيرين كان يدعوهم بالملتزمين الذين لهم الحق بمنحها للفلاحين الذين كانوا يحرثون تلك الاراضي ويتمتعون بخيراتها ويورثونها لاعقابهم ولكن ليس لهم حق التصرف فيها وكانوا يدفعون خراجها للملتزمين فاذا مات الفلاح بلاوارث تعود الارض للملتزم واذا مات الملتزم تعود الارض للسلطان وكان

(١) يقول المؤرخون الغربيون وبالاخص كاتب انكليزي في العصر الحديث أن السلطان سليمان الثاني يعتبر مثال العظمة في المسلمين الحاكمين على المسيحيين ومع ذلك فان ذلك الكاتب الانكليزي الذي كان يحامي ويدافع عنه قال أن السلطان سليمان الثاني لم يقدم على عادة قتل الاخوة كالذين تقدموه من السلاطين لانه لم يكن له اخ يذبحه وقال ذلك الكاتب ايضا أن هذا السلطان كان يأمر بذبح اي احد بدون محاكمة ولكن مع كل ذلك كان من احسن سلاطين الترك المسلمين

الملتزمون يدفعون للسلطان في مقابل هذا الالتزام خراجا سنويا اقل بكثير مما يجمعونه من الفلاحين الذين يعطوتهم الارض لزرعها وحفظ السلطان لنفسه الحق في استرجاع الارض من الملتزمين اذا كانوا لا يدفعون له اموالا توافقه

ومن هذا يظهر انه كانت تعطى جوائز على السرقة وعدم الامانة باختلاف انواعهما بين رجال الحكومة لانه بالطبع لا يستطيع الملتزمون دفع الاموال التي ترضي السلطان الا اذا كانوا قد جمعوا اضعافها من الفلاحين بطرق مختلفة

فكان هم الموظفين الوحيد في خدمة الحكومة جمع الاموال والاثراء في مدة خدمتهم القصيرة وهذا المبداء كان معمولا به من أول الباشا الذي يجوز خلعه في اي يوم واسترجاعه للاستانة الى اصغر موظف في الحكومة وهو جابي الضرائب

ومن وقت فتح السلطان سليم لمصر حتى غزوة نابوليون اي منذ ٢٨١ سنة حكم مصر في هذه المدة نحو ١١٩ باشا كانوا يتغيرون بالتوالي من (الاستانة) خلاف الثورات التي كانت تظهر في خلال تلك المدة وتتلاشى في وقت قريب . واحيانا كان الباشا يعود لمصر ثانيا من الاستانه بعد عزله بسنة أو اثنين وبالاجمال فان كل البشاوات الذين حكموا مصر كانوا غرباً وليسوا من المصريين فكانوا بعد قدومهم من الاستانة يعتبرون ذلك نفيا فيحكمونها بغير اخلاص والذي كان يخفف

عليهم مرارة هذا النفي والغربة كانوا يجدون في هذا المركز طريقاً سهلا لسرعة الاثراء وجمع الاموال

ولما رأى السلطان أن الباشاوات بطول اقامتهم في مصر يستبدون فيها وينزعون بها الى الاستقلال ويتمردون عليه صمم على تقصير مدة اقامة هولاء الولاة في مصر

وفي سنة ٩٤٥ ﻫ عهدت بشوية مصر الى داود باشا وهو تاسع من حكمها من الباشاوات فبقي فيها نحو ١١ سنة و٨ شهور لان السلطان كان يثق به لاستقامته وكرم اخلاقه وكان محباً للعلماء معضداً لهم ولعاً بمطالعة الكتب العلميه وخصوصاً العربية وانتهز فرصة وجوده والياً في مصر فجعلها كعبة يحج اليها الشرق كله للاستقاء من ينابيع علومها وفنونها . ولم تكن مصر تصل الى مثل هذه الحالة الا نادراً في مدة تتراوح بين قرن أو نصف قرن . وبعض المؤرخين يقولون أن متوسط المده التي اقامها داود باشا واليا على مصر كانت لا تزيد عن سنتين وقد يكون سعيداً اذا عزلته الدولة من الولاية بعد تلك المدة القصيرة فيخرج منها بثروة كبيرة يكون قد جمعها بطرق غير محلله واذا اتصل خبر ثروته بمسامع السلطان سليمان يهيج فيه حب الطمع والجشع فيختلق له ذنبا ويأمر بقتله ويستولى على كل ثروته

وثالث باشا تولى على مصر من ابتدأ الفتح العثماني هو احمد باشا واحيانا يقول المؤرخون أن اسمه سليمان باشا وقد مالت نفسه للاستقلال

فاحدث ثورة في البلاد توصله الى غرضه ولكونه كان عدواً لابراهيم باشا الصدر الاعظم الذي ارسل سرا سنة ٩٣٠ هـ الى امراء القاهرة ليقتلوا احمد باشا فبلغه امر هذه المؤامرة السرية فقبض على المحررات الرسمية وحرقها كلها ويقول بعض المؤرخين انه احرق كل الدفترخانه المصرية وسجلاتها لهذا الغرض وحرقت المحررات الواردة من الاستانة بقتله قبل أن تصل لاصحابها واخبر امرأ القاهرة أن تلك الاوراق أوامر وارده من جلالة السلطان بقتلهم فابوا الامتثال لذلك دون الاطلاع عليها فقتلهم قسرا ولما تأكد من انقراض كل خصومه نادى باستقلاله وامر أن يخطب له في المساجد وتضرب النقود باسمه ثم تغالى في العسف والفجور واختلاس اموال الناس فهاجوا عليه وبينما هو في الحمام خرج اثنان من امرائه بعد كسر باب السجن الذي كان قد سجنهما فيه وبيدهما العلم العثماني يستنصران الناس به فعلم احمد باشا انه سيقتل في الحمام فهرب من سقفه والتجأ عند احد كبار العرب بالشرقية فادركوه هناك وقطعوا رأسه وعلقوه على باب زويله ثم نقل للاستانة سنة ٩٣١ هـ

ويظهر أن سلاطين آل عثمان كانوا يميلون الى الكنيسة اليونانية في مصر اكثر من الكنيسه القبطية الوطنية المصرية ولذلك كان بطاركة اليونان لايخشون الاقامة في مصر وفي زمن الفتح العثماني كان البطريرك القبطي وقتئذ يوحنا الثاني عشر والبطريرك اليوناني مرقس الثالث. لكن لم يعرف في التاريخ عنه شيئا ولا عن الذي اخلفهما وهما يوحنا

الثالث عشر وفيلوثاؤس أو ثاوفيلوس

وفي ذلك الحين انقطعت العلاقات بين الحبشة وامها الكنيسة المصرية بالنسبة لما كان ينتج عنها غالبا من الثورات العظيمة فحرض ذوو الاعراض والغايات جلالة امبراطور الحبشة واغروه على قبول مطران على الحبشة من البرتغاليين المقيمين في بلاده وذلك المطران كان يدعى يوآس برمودز وقد سافر فعلا ذلك الرجل الى رومه ليرسمه البابا ويعينه في هذه الوظيفة ولما وصل اليها رسمه البابا مطرانا للحبشة وبطريركا للكرسي الاسكندري - وهو عمل عدواني عظيم -

ومع كل ذلك فقد انكرت الكنيستان القبطيه واليونانية في مصر (١) هذا الاعتداء

وقيل ان الذي اخلف البطريرك يوحنا الثالث عشر سنة ١٥٢٦ مسيحية البطريرك غبريال السابع على انه لم يزل هناك شك في اثبات مدة حكم يوحنا الثالث عشر حتى ان بعض الكتاب ينكرون حقيقة وجوده بالمرة . ومع ذلك فان اسمه ذكر بكشف اسماء البطاركة عند الاقباط ولو فرضنا عدم وجوده جدلا فاننا نرى فاصلا بين مدتي حكم يوحنا الثاني عشر وغبريال السابع وهو ثمانية وثمانين .

---

(١) وهذا العمل هو في الحقيقه من التدابير التي تستخدمها السلطة الدينيه الرومانيه لايجاد سلطة دائمة على الكنيسة القبطيه في مصر ولم يكن اصحاب هذا المبدا يألون جهدا في تنفيذه من وقت مجمع فلورنس حتى هذا اليوم

سنة (١) وهذا مما يحملنا على عدم التصديق بعدم وجود بطريرك للاقباط طول هذه المدة مع اعتبار أن البطريرك الذي ينتخب بحسب القانون الكنائسي القبطي لابد أن يكون في مقتبل العمر وان كان لا يقل سنه غالباً عن خمسين سنة . ومن هذا يتضح أن الذي كان جالسا على الكرسي المرقسي في عصر داود باشا هو يوحنا الثالث عشر

وقد جاء في تاريخ الكنيسة القبطية أن داود باشا حكم مصر بالعدل وخصص زمنا كبيرا من وقته لجمع مكتبة جميلة وكان الناس في مدة حكمه في بحبوحة السعادة والامن

وبعد أن توفى داود باشا سنة ٩٥٦ هـ اخذت البلاد تنتقل من رديء الى ارداء وزادت طرق السلب والنهب حتى وصلت الى درجة مريعة وقطعت الطرق وهجرت الشوارع القديمة . وآخر من تولى مصر في ايام السلطان سليمان محمود باشا وكان ارداء ممن تقدمه من البشاوات وجاء من الاستانة بموكب عظيم وعند مروره من الاسكندرية الى القاهرة كانت تقدم له الهدايا العظيمة وكان في انتظاره بالقاهرة حاكم الصعيد محمد ابن عمر في ذهبية جمع فيها انواع الهدايا ومبلغ ٥٠ الف دينار فاخذ الباشا منه كل ذلك وامر بخنقه ثم خنق ايضاً القاضي لانه لم يقابله عند مجيئه واستمر على هذا الاستبداد الفظيم حتى قتل كل اعيان القاهرة

(١) يوحنا الثاني عشر رسم بطريركا سنة ١٤٨١ مسيحية وغبريال السابع توفي سنة ١٥٦٩ مسيحية

وكان لا يمر في الشوارع الا مصحوبا برئيس الجلادين فاذا اراد قتل احد اشار الي هذا الرئيس فيزهق روحه في الحال وزاد طمعه وجشعه الى درجة عظيمة فلما توفى الامير ابراهيم الدفتردار الذي كان اميراً للحج استولى على كل ماله ومماليكه وجواريه وكان مقدار هذا المال مائة الف دينار ضمه الى ما يرسله سنويا مع الهدايا للسلطان ووزراه ليستميلهم اليه ولكنه لم ينتفع من هذه الرشوة حيث تربص له احد القتلة كان قد استأجره الناس لقتله ليستريحوا من ظلمه فتربص له بينما كان ماراً في ركبه مع رئيس الجلادين وصوب اليه رصاصة القته صريعا يتخبط في دمائه على الارض وكان ذلك يوم الاربع ٣٠ جماد اول سنة ٩٧٥ هـ وكان القاتل مختبئا وراء حائط البستان الذي كان داخلا اليه بموكبه فقبض حراسه على اثنين من فلاحي البستان وقطعوا رأسيهما في الحال ظنا منهما انهما من القاتلين . اما القاتل الحقيقي فهرب ولم تقف له الحكومة على اثر . وكان الناس ينتظرون وقوع ثورة أو هياج بعد قتله فاسرع التجار بقفل دكاكينهم . ولكن الامراء المدبرين لقتله خوفا من أن يفتضح امرهم ويقعوا في مسئولية عظيمة اخذوا يهدئون خواطر الشعب ويؤكدون لهم بعدم قيام ثورة أو هياج ولم تتجه انظار اي احد للاخذ بثار ذلك الظالم المقتول . وكان السلطان سليمان الثاني قد توفى قبل ذلك بعام واحد وعمره ٧٤ سنة وحكم ٤٨ سنة وتولى بعده ابنه سليم الثاني في ٩ ربيع اول سنة ٩٧٥ فنقل السلطان سليم الثاني سنان باشا والي حلب الى مصر بدل محمود

باشا المقتول واستقبل المصريون واليهم الجديد بترحاب عظيم وبعد وصوله بتسعة اشهر انفذه السلطان لمحاربة اليمن فسار اليها مع جماعة من امرأ مصر يوم ٥ شوال سنة ٩٧٦ هـ

واقام بدله اسكندر باشا الشركسي حتى عاد بعد سنتين ظافراً منتصراً ورأى البلاد هادئة في سلام بفضل همة اسكندر باشا الذي رفع الضرائب عن الفقراء والعلماء فاستلم سيتان باشا الاحكام منه ثانيا في اول صفر سنة ٩٧٩ فايد النظام واعاد حفر ترعة الاسكندرية وبنى حمامات وشارع جديد ومسجد في بولاق يعرف باسمه الى الآن واستدعاه السلطان في ذي الحجة سنة ٩٨٠ هـ بعد أن حكم مصر ثماني سنوات كانت كلها هنا وسلاما واخلفه حسين باشا وكان كثير اللطف والدعة فكثرت اللصوص في ايامه وكانت مظالم البكوات المماليك لم يزل اثرها باقيا في البلاد وفي ايامه توفى السلطان سليم الثاني في ٢٨ شعبان سنة ٩٨٢ هـ بعد أن حكم ٨ سنين و٥ شهور و١٩ يوما

وقد زاد السلب والنهب في مصر في السنتين الاخيرتين من حكم السلطان سليم الثاني الى درجه لا تطاق ولا تحتمل

وكانت البلاد السودانية في ذلك الوقت قد تلاشت واصبحت تيئن تحت مظالم اعراب يتاجرون في الرقيق لا يخضعون للحكومة ويسكنون في الصحارى والجبال وفى ذلك الحين اكتسحت قبيلة سوداء المملكة الجنوبية وانتخب رجالها من بينهم سلطانا عليهم وجعلوا مدينة سنار

عاصمة ملكهم

وفي مدة حكم السلطان سليم الاول وحفيده سليم الثاني كانت المملكة الحبشية مضطربة تنتابها الحروب الاهلية والدينية . ولما يئس امبراطورها من الانتصار على اعدائه المسلمين بلا مساعدة من الاوربا ويين تحالف مع البرتوغاليين لينصروه على المسلمين باجرة غالية وهو ان يقبل بطريرك كنيسته مرسوما من قبل بابا رومية بدلا من بابا الاسكندرية . ثم توفي داود واخلفه ابنه اقلاديوس على العرش الحبشي وكان سنه اذ ذاك ثمانية عشر سنة فقط فسار على خطة ابيه واستمر متحالفا مع البرتوغاليين حتى انكسرت كل القوات الاسلامية التي يقودها الحاكم المسلم (العادل) وتبدد شملها فلما رأى اقلاديوس أن بلاده طهرت من الاعداء واصبحت في سلام وكان يعامل برمودز البطريرك الروماني بكل تجلة واحترام رفض الاعتراف بسيادة بابا رومية في ممالكه وارسل وفداً الى البطريرك القبطي غبريال السابع ليبلغه عن لسانه انه (اي البطريرك) رئيسه الروحي الوحيد ويلتمس منه أن يرسل له مطرانا جديداً . فوصل الوفد وقام بمأموريته وفي الحال رسم البطريرك كاهنا يدعى يوسف وارسله مطرانا للحبشة فقابله الامبراطور وجميع الاحباش بالفرح والتهليل ومزيد الترحاب والاجلال اما برمودز البطريرك الروماني فلما رأى ذلك وتأكد من خيبته في اغرأ الحبشة وضمها الى الكنيسة اللاتينية فارق تلك البلاد راضيا من الغنيمة بالاياب وعاد الى البرتوغال حيث كتب تقريراً مفصلا

عما تم له ورآه عن عهد رحلته الى الحبشة حتى عودته منها .

وكان وقتئذ القديس اغناطيوس لو يولا مقيما في رومية فاتقدت نار الغيرة في قلبه واستأ من هذا الخذلان المعيب والخيبة المخجلة وكان يعتقد انه من الممكن الانتصار على الاحباش وجذبهم الى حضن الكنيسة اللاتينية ومسح العار الذي وقع لهم فتوسل الى البابا أن يرسله الى الحبشة ولكن البابا رفض طلبه لسببين اولهما عدم امكانه الاستغناء عنه وخوفه من تجرؤ الاحباش على قتله وثانيهما خوفه من أن هذه الغيرة الحارة تفقد فطنته وحزمه وتعقله فيجلب على نفسه مالا تحمد عقباه .

ثم رأى البابا أن يرسم آخراً من اكليروس الكنيسة اللاتينيه بطريركا للحبشة بدل برمودز فاختار رجلا يدعي نونو باريتو وكاهنين آخرين يكونان بوظيفة معاونين له في خدمته الكهنوتية وسافر هولاء الثلاثة الى جوا فاقام فيها باريتو واستمر الاثنان في السفر حتي وصلا الحبشه فاستقبلها الامبراطور اقلوديوس بكل لطف لاعتبارهما بمنزلة ضيوف غرباء وبعد أن اكرم مثواهما افهمهما بكل رقة وتأدب أنه يرفض قطعيا الاعتراف بسلطة بابا رومية عليه وعلى شعبه وبلاده وأنه لا يخضع الا لكرسي ماري مرقس الانجيلي . وقد سمح الامبراطور لهذين الزائرين بالبقاء في بلاده ولشدة غيرة الشعب الحبشي على كنيسته الوطنيه وتمسكه بمبادئه الارثوذكسية لم يضل ولم يحد عن معتقده بتأثير ذينك الرسولين

اما الامبراطور اقلوديوس فقد تفرغ لترميم واعادة بناء كنائسه

التي خربها المسلمون في الحرب الاخيرة ولقب أحد كنائسه العظيمة التي بناها (بجبل الذهب) لعظمة بنائها وجمال زخارفها

وبعد أن ترك المسلمون البلاد بعد انكسارهم الاخير عادوا ثانيا لغزو الحبشة فاضطر ان يقوم الامبراطور اقلوديوس بنفسه لصدهم عن بلاده كما فعل المرة الاولى ولكن خانته الظروف في هذه الدفعه لان الاحباش الاغبياء الذين كانوا معه اندهشوا من كثرة عدد المسلمين وفروا هاربين من أول وهلة فبقى اقلوديوس وحده في ميدان القتال ومعه فقط عشرون من السواري وثمانية عشر جنديا برتوغاليا من حاملي البنادق فاحتاط بهم المسلمون وبعد أن جاهدوا جهاد الابطال وباعوا حياتهم رخيصة في ميدان القتال قتلهم المسلمون عن آخرهم بعد أن قتلوا كثيرين من المسلمين وبقى الامبراطور وحده ومعه ٢٠ جريحا . ولكن بالرغم عن بسالته وشجاعته التي تحرك لها عواطف العدو الشريف اعجابا قطعوا رأسه وعلقوها لتكون موضوع الهزء والسخريه بين المسلمين مدة ثلاث سنوات حتى قيض الله تاجراً ارمنيا فافتداها ودفنها باحترام ووقار في مدينة انطاكية

وقد اخلف اقلوديوس على العرش الحبشي اخوه مينا او منياس فلم يظهر تلك الدعة ورقة المعاملة التى كان يظهرها أخوه للكاهنين الرومانيين اللذين اصبحا في عزلة وانفراد لا يعرفهما احد ولا يلتفت اليهما فرد من افراد الشعب فاورثهما ذلك مزيد السخط والاستياء ومن ثم أخذا يغريان احد كبار اشراف الاحباش فارتد عن ايمانه واتحد معهما ثم عقد مع

المسلمين محالفة ضد امبراطوره المسيحي فاضطر حينئذ الامبراطور منياس للقيام بجيشه لتأديب هؤلاء العصاة وحلفائهم من المسلمين فهزمهم شر هزيمة ولكن توفى بعد ذلك وفي الغالب ان وفاته كانت بسبب الجروح التي اصابته في الحرب وقبل وفاته ترك العرش لابنه سجود وكان صبيا يناهز اثنى عشر سنة من عمره

ويحسن بنا ان نقول هنا بان بابا روميه استاء من تصرف رسوليه ولو انه لا يعلم اذا كان هذا الاستياء قبل او بعد الانهزام فاسرع وارسل مندوبا الى غبريال البطريرك القبطي فاستقبل البطريرك ذلك السفير البابوي وهو يسوعي يدعي كريستوفر رودريكو بكل لطف واكرام ولما فاتحه برغبة البابا بانضمام الكنيسة القبطية للكنيسة اللاتينية رفض ذلك بكل ثبات رفضا باتا وابى الا المحافظة على عقائد كنيسته الوطنية المستقلة . فطلب السفير منه رجاء لامبراطور الحبشة بالنسبة لنفوذه عنده كي لا يمس الرسولين الموجودين هناك بضرر فكتب له ما اراد وسمح امبراطور الاحباش ثانيا لهذين الكاهنين بالاقامه في بلاده بعد مسامحتهما عما فعلاه مع والده ولكن لما اشتهر سوء سيرهما لدى جميع الاحباش سخطوا عليهما فلم ينجحوا في رد احد منهم عن عقيدته فقدما تقريراً للبابا يقولان فيه ان الحبشه لا ترتدع عن ايمانها الا بقوة السيف فلما علم بذلك ملك البرتوغال طلب من البابا بيوس ان يعيد رجاله فاستدعاهم الى بلادهم وعلى ذلك انتهت اعمال لارساليه الدينيه البرتوغاليه في الحبشه

الفصل السادس والستون

تأثير الاصلاح في مصر

سنة ١٥٧٤ مسيحية و١٢٩٠ للشهدا و٩٨٢ هجرية

وفي ١٠ رمضان سنة ٩٨٢هـ بويع مرادخان ابن السلطان سليم الثاني ولقب (مراد الثالث) فعين رجلا يدعي مسيح باشا الخادم واليا على مصر بدلا من حسين باشا الذي لم يحكمها الا سنة وتسعة اشهر وكان مسيح باشا هذا خزنداراً (ناظر الماليه) عند السلطان الثاني فحكم مصر خمس سنوات وخمسة اشهر ونصف وكان اول اهتمامه بها ايقاف تيار الناهبين واللصوص الذين كان يقتلهم بلا شفقة ولا رحمة حتى بلغ عدد من قتله من المجرمين عشرة الاف شخص أو يزيدون . وقد استراحت الرعية واطمأنت قلوبها على اموالها وممتلكاتها من الفاسدين الظالمين وقد اشتهر هذا الوالي بالعدل والذكاء ولو أنه كان يرى دائما عبوسا . ومما يذكر له بالاطراء والاعجاب والنزاهة والتقى انه عوضا من أن يستعمل مصر التعيسة كغيره سلما يتسلق منه الى جمع الثروة الخصوصية كان يرفض الرشاوي والهدايا التي كانت تقدم اليه بلا حصر فضلا من أنه شاد عدة مساجد بالقاهرة لم يبق منها الا واحد يوجد الآن بقرب المقابر المعروفة باسمه وان كان قد بناه باسم الشيخ نور الدين القرافي ووهبه له ملكا حراً وخصص له مالا للانفاق عليه وقد امر مسيح رجال الحكومة أن يستهلوا الكتابات الرسمية دائما بهذه العبارة (الحمد لله والصلاة والسلام

على نبينا وآله وصحبه ان المؤمنين اخوة فاحفظوا السلام بين اخوتكم واتقوا الله)

وفي سنة ٩٨٨ هـ عزل مسيح باشا واخلفه حسن باشا الخادم ناظر مالية السلطان مراد الثالث الذي ما وطأت قدمه مصر حتى عادت الى ما كانت عليه من الفوضى وسؤ الحال لانه وجه همته لجمع المال من أي طريق كان وبحالة مخجلة اوجبت تداخل السلطان نفسه واستدعت صراخ المصريين والشكوى من كثرة الرشاوي والهدايا والحجر على الممتلكات والتعديات الخ فاستدعاه السلطان بعد أن حكم مصر سنتين وعشرة اشهر كانت كلها شقاء وعناء وعند خروجه من القاهرة سار مختفيا تحت ستار الظلام بأن خرج من باب المقابر لئلا ينتقم منه الاهالي وأخلفه سنة ٩٩١ هـ ابراهيم باشا وامره السلطان أن يتحرى ويستطلع المظالم والاختلاسات التي اتاها سلفه حسن باشا فعين مندوبا في جامع السلطان فرج ابن برقوق ليستقبل تشكيات المتظلمين من حسن باشا وحدد ميعاداً لقبول التشكيات من ١٠ رجب سنة ٩٩١ هـ الى غاية رمضان من تلك السنة فتقدمت في ظرف تلك المدة مظالم لاتحصى ولم ينج من سرقاته واختلاساته حتى عمال وموظفي الحكومة الذين كانوا معه وتحت ادارته وياليته اقتصر على ذلك بل تعدى ايضا على اموال السلطان نفسه فان ابراهيم باشا اثبت انه سرق من الشون العمومية ١٠٠٤٤٢ اردب قمح وباعها واخذ قيمتها لنفسه فلما قدم ابرهيم باشا تقريراً ضافيا بكل ما تقدم الى السلطان امر باعدام حسن

باشا خنقا في الحال واستولى على كل امواله وممتلكاته التي جمعها من غير الطرق المشروعة اما ابراهيم باشا فقد بدأ بعد ذلك بالتجوال في كل بلاد القطر المصري وهي عادة لم تكن مألوفة من قبل ولم يسبقه اليها ملك أو وال على مصر . وكان غرضه من هذه السياحة أن يتحقق بنفسه احوال البلاد واحوال اهلها ويقف على اغراضهم ومراميهم ليتمكن من اصلاحها ونشر العدل بينهم . ولقد وصل في تجواله الى صحراء مصر الجنوبية وتوغل فيها حتى أم مناجم الزمرد الشهيرة عند كثير من المؤرخين «با با رامرود» فرسم بعضها رسما دقيقا يستطيع به الوقوف على كلياتها وجزئياتها وان كانت مهجورة من نحو ٢٠٠ سنة على الاقل . وقد رجع هذا الوالي المجتهد الى عاصمة البلاد وفي فكره آراء كثيرة عن طرق الاصلاح المرجو وبعض احجار جميلة من تلك المناجم الواسعة الغنيه لكنه ما بدأ بأعماله ومشروعاته التي ترقى القطر وأهله حتي استدعاه السلطان الى الاستانه فسافر اليها عام ٩٩٢ هجريه وترك البلاد بين أيدي بعض الحكام الذين تركوا اللصوص والاشقياء ينهبون ويسرقون ويعتدون على عباد الله دون ذنب ولا جريرة ثم اصيبت البلاد فوق ذلك بزلزلة قوية هدمت كثيرا من منازلها ومعابدها واوقعت الرعب والهلع في نفوس الساكنين وبعد اشهر قليلة عين سنان باشا الثاني خلفا لابراهيم باشا على مصر فاساء التصرف كما استاء الاهالي الذين اضطروا من ظلمه وفساد حكمه الى رفع شكواهم للسلطان . غير ان هذه الشكوي ما كادت تصل الى الاستانة

الا وسنان باشا هاربا على وجهه من مصر والشرق بعد أن حكم مدة عامين واخلفه في سنة ٩٩٤ هجريه عويس باشا وكان صارم الاحكام قاسيا غليظا فبغضته الجنود وهجمت عليه في الديوان يوم ٢٨ شوال سنة ٩٩٧ﻫ الموافق لعام ١٥٨٤ مسيحية واهانته اهانة شديدة قامت على اثرها ثورة عظيمة بين امراء المماليك وولاة الحكومة العثمانية استمرت ١٠ سنوات خربت فيها البلاد وهرب كثيراً من اهلها كما اختفى كثيرون في بطن الارض . ولما ان هدأت الثورة عين حافظ باشا احمد الخادم واليا على مصر عام ٩٩٧ ﻫ وكان كثير الحب للعلم وذويه وحاذقا حازما ورؤفا شفوقا بالاهالي وخاصة الفقراء منهم الذين احبوه ومالوا اليه وفي اثناء حكمه اي في ١٧ رمضان سنة ١٠٠٣ﻫ تولى الخلافة السلطان محمد الثالث فولى على مصر فورط باشا وهذا الرجل من اهل الذكاء اشتهر بلطفه ودعته وحبه للعلم وللفقراء كسلفه الا ان مدة حكمه لم تطل سوى سنة واحدة وثمانية ايام واخلفه السيد محمد باشا في شوال سنة ١٠٠٤ وكان ايضا كسابقيه في الاخلاق والاداب فاعاد بناء الجامع الازهر ورتب انطعام لفقرائه من طلبة العلم ورمم المشهد الحسيني ومع دعته واجتهاده بحفظ النظام والامن وفض المشاكل فقد بلى بثورة عسكرية عظيمة نشبت في كل بلاد القطر عام ١٠٠٦ ﻫ واذدادت سعيراً ووهيجا كما ازداد العصاة جرأة والثوار جسارة فاجتمعوا في القاهرة وارادوا ان يبطشوا به ان لم يسلمهم بعض ضباطه لقتلهم فهرب منهم عند قائد الجيوش بالقلعة فانتهزوا فرصة هروبه وقتلوا

بعض القضاة والقواد ثم جالوا في المدينة سلبا ونهبا و قتلا حتى جعلوا منهم في كل منزل اثرا لا يمحي من اذهان سكانه ونال لاقباط طبعا في هذه الثورة فوق مانال اخوانهم المسلمون من ضروب الاعتداء والسلب والنهب كما قتل كثير من الامراء وغيرهم مما لا متسع لذكره في هذا الكتاب

وفي ١٧ ذي الحجة سنة ١٠٠٦ هـ تولى خضرباشا ولاية مصر بعد السيد محمد باشا وكان شديداً اراد ان يستعمل سلطته للاضرار بالناس فامر اولا بقطع رواتب الفقراء والعلماء كما قلل المرتب للجند من الطعام فهاج هؤلاء عليه هياجا عظيما وهموا بقتله في ٢ رمضان سنة ١٠٠٩ هـ فلم يتمكنوا من الوصول اليه لكنهم تلاقوا بحاجبه وارادوا قتله فاستعطفهم واعطاهم ما شاؤا من المطالب وقد حدث في اثناء ذلك أن بابا رومية عاد لاتخاذ المساعي والوسائل التي توصله لاعتراف الكنيسة القبطية بسلطته عليها فارسل بعض رجاله الى مصر فاجتمعوا بالبطريرك يوحنا الرابع عشر الذي عقد لهم مجمعا من الاساقفة في بابيلون ليسمعوا آراءهم في هذه المسألة لكن لما اجتمع الاساقفة سمعوا آراء النواب حتى هاجوا وعارضوا معارضة شديدة كما رفضوا اقتراحات البابا رفضا باتا الا أن البطريرك القبطى (١) كان طاعنا في السن وميالا لتضحية استقلال كنيسته فاعلن

(١) ان البطريرك يوحنا الرابع عشر كان يعتقد انه اذا خضع لسلطة البابا تحت شروط سهله ومطالب مقبولة يضمن بذلك حماية الاقباط تحت رعاية راع قوي البأس فيأمن غائلة الاضطهادات الاسلامية

الاساقفة بان القوانين الخاصة بقبول الاقتراحات قد تمت ودونت مرتكنا في ذلك الاعلان على نفوذه الديني وتأثيره الشخصي . وما هي الاساعة أو اكثر حتى توفى هذا البطريرك فجأة (١) وانحل المجلس مرتبكا بلا عمل يذكر وبدون ان يرى هذه القوانين التي لم يوقع عليها احد اما مندوبو البابا فقد قبضت عليهم الحكومة بحجة انهم جواسيس غرباء والقتهم في اعماق السجون فعز ذلك على الاقباط وهم مطبوعون على الكرم الطبيعي وهموا لانقاذ اولئك المسجونين فقد قدم بعض اغنيائهم مبلغ خمسة الاف قطعة من الذهب فدية لهم فلبت الحكومة نداءهم واجابت ملتمسهم واخرجت المسجونين من سجنها حالا حيث عادوا بعدها الى بلادهم (٢) وابلغوا الامر الى البابا وبكل ما حصل لهم وحدث اولا وآخرا فاسرع هذا ورد مقدار الفدية الى الاقباط شاكرا لهم حسن عواطفهم وجميل شعورهم

(١) يقول المؤرخون الرومانيون الكاثوليك ان البطريرك مات مسموما ولكن لم تظهر ادلة ولا قرائة تاريخية تؤيد ذلك

(٢) يقول بارونيوس المؤرخ الروماني ان الذي اخلف البطريرك يوحنا الرابع عشر بعد موته فجأة قد اكمل المشروع الذى اسسه سلفه بشأن الخضوع لسلطة رومية مؤكدا روايته هذه بالكتاب الذي نقله في كتابه بهذا الشأن واسنده البطريرك غبريال الثامن وقال فيه ان الاتفاق والاتحاد المذكور قبلته الكنيسة القبطية المصرية في يناير سنة ١٥٩٥ . ولكن ظهر بعدئذ ان بارونيوس كان مغشوشاً فيما اثبت وان كل كتاباته كانت غير حقيقية

اما حالة الديار المصرية في ذاك الحين فقد كانت سيئة للغاية أن لم نقل انها كانت على غاية الفوضى حيث وقعت البلاد تحت نير المظالم والمتاعب لسوء تصرف الولاة الذين حكموها . وقد كانت الثورات التي تقع طبعاً عقب تلك الاحوال تنتهي اما بقتل الوالي أو بارجاعه الى الاستانة العلية وكذلك بايقاع افراد الطبقة الصغرى من السكان سيما الاقباط منهم في مصائب عظيمة . وبعد أن خمدت الثورة التي ثارت في عهد السيد محمد باشا وصدرت له الاوامر بترك منصبه أخلفه علي باشا السلحدار سنة ١٦٠٢ مسيحية وكان بطلا محبا للقتال سفاكا للدماء ميالا الى الجند استعمل القساوة الفائقة في معاملة المصريين حتى قال عنه المؤرخون المسلمون انفسهم انه كان لا يخرج مرة في موكبه الا ويقتل عشرة الاف نفس تحت اقدام جواده بتهم باطلة فازداد خوف الناس منه وزادت تعاسة البلاد في ذلك الحين بوقوع مجاعة هائلة وعقب تلك المجاعة اعظم وافظع الاوبئة فتكا

وكان رجل يسكن بقرب احدي بوابات المدينة قد اخبر شمس الدين المؤرخ انه رأى اكثر من ثلاثماية جنة خرجت امامه من البوابه في يوم واحد . واخيراً لما كثرت الوفيات امر الباشا بابطال عمل الاحتفالات الخاصة بدفن الموتى (المشهد) ثم خاف على نفسه من العدوى فهرب من القاهرة مستخلفا عليها احد الامرأ المدعو يبري باك وهذا توفى بعد ذلك بقليل فلم يرجع علي باشا السلحدار ليعين وكيلا آخر له فاجتمع السناجق

وانتخبوا الامير عثمان بك ليقوم مقامه فبقي عثمان بك حتى عين الباب العالي خلفاً لعلي باشا وكان سبب الابطاء في تعيين هذا الخلف من الاستانة وفاة السلطان محمد الثالث في ١٦ رجب سنة ١٠١٢ هـ

وفي تلك السنة (أواخر سنة ١٦٠٢ مسيحية) مات البطريركان القبطي واليوناني ولكن لم يعلم ان كان سبب وفاتهما الطاعون او انهما ماتا موتاً طبيعياً لان ذلك غير مثبوت في التاريخ ويحتمل ان غبريال الثامن بطريرك الاقباط هو الذي مات بالطاعون ولكن مليتيوس بيغا بطريرك اليونان لم يمت به لانه يظهر ان الطاعون لم يكن هكذا شديداً في الاسكندرية حيث يقيم مليتيوس بيغا من وقت قدومه للقطر المصري وقد كان غريباً عن مصر كباقي من تقدمه من بطاركة الكنيسة الملكية اليونانية في مصر حيث ولد في جزيرة كريت ثم ارتقى في وظائف الكهنوت حتى اتى مصر بصفته نقيب نائب عن كنيسة القسطنطينية في مصر وبطريركاً للاسكندرية. وتفصيل ذلك انه أتى الى الاسكندرية سنة ١٥٧٤ مسيحية طالباً للعلم والمذاكرة ثم رسمه البطريرك سيلفستر كاهناً وهو الذي تقدمه فنجح في وظيفته الكهنوتية وفاق على اقرانه في الاسكندريه ثم ارسل الى كريت ليستدعي ولداً قريباً له وذلك الولد هو الذي صار بعدئذ البطريرك كيرلس لوكار . ولما حضر كيرلس للاسكندرية لم يتمم تعليمه فيها فارسله قريبه الى فينسيا حيث امضى بضعة سنوات وعاد الى الاسكندرية وقت انتخاب قريبه مليتيوس بطريركاً للاسكندرية بدل سيلفستر . وفي المدة التي كان فيها الكرسي

البطريركي اليوناني خاليا أي من بعد وفاة سيلفستر الى انتخاب مليتيوس كان مجتمع القسطنطنية معقودا سنة ١٥٩١ واقر على انشاء بطريركية جديدة مستقلة بمدينة موسكو عاصمة روسيا وبينما كان مليتيوس بيغا رئيسا على الكنيسة اليونانية في الديار المصرية كان قريبه كيرلس لوقار يتجول بضعة سنين في اوروبا . وفعلا زار ايطاليا وجنيفه وهولانده ويقال انه زار انكلترا ايضا ولكن الدليل على زيارته لانكلترا مما يقبل الريب وقد اندهش كثيرا من مظاهر التقوى والايمان الحار والعبادة الحقيقية التى رآها فى تلك الممالك التى كانت تخطو فى سبيل الاصلاح ولما كان مثل باقي اعضاء الكنيسة اليونانية الوطنية فقد عارض كثيرا فى مزاعم وادعاآت رومية وكان يشعر ان كنيسته تحتاج حقيقة للاصلاح بخلاف اقرانه من رجال الاكليروس وما تعلمه ورآه في سياحته اثر في ايمانه تأثيرا عميقا لكنه مع ذلك عاد للاسكندريه صادقا في ايمانه وحبه لكنيسته وبعد ذلك بقليل رسمه قريبه مليتيوس بيغا كاهنا واخذه معه الى القسطنطينية وبعد ان بقى هناك مدة سنة ارسلوه في مأمورية صعبة الى بولاندا فلم ينجح فيها ولما عاد منها ارسلوه الى كريت ثم عاد منها ثانيا للقسطنطينية وانتهز فرصة قدومه للقسطنطينية هذه الدفعة فاصطحب مع المسيو دون هاجا وطلب منه ان يرجع معتقدات وتعاليم كلفنوس .(١)

(١) مذهب ديني اوجده احد اللاهوتيين يوحنا كلفن عاش من سنة ١٥٠٩ الى سنة ١٥٦٤ مسيحية)

هذا هو الرجل الذي انتخب ليخلف مليتيوس بيغا البطريرك اليوناني الاسكندري بعد ان توفى عقب المجاعة والطاعون اللذين حلا بمصر سنة ١٦٠٢ ولم يعارض في انتخابه احد ولكن ثروته العظيمة التي انفقها على كنيسته ومعارفه العالية أزالا الظنون الناشئة عن فتوره في الايمان الارثوذكسي ولما عين سار على خطة تخالف من تقدمه من بطاركة اليونان لان هؤلاء كانوا يقضون اغلب ايامهم خارج القطر اما هو فاستوطن في مصر وترأس كنيسته عشرة سنوات واجتهد كثيرا في اصلاح المفاسد ومع كل ذلك ظل مخلصا لكنيسة اجداده

ويقول السائح الانكليزي سانديس الذى زار مصر سنة ١٦١١ مسيحيه انه اندهش كثيراً من تعاليمه وآدابه السامية ويقول ايضا ان كيرلس هذا كان له فكر صائب واعتقاد تام باهمية تعاليم الكنيسه الوطنيه الانكليزيه التى سارت في سبيل الاصلاح دون ان تعمل على خراب نفسها كما عملت الكنائس الاخري ويعتقد ان نقطة الاختلاف والفرق بين الكنيسه الانكليزية والكنائس الشرقيه ليست بذات اهمية ولكنه لسوء الحظ لم يظهر استعداداً لمديد الصداقه المسيحية الي الكنيسه القبطيه التي كان يري طول زمن تألمها بسبب مظالم المسلمين

لانه من عهد الفتح العثماني كانت الكنيسه اليونانيه في مصر محبوبه من رجال الدوله العثمانيه ونوابها في مصر وقد تحسنت احوال الكنيسه بسبب ذلك تحسنا يذكر . اما الكنيسه القبطيه الوطنية فكانت بعكس

ذلك قد وصلت الى اسفل دركات الانحطاط واصبح الاقباط اذلاء ومستعبدين . يحتقرهم المسلمون ويقولون انهم كفار ويهزأ بهم الاروام (اليونان) ويقولون عنهم انهم هراطقة وكان العنصران ينظران اليهم بعين الحسد ويغار منهم المسلمون لانهم يفوقونهم في العلم والاستقامه والامانه التي تجعلهم يمتازون عنهم في دوائر الحكومه حينما احتكروا كل وظائفها — ولان المسلمين واليونان يعرفون ان الاقباط هم سكان مصر الاصليون القدماء ويغار منهم اليونان لان مطالبهم العظيمه تعتبرها الحكومه بانها مطالب الكنيسه الوطنيه . ولا يعذر كيرلس بطريرك اليونان ولا يخلو من المؤاخذه في تجنبه استعمال كل وسائل التودد والصداقه مع بطاركة الاقباط (الذين عاصره اثنين منهم) ولا يعذر ايضا لعناده ورفضه كل الحقائق الواضحه المختصة بالاقباط (١) واحتقاره لهم وتشامخه وغطرسته

---

(١) كتب في احدي رسائله لاحد أصحابه من تابعي مذهب كلفن يقول ان الاقباط واليعقوبيين هما طائفتان دينيتان مختلفتان ، ووصف اليعقوبيين قائلا انهم من تابعي نستور (نستوريون) أي تابعي مذهب نستور . والحقيقه انه اظهر جهلا عظيما فيما يختص بالاقباط حتي ان ينيل المؤرخ يشك في وجود تلك الرساله التي كتبت بهذا المعنى لانه لا يصح وقوع جهل كهذا من بطريرك اليونان الاسكندري . ومع ذلك فانه حتى في عصرنا الحاضر الذي يقولون عنه عصر النور يقع يوميا كثيراً من مثل ذلك الخطأ بجهل بعض رجال كنيستنا الانكليزيه الذين يحكمون

بسبب جهلهم المعارف والعادات الاوروبية . ومع ذلك فان قسوس كنيسته ما عدا الذين تعلموا في الخارج كانوا لا يقلون جهلا بالعالم الغربي والعلوم بانواعها عن قسوس الكنيسه القبطية وحالة كهنة الكنيستين كانت في اسفل دركات الانحطاط . وفي خلال ذلك كانت المخابرات جارية بين بابا رومية وبطاركة الاقباط الذين يخلفون بعضهم بعضا بالتتابع . وكتب البابا غريغوري الثالث عشر الى البطريرك القبطي يوحنا الرابع عشر يدعوه الي الاعتراف بالسلطه الرومانية فأرسل يوحنا رده الى البابا سكستوس الخامس الذي اخلف غريغوري وكان مثل رد البطريرك غبريال الثامن للبابا كليمن الثامن وهو الرفض مع اللطف والرقة التى جعلت بابا رومية يظن مدة طويله انه نجح في مساعيه — وهكذا كتب بارونيوس المؤرخ في تاريخه عن رضى الاقباط بالاعتراف بالسلطه البابويه — ولما جلس البطريرك مرقس الخامس على الكرسي المرقسي دارت المخابرات ثانيا بينه وبين البابا . وكان اعتقاد الرومانيين الى هذا اليوم ان الكنيسة القبطية كانت قد خضعت للسلطة الرومانية لو لم يكن الباشا والى مصر عزل البطريرك مرقس بغتة ولكن الحقيقة التى لا ريب فيها ان الكنيسة القبطية مع وقوعها في اشد احوال الهول والتعاسة ظلت متمسكة باستقلالها القديم الى الآن ولو انها كانت راغبة في الاشتراك في السنين

الآن ارض مصر نفسها وهم مسؤلون بصفتهم مسيحيين عن الحالة التي يتخذونها نحو الكنيسه القبطيه

المتقدمة مع الكنيسه الرومانية واليونانية كما حصل بين الكنائس اليونانية والكنائس الانكليزيه فانها لم تكن تصرح لاى بابا غريب أو نائب بابا من أية درجة أو أمة كانت ان يتصدى للقيام بوظيفة التشريع فيها بل بقيت كما هي الكنيسه القبطيه المصريه الوطنيه المستقله .

وفي سنة ١٦٠٤ وجهت الكنيسه القبطية نظرها نحو مشروعات واعمال الارساليات الرومانية الكاثوليكيه في الجبشة ٠ وقبل ذلك الوقت باربع سنوات سافر الى الجبشه يسوعياً يدعى بيدوفيز ولما وصل الى مصوع سجنه الاحباش هناك ولكنهم اطلقوا سبيله بعدئذ وسمحوا له بالاقامة بين ظهرانيهم فعاش مدة معتزلا بمدينة فريمونا من اعمال الحبشه وانقطع لدرس اللغة الحبشيه فبرع فيها حتى قيل عنه انه كان يقرأ ويكتب فيها بطريقة أصح وامتن من الحبشي الاصلى فاتصلت شهرة ذلك العالم الى بلاط الامبراطور زارنجل الذى خلف سجود على العرش الحبشي فأرسل له واستقدمه ليظهر براعته امامه في اللغة الحبشيه وشيئا من معارفه ومواهبه العلميه ٠ فطار بيز فرحا لهذه الدعوة وتمثل امام الامبراطور فاخذ يناقش الكهنة الوطنيين بلغتهم في المواضيع العلمية حتى تغلب عليهم ببراهينه وفصاحته وسمح له الامبراطور ان يلقى موعظة امام الحاضرين ٠ فالقى موعظة جميله أثر بها على الامبراطور فمال الى اعتناق المذهب الكاثوليكي الروماني واقتدى به كثيرون من رجال بلاطه وحكومته فأدى ذلك الى قيام الشعب الحبشي على الامبراطور دفاعا عن ايمان كنيستهم الوطنيه الاصلية وارضاء

لخاطر المطران القبطي وقامت حرب اهلية ذبح فيها الامبراطور من أول معركة وهزم اعوانه وبعد قتله اصبح يطالب بالعرش الحبشي اثنان احدهما من العائله الملوكية والآخر من الثابتين على المذهب الاصلي القديم وبعد نزاع وجهاد بين الطرفين وقع الانتخاب على شنوده الذي يسميه المؤرخون سوسيانوس والذي كان يسمى ايضا سلتام سجود وارتقى الى العرش الحبشي

وبعد ان هدأت الاحوال سمح الاحباش الي اليسوعي بيز بالبقاء في بلادهم. ولما كان يسوعياً حقيقياً وعالماً ماهراً — وكان ذا حماس شديد على مذهبه ولا يتحول عن غرضه مهما حالت دونه العوائق فانه أخذ يجتهد في التأثير على هذا الامبراطور الجديد واستمالته لمذهبه وبسعبه هذا اوقع البلاد ثانيا في حرب اهلية.

وذاع وقتئذ ان وفداً سافر من الحبشة الى ايطاليا ليعلن للبابا خضوع شنوده امبراطور الحبشه ودخول المملكة الحبشية تحت سلطة الكنيسة الرومانية. فاعلن ثانيا المطران القبطي حروما صادقا على الذين يتمسكون بالعقيدة الكاثوليكيه وهاج الشعب الحبشي ثانيا فاشهر السيف في وجه الامبراطور دفاعا عن دينه واستقلاله القديم ولكن الامبراطور انتصر على الشعب هذه المرة. ومن ثم اخذ الهياج يزداد شيئا فشيئا حتي تمرد كل الشعب الحبشي واشهروا العصيان ضد الحكومه واصبحت البلاد في حرب اهلية هائلة. فسحق الامبراطور شنوده رؤساء العصاة الواحد بعد الاخر واذاع علنا ارتداده واعتناقه المذهب الكاثوليكي الروماني. اما بير روبيز

اليسوعي مصدر تلك المصائب فقد مات بعد ذلك سنة ١٦٢٣ مسيحيه .
ويعتقد الانسان بلا شك انه بمساعيه الغير شريفه نجح في تخريب المملكه الحبشية المسيحية التي اكرمته واضافته فاقام حربا اهليه فيها بين اهلها وامبراطورها

الفصل السابع والستون

مصر في القرن السابع عشر

سنة ١٦٠٣ مسيحية و١٣١٩ للشهدا و ١٠١٢ للهجره ولما توفى السلطان محمد الثالث بويع بدله ابنه احمد الاول ابن محمد . فولى على مصر في الحال واليا يدعي ابراهيم باشا فاراد ابطال زيادة مرتبات الجند فتمرد عليه رجال الجيش وكان ذلك سببا لقتله فانه بعد توليته ببضعة اشهر تآمروا عليه وانتهزوا فرصة خروجه بحرسه قاصدا شبرا بطرفي النيل فارادوا الفتك به ولما استشعر بالامر التجأ الى قلعة الدولاب بتلك الجهة ولكنه اشار عليه السنجاق بالهروب من طريق النيل فلم يقبل فاحاط الجنود الثائرون بالقلعة وارسلوا منهم ١٥ ليأتوا برأس الباشا فلما مثلوا امامه وبأيديهم السيوف انتهرهم قائلا ألم تأخذوا مرتباتكم والهدايا التي جاءتني منذ توليتي (فماذا تريدون اذا) قالوا نطلب رأسك ثم صنعوه على رأسه ووجهه وقطعوا رأسه ورأس أمير آخر انتهرهم على ذلك وعلقوا الرأسين على باب زويله

وكان ذلك يوم ٢٩ ربيع آخر سنة ١٠١٣ هـ . وولى على مصر بعده موقتا عثمان ولكنه لم يقل البقافولوا القاضي عسكر مصطفى افندي . ولما علم الباب العالي بمقتل ابراهيم باشا أرسل بدله الوزير محمد باشا الكروجي مزودا باوامر صارمه الى السناجق بقمع الثورة وتحقيق اسبابها والقبض على القاتلين فلم يقبل السناجق تنفيذ هذه الاوامر فتوسط الامراء بينهم وبين الباشا الذي وعدهم انهم اذا سلموا اليه القاتلين يعفو عن ذنبهم

فسلموا القاتلين للباشا فامر بقطع اعناقهم امامه في الحال ولكنه لم يبر بوعده للسناجق بخصوص العفو عنهم وبعض المؤرخين يقولون انه عفا عنهم والنتيجة انه لما رأى الناس انه في خلال السبعة شهور التي ولي فيها واليا على مصر قتل من الامراء والبكوات المشاغبين والمحركين للثورات نحو مايتي نفس فاوجد ذلك الرعب في قلوب من يتوقون للثورات والمشاغبات وقل عدد القاتلين وبعد ان حكم سبعة أشهر وتسعة أيام تولى بدله الوزير حسن باشا وكان أقل حزما من سلفه. وفي ٧ صفر سنه ١٠١٦ هـ تولى بعده الوزير محمد باشا وكان حكيما حازما.

وفي اواخر شوال من السنة الثالثه (ينار سنة ١٦٠٩ مسيحية) ثار عليه العساكر لشروعه في الغا الضرائب الغير عادلة وقد اشتهر بانه ليس له اعداء في البلاد الا هولاء الجنود الذين أراد أن يمنعهم عن السلب والنهب ولما اكتسب محبة الناس له لما اوجده بينهم من النظام وتوطيد دعائم الراحة والسلام حكم مصر نحو أربع سنوات وأربعة أشهر و١٢ يوم واستعفى

من نفسه بلا ضغط ولا اكراه . فلما أمضى نحو سنتين حاكما على مصر ورأى رجال الجيش قد اصبحوا وليس لهم غير مرتباتهم فقط فلا يستطيعون جمع ضرائب غير قانونية لاجل التفرغ الى ملاذهم ولو شقي الفلاحون التعساء سوءا كانوا من المسلمين والاقباط وهذا هو سبب تمردهم وعصيانهم . فتحالف كبار الجيش من الامراء والبكوات في اجتماع عقدوه في برج السيد احمد البدوي على قلب السيادة العثمانيه وارجاع البلاد الى حالتها القديمة حيث كان المماليك فوق القانون فانتخبوا واحدا منهم وجعلوه سلطانا عليهم وآخر جعلوه وزيرا . ثم قسموا مصر الى اقاليم التزم كل واحد منهم أقليما واستمروا في السلب والنهب . ولكنه كان يوجد بينهم بعض من المماليك ورجال الانكشاريه المخلصين الذين رفضوا الوقوف في وجه الباشا الحاكم العادل فاجتمع معهم الباشا وتشاور واياهم مع السناجق والجاويشية للتوصل الى مايجب اتخاذه ضد هؤلاء العصاة فاتفق الجميع على القيام لمحاربتهم فساروا بقيادة الباشا في ٩ ذى الحجه سنة ١٠١٧ هـ ومعهم ستة مدافع وبعض قبائل من العرب في الليلة التالية عسكروا في بركة الحج وفي الصباح التالي هاجموا العصاه في الخانكاه وضيقوا عليهم باطلاق النيران فلما رأى الامراء العصاة انهم سيهزمون لا محالة سلموا انفسهم واخذ عليهم الباشا عهدا بتسليم سلطانهم وزعمائهم وهو يضمن لهم حياتهم في مقابل ذلك . فسلموا له بعض رفقائهم وعددهم نحو ٢٣٧٧ من ضباطهم فقتلهم الباشا حالا وبذلك تخلصت الاقاليم من

عبث العصاة ثم اسر الباقين وذبح كثيرا منهم فلما رأى القاضي عسكر تزايد المذابح يوميا نصح للباشا ان يتبع سياسة احكم من ذلك وهي ان ينفي كل من يقبض عليه من العصاة بدل قتلهم فقبل الباشا هذه النصيحة وكبل نحو ٣٠٠ مملوكا بالسلاسل الحديدية وارسلهم على الجمال الى السويس ومن هناك وضعوا في مركب وارسلوا الى اليمن . ولما ارتاح محمد باشا من الثورات صرف باقي مدة حكمه فى تخفيف الاثقال عن عاتق المصريين فاصلح ادارة الماليه وخفض بنفسه النفقات التي كانت تدفع من خزينتها فابطل منها مبلغا عظيما كانت تدفعه الحكومه معاشا يتمتع به الكسالى من ذوات وكبار المسلمين وابطل طريقة المماليك الشراكسيه في جمع الضرائب ونفذ القوانين التى اصدرها السلطان سليمان بشأنها سنة ٩٣٢ هـ ونظم المكوس واذا كانت بعض الاراضي لا تأتي بأيراد عظيم تنازل لصاحبها عن الحكومة ضرائبها .

ولما أقيل وبارح القطر المصري انهالت عليه الانعامات والمكافآت مما لم يصادفه احد من اسلافه وتولى بعده محمد باشا الصوفي وكان عفيفا لا يقبل الرشوة محبا للعلم والادب ورعا حليما لم يأت ظلما . على الاطلاق

وفي سنة ١٠٢٢ هـ (١٦١٣ مسيحية) ارسل الصدر الاعظم عشرة الاف رجلا من الانكشارية الى اليمن لاخماد ثورة فيها كطلب حاكمها فنزل هؤلاء الجنود بمصر لانها طريقهم الى اليمن وكان مع قائد الفرقة المذكورة

امر شاهاني الى محمد باشا الصوفي والي مصر ليمد رجال تلك الفرقة بالنقود ويقوم بكل لوازمها من المؤونة وغيرها ويسهل لها وسائط النقل من الاسكندريه للسويس . فرأى الانكشاريه ان بلاد مصر جميلة وتلذ الاقامة فيها فادعوا انهم جاؤا للاقامة بها وانكروا امر رحلتهم ولم يذعنوا للباشا الوالي بالسفر الى اليمن واحتلوا عنوة القسم الذي كانوا فيه من القاهرة بما في ذلك باب النصر وباب الفتوح وطردوا اصحاب البيوت الكائنة في ذلك القسم واقاموا بها وشرعوا في اقامة المتاريس حول ذلك القسم وقفلوا باب النصر وأقاموا المدافع في برجيه . فالتزم الوالي الباشا أتقاء لذلك الخطر اتخاذ الوسائط السياسية في محاصرتهم في نقطتهم بكل مالديه من العساكر والمدافع ولكنه لم يكد يضيق عليهم الحصار حتى تمكن احد ضباط جيشه الامير عابدين بك من الدخول الى حصنهم من مدخل سهريج مدرسة الجانبلاطيه فذعروا وظنوا ان جنوداً تتبعهم من ذلك المدخل فخانوا وسلموا في الحال ولكن لم يعاقبهم الباشا على هذا التمرد بل فرق عليهم نحو ثمانين كيسا من النقود وطلب منهم القيام الى مهمتهم في اليمن

وبعد ذلك اعتزل الصوفي وتقاعد في قبة العادليه بمصر حتى أتي خلفه من الاستانه احمد باشا دفتر دار مصر سابقا الذي لما دخل الى القاهره بموكبه رجمه احد الناس بحجر من فوق سطح فكسر الهلال الذي فوق عمامته ولم يصب بضرر فقتل الفاعل في مكانه وبعد ذلك بثلاثة سنوات

اي سنة ١٠٢٥ هـ وصل الوالي امرا من السلطان ليضم ماية جندي على حملته المرسله عن طريق مصر لمحاربة الفرس فارسلهم تحت قيادة صالح بك امير الحج ومروا بالمديريات ولم يشعر الاهالي بمرورهم مع انه لم يكن يتيسر قبل ذلك مرور ماية رجل بعزبه او قرية مالم يسلبوها وينهبوها وينسب ذلك لنفوذ الباشا الوالي ولما اوجده من النظام والعدل في صرف رواتب الجيش في مواعيدها ويقال انه عند ماودع الباشا هذه الفرقة فرق على كل واحد من رجالها ٢٠ دينارا وقد التقت بالجيوش العثمانية عند الخانكة

وبعد مضي سنتين تقريبا تمزقت احشاء مصر والقسطنطينية بسبب عزل السلاطين والولاة والثورات الداخلية التى تخللت ذلك .

ففي يوم الاربع ٢٣ ذي القعدة سنة ١٠٢٦ هـ توفي السلطان احمد الاول وأخلفه أخوه مصطفى الاول ولما جلس على اريكة العرش العثماني عزل احمد باشا والي مصر المتقدم ذكره بعد ان حكمها مدة سنتين وعشرة اشهر و ١٢ يوما ولم يقتل في اثناء ذاك الا عشرة من المصريين فقط لان أفعالهم كانت تستوجب القتل وما عدا ذلك فانه لم يكن يعاقب احدا الا بعد الفحص والتحقيق الدقيق . وتولى بعده مصطفى باشا لفغلى.

ثم عزل السلطان مصطفى بعد ثلاثة اشهر وثمانية ايام في ٣ ربيع اول سنة ١٠٢٧ وانتخب بدله ابن اخيه ابو النصر عثمان فعزل مصطفى باشا والي مصر لانه كان سببا في حدوث ثورة عسكرية في ٧ شوال سنة ١٠٢٧ هـ

قتل فيها كثير من الامراء وغيرهم واضطر الباقون الى الفرار وتولى مكانه جعفر باشا ولكن مدة حكمه لم تدم اكثر من خمسة اشهر ونصف وفي اثناء المدة التي حكم فيها مصر كان معضدا العلم ومكرما العلماء ويريح العباد ولكن حدثت في ايامه مصائب عظيمة للبلاد من طاعون ومجاعه وغيرها وكان هو سببا في موت بطريرك الاقباط كما سترى في سياق هذا الفصل وكان المماليك مدة حكم احمد باشا ومصطفى باشا يسلبون وينهبون ولا يكفون عن الذبح وقطع الطرق ويستخفون بقوة الولاة اتباعا لطبعهم الاستبدادي .

وفي سنة ١٦١٦ مسيحية عاد كيرلس لوقار بطريرك اليونان الى مصر بعد غيابه في اوروبا زمنا وكانت سياحاته في اوروبا قد اثرت عليه وزادت في ميله الى مبادئ كلفن اللاهوتية وفي الحقيقة أنه بسبب ذلك كانت العلائق بينه وبين رئيسه بطريرك القسطنطينية على غير ما يرام ولكن تم الصلح بينهما قبل أن يرجع كيرلس الى مصر . وكانت اول اعماله في مصر بعد عودته من سياحته انه جمع اساقفة كنيسته وعقد مجمعا منهم تحت رئاسته واصدر حروما ضد الارساليات الكاثوليكية الرومانية التي قد تأسست وقتئذ في البلاد

ولم يمضي وقت طويل بعد جلوسه على كرسي البطريكيه في الاسكندرية حتي علموا ان قسوس كنيسته جميعا في الديار المصريه جاهلون اغبياء لا يدرون شيئا في شؤون وظيفتهم الكهنوتيه وغير كفؤ لتلك الوظائف بالمرة مثل

قسوس الاقباط الذين كان يحتقرهم كثيرا بعكس اولئك الدخلاء الكاثوليك الذين كانوا قد تعلموا العلوم اللاهوتيه حتى أثروا بمواعظهم البليغة على الشعب المصري فاستأ البطريرك كيرلس وخشى عاقبة ذلك وهذاما جمله أن يبادر الى عقد مجمعه ويحرمهم كما تقدم القول

ثم قدم طلبا الى رئيس اساقفة كنتربري بانكلترا عن يد سفير انكلترا في القسطنطينية يستميد رائيه في أمر جهل قسوسه فاشار عليه رئيس اساقفة كنتر بري ان يرسل الي انكلترا كاهنا من الشبان وهو يتعهد بتعليمه اللاهوت ويؤهله لان يكون الساعد الايمن له في مصر. ويحسن بنا هنا أن نأتي على كتاب كيرلس الى رئيس الاساقفة ورد هذا الاخير عليه لما في ذلك من الفائدة واللذة :

خطاب البطريرك الى رئيس اساقفة كنتر بري الكلى القداسه والاحترام — مولاي السيد رئيس اساقفة كنتر بري — (متروبوليت) مطران ورئيس اساقفة عموم انكلترا — الذي يستحق عظيم الاحترام من داعيكم — اما بعد — فلي الثقة بان كتابي هذا يصل الى يدكم الطاهرة بانكلترا بكل احترام ووقار يليق بمقامكم السامي .

اني كيرلس بنعمة الله بابا وبطريرك كنيسة مدينة الاسكندرية العظيمه وقاضيها الشرعى العام . بعد ان اتمنى لغبطتكم كمال الصحه لفائدة ونمو القطيع المعهود اليكم من الرب رعايته اتشرف بابلاغ مقامكم الرفيع منذ عودي بنعمة الرب يسوع الى بلاد مصر وبتمتما بعونه تعالى بمزايا

السلام الذي اوجدته في كنيستي — أراني مشاقاً للتبروء من الوعد الذي قدمته لقداستكم بخطاباتي السالفة وضميري يشعر بان المسيح لا يسر بمشاهدة سلام تام في كنيسة اخرى بدرجة اتم مما في كنيستي ما دمنا قد نزعنا بنعمه الايمان المعلن لنا كل اسباب الشقاق والخصام من عهدنا الجم المسلمين (الذين يعتبرون الداعدأ المسيحية واشد المعارضين لمبادئها) السنة اولئك الذين يحركون عوامل ذلك الشقاق وتلك المخاصمات (١) الذين بسببهم قد وقعنا في تجارب كثيرة مختلفة وتضايقنا كثيراً: ومع كل ذلك فاننا اكراماً لاسم الفادي الحبيب يسوع الذي نطق به بكل ورع وخشوع والذي تحمل منا علامته دائماً . نشعر مسرورين بتلك الالامات النفسية متحملين كل ذلك الغيظ والضيق بكل ثبات وعلاوة على ذلك فاننا اذا ادت الحالة لوقوعنا تحت العذابات والقصاصات الاليمة فنقبله بكل انشراح معتقدين أنه بهذه التجارب قد يتجلى ايماننا ويظهر اكثر فاكثر ويعلن فينا مجد الله

اذاً لا نخاف من تلك التجارب بل نخاف من اولئك الكلاب اولئك العملة الغشاشون — اولئك المراؤون المنافقون — الذين يقولون غير ما يضمرون — الذين ادت بهم وقاحتهم لمهاجمة الله نفسه اذا كانوا يريدون باية طريقة تأييد مظالم بابا رومية

فاولئك الجواسيس يزعجوننا الآن ويغشوننا لبساطتنا ويستعملون

---

(١) يقصد بهذا التلميح الارساليات الكاثوليكية الرومانية في مصر

وسائط والآت كثيرة لجذبنا تحت سلطتهم مرتكنين بالاخص على مظاهر براعتهم في العلم والمشاكل التي يوجدونها — بينما نحن نشتغل في امر احتياجنا لرجال متعلمين يقدرون أن يقفوا في وجه اولئك المدعين الكاذبين لاننا بسبب خطايانا قد اصبحنا افقر كل الشعوب وبانقلاب الممالك قد فقدنا الفنون الحرة

وبعد طول التأمل والتفكر في هذا الموضوع وصلت الى نتيجة مرضية للافكار وهو فتح باب المواصلات بيني وبين محبتكم الطاهرة طالبا مشورتكم ومساعدتكم

وبينما انا في هواجسي هذه هبطت علي اعظم تعزية من قداستكم حيث تشيرون علينا بأمر جلالة ملككم المعظم أن نرسل احد مواطنينا ليدرس اللاهوت بين ظهرانيكم وتحت رعايتكم المقدسة

فها هو اذاً قادم لغبطتكم شاب يوناني الجنس حائز لوظيفة قسيس من وظائف الاكليروس وعارفا بالآداب اليونانية وهو ابن احد اعضاء كنيستنا الاسكندريين . شريف الاصل . ذكي الفؤاد وعلى تمام الاستعداد لتلقي العلوم اللاهوتية العالية . ولنا الثقة في أن الارتقاء الذي سيتحصل عليه يأتي بالفائدة المطلوبة ولا يجعلنا نندم على ما صرفه من الوقت هذا اذا كانت النعمه الالهية تحل عليه من السماء واذا شملته رعاية قداستكم ومساعدة يدكم الطاهرة

هذا وبمناسبة قول قداستكم أن هذا المشروع مقبول لدي صاحب

العظمة والجلالة الملك جامز الاول المتوج على عرش انكلترا يبد الله . فيجب علينا تقديم خالص امتناننا ومزيد تشكراتنا القلبية لشفقته هذه التي تقرب شبهاً من شفقة ومحبة الملك السماوي . فبهذا القبول قد اقر عيننا وكان اشبه بملاك يرسله الله سبحانه وتعالى من السماء مزوداً باعظم عطايا نعمته وبعنايته سبحانه وتعالى الخصوصية له قد اسند اليه رعاية تلك المملكة العظيمة النامية . وقبل الختام نلتمس من قداستكم أن تنوبوا عنا في ابلاغ تحياتنا مقرونة باعظم واجبات الاحترام والوقار والخضوع والعبودية الجسدية الى جلالة هذا الملك الشفوق الكريم الذي يتمنى له من كل قلوبنا حياة سعيدة وعمراً مديدا ونتوسل من تقواه الغريزة العظيمة أن يسمح بفيض احسانه العميم على عبده القادم للتعليم

وفي الختام اذا كان ينقص في كتابي هذا شيئا فيما يختص بالتعليم فهذا يمكن تداركه بواسطة فطنتكم التي اقامها الله فيكم وارسلها كمصباح مضيء في مكان سام حتى يمكنكم ليس فقط تعزية مواطنيكم البريطانيين بل ايضا كل ابناء جنسنا من اليونانيين

اني احييكم واستودعكم الله ايها الآب الطاهر واطلب منه سبحانه وتعالى أن يهبكم عمرا طويلا سعيدا وان يعطيكم القوة الجسدية ليمكنكم تحمل متاعب الشعب والكنيسة التي عهد اليكم العناية بها

تحريرا بالقطر المصري في اول مايو سنة ١٦١٦ شرقي (اي سنة ١٦١٧)

فوصل مستروفانس القسيس اليوناني بامان الى انكلترا واستقبله

الملك والمطران استقبالا حسنا وأدخل في جامعة اوكسفورد

وهذه صورة رد المطران على البطريرك اليوناني

من جورج أبوت بنعمة العناية الالهيـة رئيس اساقفـة كنتربري ومطران سائر بلاد انكلترا ورئيس اساقفتها — الى الكلي القداسة السيد والاخ كيرلس بابا وبطريرك الاسكندرية وقاضيها المسكوني العام دام بصحته في المسيح

أما بعد فانه توجد اشياء كثيرة تشهد بالشعور المشترك والاتفاق الحلو اللذان يتمتع بهما أعضاء كنيسة المسيح العامه . ولكني في هذا الوقت اشعر بهما اكثر من المعتاد خصوصاً لتمكني من معانقة اخوتكم بين ذراعي مع عدم سبوق رؤيتكم وجهاً لوجه ومع بعدكم عني بمسافات طويلة ارضية وبحرية . وذلك لان وحدة الايمان تربط كل منا الواحد بالآخر . وعهد المحبة يوصلنا في شخص واحد وفي روح شخصية واحده حتي بذلك نمجد المسيح يسوع وبذلك نستنشق الحياة . ونهنيكم من صميم الفؤاد على السلام الذي تمتع به كنيستكم التي كما تقولون ليست مضطربة بالانشقاق والشغب والفتن الداخلية . هذا ما نهنيكم بتمتعكم به في وسط الاعداء الالداء الحاملين على اسم المسيح طبقاً للنبوة الملوكية بشأن المسيح الملك — . (لتكن حاكما في وسط اعدائك) وأيضا نلتمس بركة تقواك على عطايا الرب الكثيرة المنسكبه بغزاره على الكنيسة البريطانية ويليق بنا في هذا المقام أن نوضح لكم ما قاله قديسكم العظيم

يوحنا ذهبي الفم عن جزيرتنا (ستسمعون الناس يتفلسفون من الكتاب المقدس بالسنة غريبة ولكن بايمان مألوف يستعملون لغة المتبربرين . ويعترفون بايمان القديسين) لان شعبنا المخصص لعبادة المسيح دائما مصطحب بنور الانجيل الساطع ويطفي ظمأه بغزارة من مجاري مائه الحي القراح بلا خوف ولا وجل وهذه النعم الربانية اللذيذة لا يمكن الحصول عليها في الكنائس الواقعة تحت نير بابا رومية .

أما فيما يختص بتثقيف وتعليم شعبنا فانه يختلف عن الكنائس الاخرى التي طهرت من ادران البابوية . فاننا متمسكين باقدم شكل من القواعد الاكليريكية فنطلب من الله الذي يعطي شعبه كل شيء حسن أن يحفظهم لنا الى الابد . ولو اننا بعد فساد آداب عقولنا وبالنسبة لخطايانا وبالاخص لكفرنا بالنعمة ونكراننا للجميل قد استحقينا بان ينقل شمعداننا الذهبي من محله ونحن انفسنا قد حرمنا من نور الكتاب المقدس على اننا لا ننسب النعم التي نتمتع بها لاستحقاقنا اياها فاننا فى الحقيقة لا نستحقها . ولكن اولا الشفقة والمحبة الالهية وثانيا بالنسبة للمحبة الوحيدة التى ينتخبها الرب لاعلان مجده بواسطتها . فان جلالة مليكنا المعظم چارلز الاول الوارث للتاج والرئاسة الدينية من الملكه اليصابات التي تتذكر اسمها مقرونا بالتقوى يعززهما بشرائعه ويضيئهما بقدوته الحسنة لان جلالته عرف بانه غيور على سماع المباحث المقدسة وضيف على مائدة الرب وبالاخص في الولائم الاكثر خشوعاً

وهو يتناقش على علم في اعظم اسرار المدارس اللاهوتية العويصه مع أعظم الاساقفة المتعلمين وقد الف أيضا وكتب كثيرا وأحسن كتاباته الدقيقة في علم اللاهوت . وكان مبدأ كتاباته تثبيت الايمان وهدم الاغلاط اللاهوتية وبالاخص الرومانية منها . وعليه فاني اهنيك من كل قلبي للمحبة التامة التي نلتموها من ملك هذه صفاته فانه بعد أن اطلع على الخطابات المرسله الي من قداستكم يهدي غبطتكم تحياته ويتكلم عنكم بكل ثناء وشكر . ولكي ابرهن لقداستكم على صدق نيته قد امرني باستقبال مرسلكم المدعو متروفانس وغمره بكل تعطف ولطف واني سالاطفه واعزه واعتبره وديعة عندي وعنوان محبتكم لي . كما واني بكل امتنان سامده بكل ما هو ضروري ولازم له . وها الآن قد وضعته في مدرسة يونانية صغيرة في حديقة تسر النفوس . حيث يترعرع فيها بين ظهرانينا وفي وقت قريب يثمر ثمراً شهياً .

وفي جامعة اوكسفورد العظيمة التي بها اعظم مكتبة فاخرة وسبعة عشر كلية ويتعلم بها كثيرون من مختلفي الاجناس والعناصر على نفقة المملكة العمومية ادخلنا مرسلكم متروفانس للتعليم وعندما يستكمل تعليمه ويثمر ثمرا جيدا ويصبح قادرا على خدمة كنيستكم

ولي الان فقط ايها الاخ الكلي القداسة بان اتوسل من غبطتكم وتقواكم مواصلة صلواتكم للرب عن الكنيسة البريطانية كما نحن نصلي أيضا كذلك عن الكنيسة اليونانيه حتى تكون صلواتنا بقوة العناية الالهية

سورا منيعا لكنيستكم معززة بالمحبة والسلام ولكي تحرر من اعمال اولئك الجواسيس الحدثين الذين يقاومون بخياناتهم حربة المسيحيين ومنهم اولئك الرهبان الكاذبون الذين يجب تجنبهم وعلى الاخص الخارجين حديثا الان من دولاب الفخراني الذين ينتحلون لانفسهم اسم المخلص (١) بغير استحقاق الذين يعترفون بانهم يسعون وراء السلام وهم يجعلون كل شيء في اضطراب وارتباك ويدعون انهم يطلبون الحقيقة وهم دعاة المغالطة والمواربة وقد يعمدون في الغالب الى الحنث وخيانة العهد . فنسأل راعي الغنم العظيم ان يحفظ قطيعه من أولئك الثعالب والذئاب الخاطفة كما نسأله ايضا ان يحفظ تقواكم وقداستكم في سلام وفي نعيم وغبطة الى الابد

ولوحظ الكنيسة اليونانية في مصر اتفق ان رجلا هولانديا يدعى داوود ليليودي وهلم شديد التمسك بتعاليم كالفينس اتى مصر وصرف زمنا طويلا سائحا في انحائها . واختلط مع كيرلس بطريرك اليونان وبقوة عارضته تمكن من التأثير الشديد عليه وكانت نتيجة هذا التأثير ان جعله يجنح شيئا فشيئا عن تعاليم كنيسته حتى شرد كثيرا عن جادة الايمان الارثوذكسي وأصبح يعتقد ان وظيفته الرئاسة الادارية فقط على تلك الكنيسة اليونانية المصرية . وفي سنة ١٦١٨ مسيحيه ارسل خطابا مملوءة الشكر العظيم لمطران اسيلانزو الذي كان قد ترك الاعتراف بالمبادىء الكاثوليكية واذاع الحياد عن الكنيسة الرومانيه

(١) يقصد بذلك اليسوعيين

والميل الى الكنيسة الانكليزية وكان سبب تشكرات كيرلس له انه ارسل له نسخة من كتابه المعروف في ذلك الحين باسم (الجمهور المسيحي)

ونحن نلخص هنا من كتاب الشكر المذكور ما يظهر أمياله العقلية نحو الكنيستين الرومانيه والمصرية :—

فمن جملة ما قاله بهذا الصدد انه عند ما جاؤا لي بخطابك العزيز كنت مريضا وملازما لفراشي . ولكني تجلدت وقرأته فلما عرفت ما هو الكتاب وما هي مواضيعه ومن هو المؤلف له . أمرت باحضاره الي فمسكته بيدي ولم اكف عن مطالعته حتى حضر الطبيب واوقفني عن المطالعة . وبعد ان تقدم وجس نبضي . ناولته الكتاب لانه تابع بدينه الى الكنيسة الرومانية . فماذا تظنه قال لي ؟— انه قال — هل تريد قداستكم ان تسمع رأيي في هذا الكتاب ؟ قلت نعم — قال لا يوجد شيء في هذا الكتاب الا تهمة الرومانيين عامة برفض قبول وظيفة الكردينال العظيمة التي كنت انت مشتاقا اليها والتي كانت سببا في سقوطك وترك مذهبك !

واذا كانت اطاعة الانسان لاخلاص قلبه وحرية ضميره لانه لا يستطيع قبول اوهام ومطامع وضلالات البابا الروماني يعتبر كافرا باعانه فمن فكري انه من الخطأ المبين مع المشهور عن فطنة قداستكم وحذركم واحتياطكم ان تطاوعوا اشارة بارونيوس وتغتروا بتلك الحيلة الاسكندرانية وتتوهموا ان ذلك الوفد الاسكندري هو سفاره أو (١) وفد حقيقي

(١) قيل ان الوفد المذكور أرسل من مصر لمدينة رومة في عصر البطريرك غبريال الثامن

مع ان الحقيقة انه لم يكن الا خدعة رجل قبطي قد توجه لرومية واتخذ لنفسه صفة مندوب من قبل بطريرك الاسكندرية .

وقبل اكتشاف حيلته كان المتملقون الى كليمنث يكتبون ويخطبون بعجائب وغرائب هذا السفير ويخيلون للسامعين كأن الوقت قد حان حيث اصبحت الدنيا باجمعها في قبضة بابا رومية . ولكن عند تولية بولس واكتشاف الخدعة الزموا صاحبها ذلك العميد المدعي ان يهرب سرا من رومية لئلا تظهر حيلته علنا فتسوء العاقبة فهرب وكر راجعا الى مصر .. وكانت هذه الحادثة مثل الحادثة التاريخية التي ساقصها على قداستك بخصوص الاساقفة الروسيين لاني شاهدتها بنفسي حيث كنت نائبا عن بابوي الاسكندرية في بلادبولاندا من اعمال روسيا وكان مرافقا لي وزميلي قاصد بابوي في القسطنطينية وكان حاضرا معي بين كل الشعب الروسي في مجلس برزسك الذي كان مجتمعا ضد اولئك الاساقفة الروسيين الذين توجهوا الى رومية ... اخاف أن يكون ذلك ضياعا للوقت وضجرا على قداستكم لانكم لا تحتملون بالنسبة لمرضكم أن تسمعوا سرد حيل ومكر الرومانيين ومكائدهم .

لقد مضى عصر كنا فيه مفتونين مرتبكي العقل قبل أن نفهم المعنى الحقيق لكلمة الله . ومع اننا لم نتداول ولم نتخابر ونتشارك مع بابا رومية ولم نصرح ولا نعتقد بما اتخذه لنفسه وهو تلقيبه نفسه رئيس الكنيسة مثلا . ومع ذلك فاننا نصدق ان قواعد وعقائد الاعتراف الروماني هي

حقيقية ما عدا في بعض مواضيع في اوقات قليلة قد تختلف فيها الكنيسة اليونانية عن الكنيسة اللاتينية . ولقد بغضنا مبداء وقانون اصلاح الكنائس المغاير لايماننا . والحقيقة التي لا ريب فيه اننا لم نعرف ما هو الذي بغضناه ولكن لما اراد الرب الرحيم أن ينورنا ويفهمنا غلطنا الاول ابتدأنا نتصور ونتأمل انه كان من الواجب علينا قبول الاصلاح . وكما انه من الواجب على الوطني الحر أن يحامي ويدافع عن الحق اذا قام شغب أو فتنة في البلاد . فهكذا انا اكثر من ذلك افتكر انه من الواجب على كل مسيحي حقيقي أن لا يوارب أو يتصنع الربأ في المواضيع التي تختص بخلاص النفس بل عليه أن يعتنق بكل صداقة وصفاء نية أن للمذهب الموافق لكلمة الله . فما الواجب علي اذا ان اعمله تحقيقا لمبادئي

لما كنت قد تحصلت بواسطة محبة الاخوان على بعض كتابات من علماء الدين المسيحي التي لا يمكن أن يجدها الشرق مطلقا . قد استمديت بواسطة مساعدة الروح القدس وتمكنت في مدة ثلاث سنوات من مقارنة مبادئ الكنيستين اليونانية واللاتينية مع المبادئ التي تم فيها الاصلاح(١) وذلك بانني تركت الوالدين وارشاد الآباء الروحانيين واتخذت لي مرشدا الكتاب المقدس ونسبة وقياس الايمان فقط . حتى امكنني اخيرا بنعمة الله أن اكتسب حقيقة راهنة وهو أن مبدأ الاصلاحيين هو الاكثر موافقة للحق والاكثر انطباقاً على مبداء المسيح فاعتنقته .

---

(١) يعني بها الكنيسة الانكليزية

ومن ثم صرت لا يمكني أن احمل بأن اسمع تفاسير وتأويلات التقاليد التي وضعها بني البشر تلائم وتوازي قوة الكتاب المقدس . لانه من المستحيل أن نقدر نعبر عن مقدار فساد وضرر عبادة الصور والايقونات في مثل الظروف الحاضره . والله شاهد علي بأني اندب متأسفا على حالة الشرق الحاضره وارثي لها لعدم تمكني من اتخاذ الوسائط اللازمه التي يمكن بها شفاء ذلك الجرح القبيح المخجل . واني لا افتكر ولا أظن بان الايقونات لا بد من محوها والقضاء عليها فانها ما دامت لا تعبد ولا يسجد لها الشعب فانها لا تسبب ضررا . ولكني امقت واشمئز من عبادة الاوثان التي يأتيها اولئك العابدين العميان ولو اني لاحظت في بعض الاحيان اثناء صلواتي الخصوصية لله أن الصليب قد يؤثر ويساعد عقلي ويصور امامه سريعا قوة وشكل الآلام التي قاساها المسيح على ذلك الرسم الخشبي الذي هو عبارة خطين مستقيمين متقاطعين ولكني ارى العوام — لا أقول العقلاء ذوي الافكار الصائبة — قد حادوا عن العبادة الروحية الحقيقية والتوحيد الواجب اداؤهما لله وحده فقط . وعندي أنه من الافضل أن الناس جميعا يمتنعوا ويكفوا عن خطية عظيمة مهلكة كهذه عوضا عن أن يسيروا بالحياد والمخالفة لناموس الرب لئلا يصدمون في صخرة الذنوب والآثام التي لا تغتفر ويقضون على ذواتهم بالهلاك الابدي

واما مسألة الاستغاثة بالقديسين وطلب الشفاعة منهم فانه مخفي

زمن مديد من عمري قبل أن اشاهد القوم يكشفون مجد الرب يسوع المسيح فمارضت بشده ذلك المعتقد في كتابين الفتهما ضد تعاليم العالم ماركوس فوكسيا الذي هو من بلاد ترانسيلفانيا . الذى الف رداً على كتابي. والان اطلب من الله أن يكون شاهدا علي عند ما اقول انه بدرس احوال الشعب المسيحي التابع للكنيستين اللاتينية واليونانية يصيبني الم داخلي شديد عند ما اسمع بامر استمداد الناس معونة القديسين في أغلب الظروف تاركين يسوع المسيح فيخسرون بذلك نفوسهم اه

وكان البطريرك كيرلس ميالا لمبادىء الكنيسة الانكليزية ولكن بتأثير صاحبه المسيو دي ولهلم عليه جعله يميل أيضا لتعاليم كلفنيوس واصبح في يأس من اصلاح كنيسته ورجع حالا عن عزمه وممارسته ذلك الاصلاح الذي كان قد شرع فيه وعزم عليه. ولاشك أن الشعب المتعبد لتلك الكنيسة اصبح يعتقد بان ذلك البطريرك هرطوقيا اجنبيا وقد ضاعت الامال والفرص في ايجاد حياة جديدة للكنيسة اليونانية في مصر .

ولم تكن الكنيسة القبطية أيضا في ذلك الحين اصلح حالا من الكنيسة اليونانية اذ ظهر فيها وقتئذ هرطقة جديدة بعد أن كانت تمارس فقط بطريقه غير منظوره . وقد انحطت آداب الاقباط المصريين كثيرا بسبب اختلاطهم الاجتماعي بالمسلمين فكان الاساقفة في اغلب الاحيان يرون انفسهم مضطرين لمقاومة امور التسري واتخاذ زوجات غير شرعيات

على طرق مختلفة . وفي أول ما ظهر هذا العيب الاجتماعي العظيم بين الاقباط قام أحد اساقفة دمياط واعلن على رؤوس الاشهاد بان تعدد الزوجات ليس محرما في العهد الجديد وان ممارسته واتباعه افضل من الزنا والسفاح واخذ يخطب بين الاقباط مصرحا لهم بأخذ اكثر من زوجة

ولما لاحظ البطريرك مرقس الخامس ان هذا الاسقف تمادي في غيه ولم يوبخه ضميره اصدر امراً بحرومه ولو كان هذا الاسقف عنده رأى نفسه قد اصبح مشلوحا احتج احتجاجا بسيطا على هذا الحكم واجتهد بالدفاع عن نفسه بابداء ارائه التي تعزز مبدأه الذي يخطب به بين قومه فانه كان يمكن اعتباره صالحا حقيقيا وان ضميره يبطن الاخلاص لقومه ولو انه غلط غلطا فاضحا في الواسطه التي اتخذها لتنفيذ الغاية الصالحه التي يضمرها وكانت الغاية تبرر الواسطه . ولكنه اتخذ مسلكا مقابل ذلك الحكم حرم نفسه به من التمتع باستمالة عقل البطريرك لقبول مبادئه وارائه ذلك انه اتى البيت من غير بابه واستعمل نفوذه مع نفوذ بعض الاقباط الذين يشغلون مراكز سامية في الحكومه لينتقم من البطريرك فرفعوا الامر الى الحاكم المسلم وهو جعفر باشا الذي فرح لهذا الامر واتخذه فرصة سانحة يذل بها الاقباط . فدعي البطريرك مرقس امامه وامر بضربه ضربا شديداً . ولما حتى توفى بعد قليل من تأثير ذلك العذاب .

وعلاوة على احوال البؤس والتعاسة التي وصلت حالة مصر اليها في ذلك الحين زارها ايضا الطاعون واشتدت وطأته بينها فصار يحصد السكان

بالعشرات في شتاء تلك السنه وقد هرب من البلاديين الهاربين المسيودي ولهلم وقبل مفارقته صر اهدي كيرلس بطريرك اليونان كرثان برسم الارض بصفة تذكار ولما مات مرقص اصبحت الكنيسة القبطيه بلارئيس . اما كيرلس فانه لم يهرب من البلاد فأنه يتصرفه الحكي دنه أفقد بقية سلطته على كنيسته في هذه الظروف . وقد حسبوا ان الذين ماتوا بالطاعون لغاية ربيع تلك السنة وهي سنة ١٦١٦ اربعماية الف نفس ماعدا الذين في زوايا المدينة وقال أيضا ان كل شوارع تلك المدينة المتسعة الانحاء كانت ملآى بجثث الموتى يتخيل للناظر أنه لم يبق احد حيا وقال ذلك البطريرك عن نفسه أني ظليت حابسا نفسي في منزلي في وسط ذلك الخطر العظيم وكنت اعطي الاوامر من النافذة لرجال الكنيسة فيما يختص بترحيل جثث الموتى من المسيحيين وبنعمة الرب أني حي للآن . وقال شمس الدين أنه عمل أحصاء عن الذين ماتوا بالطاعون من أصحاب الدكاكين والجالسين في الاسواق فبلغ نحو ستماية خمسة وثلاثين ألف نفس ماعدا الذين ماتوا في المحلات الاخرى .

وفي أثناء ذلك انتخب الاقباط بطريركا جديدا لهم وهو يوحنا الخامس عشر الملقب بالملواني فحكم الكنيسة تسعة سنوات ولا نعلم شيئا عن أعماله في خلال هذه المدة .

ثم خلع في ذلك الوقت جعفر باشا الذي عذب البطريرك السابق حتى الموت وتولى بعده مصطفى باشا وذلك بعد زوال الطاعون بسنة واحدة فكان هذا الوالي ظاتيا عاتيا وكانت فاتحة أعماله أنه قبض على مصطفى بك

البغلجي زعيم الثورة التي نشأت أيام مصطفى باشا لفغلي وأعدمه فارتاح منه الناس . ثم أضطهد التجار أضطهاداً عنيفاً وانتشر ظلمه فشكاه الناس الى السلطان فعزله وولى بدله حسين باشا فابطل كل الضرائب الظالمة التي كان قدفرضها سلفه على التجار والناس بلا حق . وفي أيامه أرتفع النيل أرتفاعا عظيما فوق العاده وطغي على الارض فسبب اضراراً جسيمة للبلاد بدل النفع الذي كانوا ينتظرونه بعد الطاعون . فيئس الناس وأصبحوا في ضيق عظيم وعقب ذلك مجاعة عظيمة ولكنها لم تكن شديدة الوطأة . ثم عزل حسين باشا واستقدم الى الاستانه وقبل وصول حسين باشا الى الاستانه كان قدخلع السلطان عثمان الثاني يوم الخميس فى ٨ رجب سنة ١٠٣١ هـ الموافق ١٦٢١ مسيحية وبويع مصطفى الاول الذي كان سلطان قبله . فوصل حسين باشا مسرورا وتقرب من السلطان الجديد وقوي حزبه فتعين صدرا اعظم

وكان السلطان الثاني قد ارسل قبل عزله محمد باشا واليا على مصر بدل حسين باشا المعزول فنفر منه المصريون خوفا من ان يأتي معهم ما كان يأتيه من الاستبداد مذكان واليا فى الرومالي ولكنه لحسن حظ المصريين اسرع حسين باشا الصدر الاعظم وعزله بامر السلطان بعد توليته على مصر بشهرين ونصف وولى بدله ابراهيم باشا الذى بقى واليا على مصر مدة سنه حاز في اثناءها ثقة المصريين به ولكن حدث في ايامه غلاء شديد في المأكولات . ثم عزل ابراهيم باشا ولما جاء الامر بالعزل سافر الى

الاسكندريه بطريق النيل بخلاف عادة الولاة المعزولين الذين كانوا يسافرون برا . وتولى مكانه مصطفى باشا في ٢٢ رمضان سنة ١٠٣٢ ﻫ فابلغه كتبة الديوان ان ابراهيم باشا اخذ مبلغا عظيما من خزينة الحكومه فارسل وراءه بعض الجاويشيه والجنود فادركوه على النيل في منتصف الطريق الى الاسكندريه فهددهم بالقتل ان لم يتركوه فخافوا على انفسهم وعادوا الى القاهره بخفي حنين فارسل الوالي ثانيا صالح بك بشرذمه من الجنود فادركه وقد نزل البحر من الاسكندرية فامره بالنزول الى البر ثانيا وبارجاع الاموال التي معه فقال له انه متوجه الى الاستانة وأن كان عليه ديون يدفعها للسلطان نفسه هناك ثم نشر شراع سفينته فاطلق عليه صالح بك المدافع من طابية مغارة الاسكندرية فلم يبال بها ولما وصل الى الاستانة وجد السلطان مصطفى الاول قد خلع وتولى مكانه السلطان مراد الرابع بن احمد فلم يتعرض أحد لقضية ابراهيم باشا وفاز بامنية من الاموال المصرية

وفي سنة ١٦٢١ مسيحيه أي في المده التي بين حكم السلطان مصطفى الاول للمره الثانيـة والسلطان مصطفى الرابع كان قد نفض البطريرك اليوناني كيرلس لوقار غبار مصر من قدميه وارتقى بطريركا للقسطنطينية واخلفه على كرسي الاسكندريه البطريرك جراسموس وكان هذا أيضاً من أهالي كريت مثل البطريرك كيرلس ولكنه انضم بثبات الى الكنيسة الشرقية ولم يكن ملأ لتعاليم كلفنيوس . ولما وصل كيرلس الى القسطنطينية انهمك في مشاحنات ومجادلات شديدة مع اليسوعيين الذين كانوا

يشتغلون باجتهاد عظيم في اغرا اعضاء كنيسته في تلك المدينة العظمى على الانضمام الى المذهب الكاثوليكي فاصدر دسقلية كهنوتية نبه فيها ابنا كنيسته المؤمنين بالرجوع الى حضن كنيستهم وعدم الاعتراف بانضمامهم للكنيسة اللاتينية . ولكنه اخطأ بعدم احتراسه من قوة عدوه واستهانته بها فعزم اليسوعيون على اتخاذ كل الوسائط لعزله وقدموا رشوة للوزير المسلم في السلطنه العثمانية وطلبوا منه أن ينفي كيرلس هذا لجزيرة رودس لاسباب يلفقونها له حسب رواية المؤرخ (كريسولولوس) وانتخبوا بطريركا بدله مطران ادرنة بوسائط غير قانونية وبغير استحقاق . فادى ذلك الى خلاف شخصي بين البابا وملك انكلترا فكتب البابا اورباز الثامن يشكر ويهني السفير الفرنساوي في القسطنطينية بنجاح اليسوعيين في سياستهم وكتب جامز الاول ملك انكلترا الى السفير الانكليزي يأمره باجرا اللازم نحو ارجاع كيرلس لوكار الى مركزه مهما كلفه ذلك من المساعي والمصاريف . فاشتغل الخصمان كل من ناحية ضد الآخر وانتهى الفوز اخيراً لسفير انكلترا فرجع كيرلس لوكار لمركزه كما كان . ولما لم يعد في وسع اليسوعيين احتمال خذلانهم أستمروا في مشاجراتهم وكانت نتيجة تلك المشاجرة فوز احد الفريقين الذي كانت رشوته اهم من الآخر . ويمكن قرأة ذلك التاريخ المحزن بتفصيل وايضاح اكبر في كتاب نيل المؤرخ الفرنساوي المشهور ولكننا نلخص نتيجة هذا الموضوع هنا فنقول . انه من عهد ما انقطعت علاقة كيرلس بمصر بعد أن نقل

من بطريركيتها في نوفمبر سنة ١٦٢١ مسيحية كان اليونان واليسوعيون يتسابقون في بذل الاموال بصفة رشوة للحكام المسلمين الذين راؤا في ذلك فرصة عظيمة لنفعهم وباباً مهما يدر عليهم رزقاً جيلا سنويا

ولما يئس اليسوعيون من مسابقة اليونان عزموا على بذل جهدهم مع الحكام المسلمين ليس للحصول على امنية نفي كيرلس فقط بل على موته — وقد تم لهم ما تمنوا وقتل المسلمون كيرلس في قارب صغير غدرا وابتعدوا به عن اليابسة في وسط الماء لئلا تبذل المساعي في انقاذه من الموت

أما تلميذه متروفانس الذي صرف عليه رئيس اساقفه كنتربري مدة خمس سنوات للتعليم في جامعة أوكسفورد فانه لم يخرج من هذه الجامعة العظيمة بانكلترا متحصلا على الشهادة العلمية اللاهوتية التي كانوا ينتظرونها ويتضح لك ذلك باجلى بيان من كتاب رئيس الاساقفة الآتي :

كريتوبولوس متروفانس اليوناني قد اتجه في سفره قريبا من هنا قاصداً فرنسا أوهولاندا وقال انه سيقوم من هناك برا الى القسطنطينيه. واقول اني ربيته مده خمس سنوات في جامعة اوكسفورد العظيمة بانكلترا وكنت اصرف عليه بسخاء في المأكل والملابس والكتب وباقي لوازم المعيشة . حتى بلغ مقدار ما صرفته عليه منذ مجيئه الى انكلترا حتى قيامه منها نحو الثلاثمائة جنيه انكليزي وكان منشرحا دائما مدة وجوده في تلك الجامعة . وفي عيد مار ميخائيل الماضي ارسلته الى لامبث واعطيت التعليمات

اللازمة لركوبه في مركب جيد واوصيت بتسهيل كل وسائط الراحة له في الطريق . ولكن قد اشار عليه بعضهم اشارة ليست في محلها وهي أن يذهب الى مركز الحكومة في نيوماركت ليقابل الملك قبل سفره من بلاده فتوجه وقابله جلالة الملك ببشاشة . ولكن لاح له أن يطلب مكافأة مالية من الملك ليتمكن من مشترى بعض كتب مهمة يحملها معها الى بطريركه . والوسائط التي عمد الى اتخاذها لنوال غرضه الذي يصعب على الانسان تصديقه هو . أن يعمل له اولا نيشان نيت (وهو لقب من القاب الشرف) . ثم لقب بارونت وبعده يتخذ الوسائط اللازمة لكي يمنحه الملك امتياز الترشح لنوال راتب كليريكي كبير وقد وعده بعض الكاذبين الذين يشترون وظائف الكنيسة بالدراهم أن يشتري منه هذين الامتيازين بمبلغ وافر من المال . فارسلت له قسيس كنيستي لاقناعه بالعدول عن مثل هذه السفاسف . واستعملت معه طرق التوبيخ والتأنيب لاني اعتقد أن هذه التصرفات لا تليق برجال الدين

ومع كل ذلك اشتريت له بعض كتب مهمة تأليف اعظم المؤلفين اليونان ومن ضمنها مؤلف كريسوستوم وهو ثمانية اجزاء واعطيته ايضا كتبا اخرى لاتينية وانكليزية تستحق الاعتبار اعتقد انها هدية تليق أن تهدى مني الى سيادة بطريرك القسطنطينية . وبعد عيد مار ميخائيل الماضي اسكنته في منزلي واجلسته على مائدتي وكسوته بافخر الملابس وخولته كل وسائط الراحة وكنت اريد أن ارجعه معززاً محترما الى اوكسفورد .

ولكنه بالاسف التف حول بعض اليونانيين المتشردين والدجالين الذين تعبنا معهم كثيرا ومع كل فلم يكني الحجر عليه داخل حظيرتي بل تركته في صحبتهم فصرف وقته ودراهمه هبأ منثورا

كتب لي كتابا على شكل رسالة قال لي فيها انه يفضل أن يفقد كتبه ويسجن ويضحي حياته من أن يرجع الى وطنه وانه يرغب أن يعرف كل حقائق الديانة المسيحية . فاستنتجت من ذلك انه اصبح شحاذا ومتسولا شقيا فاعطيته عشرة جنيهات في حقيبته وقبل قيامي للسفر الى مدينة كرويدون باسبوعين طردته من حضرتي ولكني اوصيت السير بول بيندرز بالاعتناء به نعليه سمعت قبلا عن سفالة ذلك الشخص فصرت غير قادر على التصديق بان انسان كهذا نال نصيبا من التعليم والتربيه يمكن أن يصبح بعد سنين كثيرة مجرداً من الذكاء والعقل وكل مزية حسنة من مزايا الانسانية . ولكن قد نال نصيبه وتعلمت بسببه أن لا اعامل احداً معاملة حسنة يكون من الذين على شاكلته

وامد جئت بهذا موجزا ابلغكم عن سؤ سلوك ذلك الشخص .

ولو اني اعد ذلك تصرفاً معيباً ومنافيا للادب ولكن اكراما لخاطر البطريرك فاني لست متذمرا ولا حاقدا عليه

تحريرا بمدينة كرويدون في ١٢ اغسطس سنة ١٦٢٢

ومع كل ذلك فانه لما رجع متروفانس الى القسطنطينية سنة ١٦٢٦ قابله كيرلس البطريرك بكل ترحاب بعد أن سمع عنه ما تقدم وبعد أن

اقنعه متروفانس ببراهين جلية عن اسباب تأخره اربع سنوات في طريقه من انكلترا الى القسطنطينية

وبعد ذلك بعشر سنوات لما رجع جراسيموس الى الدير وترك مركزه في الاسكندرية عين متروفانس بدله بطريركا لليونان في كرسي الاسكندرية ولكن لم يلبث في وظيفته اكثر من سنتين فقط

وفي خلال النصف الاول من ذلك القرن ارسل بابا روميه وفدا كاثوليكيا الى الحبشة فاحدث رجال ذلك الوفد القلاقل الدينية ثانيا في تلك البلاد حتى اوقعها في اهوال ومصائب الحرب الاهلية والذي امكنهم التأثير عليه وادخاله للمذهب الكاثوليكي هو الملك فقط وقد الزموه أن يعترف بالمذهب الكاثوليكي الروماني رسميا حتى ساعة موته. أما الاهالي الاحباش فحملوا السلاح في وجه ملكهم وقاموا يدافعون عن معتقد كنيستهم الاصلية الوطنية ودام الحرب على اشده بين الملك والشعب مدة ست سنوات متوالية وبعد ذلك مات الملك واخلفه ابنه على العرش وفي الحال امر باضطهاد شيعة البابا واعاد المعتقد الاصلي وارسل الى بطريرك الاقباط في مصر ليرسل له مطرانا. وسمح بعدئذ للمرسلين الرومانيين أن يقيموا في البلاد على شرط أن لا يتعرضوا لمعتقد اهلها ولكنه لما عرف بعدئذ انهم ساعون في استحضار الجيوش البرتوغالية ليؤسسوا المذهب الكاثوليكي في البلاد بقوة السيف امرهم الملك فاسيليداس بكل ثبات وتعقل أن يبارحوا بلاده. فعوضا عن أن يطيعوا امره

عمدوا الى الحيل فاتفقوا مع احد نبلاء الاحباش الذي كان عاصياً وقائماً في وجه سلطانه ولكنه بعد أن اتحد معهم باعهم كالعبيد الى الاتراك الذين يجوبون البلاد فقدم رئيسهم مبلغا من المال فدية عن نفسه للاتراك اما الباقون فقد عفى عنهم الملك فاسيليداس وخلصهم من ايدي الاتراك ولكنهم وقعوا فريسة في مخالب رعاع الاحباش الذين كانوا ناقمين عليهم ومن ثم صرح فاسيليداس بدخول المرسلين الكاثوليك فحضر تسعة من صعاليك الرهبان الفرنسيسكان واجتهدوا في نشر مذهبهم فقتلهم الاحباش وراحوا ضحية غيرتهم على مذهبهم

وبسبب ذلك لم تهدأ الحبشة من حروبها الداخلية مدة قرن من الزمن . وهكذا كانت مساعي باباوات روميا الدائمة التي كانوا يبذلونها لبسط سلطتهم الدينية على ذلك الشعب الحبشي تذهب سدى مع بساطة هذا الشعب وجهله

وبعد تولية مصطفى باشا على مصر بثلاثة اشهر عزل وتولى مكانه علي باشا فطلب منه رجال الجيش أن يعطيهم المكافئات التي تصرف عند تولية كل وال جديد وهي عادة متبعة في الجيش العثماني من قديم الزمان فامتنع بحجة انه لم تمض مدة على الوالي السابق فاصروا على طلبهم وقام جدال بينه وبينهم فاتحدوا جميعا على اعادة مصطفى باشا ثانيا . فاستكتب مصطفى باشا المعزول لما رأى حزب الجيش معه علماء ومشايخ القاهرة شهادة بتثبيته وبعثها للسلطان . وتشاجر الاهالي والجند مع علي باشا

الاسكندرية ففازوا عليه وطردوه في قارب من مينا الاسكندرية الى الاستانه .

وفي ٢٠ ربيع آخر سنة ١٠٣٣ هـ وصلت حمامه الى القاهرة وفي عنقها كتاب ينبئ بوصول مندوب من الاستانه بامر سلطاني وبعد ايام وصل وجمع السناجق وكبار الحكومة والامراء والبس مصطفى باشا خلعة مرسلة له من السلطان واعاده للسلطه ثانيا بموجب فرمان سلطاني

وفي السنة التالية زاد النيل حتى بلغ ٢٤ ذراعا فخاف الناس من الغرق لكنه عاد فهبط بسرعة . وفي اوائل ربيع اول سنة ١٠٣٥ انتشر الطاعون فتاك في مصر واخذ يتناقص في شهر شعبان من تلك السنة وانقضى في اوائل رمضان ومات بسببه ٣٠٠٠٠٠ نسمة فاغتنم مصطفى باشا فرصة موت الناس واخذ يختلس اموالهم فاقام نفسه وارثا لكل من مات من الاغنياء فشكاه الورثه الاصليون للاستانه فعزله الباب العالي وولى مكانه بيرم باشا فلما اتى مصر الزم مصطفى باشا بدفع الاموال التي اختلسها فباع كل ما يمتلكه وسددها وعاد للاستانه سنة ١٠٣٧ هـ فحكم عليه بالاعدام .

وكان عزل وتولية الباشوات بارادة الجيش والامراء بمصر مخالف النظام الذي وضعه السلطان سليم الفاتح وكانت موافقة الباب العالي لطلبهم سببا في حصول تحوير في القواعد الاساسية التي وضعها ذلك السلطان

وكان بيرم باشا محبا للعلم وجمع الاموال ولم يتمرد الجند في ايامه

بل ارتاحت مصر من المشاغب

وبعد ئذ دعاه الباب العالي وعينه وزيرا للمره الثالثة وتولى بعده الوزير محمد باشا فساس البلاد بحكمة وكان محبا للعزلة والانفراد ولما سمع بثورات قبائل البدو في اليمن تعهد للسلطان باخضاعها فصرح له السلطان بذلك فعين قنسويك امير الحج المصري قائدا للجيش الذي اعده لذلك ويبلغ عدده نحو ٣٠ الف مقاتل ولكن بعد أن قبض قنسوبك اموال الحملة توقف عن السفر وترك الجيش ينهب الناس ويقطع الطرق وكان من ضمن فرق الجيش فرقه من الروملي قائدها جعفر اغا فاخمد الثوره والزم قنسويك بالسير الى اليمن في محرم سنة ١٠٣٩ هـ فسار اليها وانتصر في الحرب . وفي ١٩ شعبان اغرق القسم الاعظم من مكه تيار ماء فهدم جميع بناء الكعبه ولم يبق الا جدرانها الايمن فابلغ محمد باشا الخبر الى السلطان فامر بترميمها

وفي سنة ١٠٤٠ هـ لم يبلغ النيل في شهر توت الا ١٦ ذراعا فامر محمد باشا بفتح الخليج لري الاراضي ثم استدعاه السلطان للاستانه وعينه وزيراً في الديوان الشاهاني مكافأة له على حسن ادارته . وتولى بدله على مصر الوزير موسى باشا فوثق الاهالي به لكنه اضاع هذه الثقة بعد ئذ لانه بوصوله الى مصر اخذ في الاختلاس والاستبداد فقتل اكبر رجال مصر بغير حق لمصادرة ثروتهم

وفي شهر شعبان من تلك السنة امره السلطان بتجهيز حملة لمحاربة

الفرس لجمع ضرائب فاحشة من المصريين باسم اعانة حربية ثم اوعزالي قيطاس بك قائد الحملة بان يدعي أن مصر لاتسمح ماليتها بنفقات هذه الحملة فنصحه قيطاس باتباع الاستقامة فلم يعتبر موسى باشا بقوله بل خاف منه لاطلاعه على تصرفاته المقوته فاستدعاه في القلعة في عيد الاضحى يوم الاربع ٩ الحجة وامر اربعين رجلا بقتله فقتلوه . فابلغ الاميران كنعان بك وعلي بك الخبر للجوش والسناجق والامراء والقضاة فاجتمعوا في جامع السلطان حسن واقروا على خلع موسى باشا وعينوا بدله موقتا حسن بك ثم كتبوا للسلطان بما كان وطلبوا بصوت واحد خلع موسى باشا فاجاب طلبهم وولى عليهم خليل باشا في ربيع اول سنة ١٠٤١

وهكذا فانه في مدة حكم السلطان مراد الرابع (من سنة ١٦٢٣ مسيحية لسنة ١٦٤٠ حكم مصر باسمه ثمانية باشوات كانوا يضربون جميعهم على نغمة واحدة في استعمال السلب والقتل والنهب واحداث الثوارت ولكن احسن هؤلاء الولاة جميعاً خليل باشا واردأهم سيرة حسين باشا كما سيجيء . اما خليل باشا فانه عند وصوله الى مصر لم يجمع من اموال الضرائب القانونية ووضع حداً لتمرد الجنود وحسن حالتهم . وضيق الخناق على قاطعي الطرق والسالبين الذين يوقعون البلاد في اخطار مختلفة . وفي مقابل ذلك صدرت ارادة السلطان بعزله قبل مضي سنتين على حكمه بعد مصادرة املاكه ونفيه ولم يسمح له السلطان الا باثنين من عبيده يرافقانه في منفاه وكان حسين باشا عند مجيئه الى

مصر قد استحضر معه عدداً عظيما من الدروز فاطلق لهم الحرية في البلاد فعاثوا فيها فساداً واوجدوا الرعب والفزع في قلوب الاهالي وليس من يردعهم ولم يكن وقتئذ في البلاد قانون يعامل به المجرمون أو مقترفو الآثام بل أن ارادة الباشا الوالي هي التي كانت نافذة بلا مسؤلية . وعلاوه على كل ما تقدم من مظالم حسين باشا فانه كان يصادر التجارة ويربك سوقها ويزيف الصكوكات وفي مدة حكمه (سنتين) في مصر تسبب في اعدام ١٢٠٠٠ نفس بلا محاكمة (هذا عدا الذين قتلوا بيده شخصياً). وتولى مصر بعده باشا آخر كان ظالما مكث في مصر ثلاث سنوات كرس نفسه في خلالها لمناكسة التجارة المصرية وفرض ضريبة فادحة على نساجي الحرير فخرب معاملهم وامات صناعتهم وكان يوجد في ذلك الوقت نحو سبعة عشر الفا من نساجي الحرير في ثلاث مدن فقط وهي القاهرة وامبابة والجيزه واغلب هؤلاء النساجين كانوا اقباط (١)

(١) ذكر شمس الدين المؤرخ في الفصل الثاني عشر والثالث عشر من مؤلفه ما يلذ ذكره عن الصنائع والمحصولات المصرية في ذلك الحين —

ان حدائق البلسم المصرية الفائقة الشهرة قد محيت آثارها الآن — وان البلسم الذي كان يستعمله الاطباء والكيماويون صار يجلب من الحجاز وأعدمت صناعة الاقمشة الكتانية والقطنية الجميلة التي كانت تعمل في اسيوط ولكنه كان لم يزل يصنع منها مقدار عظيم في مدينة الفيوم . أما الأنواع والاشكال الجيدة منها ومن اصناف التطريز فكانت تصنع في مدينة اخميم . وابطل زراعة الكروم في بعض الاقاليم . ومع ذلك فان بلاد مصر كانت ولم تزل مشهورة بعسلها.

وفي ذلك الحين توفى البطريرك الخامس عشر انبا يوحنا وأخلفه على الكرسي المرقسي البطريرك متى الثالث وفي اثنا ذلك قد تغير البطريرك اليوناني مرتين اذ اخلف جراسيموس متروفانس الذي تعلم في انكلترا ثم توفى هذا سنة ١٦٣٨ مسيحية واخلفه بطريركا يدعى نيسفورس

وفي يوم الخميس ١٦ شوال سنة ١٠٤٩ توفي السلطان مراد الرابع. فتنفس المصريون الصعداء وظنوا انهم يتخلصون من استبداد واليهم محمد باشا. ولكن لما بويع السلطان ابراهيم بن احمد اخو السلطان مراد الرابع استبدل محمد باشا والي مصر ثم أمر باعادته ثانيا فزاد ظلما وفتكا بالناس ولم يبق ولم يذر ثم استبدله السلطان بمصطفى باشا البستانجي وهو اول وال في عهد

وقال شمس الدين ان الضرائب المصرية التي ضربت على البلاد سنة ١٠٣٥ هـ (١٦٢٥ مسيحية) بلغت نحو ثمانية عشر الف دينار وكان يرسل من هذا المبلغ فقط ستة الاف دينار جزية القسطنطينة والباقي يحفظ في خزينة الحكومة المصرية لصرف منه على مكة والمدينه والجيوش وهذا المبلغ العظيم الذي يؤخذ من سكان البلاد سنويا بخلاف الدخل الخصوصي الذي يأخذه بلبرمكة مصر (أي والي مصر) لنفسه

وقال شمس الدين مما يجب ملاحظته هنا ان مصاريف الاشغال العموميه الاصلاحات والتنظيمات أو أي شيء يختص براحة الاهالي العمومية كانت خارجة عن هذا المبلغ . وهذا يدل على ان سكان مصر كانوا في حالة البؤس والشقاء تحت احكام ولاة الدوله العليه لان كل ما يتحصل من الضرائب المحصولات يحبس اغلبه في خزائنهم الخصوصية

السلطان ابراهيم . فاستمرت المظالم ايضا على عهده لانه ترك الاحكام بيد كاتبه المستبد . فازدادت احوال السلب والنهب الى درجة عظيمة حتى اصبحت المدن مهجورة من الاهالي خوفا من اللصوص لانه بالكاد ما كانت تمر ليلة دون حصول حادثتي سرقة او سطو في القاهرة نفسها. واذا اتفق القبض على احد اللصوص واوتي به الى رئيس الضابطة يعطى اللص بعض ما سرقه بصفة بقشيش لهذا الرئيس فلا تغيب الشمس عليه وهو في السجن وهكذا كان الحال مع حكام الاقاليم فتواردت الشكاوي للباشا الذي لم يكن يتداخل في الاحكام مطلقا فأمر بعزل رئيس الضابطة وعين بدله كنعان بك فسجن عدداً كبيرا من اللصوص ثم تجرأ ذلك الكاتب على بيع الحبوب التي في مخازن الحكومة واخذ ثمنها فتمرد رجال الجيش فرفت الباشا ذلك الكاتب بالرغم عنه ولكن اعاده ثانيا بتعضيد احزابه

ثم استقال مصطفى باشا وتولى بدله الوزير مقصود باشا الذي كان واليا لاباربكر فقبض على ذلك الكاتب المالي والكخيا وجلدهما واجبرهما على ارجاع مايتي كيس من النقود لخزينة الحكومة ومن عهد ان فتح العثمانيون الديار المصرية والطاعون يزورها على التوالي بلا انقطاع بحالة شديدة(١) ففي ايام مقصود باشا قاست مصر عذابا اليما من الطاعون

---

(١) يمكن ان يعبر عن الطاعون المصري بأنه (حمى الجوع) لانه دائما ينتشر في البلاد بعد حصول مجاعة فيها أو بعد طول زمن الغلاء وقلة المحصول ومما يجب ملاحظته انه قلما كان يهلك به في ذلك الحين أحد من الاغنياء والذين يغذون أجسامهم جيدا

الذي فتكه كان اشد وطأة من الطاعون الذي تفشى في ايام علي باشا وجعفر باشا . فظهر اولا في اوائل شعبان سنة ١٠٥٢ ﻫ (نوفمبر ١٦٤٢ مسيحية) في بولاق وبعد ذلك بشهرين ظهر في القاهرة واستمر على اشده يفتك بالشيوخ والشبان والاولاد من ابتداء ذي القعدة سنة ١٠٥٢ ﻫ لغاية صفر سنة ١٠٥٣ ﻫ (مايو سنة ١٦٤٢م) ثم اخذ يتناقص شيئا فشيئا وقد اهلك سكان نحو مائة وثلاثين بلدا في الديار المصرية عن آخرهم . وقال شمس الدين المؤرخ ان الجثث كانت تنقل بالعشرات مرة واحدة ويمر في الشارع الواحد ثلاثين واربعين جنازة كل ساعة او اقل من ساعة وقال انه في بحر الثلاث شهور دفن نحو ثمانمائة الف جثة في القاهرة وحدها وكانت الموتى تدفن دون الصلاة عليها في المساجد والكنائس ولكن لو فرضنا ان شمس الدين كان يقصد بقوله في مصر فقط اعني الدائرة التي يدخل فيها بابيلون والفسطاط ومصر والقاهرة فانه ايضا عدد عظيم وفيه مبالغة كبيرة لان كل سكان هذه الاحياء في الوقت الحاضر اقل من ستمائة الف نفس

فلما رأى مقصود باشا ما الم بمصر من الخراب بذل جهده في اصلاح هذا الحال فالغى الضرائب الغير قانونية واعطى حقوق الوراثة لاصحابها الشرعيين مع دفع شيء من الشركة للحكومة وضرب على ايدي اللصوص بيد من حديد فاطمأنت قلوب الناس وبالنسبة للشدائد العظيمه والمصائب والنكبات العديده التي حلت بالبلاد في خلال الستين سنة الماضية ساق

سوء الحظ عدد عظيم من المصريين وجلهم من المسيحيين الاقباط الذين كانوا اداعما اتمس من الجميع اذ وقعوا اسرى في ايدي الحكومة وكان عدد عظيم من الاسرى والارقا المسيحيين دائما يساقون الى الحروب التي يقيها السلاطين. فيشتغلون في الاشغال الشاقة التي توجدها الحكومة. وبينما كان مقصود باشا مضطرداً خطة الاصلاح اعترضه وقوع ثورة عظيمة. ففي يناير سنة ١٦٤٤ مسيحية الموافق ٢٠ ذي القعدة سنة ١٠٥٣ هـ بينما كان هولاء الاسرى يشتغلون في بناء المراكب في الاسكندرية اراد حاكم الاسكندرية انزال مركب جديدة ثم صفها الى الماء فدعى هولاء الاسرى وعددهم نحو سمائة نفس وامر برفع السلاسل الحديدية التي كانوا مكبلين بها لانه لا يمكن تسخيرهم في الاشغال وهم مكبلون بالحديد ثم امرهم بانزال هذه المركب في البحر فاتحد نحو مائة وخمسون منهم وفي الغالب انهم من الاوربيين وانقلبوا على رؤسائهم من المسلمين الذين لم يسـد في وسعهم مقاومتهم وفتحوا باب الترسانه بالقوة وحملوا الاسلحة وخرجوا الى وسط مدينة الاسكندرية وطفقوا ينهبون ما يحتاجون اليه من الحوانيت والمخازن والبيوت ولما ملأوا جعبة مطامعهم عادوا الى الميناء واستلموا المراكب الراسية بها واقلعوا فيها دون أن يفقدوا رجلا واحدا منهم لانهم فعلوا كل ذلك والمسلمون في مساجدهم وقد هرب باقي السمائة اسير الى داخلية البلاد قبل أن يجتمع احد من رجال الحكومة لاتخاذ الاجراءات اللازمة ضدهم . وكادت هذه الحادثة تؤدي الى انتقام المسلمين المقمين في الديار المصرية لو لم

ينشغل بالهم ويتجه التفاتهم مع الحكومة لما هو اشد واعظم خطارة وهو سرعة تمرد جيوش المماليك بعد ذلك الحادث لان افراد هذه الجيوش كانوا قد خف عنهم الضغط اكثر من سنة ولكن كان تخفيف ذلك الضغط لاجل مسمى . ففي يوم الجمعة ١٢ رمضان سنة ١٠٤٥ تآمر السناجق على عزل مقصود باشا لانه طلب منهم تسديد الثلث الاول المعتاد دفعه للخزينة من الاقطاعات الحربيه وذلك رغبة في تشديد رواتب العساكر في شهر رمضان . فرفضوا ذلك وطلبوا عزل المأمورين من انصار فاجاب الباشا طلبهم فلم يقتنعوا بل اشتكوه لاستانه فسأله الباب العالي عن سبب عدم ابلاغ الحضرة الشاهانية بالثورة العسكرية في مصر فاجاب أن الحقيقة انها لم تكن ثورة بل هي اختلافات عادية فامره الباب العالي بمعاقبة المعتدين . فاراد الفتك بالامير ماماي بك والامير علي بك والامير شعبان بك الدفتردار فلم تسمح له الظروف بذلك

وفي ٢٢ ذي الحجة سنة ١٠٥٤ ورد فرمان بعزل مقصود باشا وتولية شعبان باشا موقتاً فاذعن للامر وسلمه الاحكام فاطلع السناجق الباب العالي على حقيقة ما حصل من مقصود باشا فانفذ اليهم أيوب باشا احد مأموري السرايات الشاهانية وكان رجلا مستقيما فسادت الراحة في ايامه . ثم استقال وتدروش وعكف على العبادة في احد معابد الروملي فتولى بدله الوزير محمد باشا بن حيدر مدة سنتين ونصف ولم يحسن الادارة فارتبكت الاحوال

وفي ١٠ رجب سنة ١٠٥٧ ثار الانكشاريه في مصر وطلبوا قتل ذلك الوالي فخاف من هذا العزم واستشار قنسو بك فراعى قنسو بك صالحه الشخصي واشار على الوالي بكتابة تقرير سري الى السلطان ينسب فيه سبب الثورة واختلاس الخزينة الى رضوان بك وعلي بك وكان يقصد قنسو بك أن يتوصل بذلك الى الحلول محلهما مع صاحبه ماماي بك

فعلم رضوان بك بذلك وكتب تقريراً يناقض تقرير الوالي وقد وصل الى الاستانة قبله فورد الرد من الاستانة بتفويض رضوان بك وعلي بك للنظر في هذه القضية ووصل الوالي فرمان بذلك في ٢١ جماد اول سنة ١٠٥٧ هـ فامر رضوان بك بقتل قنسو بك وماماي بك في القلعة . ثم ظهرت دسائس مصطفى كخيا الملقب بالششنير لانه لم يتعين سنجاً بدل قنسو بك ثم اصدر الوالي امره لعلي بك بالرجوع الى حكومته بجرجا واراد أن يفتك بزميله رضوان بدسيسه في القلعه فابى حضور الوليمة التي اعدها له الباشا هناك فغضب عليه الباشا فخرج من القاهرة ومعه ٢٠٠ مقاتل واتحد مع علي بك بجرجا فارسل ورأهما الباشا نحو الفين من الجنود وخمسماية من الانكشاريه . ثم ما أمر الباب العالي بتثبيت رضوان بك وعلي بك في منصبيهما فاضطر الباشا الى استحضارهما للقاهرة واعاد اليها الرتب والنياشين وصالحهما مع مصطفى كخيا

وفي ٦ القعده سنة ١٠٥٧ هـ شاع في القاهرة خبر تولية الوزير مصطفى على مصر بدل محمد بن حيدر وفي ٢٦ منه وردت بالاخبار باعادة

محمد باشا ثانياً على مصر وفي ١٧ رجب سنة ١٠٥٨ هـ توفي السلطان ابراهيم وتولى مكانه السلطان محمد الرابع

وبلغت هذه الاخبار مصر في اوائل رمضان متضمنة عزل محمد باشا وتولية الوزير احمد باشا . فحدثت في ايامه فتنة اخرى من جيوش المماليك وهكذا كانت تتكرر الثورات سنة بعد أخرى مدة القرن السابع عشر . فكانوا دائماً يتملصون من اتباع القانون والنظام فيطوفون الشوارع سالبين ناهبين ويقع معظم الضرر من ذلك على الاقباط البؤساء المجردين من أي سلاح أو واسطة للدفاع عن انفسهم . وكانت الحكومة في ذلك الحين تضيق على الصنايع وتفرض عليها الضرائب والمكوس الفادحه حتى اندثرت . وكان البكوات العسكريون الحاكمين في الاقاليم يعيثون فساداً في تلك الاقاليم التي هي تحت ادارتهم ويأتون المظالم الفظيعة لايخافون مسؤلية في افعالهم بالنظر لتوالي تغيير الباشوات من الولاة فكانوا لا يتمكنون من النظر اليهم لقصر مدة حكمهم وكان هؤلاء البكوات ادنياء النفس يتحينون تلك الفرص لسلب الاهالي ويبذلون جهدهم في ذلك ليتمتعوا بما يسلبونه بعد عزلهم من مناصبهم .

وفي سنة ١٦٥٠ مسيحية (١٠٦٠ هجرية) ازدادت القلاقل لان النيل كان واطئاً ولم يرتفع اكثر من ١٦ ذراعاً فلم يرو من أرض الصعيد الا ثلثها اما الوجه البحري فلم يرو شيء منه تقريبا فحدثت بسبب ذلك مجاعة فانتهز احمد باشا هذه الفرصة لزيادة الضرائب مع انه لم يكن يرسل

منها الى السلطان بصفة جزية سنوية الا الثلثين ويعتذر بقلة المتحصل منها في مصر . واسوء نيته كان يرسل الاموال مع رضوان بك لحمل الباب العالي على الشك بامانته فيتغير خاطر السلطان عليه واتماما لمكيرته كان يكتب للسلطان يشكو من تصرفه ويطلب تجريده من امارة الحج وتقليدها لعلي بك الذي هو صديق رضوان ولكنه لم يعلم بدسائس الباشا التي كان غرضه منها ايقاع الضغائن بين الصديقين فيحل عرى اتحادهما لكنه لم يكد يتم مراده حتى وصله خبر عزله يوم السبت ٦ صفر سنة ١٠٦١ هـ . وكانت ذلك نتيجة دسيسة وقد زادت قوة اتحاد الاميرين وكان كل منهما يتنازل لصاحبه عن امارة الحج فاعجب بهما المصريون واحبوهما وبعد عزل الباشا حبس في القلعة فلم يفرج عنه حتى دفع للخزينة مبالغ عظيمة وتولى مكانه الوزير عبد الرحمن باشا فسلك في خطوات سلفه في الدسائس فخلع في اول شوال سنة ١٠٦٢ وسجن وهين مثل سلفه وعين بدله محمد باشا في ٥ شوال من تلك السنة لكنه لم يدخل القاهرة الا في ٨ محرم سنة ١٠٦٣ هـ

ونعود الآن فنقول انه في سنة ١٦٦٠ مسيحية الموافق ١٠٧١ للهجرة توفى بطريرك الاقباط وأخلفه البطريرك متى الرابع وفي عصر هذا البطريرك حضر مصر الراهب الدومينيكي ڤانسليب وهذا الرجل هو اول اجنبي اتى مصر منذ فتحها العرب وصادف متاعب عظيمة في سبيل الوقوف على حقيقة تاريخ الكنيسة القبطية المصرية معرفة تامة . وبصفته

من رجال ارسالية رومانيه فطبما يكون من الصعب عليه أن يحصل على المعلومات اللازمة له بانه كيفية كانت عن الكنيسة القبطية وتكون تلك المعلومات قريبة على نوع ما من الحقيقة وكتابه الذي ألفه عن الكنيسة القبطية ليس هو قيمة عظيمة ولو انه يلذ القارئ باعتبار الظروف التي كتب فيها . ومن مطالعته يتضح انه قد سقط في الغلط الذي وقع فيه كل من يكتب عن الاقباط حيث قال انهم يجهلون لغتهم . ويعزز قوله بانه تناقش بهذه اللغة مع آخر واعظم واحد تكلم القبطية في اسيوط

وانا اقول انه وان كانت هذه اللغة ميتة في ايامنا الحاضرة الا انها تشغل قسما عظيما من وقت التعليم لدى القبطي الحسن التربية كما أن اللاتيني أو اليوناني مما يهتم له المتعلم الانكليزي . وفضلا عن ذلك لا يمكني أن اعرف واثبت اذا كان يوجد عصر لا تمارس فيه هذه اللغة وتدرس بانتظام في المدارس القبطية كما هو مثبوت في هذه الايام

ولم يزل يوجد كتاب باللغة القبطية كتبه رجل قبطي من مدينة ممفيس حوالي منتصف القرن السابع عشر وهذا الرجل هو المشهور في التاريخ باسم ابو ذقن . ولو انني لا اعلم عن تاريخه الا القليل ولكن يظهر جليا أنه كان رجلا سامي الاداب والاخلاق ولذا اشتهر كتابه بمنتهى الرقة والاعتدال في اللهجة ولو أن الكتاب قاصر على ايضاح الاختلافات في الطقوس والقوانين الدينية بين الكنيسة القبطية المصرية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية . وقد قال في كتابه أن اعضاء الكنيسة القبطية

مشهورون في كل ممالك العالم بلقب ممتاز وهو (مسيحيو الحزام)

ولكن يظهر انه لا يعرف أن اصل هذا اللقب هو باسباب القوانين التي كان يسنها المسلمون القدماء على كل المسيحيين القاطنين بالديار المصرية وهو انهم كانوا يكلفونهم جبرا بان يلبسوا حزاما يشدونه على وسطهم ليكون ذلك علامة التحقير والخضوع

وقال في كتابه ان الاقباط الذين كانوا يخدمون عند الاسلام في مصر كانو دائما يتمتعون بالامان على انفسهم واموالهم واولادهم وبكل انواع التساهل وكانوا يعاملون تماما مثل اليونان والبابويين واثبت في كتابه ايضاحا مختصرا عن كيفية ادارة شؤون الكنيسة بواسطة البطريرك القبطي واساقفته وبعد ذلك دخل في ايضاح طقوسها ونظام خدمة الصلاة في الكنائس وقد فهمنا انه في عصر ابو ذقن كما في ايامنا الحاضرة تعد النعمة الالهية (المسحه بالدهن) احد الاسرار الدينية العظيمة وكذلك الاعتراف وقد صارا في الكنيسة القبطية في درجة عظيمة من سوء الاستعمال وان هذه الفرائض لا تمارس الا في حالة رغبة احد المرضى او عند طلب احد الخطاة الاعتراف بالتوبة . والعماد لا يزال الى الان يمارس في حوض او صهريج كبير يسمونه المعمودية وهو يوضع دائما في آخر الزوايا الغربية من الكنائس . وعند العماد يأخذ الكاهن الطفل من امه عريانا ويغطسه ثلاثا في ذلك الحوض ثم يلبسه مع الخشوع والصلاة التي يتلوها حزاما خصوصيا يقولون عنه (الزنار) وبعد ثلاثة ايام ترفع

والدة الطفل هذا الزنار او تقطعه وترميه واحتفال الغطاس لم يزل يمارس كالطريقة القديمة . والشمامسة يلزم ان يصوموا اربعين يوما قبل ان يرسمهم البطريرك لهذه الرتبة الكهنوتية ويدفع له كل واحد منهم ثلاثة جنيهات اجرة سيامته ويلبسهم البطريرك ايضا زنارا اثناء الاحتفال امام باب الهيكل في الكنيسة . والكاهن الذي يقوم بهذه الخدمة يرفض في بادىء الامر قبول اجرة الرسم الديني بحجة انه غير مستحق ثم يرضى بقبولها بعد ان يأمره البطريرك ويبين ايضا ابو ذقن في كتابه كيفية الاحتفال والعوايد التي تمارس في الزواج التي لم تزل متبعة في الكنائس الى الان ولو انه يغلب في هذه الايام اقامة الاحتفال بالاكليل في منزل العريس . ولا شك انه اصل الغرض من اقامة الاكليل في منزل العريس ليكون في مأمن عظيم داخل منزله ويتوقى اعتداء بعض المسلمين عليه

ويقول ابو ذقن ان مدة الحداد على الميت عند الاقباط اربعين يوما يوزع اهله فيها الصدقات على الفقراء ويقيمون القداديس في الكنائس استجلابا لرحمة الله على روحه وقد لاحظ ابو ذقن ان الاقباط اكثر زهدا وتنسكا من رهبان الاورباويين اذ قد لا تسمح لهم كنيستهم ورجالها باكل اللحم الا في ايام عيدي الكنيسة العظيمين وهما عيد الميلاد وعيد القيامة ويشهد لهم ابو ذقن انهم لا يملون للكسل ابدا . ويقول انه يوجد في المدن المتمدنة أديرة للنساء بقرب الكنائس ولا تسمح الكنيسة لفرد قبطي ان

يصوم[١] يكون سنه دون السادسة عشر . وذكر ابو ذقن انه عنـد ما يريد احد الاقباط ان يحج الى اورشليم يلتزم ان يدفع جزيتين للاتراك الاولى عندما ينوي السفر وقيمتها ثمانية ريالات والثانيه وقيمتها اربعـة يدفعها غالبا عند دخوله المدينة المقدسة ويقول ايضا انه عنـد ما يريد بعضهم أن يحج داخل بلاده بزيارة أحـد الهياكل والمقامات المصرية المقدسة فيتبعون عادتهم القديمة وهو انهم يقدمون عند ذلك المقام حيوانات بصفة قربان فيذبحونها ويأكلون لحمها ولاحظ ابو ذقن ان الهياكل والمقامات المصرية التي للاقباط ليست الا مقامات شهدائهم لانه لم يوجد قديسون بالديار المصرية الا من ابتداء تاريخ استشهاد الاقباط في ايام ديوقلوبوس او ما قبلها بقليل

وقال ابو ذقن انه اذا كان يتفق ان كاهنا يكون موجودا ضمن ضيوف وزائري احد الاقباط في وليمة فالعادة ان يبتدئ الكاهن اولا فيمد يده على المائدة ويأخذ خبزا ويكسر منه ويعطي كل واحد من الحاضرين قطعة على سبيل البركه قبل الابتدا في الاكل . وقد اثبت ايضا ابو ذقن ان الاقباط المصريين من قديم الزمان الى الآن يحسنون صناعة الصياغه والمجوهرات وصنع الاحذية والحدادة والخياطة والحفر على الخشب (الاويه) والهندسة المعماريه . ويعلمون اولادهم في مدارسهم فقط القرأة

---

(١) الكنيسة تسمح في هذه الايام للاولاد والبنات الذين دون سن السادسة عشر بالصيام فيتلفون صحتهم

والكتابة والجغرافية واللغة العربية واللغة القبطية ومعرفة الكتاب المقدس. ويعتقد ابو ذقن ان تعليم اولاد الاورباويين ارقى من تعليم اولاد الاقباط. ولكن من ابتداء القرن السابع عشر فصاعداً لم تكن تربية الاولاد الاقباط رؤية. ويحتمل ان كتاب ابو ذقن الاصلي مدفوعان بين كتب مكتبة اوكسفور بانكلترا ولكننا لا نعلم من الذي احضره من مصر اليها وقد ترجم هذا الكتاب الجليل الى اللغة اللاتينية في اوكسفور سنة ١٦٧٥ مسيحية ثم ترجمه من اللاتينية الى الانكليزية السير ا. سدلير سنة ١٦٩٣ مسيحية

وبعد تولية الوزير محمد باشا الذي وصل مصر سنة ١٠٩٣ كما تقدم القول عزل وما زالت الولاة تتوالى على مصر ولا شيء من اعمالهم واحوالهم يستحق الذكر وفي اخر الامر تحول النفوذ الى ايدي البكوات المماليك اما الباشوات فاذا تولوا مصر وقدموا اليها لا يكون ديدنهم الا اكتساب الثروة باية طريقة لانهم يعلمون انه لا بد من عزلهم وقلما عزل احدهم ولم يكن السجن مأواه

وفي مايو سنة ١٦٩٤ مسيحية (١١٠٥ هـ) ثارت في القاهرة زوبعة شديدة حتى خيل للسكان ان الآخرة قد دنت [1] فاقلقت جامع ابن طولون وهدمت كثيراً من البيوت عن آخرها وكان الغبار يتطاير كسحب كثيفة

---

١ ان المطر كان نادرا جدا في مصر مدة القرن السابع عشر ويقول الشورى انه لم ير نقطة مطر واحدة هطلت في بلاد مصر مدة اقامته ثلاث سنوات متتابعة

يحجب ضوء السماء . ومثل هذه العواطف الشديدة نادرة الحصول في مصر والظروف التي جعلت فيها وقع اكثر تأثيرها على المسلمين لأنها حدثت اثناء تأديتهم صلاة الجمعة في رمضان وفي هذه السنة ايضا لم يرتفع النيل كعادته فحدث غلاء عظيم في البلاد كما هي العادة ولم يكن الاهالي مستعدين لاتقاء ذلك الخطر وزادت المجاعة عدة شهور رداءة وتفاقما فالفت ذلك نظر البكوات المماليك وكان هياج الشعب قد الفت أيضا نظر الامراء فاوقفهم قليلا عما هم فيه من المخاصمات مع بعضهم فابتدأوا ينظرون في أحوال الشعب الهائج وتجمع أو يأس القوم الذين قتلهم الجوع حول القلعه واخذوا يصرخون طالبين الخبز ولما لم يلتفت احد لصياحهم اخذوا يقذفون الحجاره على حصون القلعه وامر الحاكم جنوده فطردوهم فركضوا الى المدينه وقصدوا مخازن الحكومة قبل أن يلحقهم رجالها ويحمونها منه ثم تمكنوا من طردهم من مخازن الغلال وابطلوا الهياج موقتا ولكن ذلك لم يدم طويلا واستمرت المجاعة واخذت تزداد ازدياداً هائلا حتى بلغت الحالة انهم اخذوا يقتاتون من جثث الموتى

ومن سنة ١٠٦٣ للهجره لغاية سنة ١١١٩ هـ توالى الحكم على مصر عدة باشوات لا يسع المقام ذكر اعمالهم بالتفصيل والباشا الذي وصل اليها في ايام هذه المجاعة وهو المدعو اسماعيل آلمته عواطف الشفقة والحزن والتأثر على ذلك الشعب الذي يموت جوعا في حالة بؤس وتعاسة فاجبر الامراء بان يتكفل كل واحد منهم باطعام بعض الفقراء يوميا حتى لا

يموتوا جوعا. وجعل نفسه قدوة صالحة ومثالا حسنا فكان يوزع تعيينات من الخبز والخضار مرتين في اليوم على الفقراء طول مدة المجاعة

ثم أعقب هذه المجاعة الطاعون كالعادة فكان الناس يموتون في الشوارع ويتراكمون فوق بعضهم اكواما . وكان ذلك الباشا الذي يختلف عن اسلافه اختلافاً بينا في طيبة القلب والشفقة على الشعب يشتغل في دفن الموتى تحت ملاحظته وقد الزم الامراء بان يقتدوا به في هذا العمل . وبعد أن أفاقت البلاد من المجاعة والطاعون اقام احتفالا ووليمة عظيمة لمناسبة ختان ابنه ثم امر أن يختن عدد عظيم من اولاد الفقراء (١) تذكاراً لذلك اليوم ووزع عليهم جميعاً ملابس جديدة على نفقته الخاصة

وفي السنة الاخيرة من القرن السابع عشر مات المؤرخ العظيم المعروف بشمس الدين « أو نور الايمان » وكان من اشهر العلماء في مصر وقد الف عدة كتب أخرى خلاف كتاب تاريخ مصر الذي هو في غاية الاهمية لصحة الحوادث التي دونها فيه عن القرن الذي كان معاصراً له

وفي ٣ محرم سنة ١٠٩٩ هـ اقبل السلطان محمد الرابع

---

(١) يقول الجبرتي انه عدد اولاد الذين اختتنوا واكتسوا على حساب الباشا ٢٣٣٦ ويقول المسيو مابيه الذي كتب في تاريخه إيضاحات عظيمة عن اعياد وولائم ولاة مصر انه عدد الاولاد ٥٠٠٠

الفصل التاسع والستون

استبداد البكوات المماليك

سنة ١٧١٠ مسيحية و١٤٢٣ للشهدا و١١١٨ الهجره

وبعد تسع سنوات تقريبا من تولية السلطان مصطفى الثاني اقيل وتوفي في السجن سنة ١١١٩ هـ وبويع اخوه احمد خان وهو احمد الثالث وكانت مدة حكمه على المملكة العثمانية نحو عشرين سنة حصلت في اثنائها ثورات عديدة في مصر انتهت كما قلنا في اول الفصل السابع بتحويل سلطة الباشوات ونفوذهم الى البكوات المماليك . وقد تولى على مصر من سنة ١٠٦٣ الى سنة ١١١٩ هـ اثنان وعشرون واليا لم نذكرهم هنا لعدم اهميتهم وفي السنة الاخيرة من ايام السلطان احمد خان تولى على مصر حسن باشا وكانت وظيفة شيخ البلد في القاهرة مسنودة الى قاسم عيواظ بك . الذي كان برأس طائفة القاسمية كما كان ذو الفقار بك برأس الطائفة الفقريه كما تقدم الايضاح في الفصل السابق

وقد كانت هاتان الطائفتان قبل تولى حسن باشا في وفاق تام فلما تولى الاحكام خشي اتحادهما فعمد الى الدسائس والقى بينهما الشقاق فحصلت بينهما مواقع سيأتي بيانها بالتفصيل في هذا الفصل

وفي سنة ١٧١٠ مسيحية نشبت الحروب بين روسيا وتركيا فصدر امر من السلطان باخذ بعض الجنود التركية المحتلة لمصر فتخلصت هذه

البلاد وارتاحت من مضايقة واستبداد ثلاثة آلاف جندي تركي كانوا يمتصون دم حياتها. غير أن الذين بقوا منهم في القاهرة استمروا يقاومون المخاصمات والمعارك حتى ازداد الشر والضيق في البلاد كثيراً وقضت الحالة الى قيام حرب اهلية في البلاد فنزل حاكم الصعيد بجيوشه الى القاهرة ليشترك في تلك الحرب الشعواء وبقيت بقعة الارض الواسعة الواقعة بين القلعة وجامع السلطان حسن ميدانا لهذه الحروب حتى تحول ذلك الجامع الى حصن حربي فسيح كما تحول ايضا جامعا ابن طولون والمؤيد الى حصون حربية اخرى . وبالجملة استعملت اهم واجل الجوامع في القاهرة يومئذ الى معامل وحصون لجيوش الامرأ

وقد انتهت هذه الحرب بانهزام حاكم الصعيد الذي كان يقصده الوالي ثم اتحد الامرأ مع بعضهم وخلعوا الوالي المذكور حتى خلى لهم الجو وصاروا يلعبون ويمرحون . غير أن اعداء الامراء عمدوا الى اطلاق النيران على منازل كثيرين منهم فاندلع لسان اللهيب وتطاير شراره الى حوانيت ومنازل الاهالي الذين لم يكن لهم ادنى دخل في تلك الحروب والثورات فكان من وراء ذلك حرق قسم عظيم من مدينة القاهرة امامه لم يحرق من منازل الاهلين المساكين فقد نهبه عساكر الامراء بحالة فظيعة وحتى لقد رؤي الاهالي يسرعون الى الهرب من المدينة تاركين منازلهم وامتعتهم لهؤلاء الجنود اللصوص السالبين والذين بقوا في المدينة على رجاء حماية ممتلكاتهم وقعوا في يد عدو اشد ظلما واستبداد من

العساكر ذلك أن قبيلة البدو التي احضرها الامرأ القاسميه ليضربوا برجالها اعضاء حزب الفقارية انتشرت داخل القاهرة وصارت تسرق وتنهب كل شيء يقع تحت ايديها ثم قطعت مجرى الماء عن المدينة رغبة في ان يموت كل من فيها عطشا

ولم تقتصر اضرار هولاء البدو وعراكهم على مدينة القاهرة وحدها بل تعدتها الى الضواحي والى كل قرية اخرى كان ينتدبهم اليها روساء الحزبين المحكي عنهما وقد الحقوا بمدينة اخميم على الخصوص خراباً تاما من افعالهم الوحشية وقتلوا كثيرين من اهاليها وكان جل سكانها في ذلك الوقت من المسيحيين كما كان ذلك لسوء الحظ من اهم الاسباب التي اوجبت هجومهم عليها مع أن سكانها لم يقع منهم أي ذنب يوأخذون عليه . وقد حصلت وقائع كثيرة بين طائفتي القاسمية والفقارية دامت ثمانين يوما كانوا يخرجون في خلالها من القاهرة الى مكان يعرف بقبة العرب ويأخذون في الكفاح من شروق الشمس الى غروبها ثم يعودون الى القاهرة فيصرفون الليل هادئين في بيوتهم ويعودون في الصباح ثانية الى القتال واخيراً وقع بين الطرفين معركة شديدة بقرب القصر العيني قتل فيها قاسم عيواظ بك . لان حاكم الصعيد الذي كان يقود فرقة الفقارية عمد الى حيلة بان اوجد كمينا يصطاد بواسطته عيواظ ذلك انه اختفى وراء حائط قنطرة كانوا يتحاربون بقربها ثم تظاهر بالهروب السريع فنزل عيواظ الى تحت قباب القنطرة وهو لا يعلم بوجود الكمين فيها فانقض عليه وقتله . وقد

اسف عليه الناس وبكوه بكاءهم على حاكم عادل أو أب حنون بار وحتى لم يبق صديق ولا عدو الا وبكاه لانه كان فضلا عن حكمته وعدله ذا عفة وشجاعة كما كان باسلا ابي النفس . وقد داموا ابنه اسماعيل بك شيخا للبلدة مكانه وصادق الباشا على ذلك لظنه أن اسماعيل لصغر سنه (لانه كان في العشرين من عمره) يكون آلة في يده يديرها كيف شاء . وكان اسماعيل هذا مشهوراً بالجمال والشجاعة وقد انتخبه القاسميون زعيما عليهم ايضا بدلا عن ابيه وعقدوا هدنة مع الفقارية مدة ثلاثة ايام . فتكدر ذو الفقار بك من ذلك لانه كان ينتظر أن يأخذ منصب شياخة البلدة وعادت بعد ذلك الخصومات والعداوة بين رجال الحزبين كما تجددت المنازعات بدرجة اشد من الاولى ودامت هكذا حتى هزمت طائفة الفقارية وبقي اسماعيل الشاب سيداً على البلاد المصرية وكان عاقلا حكيما كوالده عارفا وجوه الربح والحق فسعى الى الوفاق مع الطائفة الفقارية فاتحدت الطائفتان جميعا على الباشا الذي كان اسماعيل من جهة اخرى يظهر له الطاعة والخضوع ظاهراً بصفته رئيساً له ولكنه كان يسعى سرا الى خلعه فكتب عنه الى الاستانة ففاز بعزله وجاء باشا جديد غيره ثم أبدل هذا باخر ثم باخر جاءوا وراء بعضهم من القسطنطينية في مدة ثلاث عشر سنة واسماعيل باقيا في منصبه مكتسباً ثقة الرعية حتى اصبح في مقام حاكم البلاد الحقيقي وكان الناس يحبونه بدرجة تقرب من العبادة . وقد عين اصحابه حكاما على الاقاليم المختلفة واسند الى بعضهم اهم وظائف الحكومة في

القاهرة . ثم عمم العدل على كل الناس بالسواء وطهر ضواحي البلاد من البدو السالبين . وكانت هذه هي المرة الاولى التي ذاق فيها المصريون لذة الامن العام والراحة بعد زوال استقلالهم . وقد كان حتى في ايام الوالي اسماعيل الذي بطش بيده القوية على المفسدين يستحيل على سيدة من المخدرات أن تسير لوحدها خارج العاصمة بدون حرس قوي حولها وفي يوم شم النسيم في السنة التي تقدمت سنة قتله خرج جماعة من النساء كما هي العادة في مثل ذلك اليوم راكبات حميراً وذاهبات للرياضة خارج المدينة فلما ان وصلن الى كوبري فوق الترعة التي كانت واقعة شمالي القاهرة احتاط بهن خدم المماليك وكانوا سكارى ومدججين بالسلاح ومزقوا النقاب من على وجوههن وسلبوا ما كان عليهن من الحلي والمصوغات برضى وتسليم الضابط المكلف بحفظ الامن في تلك النقطة ثم تركوهن لحراسة هذا الضابط الامين وعساكره وهولاء جردوهن من سائر ملابسهن وتركوهن عاريات بالمرة وعرضة للمارين مما صيرهن يتوسلن لكل عابر سبيل أن يشفق عليهن ويعطيهن شيئاً يكتسين به حتى يرجعن الى بيوتهن

ولما ان فحصت هذه المسألة اتضح ان اولئك النساء لم يكن قبطيات ولا يهوديات حتى يأتي معهن هولاء المستبدين ذلك العمل الفظيع بل اتضح انهن نساء مسلمات وزوجات رجال من طبقة عالية . ومن عائلات عظيمة . ويقول مؤرخ هذه الحادثة انهن رفعن في صباح اليوم الثاني شكواهن الى الباشا طالبات تعويض ما فقد منهن من ملابس والمصاغ

بجوهرات ومصوغات عظيمة . فامر الباشا باحضار الضابط والرجلين اللذين اشتركا معه في هذه الجريمة وهددوهم بالقتل فاعترفوا بما فعلوا وايدوا شكوى السيدات بكل معانيها لكنهم دفاعا عن انفسهم قالوا انهم لم يفعلوا ذلك الا اطاعة لامر الضابط رئيسهم الذي لا يسعهم مخالفته. وقد كان بعض سكان الحي الذي وقعت فيه الحادثة المؤلمة مشاهدين لكل ما تم فيها ولكنه كان غير ممكن لهم الاعتراف بالشهادة خوفا من بطش المعتدين ولكنهم لما وقعوا تحت المحاكمة شهدوا بما تم فاضطر الوالي الى نفي الضابط الى ابو قير بعد ان الزمه بدفع غرامة كبيرة ثم اصدر بعد ذلك امراً عاما يقضي بمعاقبة كل من يعتدي على النساء اللواتي يسرن بلا حراس في الطريق عقابا صارما وامر كذلك بانه لا يجوز لاية امرأة كانت ان تخرج خارج بوابة المدينة ولا تركب حمارا — !

وبالاجمال فان اسماعيل بك بذل جهده في ايقاف تيار تلك المسالب والسرقات العلنية المخجلة التي كان يرتكبها اتباع الرؤساء العسكريين وفي اغلب الحوادث كان يرغم السارقون والناهبون برد ما سلبوه الى اصحابه

ومما يحكى عنه انه كان يأدب في ليالي رمضان مآدب ليلية يجتمع فيها العلماء والفقهاء والمشايخ لقرأة القران وكان وقت غروب الشمس يفتح منزله لكل قاصد وفقير لمناولة طعام الافطار على حسابه . وبمثل هذه الشجاعة الادبية كان يغوي اصحابه ومعارفه على ترك القاهرة وزيارة

الذين عينهم حكاما على الاقاليم لافتقاد احوالهم وبذلك تمكن من توطيد دعائم الامن مع انه قبل ايامه ما كان يقدر احد من الامراء على الذهاب الى خارج القاهرة بمفرده ما لم يكن معه جيشا جرارا والا داهمه القتل لا محالة . وقد كان جميع المماليك الامراء لا يموتون الا قتلا بطرق مختلفة ونادرا من كان يبقى منهم حتى يدركه الموت الطبيعي وكان حظ اسماعيل هذا مثل حظ من تقدمه من البكوات المماليك . فانه بعد ان ظل في منصبه ستة عشر سنة تقلب في اثنائها على مصر جملة باشوات من الولاة كانوا يشغلون مراكزهم بالاسم فقط وكانت قلعة الجبل سجنا لهم وكان لحسن سياسته ماذا جماعة الفقاريين عن كل حركة مضرة لتظاهره انه على وفاق معهم فلم يعط لهم فرصة يتحدون فيها عليه الا انه ارتكب خطأ واحدا ادى الى قتله . ذلك ان ذي الفقار من رجال الطائفة الفقارية كان له عقار كاف لنفقات عائلته فاختلسه منه احد المماليك القاسمية الذين يرأسهم اسماعيل بك فتظلم ذو الفقار الى اسماعيل بك بصفته شيخا للبلد فلم يصغ لظلامته وامر بابقاء العقار مع مملوكه فشق ذلك على ذي الفقار ورفع دعواه الى زعيم الفقارية ويقال له شركس بك وكان خصما لاسماعيل يكرهه كرها طبيعيا فسار الى الباشا الوالي وشكى له تصرف اسماعيل وكان في قلب الباشا حزازات حسد منه فوافقه على الايقاع به ثم قال له ليس لك وسيلة افضل من ان تكلف احد المماليك التابعين لك بقتل اسماعيل وانا اعده بان يكون له جميع ما يتركه من المال والنساء مكافئة

لا تعابه .

فعين شركس بك اول يوم يجتمع فيه الديوان لاتمام هذه النية السوداء وامر مملوكه ذا الفقار باتمامها ففي اليوم المعين سار ذو الفقار ودخل الديوان وكان جالسا فيه اسماعيل بك وتقدم اليه وقبل يده قائلا «ارجوك أن تأمر بارجاع عقاري الي» فاجابه اسماعيل بك منتهراً (سننظر في طلبك) فالح عليه فانتهره فاستل خنجراً ماضيا وبقر به بطنه فتدفقت امعاؤه ومات لساعته في وسط الديوان وحينئذ هجم رجال الباشا على كل من وجد هناك من رجال اسماعيل وقتلوهم عن اخرهم ولم ينج منهم الا الذي اسرع بالعدو . وهكذا كان انتهاء حكم اسماعيل بك سنة ١١٣٦ هـ سنة ١٧٢٣ مسيحية ومات وعمره ثلاثين سنة ونقلت جثته الى بيته ثم دفنت بجانب جثة ابيه بجوار باب اللوق . وترك اسماعيل بك بنتا وولدين من زوجات مختلفات ولم يقم هولاء الاولاد بذكرى ابيهم اكثر من بضعة اشهر . وبنى اسماعيل بك جامعين احدهما بدسوق وهو المعروف بجامع سيدي ابراهيم الدسوقي والآخر بعليج وهو المعروف بجامع سيدي علي ورمم جامع الازهر في القاهرة . وترأس قافلة الحج المصري ستة مرات الى مكة وكانت سنة موته سنة حداد عظيم عند جميع المصريين

وفي السنة التي مات فيها اسماعيل قامت ثورة فكرية عظيمة في القاهرة نشأت عن خطبة القاها رجل مسلم تركي الاصل من دعاة

الاصلاح في جامع المؤيد على جمهور من الاهالي دعاهم الى ذلك وكانت خطبته تتضمن ذم المفاسد والمصائب التي شوهت الدين الاسلامي ثم انتقد باسهاب كبير طريقة عبادة الاولياء والمشايخ واعتقاد العامة واكثر الناس بانهم يأتون بعجائب ومعجزات بعد موتهم فاندهش علماء ومشايخ الازهر لهذه التصريحات والانتقادات الغريبة في بابها واستاؤا من ذلك الخطيب واصدروا امراً دينيا وزعوه على الناس ينكرون فيه اقوال هذا الخطيب ويفندون ارائه وتعاليمه ويثبتون أن الاولياء والمشايخ يظهرون العجائب بعد موتهم ثم طلبوا من الحكومة معاقبة ذلك الرجل الذي يتعرض للمعتقدات .

فاخذ احد المسلمين صورة من ذلك الامر واعطاه لذلك المصلح اثناء خطابته مرة اخرى فقال انه يود مناقشة العلماء ومباحثتهم امام القاضي الاكبر وطلب من سامعيه تعضيده . فصاح الجمع المحتشد لسماعه يؤكدون اخلاصهم له وتعضيدهم لافكاره ونزل من على منبر الخطابة فاحتاط به نحو الف رجل من المسلمين وتوجه مهرولا بضجة كبيرة الى بيت القاضي فلما علم القاضي بمجيء ذلك الجيش الى منزله ارتعب كثيراً واجتهد أن يمهل مقابلتهم ثم رفض استقبالهم فتكدر من ذلك الجمع وقصد الاوباش تكدير صفو الأمن غير أن القاضي هرب منهم واختفى في محل النساء

وفي يوم الثلاثاء التالي ليوم هذا الحادث اجتمع خلق عظيم اكثر من الذين اجتمعوا في المرة الاولى ليسمعوا هذا الخطيب في الجامع لكن

بحضر فذاع بين المجتمعين أن القاضي الاكبر منعه عن الخطابة بالقوة — وفكر الجمع مهرولين كالسيل الجارف الى المحكمة الشرعية وقبضوا على القاضي فانكر معلوميته بشيخهم الخطيب بالمرة فلم يقتنعوا بذلك واخذوا القاضي بالقوة حتى اوقفوه امام الباشا الوالي فامر بقطع رأسه ثم اصدر امرا يعد فيه هؤلاء المتجمهرين بعدم التعرض لما يرغبونه وبذلك انقذوا الشيخ الخطيب من تقيد حريته وحملوه منتصرا على ايديهم وساروا به في هتاف عظيم الى جامع المؤيد وهناك وزعت اعلانات مهيجة . وفي الاثناء كان الوالي ارسل الى رؤساء حزبي الفقارية والقاسمية يخبرهما بان القوم الرعاع المحتشدين حول الشيخ الخطيب قد سبوه واهانوه وانه لذلك يريد يترك البلاد لهم

ولما كان الامراء يميلون بطبيعتهم الى المعارك والقتال انتهزوا هذه الفرصة وجمع كل منهم رجال حزبه وحملوا السلاح وساروا ليقبضوا على الخطيب ويبطشوا بسامعيه . ولكن خبر قيامهم كان سبقهم الى جامع المؤيد فلما وصلوه لم يجدوا فيه احدا فطافوا المدينة كلها وصاروا يجلدون ويضربون بالعصا كل من يجدونه في طريقهم ويقبضون عليه . ويقول الجبرتي — : وبهذه الكيفية انتهى الاختبال والهياج وهدأت البلد اما الخطيب فاختفى وبعضهم يقول انه قتل والبعض الاخر يقول انه هجر البلاد

وفي يونيو سنة ١٧٣٤ تنبأ احد السحرة الاقباط بان العالم سينقضي بعد يومين من اعلان هذا النبأ . ففي الحال انتشرت نبوئه هذه بين الناس

وصدقها كل المسلمين المصريين . وانتشر هذا الخبر في القاهرة بسرعة عجيبة يندر حصولها عند الشرقيين (١) واتصل خبرها كذلك لسائر الاقاليم المصرية . وكان كل واحد يودع صاحبه وقريبه وحبيبه قبل مفارقة العالم ويستعد لمقابلة الخطب الجسيم . واخذ الفقراء يهرولون جماعات جماعات الي شواطيء النيل ليغتسلوا فية ويطهرون انفسهم من خطاياهم بمائه . والبعض يجتمعون في احتفالات خصوصية للوداع بعضهم . واخرون يطوفون في الحقول تاركين منازلهم ووقع البعض في حالة رعب وفزع عظيمين لحد الجنون وبعضهم انقطعوا للتوبة والصلاة . اما المشايخ والامراء المماليك ولو انهم شاركوا الاهالي في رعبهم الا انهم اجتهدوا بان يبرهنوا للشعب على فساد الرواية ويحرضوه على الرجوع الى اشغاله اليومية الاعتيادية . ولكن نصائحهم ذهبت ادراج الرياح بلا فائدة لان الشعب الذي كان تقريبا كمصاب بالجنون قال الامراء والمشايخ النبوة حقيقة لا ريب فيها لان الاقباط واليهود قالوا بها ومن يقدر يقول ان هؤلاء القوم يخطئون في اقوالهم ونبواتهم سيما ان اسرار النبوة والفلك والتنجيم محصورة فيهم ؟ . ثم اوردوا حوادث النبوات القبطيـة التي تمت على ايامهم . (والمؤرخ المسلم لم يثبت لنا ما هي هذه النبوات القبطية التى تمت) .

---

(١) كانت الاخبار في قديم الايام تنتشر سريعاً بواسطة الحمام الزاجل . والموضوع الذي يلذ البحث فيه معرفة كيف كانت تستعمل ابراج الحمام المصرية في ذلك الحين لهذا الغرض

واخيراً قبضوا على الرجل الذي نطق بهذه النبوه وجاؤا به امام احد الامراء . فلم ينكر ولم يجحد ما قاله وقال (اطرحوني في السجن حتى يوم الجمعة وان لم يتم ماقلته فاذبحوني) وبناً على ذلك الاصرار ازداد الرعب واليأس عند جميع الناس . قاربت شمس اليوم الاخير على الغروب ولم تظهر اقل علامة تدل على قرب الساعة . واذا باحد العلماء المسلمين من اصحاب المدارك السامية والعقول الراجحة قام وقال — أن الاقباط قد اخطأوا في تخيمهم سابقا فلماذا لا نضيف خطأهم هذه المرة ايضاً الى خطأهم السابق — ثم أخذ يذيع بين جماهير الناس بوسائط كثيرة أن السيد البدوي وسيدي ابراهيم الدسوقي الامام الشافعي قد توسلوا لله جل جلاله هم وباقي الاولياء الصالحين بمنع هذة النقمة عن العباد رحمة بهم وشفقة عليهم فاجاب الله سبحانه وتعالى صلواتهم وقبل تضرعاتهم ورضي بتأجيل قلب الارض وما عليها الى اجل غير مسمى . أخذ الناس يهنئون بعضهم بعضا ويشكرون الله قائلين نحن الآن ما زلنا احياً فنسأل الله أن يجعل هذا التأجيل نافعا لدينا

وقد وقعت هذه الحادثة في ايام البطريرك يوحنا السابع عشر الذي لخلف بطرس السادس سنة ١٧٢٧ ثم اخلف يوحنا البطريرك مرقس السابع عشر

وبعد وفاة اسماعيل بك رجعت البلاد لحالة الفوضى الاصلية حيث اختل الامن العام وكثرت القلاقل والمحاربات بين البكوات المماليك

واحزابهم . فتولى شركس بك مشيخة البلد واخذ ذو الفقار بك الذي قتل اسماعيل جميع ممتلكاته ونسائه كوعد الباشا له فقويت شوكته واصبح عظيما يشار اليه بالبنان وزاد اعوانه من المماليك والاعيان فخافه شركس بك واراد أن يعمل به ما عمل باسماعيل فدبر له دسيسة فعلم بها ذو الفقار وجمع رجاله وهجم على شركس بك وقامت معركة عظيمة لم يثبت فيها شركس بك ربع ساعة وفر الى الصعيد فأخذ ذو الفقار مركزه برضى الباشا ولكن اصبح عدوا للبكوات وخصوصا رجلا يدعي ابي دفيه ثم جمع شركس بك اعوانه ورجع معهم الى القاهرة فارسل ذو الفقار بك عثمان كاشف احد كبار قواده لمقابلته فهزم شركس بك وطرده الي بلاد البربر . ولما ثمل ذو الفقار بخمرة النصر عمد الى قتل كثير من البكوات في القاهرة ولم يبق منهم الا رئيس الشرطه ورئيس الانكشارية فبعثا الى شركس بك واتحدا معه على محاربة ذو الفقار فلما اتى شركس بك لمحاربة عثمان القائد تمكن هذا الاخير من التغلب عليه ثم غرقه في النيل واتي عثمان برأسه ورأس شريكه مصطفى القرد وارسلها لذي الفقار بك الذي لم يهنأ بذلك النصر لانه قتل بعد قتل عدو شركس بيومين بمكيدة اعدت له بمساعي البكوات في القاهرة . وذلك انهم البسوا واحداً منهم دفيه وجاؤا به امام ذي الفقار وقالوا له هذا ابو دفيه قد اوقعه الله في ايدينا وكان الرجل يحمل تحت دفيته عيارين ناريين فلما وقف بين يديه اطلقهما عليه دفعة واحدة فسقط ذو الفقار مضرجا بدمائه في وسط ديوانه

سنة ١١٥٢ هجرية فلما علم عثمان بك قائده بما اصابه اسرع الى الاخذ بثاره فدخل القاهرة وجعل يفتك بكل من يصادفه في طريقه نخاف الجميع من استفحال الشر بين الامراء وقتل بعضهم البعض . وكان لهولاء الامراء عادة رديئة في الانتقام من بعضهم وهو أن يدعو احدهم الذين يريد الغدر بهم الى وليمة يقيمها في منزله متظاهراً بالمودة لهم ثم يعطي اشارة لرجاله وخدمه فيقوموا عليهم ويذبحوهم ذبح الاغنام وهم في ضيافته آمنين . وقد وقعت حادثة محزنة من هذا النوع في سنة ١٧٣٦ مسيحية وذلك ان الدفتردار دعي الى منزله احد عشر اميراً وذبحهم بهذه الصورة الفظيعة لان احدهم الذي كان رئيسا لطائفة الفقارية رفض ان يرقي مملوكا من القاسمين لرتبة سنجق وقد هرب من تلك المذبحة الهائلة اعظم امير قادر وقوي وهو عثمان بك الذي كان قائدا لرجال ذي الفقار . واخيراً خاف القاتلون ان يأتي عليهم اعوان الامراء المقتولين ويأخذون بثارهم منهم فالتجأوا الى جامع السلطان حسن فلم يسمح لهم احد بالدخول فيه غير انهم تغلبوا على الذين منعوهم بواسطة حرق الباب ودخلوا الجامع وتحصنوا فيه فنشأ عن ذلك قيام معارك دموية هائلة استمرت لسوء الحظ طول القرن الثامن عشر حيث تحولت الجوامع ثانيا الى حصون ومعاقل حربية وكانت منازل المقاتلين تنهب وتسلب علنا واصبحت الشوارع ملآنة بجثث القتلى . ومما يحسن ذكره ان محمد بك احد البكوات الذين كان يترقبهم عثمان بك رأى منصب مشيخة البلد خاليا بعد قتل ذي الفقار فطمع فيه

وتعاهد مع صاحبه صالح كاشف على قتل كل من بقي من البكوات زملاءه فادب لهم محمد ابك مأدبة فاخرة ودعاهم اليها فلبوا دعوته وهم غير حاسبين للشر حسابا غير انهم لما علموا بمكيدته قاوموه حتى تغلبوا عليه وقتلوه وقد هرب صاحبه الى القسطنطينية بعد ان شاهد رؤوس البكوات ملقاة على الطريق امام الجامع الحسيني . ثم خلع الباشا الوالي كما هي العادة عند حصول القلاقل الكثيرة واعقب خلفه فترة سلام قصيرة وكأنما الشقاء كان حليفا لهذه البلاد المنكودة الحظ فانها ما كادت ترتاح قليلا من حروب وويلات ومذابح هولاء البكوات حتى اصيب بضربة اشد وطأة من استبداد المماليك وهو الوبأ الذي انتشب في حول البلاد وعرضها ويعرف بطاعون الكي وقد انتشر انتشارا سريعا وفتك بالناس فتكا زريعا حتى مات في يوم واحد في منزل واحد لاحد الامرأ ١٢٣ نفسا وكانت الجثث تنقل الى المدافن والخلوات ليلا

وفي ذلك الحين الذي كان فيه الامن العام مستتب نوعا اتى المسيو ريكارد بوكوك الى مصر وكانت الامتيازات الاجنبيه موجودة فيها وقتئذ فكانت هذه الامتيازات نافعه في جعل الاوروباويين الوافدين اليها يتمتعون بالامن والضمانه على حياتهم وارزاقهم اكثر من سكان البلاد الاصليين البؤساء لان هذه الامتيازات التي منحها الباب العالي للاجانب جعلت المصريين يتأكدون بان قتل احدهم يؤول الى خطر عظيم فكانوا يقابلونهم ويكلمونهم بكلمات رقيقة واصبح هولاء الاجانب انفسهم في

ارتياح من هذه الحالة ولا سيما لالتجاء المصريين اليهم في احوال كثيرة. وفي ذلك الحين جاء ايضاً الى مصر فردريك نوردرن من ضباط البحرية الدانماركية ليسوح في مصر ويكتب عنها ما يراه ولكن كتابه الذي الفه عنها غير مفيد لانه لم يصف حالة الحكام الاتراك كما هي وتجنب شرح حالة التعاسة التي كانت عليها البلاد المصريه لتقلبه في ارائه وميله الى التخلص من ذكر هذه الحقائق مع انه ساح في اعالي النيل لغايه محل وجود بوكوك والف بعض مجلدات املا في الرجوع اليها بعد عودته والظاهر انه في طول مدة اقامته في وادي النيل لم يتعلم شيئاً عن البلاد اكثر مما يعلمه عنها أي سائح اوروبي بسيط في هذه الايام لا يقيم فيها اكثر من اسبوعين. اما مؤلفات بوكوك فكانت ذات قيمة حقيقية

ولو انه اخذ كل معلوماته عن سائر ما يختص بالاقباط من المترجمين الاميين الجهال أو من المرسلين الكاثوليك الذين كانوا يكرهون الاقباط الارثوذكس كثيراً كما فعل غيره من السائحين الذين لم يتعبوا انفسهم في استقراء الحقائق. وقد ساعد على نقل كل رواية غير صحيحة عن الاقباط تاخر القوم انفسهم عن الاجتماع بالسائحين وعدم اعتنائهم بكتابة تاريخهم بانفسهم ولكن هذا غالباً نشاء عن تعلقهم فقط بتاريخ كنيستهم الوطنية وتاريخ بطاركتهم. وقد وصل الدكتور بوكوك الى الاسكندرية من اوروبا في سنة ١٧٣٧ وحال نزوله الى البر توجه تواً لزيارة البطريرك اليوناني كوسماس الذي كان مقيماً في رشيد وكان البطريرك القبطي في ذلك

الوقت يوحنا السابع عشر . وقد استصحب الدكتور بوكوك في سياحته هذه احد الرهبان الفرنسيسكان الكاثوليك الذين كانت ارساليتهم منتشرة على طول النيل تحت حماية انكلترا . وقد زار المحكمة الكبرى فقالوا له انه يوجد فيها خمسمائة من الاقباط ومحل اثري وجد فيه بقايا هيكل عظيم . وبعد أن مكث في القاهرة اياماً زار الفيوم ثم سافر الى الانحاء القبلية بطريق النيل وكان الدير الابيض والدير الاحمر من اشهر اديرة الاقباط في ذلك الوقت وهما الموجود بقاياهما الآن بقرب مدينة سوهاج احدهما دير انبا شنوده والاخر دير انبا بشوي

ومن الكنائس الجميلة التي كانت موجودة في ذلك الوقت كنيسة ارمنت العظيمة فان عظمتها وجمالها اثر كثيراً على نظر هذا السائح لانها كانت تعد من اعظم واقدم الكنائس المصرية . وكانت البلاد في راحة نوعا من القلاقل اثناء الشهور القليلة التي اقامها هذا السائح في مصر فلم يشاهد لحسن حظه شيئاً من محاربة المماليك لبعضهم غير انه لاحظ أن قتل النفوس البريئة بالسم كان مستعملاً بين طبقات الاتراك بطريقة مألوفة وكان لابد من تنفيذ اوامر أي تركي كان مهما كان فيها من الاضرار العامة والخطاء المعيب . ومما لاحظه هذا الزائر في الاقباط انه وجد معظمهم يعرفون القرأة والكتابة الامر الذي لم يجد مثيلاً له عند غيرهم من باقي سكان مصر ومما قاله عنهم في مؤلفاته أن الانكشارية الاتراك كانوا يحصلون ضريبة عن الانفس من الاقباط وقد زاد التضيق

عليهم في امر هذه الضريبة بواسطة تركي من الاستانة بذل رشاوي ثقيلة للسلطان حتى اشترى امتيازها لنفسه وجاء الى مصر واخذ يضايق الاقباط المساكين فيها ويضغط عليهم في تحصيلها منهم بطرق كثيرة جائرة اكثر مما كان يفعل رجال الانكشارية . وقد عاد بوكوك من مصر بعد ذلك وساح ايضاً في اورشليم وقبرص وانتهى امره اخيراً بتعينه اسقفاً على مدينة ميث

وكان قد عزل السلطان احمد الثالث في جمادي الاولى سنة ١١٤٣ هجرية (١٧٣٠ مسيحية) وبويع بدله ابن اخيه محمود بن مصطفى خان وهو السلطان الرابع والعشرون من بني عثمان ويلقبه بمحمود الاول وبقي على العرش العثماني خمسة وعشرين سنة وكان ولاة مصر في ايامه كاسلافهم بلا عمل وكل الاحكام وامور الحل والعقد بيد شيخ البلد واعوانه وليس من يستطيع معارضتهم فيها

وبعد أن قتل ذو الفقار بك كما تقدم تولى مكانه عثمان بك قائده وهذا رقى كثيرين من المماليك اتباعه الى رتبة البكاوات بدل الذين قتلوا وكان عثمان بك هذا اقوى رجل تقلد وظيفة شيخ البلد من سنة ١٧٣٦ مسيحية لسنة ١٧٤٣ واهم ما يذكر له من الفضائل انه ما كان يقبل الرشوه مطلقاً وكان عادلاً حازماً واما باقي صفاته فكانت مثل صفات الذين سلفوا من اقرانه فكان صارماً منتقماً قاتلاً عديم الرحمة. ولكنه لم يقتل مثل اقرانه بل لما كثرت انتقاماته وشعر بشدة مضايقة الناس منه ومنها تمكن

من الهروب (١) الى سوريا ومنها الى القسطنطينية فاستقبله السلطان

(١) ان السبب في هروب عثمان بك ذي الفقار نشأ عن توقعه الشر من اثنين من المماليك هما ابراهيم بك واسماعيل رضوان بك لان ثروتهما كانت قد نمت بسرعة واتحدا مع بعضهما على السراء والضراء فلما رأى اسماعيل انهما طامعين في وظيفته جمع اليه ثلاثة احزاب احدهم حزب ابراهيم بك القطامس وفيه ثلاثة من البكاوات والثاني حزب علي بك الدمياطي وفيه اثنين منهم والثالث حزب علي كخيا الطويل حيث شاور زعماء هذه الاحزاب في الامر فاقروا على قتل ابراهيم بك كخيا الانكشاريه ورضوان بك فبلغ احمد السكري أحد مماليك ابراهيم بك خبر هذا التواطؤ فدبر مكيدة يقتل بها عثمان بك فترصدوا له في القلعة غير انه شعر بالمكيدة فوثب بجواده الى داخل القلعة فلم يظفروا به وبعدئذ هرب الى سوريا ومنها قصد الاستانة كما تقدم الايضاح في غير هذا المكان

وبعد خروج عثمان بك من مصر صفا الجو لابراهيم بك ورضوان بك فقتلا جميع رجال الاحزاب المتآمرة عليهما وطلب من الوالي كيور احمد باشا السماح بقتل باقي البكوات فبذلوا الاموال في سبيل ذلك وكان لهم ما ارادوا وقتلوا علي بك الدمياطي بيد وكيله في وسط الديوان . ثم أمروا بقفل جميع منافذ القلعة على جميع من فيها من البكوات المنوي قتلهم وأوقفوا الجنود على بابي الانكشارية والعزب وبوشر في الذبح وأول من قتل في هذه المؤامرة خليل بك احد انصار الدمياطي ومحمد بك من انصار القطامس وكثيرين غيرهم ولم يبق من مناظري ابراهيم بك كخيا ورضوان بك الا ابراهيم القطامس وعلي كخيا الطويل فالاول مات حزناً بعد قليل والثاني ترك الديار تنعق من بناها فخلى لهما الجو وتولى ابراهيم كخيا مشيخة البلد ورضوان بك امارة الحج وصارا يتبادلان هذين المنصبين سنوياً وكل منهما يستعمل مركزه في جمع الثروة بعد القتل والفتك والنفي ووضعا يدهما على

بالاحترام وعينه والياً على بروحه وسعى أن يحفظ له ممتلكاته وامواله في مصر فلم يفلح لانها كانت قد نهبت كالعادة ولبث في بروحه حتى مات فيها

وفي سنة ١٧٤٣ مسيحية جاء باشا والياً على مصر اسمه محمد اليدقي وهذا قصد اصلاح مصر ادبياً فابتدأ باصدار امره بعدم شرب الدخان وكان يرسل ضابطه ثلاث مرات في اليوم يطوف الشوارع بالجنود وكل من يجده يدخن سكاره يعاقبه باشد العقاب. ولكن استدعى الى الاستانة بعد سنتين ولم يثبت التاريخ انه اتى باي عمل اصلاحي يذكر. ثم قام ايضاً شيخ من العلماء وقصد أن يصلح اخلاق مواطنيه فسار يخطب امام الامراء ويبين لهم شرورهم فادى ذلك الى اتفاق خدام الامراء على ذبحه نظير هذا التوبيخ والتأنيب لكنه تمكن من الهرب ثم عدل عن

كل ممتلكات الاغنياء بالقاهرة واستولى ابراهيم كخيا على اموال ثمانين بيتاً من بيوت القاهرة بخلاف محصولات البلاد والقرى والجمارك والمخازن والحوانيت حيث لم يبق ولم يذر

واستدعى كيور احمد باشا الى الاستانة وولي حكومة قبرص وجاء القاهرة والي آخر سنة ١١٥٦ هجرية فاحتقره ابراهيم كخيا ولكنه اغتنم فرصة غياب هذا في الحج بمكة وتواطأ مع حسين الخشاب على مكيدة ضد ابراهيم ورضوان ويكافئه الباشا بمنح مشيخة البلد له فلما عاد ابراهيم نجح الخشاب بالقبض عليه وعلى رضوان وسجنهما في القلعة فولاه الباشا مشيخة البلد لكنه لم يهنأ بها اذ قام اعوان ابراهيم كخيا واخرجوه مع رضوان بك من السجن وهموا بقتل الخشاب فهرب الى ابريم من أعمال النوبيا أما الباشا فاستدعاه السلطان وعاقبه عقابا شديدا انتهى بموته

خطة تانيب وتوبيخ الامراء ولذا فانه مات موتاً عادياً ونجى من القتل .
ومما يذكر عن تاريخ تلك الايام المظلمة أن جميع المماليك الاتراك كانوا لا يعرفون غير الخيانة التي يبدونها في كل امر تستدعيه مصالحهم المختلفة ومآربهم المتنوعة وما كان يوجد شيء يمنعهم عن ارتكاب هذه الدنايا ومن الغريب انهم كانوا يتعاهدون على ارتكابها بواسطة القسم مع أن القسم يجب اتيانه لمنع الشر لا للمساعدة على ايجاده

وفي سنة ١٧٤٥ مسيحية وصل الى الوالي محمد راغب باشا تعليمات سرية من السلطان بقتل القطامس والدمياطي واعوانهما وهما اقوى المماليك بأساً فعمد الباشا الى مكيدة لقتلهم فدعاهم دعوة عمومية الى الديوان وكانت العادة أن لا يخرج امير أو بك من منزله بغير سلاح استعداداً للطوارىء واتقاً لمثل هذه الخيانات التي كانت مالوفة في تلك الايام (١)

---

(١) كان الامراء يحبون راغب باشا لانه عرف كيف يعامل شيخ البلد فاحبته الرعية فصرف بينهم سنتين في سلام واجمع البكوات على استبقائه بينهم طويلا . وبينما هم في ذلك ورد للباشا خط شريف من السلطان بقطع دابر البكوات وشيخ البلد فارتبك الباشا وظن ان الباب العالي مشتبه بتصرفه من وشاية الاعداء ثم خاف ان يقتل البكوات بدون ذنب واخيرا قرر في ذهنه افضلية قتلهم فتواطأ مع رجاله ان يقتلوهم أول ما يجتمعون في مجلسه ففعلوا لكن ثلاثة من البكوات وفي جملتهم شيخ البلد تمكنوا من الهرب بعد جهاد شديد فلما احتجوا على هذا العمل الفظيع ولا سيما لعدم وجود داعي لذلك اضطر الباشا ان يطلعهم على فرمان السلطان السري الصادر له بقتلهم فعدلوا عن الانتقام منه وطلبوا من الباب العالي ابداله

وعند اول اجتماعهم لتلك الدعوة المشؤمة قتل منهم اولاً ثلاثة ولكن الباقين دافعوا عن انفسهم وتمكنوا من الهرب من القلعة واستدعوا اعوانهم وقامت حرب اهلية هائلة انتهت بموت كثيرين من الامراء وهروب اخرين منهم الى الصعيد . وفي سنة ١٤٧٨ مسيحية جاء القاهرة والي آخر يدعى احمد باشا وكان كثير الانهاك بالدرس والمطالعة فاراد معرفة مقدار قوة العلماء المصريين ظناً انه يستفاد منهم فجمع حوله كل جهابذة العلماء ومشايخ الازهر فوجد انهم تقريباً لا يعرفون شيئاً مما كان يتصوره وانهم يقتلون اوقاتهم في درس احوال اللغة العربية والفقه ونحو ذلك من المسائل البسيطة جداً فاخر عنده احدهم الشيخ عبد الله الشبروني شيخ الجامع الازهر مدة طويلة حتى يقف على حقيقة معلوماته ومعارفه لئلا يكون مخطئاً في حكمه الاول عليه ولكنه بعد طول الاختبار وجد معارفه قليلة كالباقين . وقد أخذ الباشا بعد ذلك يبحث ويفتش عن العلماء المصريين الذين كان يسمع عنهم كثيراً حينما كان في تركيا فكر عليه شيخ الجامع الازهر ولم يذكر له ما كان يجب أن يعرفه وهو أن البقية القليلة الباقية من العلوم المصرية القديمة التي كان يود معرفة شيئاً عنها ليس من يرشده عنها غير الاقباط . وقد بذل الباشا جهده في البحث عن عالم مسلم تكون معارفه تناسب على الاقل متوسط الدرجة العلمية التي يطلبها فوجد اخيراً شخصاً يدعى الشيخ حسن حبشي الاصل وهو والد المؤرخ الشهير المعروف بالجبرتي وكان هذا الرجل مدرساً لعلم الفلك في الجامع الازهر

وفي اثناء النصف الاول من القرن الثامن عشر كان الاقباط عائشون بسلام لان المسلمين كانوا مشغولين في قتال بعضهم بعضاً . ولم ترجع الفنون والصنائع القبطية الى سابق شأنها من الرواج التقدم من عهد الفتح العثماني لمصر حيث اخذت في الانسحاق والاضمحلال من ذلك الوقت شيئاً فشيئاً بسبب توالى المصائب والمحن على الاقباط خصوصاً والمصريين عموماً ونشاء عن ذلك زيادة استبداد الضيق على الاقباط المسيحيين وعلى الذين اسلموا منهم ايضاً وخاصة من زيادة استمرار السلب وتوالى هجوم العربان وعساكر الامراء على منازل الاهالي وسلب كل مايوجد فيها حتى انه لم يبق في القاهرة قبطي أو يهودي عنده شيئاً يستحق السرقة ولم يسرق منه

وفي سنة ١٧٣٣ مسيحية (١١٤٦ هـ) تلقى حاكم كل قسم من الحكام المعروفين بالكشاق امراً بناء على فرمان من السلطان يقضي بتوقيع ضريبة مالية على كل قبطي أو يهودي ساكناً في دائرة قسمه . وكانت الضريبة التي تؤخذ من هؤلاء البؤساء تنقسم الى ثلاثة درجات فالدرجة الاولى هي تحصيل ٤٢٠ بارة عن كل نفس والدرجة الثانية ٢٧٠ بارة والثالثة ١٠٠ بارة (١)

---

(١) مقادير النقود المصرية كانت تتغير كثيرا في ايام السلاطين العثمانيين ولذا يتعذر تعيين القيمة التي توازيها بالنسبة للعملة الانكليزية ويقول بوكوك انه في (سنة ١٧٣٧ مسيحية) كان الكيس المصري يساوي ٢٥٠٠٠ مدين والمدين يساوي اثنين بنس ونصف أي غرش صاغ

ومن بعد حادثة استشهاد الاب كليمانت القسيس الفرنساوي لم يمت احد بامر الحكومة بسبب دينه ولم يصدر امر رسمي بهدم الكنائس . وفضلاً عن ذلك فقد كانت الحكومة مضطرة جداً لاستخدام الاقباط في مصالحها بالنسبة لامانتهم ومعارفهم الممتازة بينما كان الجهل وعدم الاستقامة في السيرة متفشياً بين المسلمين

وكان للمرسلين الكاثوليك سنة ١٧٣١ مسيحية تسعة مراكز جنوب القاهره وهي في اخميم واسيوط وابو تيج وصدفا واخميم وجرجا والاقصر واصوان وحتى في دير النوبة وقد علمنا من التاريخ انه في تلك السنة ارسل البابا كليمان الثاني عشر لرؤساء هولاء الارساليات أن يبذلوا ما في وسعهم لحض الاقباط على ارسال اولادهم الى رومية لتعليمها فيها فلم يقبل الاقباط بذلك ولم يتمكن اصحاب تلك الارساليات الا من ابعاث ابناء الروم الكاثوليك للدرس في رومية رغماً عن طرق التهديد والوعيد التي استعملوها مع الاقباط الاصلين لهذا الغرض بلافائدة. وفي تلك الايام قدم الى الديار المصرية جماعة من سواحين الفرنسويين والانكليز فوصلت الباخرة التي تقلهم الى داخل النيل . ولما رست بهم عند اسينا خرج السواحون منها لمشاهدة خرائب تلك المدينة القديمة فاسرع الاقباط الكاثوليك الذين الذين كانوا فيها فقدموا انفسهم للمرسل المقيم هناك وخدموا في كنيسته

وكتب البابا كليمان الثاني عشر المذكور الى بطريرك الاقباط السابع

عشر عن يد الكردنبال بلوجا واحد المرسلين الكاثوليك اللذان كانا عندهما وسائط خصوصية لمخاطبة بطريرك الاقباط باسم البابا بان يوجه همته ويعلم ما فيه تقديم نفسه وكنيسته للخضوع الى الكنيسة البابوية ولكن هذه المخابرات انتهت بلا ثمرة كما حصل مراراً قبل ذلك . ولما اخلف كليمان على العرش البابوي البابا بنديكت الرابع عشر انكر كل قول عن اتحاد الاقباط مع كنيسة روميا وعوضاً عن استئناف المخابرة مع بطريرك الاقباط لترغيبه في الانضمام لكنيسة رومية عين مطرانا كاثوليكياً على مصر يكون له حق السلطة الدينية فيها وذلك في سنة ١٧٤١

وكان هذا المطران قبطي الاصل يدعى اثناثيوس ومقيماً في اورشليم فبعد تعينه ظل مقيماً في القدس وعين له نائباً عاماً في مصر وارسل له البابا بنديكت سنة ١٧٤٥ مسيحية تعليمات مستفيضة فيما يجب عليه اتباعه لجذب الاقباط الارثوذكس للمعتقد الكاثوليكي وفي ذلك الحين كان يوجد شاب قبطي ارثذكسي اسمه روفائيل الطوخي من اهالي جرجا كان اخذه الكاثوليك بالقوة حينما كان صغيراً وارسلوه لدرس اللاهوت في رومية فعينه البابا بعد اتمام دراسته اسقفا على ارسينوه ولكن يظهر انه لم يتمكن من الاقامة فيها طويلاً (١)

---

(١) يظهر انه في السنين الاخيرة من القرن الثامن عشر قد نجح الكاثوليك الرومانيين وانتصروا مرة بعد طول ذلك الجهاد مع الاقباط ذلك انه امكنهم ادخال اسقف جرجا القبطي الى مذهب الكنيسة الرومانية ولكن لهرطقته حرم من الكنيسة القبطية وحتى الاسلام حكموا عليه بالعقاب ففر هارباً الى رومية وعاش فيها حتى سنة ١٨٠٧

لان البابا اراد الانتفاع بحسن معارفه فطلبه ثانية الى رومية ليساعد في بعض تأليف دينية باللغة القبطية من ضمنها اجرومية تلك اللغة وتنقيح كتب الطقوس الكنائسية وقد ترجم ايضاً عدة كتب يونانية ولاتينية الى اللغة القبطية والعربية

وفي سنة ١٧٤٣ مسيحية ارسل امبراطور الحبشة وفداً لبطريرك الاقباط يطلب تعين مطراناً لتلك المملكة بدل المطران خريستو دولس الذي توفى . وهذا الوفد كان مؤلفاً من ثلاثة اعضاء احدهم قبطي الاصل اسمه جرجس والاثنان الاخران حبشيان احدهما اسمه تاوضروس والآخر اسمه ليكانيوس وكانت المواني المصرية وكل الشواطيء البحرية في ذلك الحين في يد الحكام المسلمين ولم تكن الحبشة قد اكتشفت اوانيها القديمة بعد فقبض حاكم مصوع المسلم على هؤلاء الثلاثة رجال اعضاء الوفد وسجنهم واخذ منهم نصف النقود التي كانت مرسلة معهم الى مصر ثم هددهم بالقتل . فاختفى احدهم وهو جرجس القبطي ولكن لم يذكر التاريخ أن كان قتل أو تمكن من الهرب بالحيلة . اما ليكانيوس الحبشي فاطاع الحاكم المسلم واعتنق الاسلام ولكن الاب تاوضرس الكاهن الحبشي اطلق سبيله بعد أن فدا نفسه بالمال وواصل سفره لاجل اتمام مأموريته حتى وصل القاهرة وظل بها الى أن حصل على رسامة مطراناً لبلاده سنة ١٧٤٥ ولما قصد هذا المطران السفر الى الحبشة مع الكاهن الحبشي المشار اليه صادف في مصوع ما صادف الوفد الحبشي

من قبله حيث القاهم الحاكم في السجن غير أن الاب تاوضروس عمد الى حيلة نجى بها صاحبه المطران الجديد من يد الحاكم وتمكن من السفر. ومن الغريب أن الحاكم لم يقتل ذلك الكاهن لهذه الخدعة لكن حجزه للفديه فلما وصلت الفديه للحاكم اطلق سبيله وسافر الى بلاده سالماً

وفي ذلك الحين كان المرسلون الكاثوليك قد ثبتت اقدامهم في مصر وتوطدت دعائم ارسالياتهم فيها ولو انهم لم يفلحوا في اغواء الاقباط الاصليين على اتباع مذاهبهم ولكن كثيرون من السوريين المستوطنين في مصر وبعض ابناء الكنيسة اليونانية انضم اليهم وبذلك اصبح لهم كنائس خصوصية كثيرة في بعض المدن المصرية وكان يتردد اليها ايضاً بعض الذين لم يتبعوا مذهبهم وكان امثال هؤلاء يعتبرون على كل حال مرتدين عن مذهبهم الاصلي.

على أن السلطان سمع بزيادة النفوذ الاوروبي بمصر باسباب هذه الارساليات الاتينية فقلق وتضجر من جراء ذلك وارسل فرماناً الى بطريرك الكنيسة اليونانية يأمره فيه بان يحذر كل عضو من اعضاء كنيسته بعدم التوجه الى تلك الاماكن الاوروبية والصلاة فيها والا يصير مجازاتهم بدفع غرامة قدرها الف كيس فجمع السوريون هذا المبلغ ودفعوه للسلطان واستمروا على الذهاب الى الكنيسة اللاتينية. وقد انتهز احد امراء المماليك هذه الفرصة وقبض على اربعة من المرسلين اللاتنيين وسجنهم ولم يفرج عنهم الا بعد أن دفعوا فدية مالية عن انفسهم

وكان محرما على الاقباط الارثوذكس زيارة بيت المقدس من أجيال كثيرة وكان هذا الحرمان موجباً الحزن الدائم عند الاتقياء والمتعبدين منهم . ولكن في سنة ١٧٥٣ مسيحية (١١٦٦ هجرية) عزم كبارهم على استئناف السعي وبذل الجهد في طلب التصريح لهم بهذه الامنية واضطروا لدفع مبالغ طائلة بصفة رشوة أملا في ادراكها. وكان لاحد كبار الامراء المماليك سكرتيراً قبطياً له نفوذ كبير عنده فهذا أخذ على نفسه القيام بالمساعي الموصلة الى ذلك بالنيابة عن بني قومه . فخابر أولا شيخ الجامع الازهر في الامر فقبل الشيخ النظر فيه مبدأ يا على شرط ان يأخذ رشوه قدرها الف دينار (٧٠٠ جنيه انكليزي) لكي يصدر فتوى تبيح للاقباط الحج الى بيت المقدس باورشليم والعودة منه بسلام وامان وان لا يعترضهم مسلم بسوء على الاطلاق . فاعطاه الاقباط هذا المبلغ وفعلاً أصدر الفتوى بذلك ففرحوا بها واستعدوا للحج بابتهاج عظيم جداً وخصصوا نقطة يجتمعون فيها بجوار الصحراء الشرقية الملاصقة للقاهرة حتى يسافروا منها بطريق البر واعدوا الجمال اللازمة لذلك مع التختروانات المعدة لنقل النساء والاطفال وكان يصل الى هذه النقطة مئات مئات من الاقباط يومياً بقصد السفر وقد حضر لوداعهم كثيرون من الاقارب والاصدقاء ومعهم كثير من الهدايا الثمينة للقبر المقدس وقد استأجروا كثيرين من العربان لحراستهم في الطريق وانتشرت أخبار هذا الحج في جميع انحاء القطر المصري فتذمر المسلمون من ذلك كثيرا. وأصبح

الشيخ عبد الله الشبروني شيخ الجامع الازهر وقد رأى نفسه مضطهداً ومكروهاً من جميع المسلمين بأسباب تلك الفتوى ثم افتضح السر الذي حمله على اصدارها فقام كبار المسلمين وعنفونه بشدة علي الرشوة التي اخذها اجرة لذلك فانكر امرها بتاتاً مع انه اخذ من الاقباط مبالغ أخرى أيضاً بقشيش عند نهاية فراغه من كتابة الفتوى علاوة على المبلغ الذي اخذه أولا ثمناً لها . على انه لما تحقق ان الانكار لم يجديه نفعاً فكر في طريقة أخرى يسترجع بها شرفه . فدعى طلبة الازهر جميعا وكثيراً من اوباش المسلمين وخطب فيهم محرضاً اياهم على ضرورة الانقاض علي الاقباط المتباهين لزياره بيت المقدس ومنعهم عن ذلك بكل وسيلة ممكنة . فأخذ التعصب والحماس من الطلبة والعامة مأخذا كبيراً وقبل ان يتم شيخ الازهر خطبته اسرعوا بالذهاب الى المكان الذي كان الاقباط المساكين موجودين فيه وكانوا على غير علم بما هناك من الشر فانقض عليهم هؤلاء المتعصبين كالوحوش الضارية بينما كانوا قائمين بتجهيز امتعة السفر واعملوا فيهم السيف والنار حتى مزقوهم شر ممزق ونهبوا كلما كان معهم من مال ومتاع وتركوهم على اسؤ حالات البؤس والشقاء . وقد بذل اكابر الاقباط وأصحاب النفوذ منهم كل مساعيهم لاستخلاص ما فقد منهم فراحت اتعابهم والاموال التي دفعوها في سبيل ذلك ادراج الرياح

الفصل الثامن والستون

المسيو دى مايه في مصر

سنة ١٦٩٤ ميلادية و١١٠٦هجرية و١٤١٠ للشهداء

وفي اواخر القرن السابع عشر توفى السلطان احمد خان كما تقدم وبويع بدله على العرش العثماني ابن اخيه السلطان مصطفى خان الملقب بمصطفى الثاني وهو ابن السلطان محمد الرابع وكان الباشا الوالي على مصر في ذلك الحين رجل يدعى اسماعيل . وفي ايام هذا السلطان حصلت ثورات عديدة بمصر انتهت بتحويل سلطة الباشوات الى البكوات المماليك وأصبح الباشوات يقيمون في القلعة دائماً كأنهم في سجن ولا يهمهم الا كسب الاموال ثم ابتدأت السلطة تسقط شيئاً فشيئاً حتى اصبحت في ايدي شيخ البلد وهو لقب كان يطلقه الاهالي على محافظ القاهرة . وانقسم البكوات المماليك وقتئذ الى حزبين كبيرين هما حزب القاسمية وحزب الفقارية وكان شيخ البلد ينتخب عادة من احد افراد هاتان العائلتان وكان هذان الحزبان لا ينفكان يضاد احدهما الاخر ويحاول كل منهما اكتساب النفوذ له واذلال الآخر وكان كل الامراء والبكوات في مصر سواء كانوا يشغلون مراكز مهمة في الجيش أم لا يتحيزون لاحد هذان الحزبان وكان اهالي مصر يقاسون العذاب وتضع على رؤوسهم مصائب نتيجة عداء الحزبين كما كان جمع سكان المملكة

البيزانطينية في آخر ايامها يقاسون الاهوال مع كل حزب من حزبيها اللذان كانا يعرفان بالحزب السياسي الاخضر والحزب الازرق . وكان شعار الحزبان المصريان اللذان نحن بصددهما من القماش الابيض والاحمر (١) ويقول الجبرتي أن هذان اللونان قد اثرا في شعور اصحاب كل حزب تأثيراً شديداً حتى اصبح اصحاب كل حزب يكره لون علم الحزب الاخر الى درجة لا تطاق حتى انهم ما كانوا يسمحون لاهل منازلهم باستعمال لون علم الخصم حتى ولا في الادوات المطبخية عندهم . وكبرت مسألة الاحزاب في نفوس المصريين حتى وصلت الى طبقات العمال واصحاب الصنايع الذين انقسموا ايضاً على بعضهم الى حزبين حزب يقال له حزب السعديين والآخر حزب الحرميين وصاراً يتحاربان مع بعضهما وحمل الحزب الاول منهما علم الفقارية الابيض والحزب الاخر علم القاسميه الاحمر . وابتدأ العراك اولاً ما بين قاسم بك الذي كان شيخ البلد وقتئذ (أو محافظ القاهرة) وذو الفقار بك الذي كان مزاحماً له على اخذ هذا المركز منه وكانا كلاهما من الشركس ومن نسل رجل من امراء المماليك

(١) كان علم الفقارية ابيض اللون ومزاريقه برمانه وعلم القاسميه احمر ومزاريقه بجلبه . وكان لكل من هاتين الطائفتين صفات مختصه بها فالفقارية كانت توصف بالكثرة والكرم والقاسمية بكثرة المال والبخل وبعضهم يقول أن هذين الحزبين ينسبان الى قاسم بك الدفتردار وذوى الفقار بك الكبير سنة ١٠٥٠ ه

المشهورين يدعى سودون كان عاتياً في عهد السلطان سليم الفاتح وحجر على نفسه داخل منزله وظل فيه كمسجون باقي ايامه على ما رواه المؤرخون كي لا يعترف بالسلطان المشار اليه حاكما على مصر. وفي اثناء السنين الاخيرة من القرن السابع عشر كان العراك والخصام قائما على اشده بين رجال هذين الحزبين وانتهى بمذابح وسرقات ونهب واحوال يطول شرحها يراها القاريء بالتطويل في تاريخ الجبرتي.

وفي اواخر القرن السابع عشر كثر وفود الارساليات الدينية والتجارية من اوروبا الى مصر حتى اضطر الحال الى تعيين نائب عن اوروبا في العالم المصري. ولو أن هؤلاء النزلاء الاحرار الاوربيين قليلون لكنهم في الحقيقة اقوياء الجانب بقوة وتأثير الشروط الدولية حتى امكنهم التمتع بالضمان التام بين المسلمين على اموالهم وحياتهم الذي لم يكن يتمتع به احد من من المصريين انفسهم فكان هذا الامتياز سبباً لرواج تجارة الاورباويين وصناعتهم رواجاً عظيماً في مصر كما وان الفرمانات التي عبرنا عنها بالاختصار بقولنا شروط دولية تحتوي على معاهدات عظيمة الشأن معقودة بين سلاطين آل عثمان وبين ملوك دول اوربا الكبرى. واول معاهدة من هذا النوع تمت مابين القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر وان المعاهدة بين المملكة الفرنساوية تمت في سنة ١٥٣٥ مسيحية

ولما اصبحت مصر جزءاً من المملكة العثمانية حوالي القرن السادس عشر كانت كل تلك المعاهدات وما تم بعدها تسري على مصر وهي البلاد

الجديدة التي ضمت الى الاملاك التركية . وقبل ايجاد هذه الامتيازات كان من المستحيل قطعياً على أي تاجر اجنبي أو ارسالية دينية أن تعيش في بلاد مصر . وفقط في عصرنا هذا اصبحت تلك الامتيازات الدولية شديدة الوطأة ومبتذله كثيراً وسبباً في تاخير نجاح البلاد المصرية

وفي اوائل القرن السادس عشر عينت كل من فرنسا وانكلترا قنصلاجنرالاً يمثلها في القاهرة وكتب المسيو دي مايه وكيل فرنسا السياسي الذي اتى مصر سنة ١٦٩٢ مسيحية كتاباً عظيماً عن احوال مصر في اواخر القرن السابع عشر واول القرن الثامن عشر للتاريخ المسيحي. لان هذا الوكيل السياسي تعين في السنة الثلاثين من عمره نائباً عن جلالة الملك لويس في مصر اكثر من ستة عشر سنة اجتهد فيها أن يعرف عوائد واخلاق المصريين لانه كان يسر بذلك كما انه اجهد نفسه في تعليم اللغة العربية مع أن اللغة التركية كانت اللغة الرسمية التي تخاطب بها الطبقات العالية من المصريين اما العربية فكانت لغة عديمة الاهمية. ويتضح لنا من كتابة المسيو دي مايه المشار اليه انه مدن القاهرة والاسكندرية ورشيد ودمياط اي ثغور البلاد المصرية اذلم تكن محصنه في ذلك الحين بل كانت عرضة وفريسة لاي فاتح يأتيها . وقال ان البلدة الوحيدة التي لم تزل محاطه باسوارها هي المنصورة كذا كثير من بوابات مدينة القاهرة كانت باقية على عهدها لكن الاسوار التي بينها لا يعتد بها لانها كانت مهدمة واشبه بحصون خربة . وقد قدر سكان القاهرة في ايامه بنحو ٥٠٠ر٠٠٠ نفس وقال انه

لا يظن أن عدد سكان مصر لا يزيد عن ٤٠٠,٠٠٠ نفس وكانت حدود الديار المصرية وقتئذ في جنوب مدينة ابريم حيث كانت الحامية العسكرية هناك عبارة عن خمسة وعشرين أو ثلاثين عسكرياً وكان لثغر الاسكندرية مرفأين احدهما مخصص لدخول المراكب المسيحية واما المرفأ الثاني الذي كانوا يسمونه الميناء الجديدة فكان مهدماً خرباً. ثم تكلم باستغراب عظيم عن بقايا مدينة الاسكندرية القديمة خصوصاً عن بقايا الاعمدة الجميلة التي كان لم يزل كثيراً منها قائماً بقرب الجامع الذي كان اصله كنيسة القديس اثناسيوس ثم قال أن البحر الابيض المتوسط هناك اخذ في النزول عن الارض بسرعة غريبة جداً حتى انه لاحظ أن المنزل الذي نزل فيه عند قدومه الى مصر سنة ١٦٩٢ مسيحية كان بينه وبين مياه البحر ثلاثون خطوة فقط فلما زاره سنة ١٧١٨ وجده يبعد عن البحر بنحو سبعين خطوة وقد بنيت منازل اخرى في الارض الخالية التي وجدت بينه وبين البحر

وقال انه بخلاف المسلة التي رآها منتصبة بجهة عين شمس رأى هناك ابو الهول مغطى بالرمال وقد كسرته ايدي الناس الذين ينبشون الارض بقصد أخذ الكنوز المدفونة ويقول أن اصل حجمه يماثل حجم ابي الهول القائم بجوار اهرام الجيزة ومنحوتاً في صخر (حجر) واحد مثله. وقال أن احدى المسلات كانت لم تزل قائمة بجهة المطرية ولكن اشجار البلسم المشهورة في تلك الجهة قد هلكت بالكلية

وواضح انه من منذ ثلاثمائة سنة مضت كانت بقايا واثار القصور والمباني القديمة تشاهد اكثر من هذه الايام ولكنها صارت تهدم يومياً حتى ضاعت عن النظر

وقال المسيو دي مايه أن احد رجال الانكشارية اشترى يوماً قطعة ارض متسعة لينشيء فيها حديقة وبينما كان يهدم ربية صغيرة في تلك الارض لمساواتها بارض الحديقة اكتشف تحتها خمسة اعمدة اثرية جميلة جداً كل عامود من حجر واحد . غير أن هذا الانكشاري كان يجهل قيمة هذه الاعمدة الثمينة فلما وجدها ثقيلة اخذ يكسرها ويبيع قطعها لاستعمالها في الطواحين مع انها اجمل واثمن الاعمدة المصرية التي اكتشفت الى الآن ورغماً عن تكسيرها وضياع رسومها الجميلة كان التجار الاوربا ويين يشترون القطعة منها بمائتي ريال وتمنى كثيرون من امراء اوربا أن يشتروا هذه باثمان عالية جداً لكي يتمكنوا من تصليحها واعادة نصبها ثانياً . وقال مايه انه بعد ذلك التزم جلالة الملك أن يعجل بشراء ونقل العامود العظيم الذي كان في الاسكندرية ويدعى عامود بومبي قبل أن يكون نصيبه ما حل بهذه الاعمدة الجميلة التي عبثت بها ايدي الاتراك المتبربرين

ومن تلاوة ما كتبه المسيو دي مايه يتضح أن الحكومة في ذلك الوقت ما كانت تسمح حتى لقنصل فرنسا الجنرال أن يتوجه برجاله الى اهرام الجيزه أو اهرام سقارة لمشاهدتها الا بكل صعوبة وكانت الطريقة لنيل الاذن بذلك هو أن يكتب اولاً القنصل اخطاراً لاحد البكوات المماليك

ليرسل له هذا عادة رجالاً من قبله لحراسة القنصل والمحافظة عليه من الاشرار . ولما زار المسيو دي مايبه هذه الجهات يومئذ شاهد اثار حفر كثيرة جداً في الارض الواقعة بين سقارة والجيزة حفرها العامة من المصريين والعربان للعثور على الكنوز . على أن هؤلاء العامة كانوا يعدمون لسوء الحظ كل ما يجدونه من الاثار بخلاف الذهب الذي كان هو جل مبتغاهم من الحفر مع انهم كانوا يستخرجون اثاراً اثمن منه بكثير ولكن لجهلهم المطبق كانوا يعدمونها سريعاً . وقد شاهد اشياء كثيرة منقوشة بالكتابات والرسوم الهروغليفية البديعة وموميات متنوعة كان المصريون يحضرونها امامه من سقارة الى القاهرة ويكسرونها على زعم انهم يجدون كنوزاً ذهبية مخبوءة في داخلها . وقد كتب جنابه بدقة واعتناء عظيمين بين الفرق بين المصريين والاتراك بالنسبة لاعتبار تلك الاثار في نظر الجنسين فقال أن المصريين وخصوصاً الاقباط كانوا يميلون جداً للمحافظة على الاثار القديمة ويعتبرون العبث بها انتهاكاً لحرمة تلك الاشياء النفيسة . وقد استعمل جنابه نفوذ مركزه الرسمي وتحصل ايضاً على مساعدات كبيرة من الاقباط في المحافظة على تلك الاثار وقد شهد للاقباط بانه كان في مقدرتهم انقاذها من ايدي المسلمين التي تعبث بها على الدوام. قال وقد اضطرت الظروف مرة احد الاقباط ان يبيع تمثالا قديماً كان موجوداً عند عائلته من نحو ثمانمائة سنة وكانت الظروف التي اضطرته للمبيع قهرية جداً يتوقف عليها حفظ حياته من العدم ومع ذلك

فقد ظهر عليه عند المبيع من الحزن والندم مالا يوصف ومما دل على عفة نفس ذلك القبطي وشهامته فلذلك لم نجد من يتشكى من عمله هذا للحكومة التركية ولم يدفع لها شيئاً نظير هذا المبيع. وكان هذا التمثال عبارة عن امرأة رأسها وقدميها من صنف حجر المحك الاسود وجسمها موضوع على قاعدة جميلة من الحجر الاخضر القديم الممتزج باللون الابيض وكله مصنوع صنعاً متقناً في غاية الجمال ارتفاعه خمسة اقدام وخمسة قراريط. وصاحبه القبطي اليائس قد اقسم يميناً على الانجيل امام المسيو دي مايبه بان هذا التمثال تحصل عليه احد اجداده حينما كان مستخدماً مع الحاكم الذي فتح احد اهرام الجيزة ووجده بداخله وكان هذا الحاكم (وهو غالباً الافضل امير الجيوش) قد امر بتكسيره في الحال ولكن سكرتيره القبطي الذي رآه يقرب من تمثال مريم العذراء وعلم انه من صنع اسلافه تضرع الى مولاه المسلم بان يعطيه اياه نظير جعل من المال يدفعه فداء عنه فسمح له باخذه ودفع فديته مائة مجر(١) من ذهب واخذه في منزله وبقى فيه من ذاك الحين يتوارثه الاولاد والاحفاد ويحفظ به الابن بعد الوالد كتركة عزيزة مكرمة حتى وصل الى ذلك اليائس الذي قضت عليه الظروف ببيعه بعد أن اصبح وجود هذا التمثال عنده مهدداً لحياته وحياة عائلته فاشتراه منه ذلك الوزير الاجنبي كما ذكر

ويتضح من كتابة المسيو دي مايبه انه كان يوجد في ذلك العهد

(١) المجر كان في ذلك الحين يساوي خمسة واربعين غرشاً صاغاً مصرياً

بالبلاد المصرية شيء كثير من النواويس والنوابيت المنحوتة من حجر الجرانيت او الرخام الجميل وعليها كثير من الكتابة الهيروغليفية المتقنة وكان كل تابوت عبارة عن قطعة واحدة محكمة الصنع وعدد كبير منها مطروح في طرقات واحياء القاهرة المختلفة عرضة للمارة وبعضها مستعمل بصفة احواض للماء في الطرق العمومية ومنها تابوت جميل استعمل اولاً بصفة حوض عمومي وسمي (بحوض العاشقين) واخر استعمل بصفة مسقى للخيل في منزل احد الضباط الانكشارية

وقد تكلم المسيو دي مايه بالايضاح التام عن انواع الاثمار والفاكهة التي كانت توجد بمصر في ذلك الوقت فاذا هي مثل ما يوجد منها في هذه الايام تماماً ما عدا قصب السكر فانه لم يذكر عنه شيئاً وقد قال مؤكداً أن النخله الجيدة كانت تعطي محصولا لصاحبها يوازي قيمة عشرة ليرات انكليزية . ثم تكلم عن الحيوانات المختلفة التي كانت توجد ايضاً في البلاد المصرية فقال أن القط كان لم يزل محبوباً جداً عند المصريين ووصف القط المصري بان يستحق المحبة مع انه لا يحب القطط . واثبت أن القطط المصرية في سنة ١٧٠٠ لم تكن تمتاز فقط بمهارتها العظيمة في صيد الجرذان ولكن كان لها شكل جميل المنظر جداً لان شعرها كان مخططاً ومرقطاً كالنمور وما كان يخلو وجودها من اقفاص (رسلان خانه الملوكي) أي محل الوحوش الذي يشبه حديقة الحيوانات في هذه الايام . ومن المضحكات قوله (أن تلك القطط كانت لم تزل تقيم في المساكن والمستشفيات لاجل

صيد الجرذان) . وكان التمساح يوجد بكثرة بالقرب من الجيزه ولكن يندر وجوده في الدلتا وقد قتل احد الاهالي قبل مجيئه الى مصر ببضع سنوات حيوانا بحرياً عند دمياط من الحيوانات المعروفة بجاموسة البحر

امضي المسيو دي مايه زمناً ليس بالقصير يفكر في مشروع ايصال البحر الابيض المتوسط بالبحر الاحمر الذي تم بعد ذلك بواسطة انشاء قناة السوس . وقد ظهر له سهولة انفاذ هذا المشروع العظيم ولكنه افتكر بان النفقات تزيد عن المنفعة بكثير فعدل عنه . وقد بحث ايضا عن التجارة المصريه الاجنبيـة وقال انها محيت بالمره من سوء ادارة الاتراك ولم تجد في البلاد تجارة تذكر الا تجارة الرقيق التي كانت لها الحظ الاوفر في الرواج والانتشار حيث كانت تركيا وبعض البلاد الاوربية ايضا تاخذ اللازم لها من العبيد بواسطة البلاد المصريه حتى نشأ عن ذلك صيرورة السودان خرابا بلقعا خاليا من السكان واصبحت قفارا بعد ما كانت عامرة بالحرث والغرس وكان العربان يصطادون السكان باساليب شتى ويأتون بها للبيع في الاسواق المصرية وكانت كل وسائط النقل محصورة في الابل . قال وكان الاتراك يجلبون الى مصر اشخاصا كثيرين من الرقيق الابيض الاورباوي يأتي به التجار من الاقاليم التركيه . واقل ثمن كانت تباع به الرأس الواحدة من الرقيق الابيض بمائتي ريال فاكثر ورأى المسيو دي مايه بنفسه بنات صغيرة تباع الواحدة منهن بسعر ثمانية وتسعمائة جنيه انكليزي وكان الطلب كثيراً في مصر على الاولاد الجميلة التي

يتشرب بياض وجههم بالحمار ليربهم الحكام المسلمين بصفة مماليك لهم وكان نادراً جداً جلب البنات والاولاد من الجنس التركي بل كان التجار يجلبونهم من اولاد المسيحيين ويدعون انهم اتراك فيشب هؤلاء الصبية على المبادىء الاسلامية وقل ما كانوا يخجلون من الرق ولا يعدونه عاراً عند بلوغهم سن الرشد بل بالعكس كانوا يفتخرون بانهم اتوا البلاد عبيداً ارقاً فاصبحوا اشرافاً وسادة فيها بينما اولاد العرب الاحرار أو الاهالي المصريين الذين تحصر فيهم فقط بعض المعارف والعلوم الضرورية كانوا مهانين وينظر اليهم بعين الاحتقار ولو كانوا مسلمين

وكان الاقباط دائماً اقل جهلا واكثر معرفة من جميع انواع المصريين . ولكن المسيو دي مايه الكاثوليكي الشديد التعصب لمذهبه لم ينصفهم تماماً بوصف ما كانوا عليه من حسن الصفات وسعة الاختبار بل كان يعاكسهم في حريتهم الدينية ولا يبدي معهم اقل تساهل في شيء باعتبار انهم تابعون لكنيسة منشقة ومهرطقة في عرفه . وقد كتب يشكو بحدة وغل قائلا انه لا يوجد في كل الدنيا شعب عيد وصلب في خطائه وتمسكه بعبادته القديمة مثل هولاء الاقباط المنشقين فان اعظم وامهر واحزق المبشرين الكاثوليك كانوا يشتغلون فيما بينهم سنين عديدة بلا فائدة ولا نتيجة تذكر !! ولكنه مع ذلك اعترف صريحاً بان الاقباط كانوا يستقبلون اولئك المبشرين بكل ادب ويحترمون غيرتهم وخدمتهم ويقابلون شفقتهم عليهم بالشكر والامتنان ومع ذلك كله

كان يستحيل بالمرة زحزحت اقل واحد منهم عن ترك مذهبه أو تغيير معتقده مطلقاً ولذلك تعزر على جميع المبشرين الكاثوليك جذب قبطي واحد للمذهب الكاثوليكي رغماً عما بذلوه في ذلك من المساعي الهائلة قال المسيو دي مايه أن هولاء المسلمين المبشرين قصدوا مرة مباشرة توزيع صدقات على فقراء الاقباط حتى يستميلوهم الى سماع تعاليمهم فاوجدوا لهم محلا وجمعوا عدداً كبيراً من الفقراء والبائسين واخذوا يوزعون عليهم الصدقات ثم يباشرون الوعظ بينهم حباً في جذبهم الى المعتقد الكاثوليكي بلا نتيجة وتصادف تعيين رئيس جديد للارسالية الكاثولكية بمصر فامر بمنع الصدقات عن هؤلاء الفقراء فامتنعوا عن المجيء لسماع الوعظ فلما ارسلوا يطلبونهم الى سماع الوعظ امتنعوا وقالوا (مفيش فلوس — مفيش كنيسة —) وبذلك لم يبق مع اولئك المبشرين الكاثوليك بصفة دائمة غير نفر قليل جداً ولم يعتنق مذهبهم غير الذين اخذوهم من والديهم وهم اطفال من اولاد الفقراء وربوهم من منذ نشأتهم على المذهب الكاثوليكي وبدون هذه الواسطة ما كان يمكنهم تحويل قبطي واحد عن معتقده الاصلي الارثذوكسي . ومن الغريب أن المسيو دي مايه ورفقا في المعتقد لم يوجهوا فكرهم للطرق التي كان يمكنهم النجاح فيها من هذا القبيل لانهم لو فكروا في الاهتمام بالوعظ بين المسلمين كان يمكن لهم النجاح اكثر من نجاحهم مع الاقباط اخوانهم في الدين ! ومن المعلوم أن الغرض الحقيقي من ارسال الارساليات المشخية والرومانية الى مصر في هذه

الايام مبني على ايصال التعاليم المسيحية الى المسلمين للدين وليس لمعاكسة الاقباط في معتقدهم بصرف النظر عن أن مدارس هولاء المرسلين ملآنه من الاقباط أو المسيحيين المصريين وهولاء لايدخلونها الا بطريقة الترغيب التي تفوق كل الطرق واهمها التعليم المجاني . واما في عصر المسيو دي مايه فان هذه طريقة ما كانت تؤثر على الاقباط ولا تحملهم مطلقاً على ترك كنيستهم الاصلية

وخلاصة ما يؤخذ من اقوال المسيو دي مايه أن الارساليات الدينية قد جربت كل الوسائط في اغرأ الاقباط على اعتناق المذهب الكاثوليكي وكلها ذهبت ادراج الرياح . واخيراً تأكد اصحابها انه لا توجد غير طريقة واحدة تمكنهم من النجاح في هذا العمل وهي انهم يتحايلون على على اولاد القراء وياخذونهم منذطفوليتهم ويفصلونهم عن قومهم انفصالاً تاماً ويربونهم على مذهبهم وذكر المسيو دي مايه أن بعضاً من هولاء الاطفال ارسلتهم احدي الارساليات وهم حديثي السن الى روميه فتعلموا هناك سنيناً طويلة وشبوا على المذهب الكاثوليكي ولكن عند عودتهم الى وطنهم ادركوا غلطهم وعادوا ثانية الى كنيستهم الارثوذكسية واستعملوا العلوم التي حصلوا عليها في رومية في تحسين حالتهم اللاهوتية وافادوا بها كنيستهم وقال ايضاً أن الاقباط علاوة على تعصبهم لمذهبهم فانهم يكرهوننا حتى انهم يستعملون جملة في آخر شتائمهم أو سبابهم بقولهم في اخر الشتيمة (يا افرنجي) واذا تباحث معهم — في موضوع اعتقادهم

بوجود طبيعتين لسيدنا يسوع المسيح يستحيل عليك تفهيمهم الحقيقة .
فان سألتهم قائلا « اما كان سيدنا يسوع المسيح انسان تام ؟ » يجيبونك
« نعم » . . ومع كل ذلك لا يمكن لاي شيء في الوجود أن يغويهم ويغريهم
على الاعتقاد بوجود طبيعتين للرب يسوع

وقد اظهر هذا القنصل تألماً كثيراً من عدم سهولة الحصول على
الاطفال الاقباط منذ ولادتهم حتى يمكن تربيتهم على المعتقد الكاثوليكي
فقال ولو أن هولاء الاقباط على العموم بؤساء وفقراء ومضغوط عليهم
ومضطهدين من الحكام المسلمين لاجل دينهم ومع ذلك يستحيل اغواؤهم
على التفريط في اولادهم ثم قال انه في سنة ١٦٩٩ مسيحية وصلني امر من
جلالة امبراطور فرنسا بانتخاب ثلاثة من اولاد الاقباط وارسالهم حالاً
الى فرنسا لكي يتعلموا فيها وشددت عليّ حكومة جلالة الامبراطور
بضرورة انتخاب هؤلاء الاولاد من العائلات الطيبة وشرح بعد ذلك الطرق
التي بذلها في طلب تنفيذ هذا الامر والحصول على الاولاد المطلوبين
وكيف وسط في ذلك جميع الدوائر الرسمية واصحاب المقامات العالية وانتهى
بقوله انه قد استحال على اغراء اقل قبطي من عائلة طيبة على التفريط في
ابنه لهذا الامر النافع لمستقبله وبعد الجهد الشديد والسعي المتواصل بضع سنوات
لم يمكنه الحصول على ولد واحد من عائلة بائسة ومن افقر الناس وكانت
نتيجة تلك المساعي فراغ كل مدارس المرسلين من اولاد الاقباط
حتى أن الذين في فقر مدقع منهم انقطعوا عن المجيء لاخذ الصدقات

والاحسانات كالعادة خشية من اخذ اولادهم بغير رضائهم وهكذا الذين كانوا يتضورون جوعاً تنحوا بالمرة عن التردد على المرسلين لهذا الامر عينه وختم المسيو دي مايه كلامه في هذا الموضوع باستغرابه الكامل من هذا الرفض قائلا انه بموجب هذه الحقائق نعرف كيف نؤكد لبابا رومية عدم صحة القول الذي قيل له بكل جرأة وعلى غير صحة أن بطريرك الاقباط سمح للمرسلين الايطاليين باخذ اولاد من الاقباط لتعليمهم في رومية

وكان البطريرك القبطي في المدة التي مكثها المسيو دي مايه في مصر الانبا يوحنا السادس عشر ومن الواضح انه لم يعترف باعمال ووجود المرسلين الاطاليين في مصر بل كان يفرض عدم وجودهم بالمرة في البلاد كما كانوا لا يعترفون به ايضا (١) . ويقول المسيو دي مايه انه عقد مخابرة رسمية بينه وبين البطريرك يوحنا بشأن المعمودية التي ادهش امرها ذلك الوكيل السياسي الفرنساوي واشار في مخابرته بضرورة تأجيل عماد الطفل

---

(١) يوحنا السادس عشر الملقب بيوحنا الطوخي هو الذي اعاد استعمال الرسامة والتدشين بزيت الميرون المقدس الذي كان قد بطل استعماله من مدة ٢٠٠ سنة . ويقول نيبل المؤرخ اعتماداً على تقرير برناتي الى سوكريوس ان هذا البطريرك هو الذي اصدر امرا بان اولاد الاقباط يلزم عمادهم في اليوم الثامن من ولادتهم بدل اليوم الاربعين . ولكن ذلك يخالف ما كتبه دي مايه عن هذا الموضوع بعد أن قابل البطريرك بنفسه وتباحث معه عنه

حتى تشفى والدته من النفاس وتستطيع حضور الاحتفال بتعميده في الكنيسة . وقد كان من النادر أن يمارس امر العماد مرتين في السنة كالقاعده القديمة اذ كان يحتفل بالعماد احتفالات عظيمة جداً في كل الكنائس . ولم يبال البطريرك بغيظ وغضب قنصل جنرال فرنسا بل دافع عن عوائد كنيسته وكتب له صريحاً بايضاح يقول « اعتقد أن هذا الطقس الديني لا يمارس بالاعتبار والتقديس التام في الكنيسة الرومانية لانه لا يوافق الطريقة الجارية بين الكاثوليك الرومانيين الذين يمارسون العماد في المنازل الخصوصية عوضاً عن الكنائس » غير أن هذا السفير الفرنساوي اظهر ذات الحقد والغضب في قوله من أن الختان ايضاً قاعدة عامة عند الاقباط ثم تكلم عن عوائد الاحتفالات الغريبة عند الاقباط وهي التي لم يكن لها ذكر في تواريخ اخرى غير تاريخه فقال توجد في اقليم البهنسا الكائن على مسيرة يومين من القاهرة قرية يسميها العرب هناك بير الجرنوس (أو ابار النبوة) وللاقباط في ذلك المكان بئر مقدسة ومن تلك البئر يستطيعون أن يتنبأوا بعلو فيضان النيل سنوياً انه ذلك في ليلة معلومة من كل سنة يجتمع حولها كثير من الاقباط ويقيمون سرادقاً عظيماً فوق هذه البئر ثم يأتي شيخ القرية اوحاكمها وحوله خلق لا يحصى لهم عدد ويساعد في اقامة معالم الاحتفال ثم يؤتى بحبل قطني متقن الصنع معقود في نقط متوازية منه خيط ابيض وازرق ثم يدلونه في البئر حتى يمس طرفه الماء وبعده توضع مائدة على فوهة البئر يقيم عليها الاسقف

قداسا حبريا عظيماً ثم ترفع المائدة من فوق البئر ويفحص الحبل المدلى فيها فمقدار ارتفاع الماء الذي غطى الحبل يعتقدون تماماً انه هو مقدار منسوب ارتفاع النيل في تلك السنة اي انه اذا كان ماء البئر غطى مقدار ١٦ ذراعاً من طول الحبل فان ارتفاع النيل يكون ١٦ ذراعاً الخ

وبالرغم عن تحامل المسيو دي مايه على الاقباط واجحافه بهم لم يستطع أن يخفي اعجابه الظيم بمهارتهم في الاشغال. وقال ان من بين اديرتهم التي لا تحص يوجد دير يبعد عن القاهرة مسافة سبعة أو ثمانية اميال داخله ثلاث كنائس قديمة مبنية الواحدة امام الاخرى وبها ترميمات جميلة جداً حتي أن الناظر اليها لا يعتقد الا انها كنائس جديدة (١). والرهبان في تلك الكنائس يرتلون مزامير داوود النبي ليلاً ونهاراً دون انقطاع ولكن الذي يستحق الاعجاب هو نقطة تبعد عن ذلك الدير بمسافة قصيرة في الجبل على مقربة من خرائب صومعة قديمة هناك. وتلك النقطة هي منتزه من اجمل وازهى المتنزهات في العالم اجمع كما وان هناك مغارة منحوتة يميناً داخل الجبل عمقها من عشرين الى ثلاثين قدماً وعرضها اكثر من ٢٠٠ خطوه والخطوة خمسة اقدام وطولها من الغرب الى الشرق يزيد عن ثلثماية خطوة وهذه المغارة العظيمة المنحوتة في وسط الصخر الصلب بلا اعمدة ترفع سقفها ويرى داخلها مشاهد البحر الاحمر

(١) يقول المسيو دي مايه انه راى هذه الكنائس بنفسه ولكن الحقيقة التي لا ريب فيها انه لم يبارح جنوب سقاره

ويمكن لمائتي راهب أن يمشوا معاً داخلها بسهولة وفي اشد ايام قيظ الصيف الشديد يكون الهواء داخل هذا الدهليز العظيم بارداً لطيفاً ومستحباً جداً

وقد حدثت مشاغبات في عهد هذا البطريرك ببلاد الحبشة اوجدها المرسلون الكاثوليك هناك واضطرت البطريرك أن يرسم مطارنين لتلك البلاد لان اولئك الرومانيين الكاثوليك قد اوجدوا بمساعيهم الفاسدة متاعب عظيمة وقلاقل جمة بين الشعب والامبراطور ليقيموا حرباً اهلية غير انه ما جاءت سنة ١٦٨٠ حتى كان للاقباط ثلاثة مطارنة في الحبشة اولهم الاب خرستودوس وقد شلحه ملك الحبشة بسبب كاهن يدعى شنوده وثانيهم الاخ شنوده الذي لم تكن قد تمت رسامته اصوليا في مصر وهذا قد شاع اطاعة لمطالب الاب مرقص الذي لم يكن تحصل على رسامة رسمية من مصر حتى سنة ١٦٩٢ مسيحية . اما فرنسا فارسلت ثلاثة وفود الى الديار الحبشية لينصبوا شباك المكائد ضد الكنيسة الوطنية الحبشية في ايام البطريرك المذكور الذي توفى سنة ١٧١٨ وكانت الارسالية الاخيرة في سنة ١٧٠٦ بعد أن حرض الملك لويس التاسع عشر اليسوعيين على ارسال طبيب يدعي دي رول الى تلك البلاد بطريق السودان ليدرس الطريق التي ينوون اختراقها في سيرهم اليها . فلما وصل دي رول (١) الى السودان اسره السودانيون ثلاثة

(١) من مطالعة كتاب امبراطور الحبشة الاتي يعلم بالتفصيل ما تم من امر

ثم قتلوه امام ملك سنار الصغير الحقير الذي يظهر انه كان ذو سيادة ونفوذ غير ثابت على ممالك السودان الجنوبية لان الممالك السودانية الشمالية كانت قد خربت من مدة وتسلط عليها عدد كثير من زعماء المسلمين واغلبهم من العرب تجار الرقيق الذين اوجدوا مظالم وفظائع في هذه المملكة

الطبيب دي رول فانه عند قدومه الى سنار حجز بها ثم أرسل رسولا لتحقيق ارادة الامبراطور في أمر هذا الطبيب وقد وصل دي رول تعليمات سرية من مقتضاها أنه اذا كان قادماً بصفة سائح للاعمال الخيرية فلا بأس من السماح له بدخول الحبشة . وأما اذا كان من اليسوعيين فلا بد من منعه المجيء الى الحبشة بكل الوسائط الممكنة مهما كانت الحالة . والكتاب الآتي مأخوذ من مجموعة المسيو دي ساسي العربية : —

من السلطان تكلا هيمانوت ابن السلطان آدم سجويد ابن السلطان علاف سجويد . كتب هذا المكتوب الملك الكلي الاحترام والامبراطور الكلي العظمة والجلال سيد الشعوب . ظل العناية الالهية بين رجاله . الكلي المجد والعزة بين الملوك والسلاطين الذي يؤمن ويعترف بديانة يسوع . الكلي القوة والجبروت بين الملوك المسيحيين . حامي حمى الايمان. الذي تحت حمايته حدود الاسكندرية الذي جعل أساس العدل متساوياً بين المسلمين والنصارى . الذي من نسل داوود النبي وابنه الملك سليمان ملك اسرائيل الذي عليه وضع الرب الاله طريق الخلاص . السلطان تكلا هيمانوت ابن السلطان آدم سجويد ابن السلطان علاف سجويد . فليدم شخصه مقدساً الى الابد . ولتدم مملكته السامية محفوظة في العز والعظمة الى الى الابد . وليدم رجالها وجيشها الذي لا يقهر امين

الى رفيع المقام عظيم الاحترام العالم السامي المسيو دي رول الفرنسي —

وقد اعتنق ملك سنار الديانة الاسلامية . بالرغم عن ذلك قد بقيت جماعات كثيرة من المسيحيين منتشرة في كل ارجاء السودان ولها عدة كنائس أيضاً ونفوذها الاسمي يومئذ كان متصلاً تقريباً الى حدود مصر الجنوبيه كما يتضح لك ذلك من الحادثة الآتية :— . عند ما قتل الدكتور دي رول المتقدم ذكره قد اصدر المسيو دي مايه فرماناً رسمياً في القاهرة يأمر كل الرعايا الفرنساويين النازلين في الديار المصرية أن يطردوا كل بربري أو أي رجل آخر في خدمتهم يكون من رعايا ملك سنار وان يطردوهم من بيوتهم في ظرف ثلاثة ايام وان لا يستخدموا مثل

السوري الأتي الينا في قلبنا كما يأتي بشخصه فليحفظه الله من كل عارض ويرفعه لاعلى الدرجات امين . أما بعد فان ترجمانك المدعو الياس الذي ارسلته الينا قد وصل الى بلاطنا وكان وصوله موافقاً لدينا وسمحنا له بالدخول امامنا . وقد علمنا منه انك مرسل لنا من قبل أخينا ملك فرنسا وانك حجزت في سنار . فبناء على ذلك اني اكتب الان الى السلطان بادي الذكركي لا يحجز عليك ويسمح لك بالمجيء الى هنا . وان لا يهينك بل يعاملك بالشرف والاحترام وان لا يزعجك ولا يتعبك بل يعاملك بالحسنى والاعتبارات وجميع من معك لانه يوجد مشابهة بينك وبيننا في الدين والايمان مثل رسولك الياس السوري . وجميع الحاضرين معك بصفتهم سفراء أو تجار من قبل أخينا ملك فرنسا أو نائبه في مدينة القاهرة هكذا شددت على سلطان سنار أن يعامل كل الذين برفقتك المتحدين معنا في ذات المذهب والعقيدة وبذات النواميس وبذات الايمان . لاننا نحب الدخول في عقود الصداقة والاتحاد وفي مبادلة المباحثة مع الجميع وفقط نتجنب الذين

هؤلاء القوم عندهم ومن يخالف هذا الامر يصير الزامه بدفع غرامة مالية قدرها ثلاثمائة جنيه . وكان البرابرة في تلك الايام كما في ايامنا هذه يعتبرون أحسن الناس موافقة للخدمة المنزلية في بلاد مصر ولذلك وقع ضرر ذلك الامر الصارم الذي اصدره المسيو دي مايه على رعايا ملك فرنسا وليس على رعايا ملك سنار ولكن ظل أمر المسيو دي مايه هذا معمولا به في مصر ومتبعاً بين الفرنساويين فيها مدة مائة سنة

وقد وصف المسيو دي مايه بالتطويل الظروف التي اوجبت ارتداد ثم استشهاد الاب كليمنت ركوليه القس القنصلي الفرنساوي في القاهرة الامر الذي اثر تأثيراً عظيما على الناس وقتئذ . فقال ان ابناء جلدته اتهموه بسوء التصرف في الاموال المخصصة للاعمال الخيرية والصدقات فالتزم ان يهرب ويلتجيء لقوة الحكومة التركية في القلعة ثم ابلغ

يعترفون بعقيدة و يتبعون ناموساً ضد ناموسنا وعقيدتنا مثل يوسف (١) ومن في معيته الذين طردناهم حالا من البلاد عند مجيئهم لاننا لا نحب دخول مثل هؤلاء القوم في بلادنا ولا نسمح لهم يتعدون حدود سنار كي لا يتمكنون من ايجاد النزاع والفوضى بيننا . أما عنك فقد سمحنا لك بالقدوم الينا ونؤكد لك بهذا انك سترى ترحيباً واستقبالا عظيمان فكن اذن في طمان ولا تخف . والعبارة الاتية مكتوبة في ذيل الكتاب عند الامضاء : — يسوع ابن مريم — آدم سجويد ابن علاف سجويد من نسل سليمان ابن داوود ملك اسرائيل

( ) يقصد بذلك المرسل اليسوعي الاب يوسف برتدنت الذى كان ارسل للحبشة لتغيير عقيدة أهلها وقتل قبل وصوله غندار عاصمتها

الحكام عزمه على اعتناق الديانة الاسلامية وكان ذلك في ٢٣ ابريل سنة ١٧٠٣ . فكتب المسيو دي مايه جوابا لذلك الاب شديد اللهجة ينصحه فيه بالرجوع الى صوابه ويرجوه العودة الى حضن السفارة الفرنساوية وأكد له انه سيعاقب الذين سبوه واتهموه وافتروا عليه واستحلفه بكل عزيز ومقدس عنده ان يرجع قبل ان ينتهز المسلمون فرصتهم ويحتفلوا باسلامه . وقال له يمكنك ان تعتذر بانك كنت سكرانا في طلبك الاسلام وانك ما كنت تعي ما تقول واقترح عليه انه يمكنه ايضا ان يتداخل في تخليصه من ايديهم اذا تمسك بذلك العذر

فرد عليه القسيس جوابا وجيزا غير مقنع . ومع ذلك في يوم ٢٥ ابريل سنة ١٧٠٣ احضروه امام الباشا الوالي الذي سأله اذا اراد أن يكون كما كان نصرانيا . ولكن المسلمون ما كانوا يسمحون لمثله أن يرجع عن عزمه فامسكوه في ٢٨ منه وختنوه بالقوة واوجدوه في غرف مفروشة بالرياش الفاخرة وعينوا العبيد لحراسته وخدمته واكدوا له انهم سيزوجونه باجمل النساء طرا ولكنه لم يقبل ذلك ولما رأوه أنه القى بالعمامة التي اتوا بها اليه على الارض بكل عنف وظل مصمما على عدم اسلامه اخذوه وضربوه ضربا مبرحا حتى صار اقرب الى الموت منه الى الحياة ثم طرحوه في السجن . فاجتهد المسيو دي مايه غاية جهده في انقاذه من ايدي المسلمين ولم يفلح وفي يوم ٨ مايو وصله جواب من ذلك القسيس يرجوه فيه أن يتركه حتى يكفر عن غلطته بالاستشهاد . وقد اقترح احد كبار

المسلمين المتعصبين وجوب تقطيع ذلك القسيس اربا اربا . وان يفصل أعضاء جسمه مثل يده أو ارجله في ظرف ربع ساعة عن جسده وهكذا يعذب حتى يموت . ولكن الاوربويين كانت قد قويت شوكتهم في البلاد واصبحوا لا يسمحون لاحد أن يعمل مثل هذا الصنيع مع احد ابناء جنسهم .ولو لم يكن الباشا يخاف قيام اوباش المسلمين عليه لكان عفى عن موته .على انهم قطعوا راس هذا الاب يوم ١٧ مايو سنة ١٧٠٣ وسلموا جثته الى المسيو دي مايه السفير الفرنساي فدفنها باحترام في مقبرة الخندق . ويقول المسيو دى مايه انه لهذه المناسبة وصلته تعزيات حاره واشترك معه في الحزن كل رجال الكنيسة اليونانية والقبطية وامرت الكنيستين شعبيهما بالصوم ثلاثة ايام تكريما لذلك الشهيد

وكانت علاقة المسيو دي مايه مع الاتراك اكثر ودادا وصداقة مما كانت مع الاقباط .ولكنه لم يستطع أن يخفي اعتقاده من أن الاتراك هم الذين عليهم وحدهم تقع مسئولية خراب وشقاء البلاد . فانهم من الباشا الوالي فما دونه الى اصغر موظف في خدمة الحكومة لا يهمهم الا جمع الثروة والاموال باية طريقة كانت على حساب الحكومة سواء خربت البلاد أو عمرت . ولا يراعون في ذلك حقا اوعدلا أو امانة أو رحمة . ولم يكن يسمح الباب العالي في الاستانة لوالي مصر أن يقيم فيها اكثر من سنة مالم يقدم رشوة عظيمه للسلطان وكثيرون من الولاة افلحوا في مسعاهم بهذه الطريقة وتمتعوا ببقائهم ولاة على مصر اربعة سنوات . وكان الوالي يجتهد أن يجمع لنفسه

من الثروة اكثر من الجيزية السنوية التي تدفع للسلطان . ويقول المسيو دي مايه ببساطه : وعلاوة على كل ذلك فانه اذ تفشى وباًفي البلاد مدة السنة التي يكون الوالي حاكما فيها . ففي بحر الثلاثة أو الاربعة اشهر التي يبقاها عادة الطاعون في البلاد يكون الباشا قد جمع في اثنائها ثروة عظيمة . فاذا اتفق ومات جابي اموال الحكومة في احدى البلاد يبيع الباشا وظيفته لمن يقدم رشوة اكثر من غيره حتى انه في غالب الاحيان كانت تباع هذه الوظيفة في ظرف اسبوع لثلاثة أو اربعة من الطالبين بالنسبة لسرعة وفاة الذين يشترونها بالتعاقب بسبب تفشي الطاعون

ويقول المسيو دي مايه أيضاً ان الخمس القوات التي دون الوالي (سناجق) (القوة الحربية العظيمة) كانوا دائماً يفترسون الشعب ويمتصون دماءه. ولم يكن وقتئذ يوجد أي واحد من الاهالي له ثروة خصوصية ولو فرضنا ووجد احد له ثروة قليلة كان يتعين عليه أن يستعد للدفاع عنها سجنا وبخلاف ذلك لا يمكنه حماية عمله واشغاله وثروته الخصوصية بدون أن يضع نفسه تحت حماية اصحاب هؤلاء القوات الخمسة الذين كانوا يلقبون بالتسلسل هكذا:ـ الاغوات المصطفين. والعزاف. والسباهي. والباشجاويش. والانكشاريه. واذا اتفق أن احداً من الاهالي استأنف شكواه لمن اختاره من هؤلاء القوات من حادث وقع معه أو سرقة حصلت له فكان لا ينال هذه الا بثمن غال فان ذلك العظيم لا يكتفي بثمن الحماية الاولى بل يطلب منه أموالاً أخرى بحجة صرفها في تحقيق قضيته الجديدة ومعاقبة عدوه . وعلاوة على

ذلك فاذا مات ذلك المسكين المحتمي بعظمة ذلك العاتي فيكون لحاميه الحق في وضع يده على كل متروكاته من مال وعقار ولا يترك لارملته وايتامه الاّ جزءاً قليلا من تركته . وكان لهؤلاء الطغاة حيلاً كثيرة يسلبون بها أموالا من الفرنساويين نظير تجاهلهم بالعلاقات التي كانت توجد بينهم وبين بعض النساء الوطنيات كما يقول المسيو دي مايه

ولكن عملهم هذا أصبح عبئاً ثقيلا على الفرنساويين حتى ان أصحاب المصارف المالية منهم هجر كل علاقة مع النساء . ولم يكن يوجد موظفاً تركياً من اكبر الى اصغر واحد يقبل صرف اقل شيء من ثروته التي جمعها بطرق غير محللة على ما يرقي البلاد المصرية ويزيد في اتساع نطاق تجارتها واشغالها العمومية . مع انهم كانوا يرسلون سنوياً مبالغ عظيمة لمدينة مكه وللسلطان في القسطنطينية . ولذا فان الاراضي كانت تقل مساحة المزروع منها سنويا . أما تطهير الترع ومجاري النيل فكانت مهجورة وان كانت ترمم فلا يرممونها الا بالسخرة القهرية واعمال الطرق والشوارع الخ فكانت شيئا غير معروف بالمرة والخمسة قوات المذكورة كانت تعيش من سلب ونهب الاهالي . ومع كل مظالمهم فما كانوا يحامون عن المصريين اذا هجم عليهم العرب البدو وداروا فيهم سلباً ونهباً وكان اكبر العلماء ورؤساء الدين من المسلمين معرضين ايضا كغيرهم لهذه التعديات الظالمة . وفي سنة ١٧٠٩ مسيحية وقعت حادثة عظيمة جرت فيها الدماء انهارا مدة يومين داخل الجامع الازهر لاختلاف الاراء في من يليق تعينه لوظيفة شيخ لذلك

الجامع وكان كل من الطرفين المتخاصمين يحمل البنادق والاسلحة وكسروا أبواب وقناديل الجامع قطعاً صغيرة وجرح وقتل كثير من الطلبة وفي آخر اليوم الثاني أحضر محافظ القاهرة قوة عسكرية طردت العصبتين المتحاربتين وأخرج جثث الموتى من الجامع ونفى أحد الشيوخ الذي اتضح انه زعيم الثورة وسجن ايضا أثني عشر شخصاً الذين كان لهم اليد في اقامة ذلك الحرب داخل الجامع

الفصل التاسع والستون

استبداد البكوات المماليك

نشبت الحرب اظفارها في سنة ١٧١٠ بين الدولة العلية وروسيا فصدرت ارادة سلطانية بسحب الجنود التركية من مصر وترك نحو ثلاثة الاف منهم لتأييد الاحتلال التركي بهذه العساكر التي كانت مكروهة جداً عند المصريين . وقد نشاء عن سفر اكثر هذه الجنود ازدياد عصابات السلب والنهب في القاهرة وضواحيها وزيادة الشغب بين الاهالي وتمردهم على الحكومة وخاصة بالظر لفساد الاحكام ومظالم الحكام حتى نشبت في البلاد حرب اهلية من نفسها السنة التالية . فنزع حاكم الصعيد بجيوشه الى القاهرة ليشترك في هذة الحرب . ووقعت معركه هائله بينه وبين الثائرين

في الفضاء الكائن بين القلعه وجامع السلطان حسن وتحول هذا الجامع الى طابيه وحصن تحصيناً منيعاً . وتحول أيضاً جامعا طرلون والمؤيد الى حصون . ومما يؤسف عليه أن اعظم وافخر الجوامع في القاهرة تحولت في تلك الايام السوداء الى معاقل وحصون للحروب والكفاح بدل جعلها اماكن عباده وصلاح

غير أن حاكم الصعيد لم يفلح في قمع الثورة فدارت الدائرة عليه فهزمت جيوشه وجيوش الباشا الوالي الذى كان امراء القاهرة يريدون خلعه وقد لعبوا بمصالح البلاد يومئذ الاعيباً كثيرة محزنة . فمن ذلك انهم اطلقوا النار على منازل باقي الامراء خصومهم فامتد لهيبها الى منازل السكان المسالمين ودكاكينهم وهكذا احرقوا جزءاً عظيماً من القاهرة وباقي المنازل التى سلمت من الحريق نهبها وسلبها عساكر الامراء . فصار كل من السكان يجتهد في الهرب من المدينة بحياته فتركت مرسحاً للشقاء اياماً كثيرة لعبت فيها ايدي الجند . والذين تجلدوا وبقوا في المدينة بقصد حماية ممتلكاتهم سقطوا في مخالب اعداء اخرين قاهرين جبارين هم العربان البدو الذين استدعاهم الامرأ الفقاريون لاعادة سلطتهم حيث انتشر هولاء البدو في انحاء المدينة وصاروا يسرقون كل ماتصل اليه ايديهم ويقطعون مجاري المياه عن السكان حتى صيروهم على وشك الموت من شدة الظماء

ومع استدعاء البدو الى داخلية البلاد لم يبطل النزاع والخصام من بين الاهالي والامراء في القاهرة فقط كما ولم يمكن صد غارات البدو عن

سلب أي بلد يمرون عليها فقد نهبوا مدناً كثيرة وسلبوا جميع ممتلكات اهلها خصوصاً مدينة اخميم فانهم اوصلوها للخراب التام وقتلوا معظم سكانها . وقد كانت كل مدينة مسيحية تقريباً معرضة للخراب اكثر من غيرها وهذا هو السبب في قتل اكثر سكان اخميم وخراب غيرها من المدن الاخرى التي كانت مأهولة بالاقباط بهذا الشكل المريع . وفي اواخر ايام الفتنة وقعت معركة حربية كبرى قرب قصر النيل قتل فيها الامير عواظ (١) رئيس حزب الامرا القاسميين . وكيفية قتله أن حاكم الصعيد الذي كان يقود الجيوش لمحاربة الامراء وضع كمنا خلف دعامة قنطرة القناة الكبرى ثم تظاهر بالانهزام والهروب من امام عساكر الامراء فتبعته فخرج الكمين من محله واسخن فيها قتلا وصوب حاكم الصعيد قوسا على عواظ بك فخر في الحال قتيلا . فانتخب حزب القاسميين ابنه اسماعيل رئيسا عليهم في الحال وكان صبيا في السادسة عشرة من عمره ومشهوراً بجماله وشجاعته . وعندئذ عقدوا هدنة مع حاكم الصعيد لمدة ثلاثة ايام . وبعدها عادت الخصومات فتجددت بين الامراء بدرجة اشد من الاولى ودامت كذلك الى أن تبدد شمل حزب الامراء الفقاريه وتلاشت قواهم بالكلية واصبح الشاب اسماعيل ابن عواظ سيد البلاد

---

١ صحة هذا الاسم وهجائه عواض ولكن اصبح يلفظ عواظ اخذا عن اللغة التركية وقد ترجمه احد المترجمين السوريين لاحد الانكليز هوارد فغير معناه

المصرية والمتصرف فيها بامره . ثم عينت الدولة العلية والياً جديداً من قبلها على مصر ، اصبحت العادة يومئذ أن تعيين الولاة من القسطنطينية يتم مرة في كل ثلاث عشرة سنة وكان تعيينهم رسمياً فقط بينما كانت اعمال البلاد في يد اسماعيل بك حاكمها الفعلي . وقد عين اسماعيل بك المشار اليه جميع اصحابه حكاماً على اقاليم مختلفة واعطاهم الوظائف العليا في القاهرة واتبع العدل ولكنه كان قاسيا مع الرعايا على السواء وطهر ضواحي المدن والبلدان من البدو الضاربين حولها . ولم يشعر مصر بو ذلك الحين بزمن ساد فيه الامن والطمأنينة كعصر اسماعيل بك . ومع كل ذلك ما كانت يده القوية وسلطته النافذة تساعدانه على تمكين السيدات المخدرات من السير في الطريق بدون حرس قوي حولهن . وقبل قتل اسماعيل بك بسنة خرج جماعة منهن في يوم شم النسيم كالعادة للنزهة في ضواحي العاصمة راكبات حميراً فقبل وصولهن الى كبري شبرا احتاط بهن جماعة من المماليك وهم بحالة سكر وعربده وسلبوهن حليهن بعد تمزيق نقابهن . وقد وقع كل ذلك على مرأى من الضابط المعين للمحافظة على الامن في تلك الجهة ولكنه بقي ساكناً حتى جردهن هولاء المماليك القساة من جميع ملابسهن ولم يتركوا لهن ما يسترن به عورتهن ثم جاء اليهن هذا الضابط مظهراً استعداده لحراستهن من كل تعد مع انهن كن في حالة لا تطاق من الضيق والخجل حتى انهن بقين مدة يتوسلن للمارة لاعطائهن ولو قطع خرق بالية تستر عورتهن حتى يرجعن الى منازلهن . فتامل ؟؟

ومن التحقيق الذي صار في هذه المسئلة اتضح أن اولئك السيدات لم يكنَّ يهوديات ولا مسيحيات كما كان يتصور الناهبون بل اتضح انهن من العائلات الشريفة وزوجات لرجال من الطبقة العليا من المسلمين . قال المؤرخ تفصيلاً لهذه الحادثة . انه لما ذهبت السيدات المشار اليهن ثاني يوم الحادثة لرفع مظلمتهن للباشا الوالي وطلبن منه رد ما فقدنه من مجوهرات والماس وغيره بمقتضى كشف قدم له منهن استحضر الباشا الضابط وعسكريين من رجاله الذين كانوا في نقطة الحادثة وهددهما بالعذاب البدني أن لم يعترفا صريحا بما تم . تخوفا من العقاب الصارم اقرا بجميع ماحصل بالتمام . وقالا دفاعا عن انفسيهما أن اشتراكهما في الجريمة كان من قبيل الطاعة لضابطهما والرضوخ لاوامره العسكرية وعززا اقوالهما بان اهالي الناحية كانوا مشاهدين السلب ولم يجسر احدهم على المداخلة ولكنهم لما عرفوا أن السيدات من الطبقات العليا اظهروا استعدادهم للشهادة . فقبل الباشا عذر العسكريين بعد اعترافهما بالحقيقة وسامحهما اما رئيسهما الضابط فنفاه الى ابو قير بعد أن استقطع جزءاً عظيما من راتبه بصفة عقاب له .

على اثر هذه الحادثة اصدر الباشا الوالي منشوراً اذاعه في جميع انحاء المدينة بمعاقبة كل من يتعدى على النساء اللواتي يسرن في الطرق العمومية وحدهن عقابا صارما وحذر النساء كذلك من الخروج الى خارج بوابات المدينة ومنعهن ايضا من ركوب الحمير (كذا)

وقد بذل اسماعيل بك قصاري جهده في وضع حد لعصابات السلب

والتلصص التي كان يأتيها اتباع الرؤساء العسكريين وكثيراً ما كان يرد الاشياء المسروقة والمنهوبة الى اصحابها بعد استخلاصها منهم

وفي شهر رمضان كان يدع باب منزله مفتوحا بعد غروب الشمس لكل من يريد دخوله لتناول طعام الافطار فيه ابتغاء مرضاة الله . وكان يدهش الناس بشجاعته في ترك القاهرة وذهابه لزيارة اصحابه ذوي الوظائف المختلفة في الاقاليم . مع أنه لم يكن أي امير قبله يتجاسر على مبارحة القاهرة دون أن يكون معه جيش عظيم خوفاً من القتل غدراً . وفي الواقع أن كل المماليك الامراء كان نصيبهم القتل المتتابع بطرق مختلفة ولم ينج من ذلك ايضاً اسماعيل بك اذ قبل أن يبلغ الثلاثين من العمر قتله غدراً الامير ذو الفقار رئيس حزب الامراء الفقارية . فتوفى عن ابنة وبعد وفاته ولد له ولدان من زوجتين ولكنهما لم يعيشا ذكرا حميدا لابيهما اكثر من بضعة اشهر . ومن اعمال اسماعيل بك انه بنى جامعين كبيرين احدهما جامع سيدي ابراهيم بدسوق والثاني جامع سيدي علي بمليج ورمم جامع الازهر بالقاهرة وقاد بنفسه قافلة الحج ست مرات الى مكة وكانت سنة قتله أي سنة ١٧٢٣ افرنكية حزنا وطنيا عند جميع المصريين . وفي سنة قتله قام رجل تركي يخطب بين المسلمين لاصلاح العقائد الاسلامية وتنقية الدين الاسلامي من العقائد الدخيلة المحيطة بالدين فاوجد شعوراً عظيما للاصلاح الديني والتف حوله خلق كثير وصار يسمع خطبه الوف من المسلمين في جامع المؤيد . وكان يفند في خطبه العوائد الذميمة التي

الصقت في العبادة والديانة الاسلامية ويطعن على الخصوص في عبادة المشائخ وشفاعتهم ويقيم الادلة الساطعة على أن اثار أو بقايا المشائخ والاولياء لاتأتي بالعجائب البتة . فانزعج مشائخ الاسلام في الازهر لخطب هذا الرجل واصدروا منشوراً دينيا في الحال يحرمون فيه اتباع مبادي ذلك الزعيم الخطيب واكدوا مثبتين في منشورهم أن المشائخ ولاولياء يمكنهم اتيان العجائب بعد موتهم . وطلبوا من الحكومة معاقبة ذلك الخطيب .

فاحضر بعضهم صورة من هذا المنشور للخطيب المصلح بينما كان يخطب في الجامع . فلما اطلع عليه قال معلنا سامعيه انه يمكنه أن يقنع العلماء ويتغلب عليهم بالبرهان الساطع امام قاضي الاسلام الاكبر وطلب من سامعيه أن يكونوا في جانبه فتحمس القوم وتجمهروا صائحين بالاخلاص له فخرج من الجامع وحوله مايتوف عن الف نفس وكروا مهرولين بشغب عظيم الى بيت القاضي . فاجتهد القاضي أن يماطلهم وهو في حالة خوف وفزع عظيمين على امل انه يصرفهم اخيراً ولكنه ما كاد يظهر الانحراف عن ميلهم حتى اهانه الرعاع وكادوا يعدمونه الحياة لو لم يتخلص منهم بكل صعوبة وهرب الى محل حريمه

وفي يوم الثلاثاء التالي اجتمع الخلق اكثر من المرة الاولى في جامع المؤيد ليسمعوا خطيبهم فلم يجدوه وذاع فيما بينهم خبر مؤداه أن القاضي منعه عن الخطابه بالقوة فهاج المحتشدون وجاهم من الاوباش وقصدوا المحكمة

الشرعية وقبضوا على القاضي بالقوة فانكر بالكلية معرفته بامر شيخهم فجروه الى الباشا الوالي الذي يظهر انه خاف أيضا وانزهل من هيجانهم فامضى لهم امراً بالتصريح لهم بما يرغبون اتباعه فحملوا شيخهم الخطيب على اعناقهم وخرجوا به منتصرين مهللين الى جامع المؤيد حيث القى عليهم خطبة حادة ومهيجة جدا . وفي هذه الاثناء كان الوالي الباشا قد ارسل الى كبار امراء الفقارية والقاسمية يخبرهم بان الاهالي اهانوه وانه سيترك البلاد ويعود للقسطنطينية

وما كان الامراء يتوانون عن التداخل في المشاجرات المماثلة لهذه بحجة قمعها والضرب على المتخاصمين فدعوا رجالهم لحمل السلاح وساروا للقبض على الخطيب وسامعيه الذين قد وصلهم خبر قدوم الامراء قبل تحركهم اليهم فلما وصل الامراء ومن معهم لم يجدوا أحداً في الجامع فزحفوا نحو قلب المدينة وهم يضربون بالعصي ويقبضون على كل من يجدونه في طريقهم وبهذا انتهت الفوضى وساد النظام كما يقول الجبرتي . واختفى الخطيب المصلح بعد هذا وقال بعضهم انه قتل وأخرون انه هرب من الديار المصرية .

وفي أوائل سنة ١٣٤ ... هجرية تنبأ أحد العرافين الاقباط واسمه غير معروف بان العالم سينقضي بعد يومين فانتشرت نبوته كالبرق بين الناس مسلمين ومسيحيين . وانتشار هذه النبوة في القاهرة كان بقوة عظيمة وبسرعة فائقة قلما تعرف عند الشرقيين (١) وايضا انتشرت في

(١) يظهر أن أذاعة الاخبار كانت تمارس في قديم الايام بواسطة حمام الزاجل.

كل الاقاليم ولم يبق حديث للناس الا هذه النبوة وانقلاب الدنيا ! وصار كل واحد يودع جاره ويستعد لمقابلة الانقلاب الرهيب وتقاطر الفقراء الى شواطىء النيل يغتسلون بمياهه ليطهروا انفسهم . وبعضهم يقيم الولائم والاعياد والمسرات وداعا للعالم وبعضهم يتركون منازلهم ويطوفون هائمين في الحقول وبعضهم يوقعون انفسهم في ازعاج لدرجة الجنون وبعضهم يمارسون التوبة عن خطاياهم ويصلون . أما الشيوخ والامراء ولو ان بعضهم بلا شك جارى القوم في رعبهم فانهم اجتهدوا بان يرجعوا الناس الى صوابهم ويحرضوهم الى العودة الى ممارسة صوالحهم واشغالهم اليومية كالمعتاد ويؤكدون لهم ان تلك النبوة كاذبة بلا مراء فلم ينجحوا وذهبت مساعيهم ادراج الرياح . وماكان جواب الناس لهم وهم في غاية الاندهاش الا ان النبوة حقيقية بدليل انها صادرة عن اليهود والاقباط . وكان المسلمون معتقدون بنوع أخص ان الاقباط لايخطئون في نبؤاتهم لانهم يذكرون الظواهر الفلكية قبل حدوثها . ولهذا كان العامة لايترددون في خوف هذا النبوة بل يأتون بالادلة على صدقها من نبوات الاقباط في سالف الازمان . ولكن المؤرخ لم يذكر نوع هذه النبوات التي أوردوها . وأخيراً قبضوا على الرجل القبطي الذي نطق بالنبوة وجاءوا به امام أحد الامراء فابى انكار ماقاله والرجوع عما اذاعه وقال للامير القني في السجن لغاية يوم الجمعة فاذا لم يتم ما تنبأت به في ذلك اليوم أي يوم الجمعة يمكنك ان تذبحني

فزاد هذا الاصرار في ازعاج الناس وتولاهم اليأس لدرجة شديدة في ساعة واحدة. فلما جاء يوم الجمعه كان جميع الناس في انتظار الساعة الاخيرة كل لحظة من ذلك اليوم ولما دنت ساعة غروب شمس ذلك النهار ولم تظهر آية علامة من السماء تدل على الانقلاب حلت على أحد العلماء روح الحذق والفطنة فقال - ان النصارى قد سبقوا واخطأوا غير مرة فلماذا لا نضيف لهم خيبة نبوتهم هذه المرة الى خيابتهم السابقة ثم قال بخشوع ان ارواح سيدي احمد البدوي وسيدي ابراهيم الدسوقي اشهر الاولياء الاطهار توسطت في تأخير خراب العالم فاجاب الله شفاعتهم وقبل بتأجيل يوم الاخرة الى أجل غير مسمى . فطمن الناس بعضهم بعضاً وباركوا انفسهم بمزيد الشكر والامتنان قائلين لبعضهم (أيها الاخوة انا لم نزل احياء) أراد الله ان يكون ذلك الحادث تجربة نافعة لنا

وكانت هذه الحادثة على ايام البطريرك انبا يوحنا السابع عشر الذي اخلف انبا بطرس السادس سنة ١٧٢٧ الذي اخلف انبا مرقس السابع .

وبعد وفاة اسماعيل بك انتكست البلاد فعادت الى حالتها الاولى من عدم استتباب الامن والسلب والنهب . والامير ذو الفقار الذي قتل اسماعيل قد ذبح هو أيضاً بعده ببضع سنين وما كان يمر شهر تقريباً الا وتسمع ان أميراً قتل أميراً آخر . وكيفية قتل الامراء بعضهم بعضاً انه كانت عندهم العادة ان يدعو الامير صاحبه الامير الاخر الذي يريد الغدر به الى وليمة هو واتباعه في منزله وبمجرد حضورهم للضيافة يعطي صاحب الدار علامة

لخدامه فيقومون حالاً بذبح الضيوف وزعيمهم . وقد حصلت حادثة محزنة من هذا النوع لا بأس من تخصيصها بالذكر هنا لهذه المناسبة : — ذلك انه في سنة ١٧٣٦ مسيحيه قد أمر الدفتردار بذبح أحد عشر من كبار المماليك الامراء في ساحة منزله بعد دعوتهم الى وليمة على مثل ماتقدم — وسبب تمثيله بهم ذلك التمثيل المريع ان كبير المقتولين كان في ذلك الحين زعيم الامراء الفقاريين وقد رفض ترقية أحد الامراء القاسميين الى وظيفة سنجق . ولكن عثمان بك ذو الفقار وهو من اقوياء المماليك الذي كان مدعواً لوليمة الدفتردار ضمن الاحد عشر مملوكا المقصود الغدر بهم قد تمكن من الهروب بنفسه من ايدي القاتلين الذين لما رأوا ان هذا المملوك أفلت من ايديهم خافوا ان يعود للانتقام حالا منهم بعد جمع رجاله فهربوا خائفين واختفوا في جامع السلطان حسن فابى رجال الجامع قبولهم. فتمكنوا من الدخول بوسيلة أخرى وهي انهم اشعلوا النار في باب الجامع حتى احترق ودخلوا الجامع واختفوا فيه فكانت هذه الحادثة كلها اساساً لمعارك دموية عظيمة دامت بلا انقطاع طول القرن الثامن عشر فالتزم الامراء باعادة تحويل الجوامع الى حصون وطوابي حربية ومنازل خصومهم كانت تنهب وتسلب على الدوام وكانت الشوارع دائماً ملآنة بجثث القتلى . وعلى أثر ذلك عزل الباشا الوالي من قبل تركيا وعقب خلعه تخلل هذه الحالة مدة قصيرة ساد فيها السلام في القاهرة نوعاً الا انه في ردهة هذا السلام ضربت بالوباء واشتد لدرجة ان مات به ١١٣ شخصياً

من بيت واحد لاحد الامراء وكانت الجثث تنقل ركاماً للدفن ليلا

وفي اثناء ذلك كان قد حضر ريتشارد بوكوك الى الديار المصرية . والامتيازات الاجنبية جعلت البلاد في حالة أمن للسائحين الاوروباويين أكثر منها للمصريين التعساء نفسهم. لان المصريين وقتئذ ولا سيما الامراء المماليك كانوا على علم تام بان قتل شخص واحد من رعايا الدول الاوروباوية قد يكون خطراً عظيما على القاتل فضلا عن عدم الفائدة من قتله . فكانوا يفضلون مقابلتهم بعذب الكلم . وكان المصريون يطربون عند ما يعلمون سهولة الغش والاحتيال على هؤلاء الاوروباويين في كل المواضيع والاحوال التي لا يلاحظونها أو يعرفونها شخصياً . وفي ذلك الحين أرسلت الحكومة الهولاندية أحد قبودانات بحريتها للسياحة في الديار المصرية ليقدم تقريراً عن تلك البلاد الى حكومته فحضر وكتب عن مصر كتاباً تاريخيا لكنه ليس ذا قيمة تاريخية تذكر. اذ عرف الضباط الترك في الحكومة المصرية وقتئذ ان الاهالي أرعبوه وصرفوا فكره عن أي قصد غير لائق يجوز ان يحدثه ولو انه سار في النيل الى ان وصل للنقطة الموجود فيها بوكوك. وقد ألف عند عودته بعض اجزاء عن تاريخ رحلته الى صعيد مصر. فيظهر انه لم يعلم ولم يدرس شيئاً عن البلاد اكثر مما يدرسه سائح هذه الايام عنها في بحر اسبوعين . أما الكتاب الذي ألفه الدكتور بوكوك عن أحوال مصر فانه ذو قيمة حقيقية . ولو أن أغلب كتابته فيما يختص بالاقباط وما هو في دائرة معلوماتهم كان يكتب بناء على أساس

الطريقة المعتادة المضرة بالمؤلفين والمؤلفات وهي ارتكانه في معرفة أحوال الاقباط على المترجمين المسلمين أو المبشرين الكاثوليك الذين يكرهون الاقباط ولا يسامحونهم لاخلاصهم لكنيستهم وبطريركهم الوطني . ولما وصل الدكتور بوكوك الى مينا الاسكندرية من أوروبا سنة ١٧٣٧ جعل أول وجهته زيارة كوسماس بطريرك اليونان في رشيد. وكان وقتئذ على كرسي الكرازة المرقسية البطريرك يوحنا السابع عشر . ولكنه في طول مدة سياحته في داخلية القطر كان دائماً يتصاحب ويجتمع مع المسلمين والكاثوليك الفرنسيسكانيين الذين كانت ارسالياتهم ومراكزهم الدينية على طول نهر النيل تحت الحماية البريطانية .وزار مدينة المحلة الكبرى التي قالوا له أن فيها خمسمائة نفس من الاقباط .ثم شاهد بقايا الهيكل العظيم هناك . ثم عاد للقاهرة ومكث بها يوماً ثم سافر الى الفيوم وبعدئذ سافر الى اعالي النيل . وفي عصره كان الديران الابيض والاحمر بجوار سوهاج لا يزالان معروفان عند الاقباط باسم دير انباشنوده ودير انبا بشوي. ولما وصل الى ارمنت تعجب مندهشا غاية الاندهاش من مشاهدة بقايا الكنيسة النفيسة التي كانت هناك وهي من اقدم الكنائس المصرية . ولو انه اثناء اقامته في الديار المصرية كانت حالتها هادئة ولم تقع فيها معارك ولا محاربات بين المماليك فانه لاحظ انه عادة القتل بالسم كانت متأصلة كثيراً بين كل جميع طبقات الاتراك وكانت عادة مألوفة جداً يصعب كتابة أي ملاحظة تاريخية عليها وكانت لفظة (تركي) ليست ذات معنى ولا أهمية

حتى بين الاتراك انفسهم . ولاحظ أيضاً ان كل الاقباط كانوا يعرفون القراءة والكتابة أما باقي انواع الاهالي من الامم الاخرى فقلما رأى واحداً منهم يعرف القراءة والكتابة . وذكر في تاريخه ان رجال الترك الانكشارية كان يعهد اليهم جباية ضريبة الانفس من المسيحيين الوطنيين فقط (الاقباط) وهذه الامة التعيسة قد وقعت في حالة اردأ من ذلك وهو أن احد كبار الاتراك في القسطنطينية تمكن بواسطة دفع رشاو ثقيلة للسلطان من الحصول على هذا الامتياز ولما ناله صار يحصل من هؤلاء الاقباط البؤساء اضعاف ما كان يحصله منهم الانكشارية . وساح الدكتور بوكوك أيضاً في اوروشليم وقبرس ومضى الايام الاخيرة من حياته بوظيفة اسقف ميث

ومن سنة ١٧٣٦ الى سنة ١٧٤٣ مسيحية كان اقوى رجل في النفوذ في البلاد المصرية هو عثمان بك ذو الفقار . والفضيلة الوحيدة التي تدون له في التاريخ بالمدح انه ما كان يقبل الرشوة أو يميل اليها على الاطلاق . وأما باقي اعماله فكانت مثل باقي أعمال مواطنيه — وهي ميله للانتقام والخيانة وعدم الرحمة والعفة

ولما لم يعد يتحمل الشعب وخصومه مظالمه القاسية لم يقتلوه بل نفوه الى القسطنطينية فاستقبله السلطان بالاحترام وبذل مساعيه لاعادة ممتلكاته واملاكه وامتعته التي بمنزله في مصر اليه بعد أن سلبت كما هي العادة في ما يتم لمثله عند قتله لكن لم تفلح هذه المساعي السلطانية

وفي سنة ١٧٤٣ مسيحية عرض أحد الباشوات المدعو محمد اليدقسي مشروع اصلاح للديار المصرية فابتدأ اصلاحه بمنع شرب الدخان منعاً قطعياً عند الاهالي . فكان يرسل ضباطه بعساكرهم ثلاث مرات يومياً يطوفون في الشوارع في القاهرة وكل من يجدونه يدخن يعاقبونه عقابا صارماً . فاستدعاه السلطان بعدئذ بسنتين قبل انه لم يفلح بايجاد اصلاح يذكر غير ابطال شرب الدخان . وبعدئذ قام شيخ من العلماء واجتهد في اصلاح حال مواطنيه فصار يخطب فيما بينهم بحضور بعض الامراء ويبين لهم شرورهم وينهيهم عن الخطايا ويبين للناس الشرور التي يأتيها الامراء فحنق هؤلاء عليه وسلطوا عليه اتباعهم لقتله . فهرب وامتنع بعدئذ عن الخطابة ضد الامراء حتى مات موتاً طبيعياً

وأعظم نقطة تاريخية مؤثرة في ذلك الحين هي الخيانات الدموية العظيمة التي تعودها الاتراك لخدمة مآربهم . ويظهر انه ما كان يوجد اي عهد أو قسم يمنعهم من اتيان هذه الفعال الذميمة . مع ان اليمين أو القسم أو العهد بالوطنية العمومية هو الرابط الوحيد الذي يوقف ويمنع اي شخص انكليزي الجنس من ارتكاب اي جريمة ضد ابن جنسه

وفي سنة ١٧٤٥ مسيحيه تلقى محمد راغب الباشا الوالي وقتئذ على مصر من قبل تركيا تعليمات سرية من السلطان بضرورة القضاء على عائلات القاطمي والدمياطي وهما من اشد المماليك قوة وبطشاً . فسعى الباشا سراً في تنفيذ هذه التعليمات ودبر مذبحة عظيمة لكل البكوات المماليك من

تلك العشائر عند دعوتهم الى اجتماع عمومي في ديوانه بحجة النظر في شؤون البلاد . فما دعاهم لم يجب هذه الدعوة بك أو أمير بدون ان يكون مسلحاً أو غير مستعد لدفع اي غدر أو جناية مما كان جارياً في تلك الايام . وبالرغم عن هذا فانهم لم يحضروا الى الديوان حتى قطعت رقاب ثلاثة منهم أما باقيهم فدافعوا كل عن نفسه وتمكنوا من الهروب من القلعة وجمعوا اتباعهم وكروا راجعين للقلعة وقامت على أثر ذلك حرب اهلية أخرى انتهت بقتل عدة امراء وهروب الآخرين الى الصعيد . وفي سنة ١٧٤٨ تولى على مصر باشا آخر اسمه احمد ولما حضر للقاهرة اقتصر على خدمة العلم وعزم على الاستفادة بزيادة العلوم باجتماعه بالعلماء المصريين فاحاط نفسه بكل المشايخ وعلماء الكليات فاتضح له انهم لا يعرفون من العلم شيئاً وانهم اضاعوا وقتهم فقط في العلوم النحوية والحيل والخداع اللاهوتية . فهجر كل هؤلاء المشايخ والعلماء وصرفهم من حضرته وحجز عنده فقط الشيخ عبد الله الشبروني شيخ الجامع الازهر وقتئذ ليجربه اذ ربما كان نظره فيه غير صحيح وحكمه عليه بجهله كباقي المشايخ قبل التجربة قد يكون خطأ . فما ظل هذا الشيخ في صحبة الباشا مدة من الزمن اختبره فيها تماما وجده لا يقل جهلا عن الذين طردهم وصار الباشا يطلب بعدئذ مكرراً من هذا الشيخ رئيس الجامع الازهر قائلاً أين اذاً العلماء المصريون الذين كنت اسمع عنهم كثيراً في تركيا . فكان الشيخ يضن عليه بتفهيمه ان الشيء القليل من العلوم والمعارف الباقية لذلك الحين في

مصر يمكن معرفتها من الاقباط . واجتهد الشيخ في البحث بلطف ولو عن رجل مسلم واحد تناسب معارفه مطالب الباشا التركي وأخيراً عثر رئيس الجامع الازهر على رجل يدعى الشيخ حسن وهو من أصل حبشي والد المؤرخ المسلم الشهير الشيخ الجبرتي والمعلم لعلم الفلك في الجامع الازهر فارشد الباشا الوالي عنه .

وفي اثناء النصف الاول من ذلك القرن كان الاقباط متروكين في حالة سلام منهم وعليهم بينما كان المسلمون في حالة مخاصمات شديدة فيما بينهم . ولم تستيقظ فنونهم اي (الاقباط) وصنائعهم من رقادها الطويل بعد تلك الصدمة العظيمة التي اصابهم بها الفاتح العثماني حينما سحقهم وكاد يمحيهم من الوجود بواسطة الخطف والسلب والنهب المتواصل ضدهم

وقد تألم الاقباط كثيراً ايضاً من اخوانهم الاقباط المسلمين بسبب سطو البدو الدائم عليهم وبسبب جيوش الامراء الطوافة في البلاد . ولم يكن يسلم من الاذى في القاهرة اي رجل يمتلك اي شيء بسيط يستحق السلب سواء كان هذا الرجل يهودياً او قبطياً

وفي سنة ١٧٣٣ م (١١٤٦ للهجرة) كان لكاشف كل اقليم بناً على فرمان صادر له من السلطان الحق في فرض ضريبة مالية على كل نفس قبطية أو يهودية من سكان اقليمه . فقسم كشاف الاقاليم الاقباط واليهود الى ثلاث درجات بطريقة موجبة للاسف بنسبة الوسائط التي يتخذونها

معهم في ارغامهم بالدفع . ففرضوا على الطبقة الاولى دفع ٤٢٠ بارة عن كل نفس .وعن الطبقة الثانية ٢٧٠ بارة وعن الثالثة ١٠٠ بارة عن كل نفس [١] . ولكن من عهد قتل الاب كليمانت لم تعد الحكومة تعرض مسيحياً للقتل بسبب دينه ولم تصدر اوامر بهدم الكنائس . وعلاوة على ذلك فان المسيحيين (الاقباط) اصبحوا بالتدريج لازمين للحكومة بحيث لا تستغنى عنهم في وظائفها وذلك بالنسبة للجهل المتزايد وعدم الامانة بين بعض الطبقات من المسلمين .

وفي سنة ١٧٣١ مسيحية كان للمرسلين الكاثوليك تسعة مراكز جنوبي القاهرة وهي : — في اتينو وفي اسيوط وابو تيج وصدفا واخميم وجرجا والاقصر واصوان وحتى في دير النوبية . لاننا علمنا انه في تلك السنة ارسل البابا كليمانت الثاني عشر أوامر مشدده لرؤساء تلك الاماكن الكاثوليكية كي يبذلوا كل مساعيهم للحصول على اولاد من الاقباط وارسالهم للتعليم الديني في رومه . فالاولاد الذين امكن لهؤلاء الوكلاء الدينيين ارسالهم للتعليم في روميه كانوا من والدين كاثوليكيين ولم يتمكنوا مطلقاً من الحصول على ابن أي رجل قبطي من الكنيسة الوطنية سواء كان

(١) قيمة العملة المصرية كانت تتغير بحسب تغيير سلاطين آل عثمان ولذا يصعب جداً تعيين قيمة هذه المبالغ بالعملة الانكليزية . وقال بوكوك في تاريخه عن مصر انه في سنة وجوده فيها (سنة ١٧٣٧) كان الكيس في مصر يساوي ٢٥٦٠٠٠ ميدي والميدي يظهر انه يساوي ٢ ونصف بنس اي ٥ مليم

بطريق الاغراء أو التهديد ولم يقبل أي قبطي اصلي بالتسليم في ابنه بتأثير تلك الاغرآءات الفارغة . وقد علمنا بحادثة مسير اولئك الاولاد عند ترحيلهم لرومية ذلك انه كان معهم في السفينة الراكبين فيها في طريقهم الى القاهرة من الوجه القبلى بعض من السياح الفرنساويين والانكليز في النيل فلما وصلت السفينة الى مدينة انسينا قيل أن السياح المذكورين نزلوا يتفرجون على خرائبها القديمة فاسرع الاقباط الكاثوليك المتوجهين الى رومية وقدموا أنفسهم للمرسل الكاثوليكي في تلك المدينة وقتئذ وحضروا الصلاة معه في كنيسته

وكتب البابا المذكور الى البطريرك القبطي يوحنا السابع عشر بواسطة الكردينال بلوجا ومرسل اخر لهما الساطة في مخابرة البطريرك القبطي باسم البابا — اذا امكنه يحسن به تسهيل الطرق اللازمة للخضوع هو وكنيسته لكنيسة رومية فكانت نتيجة تلك المخابرات بلا ثمرة كالمعتاد

ولما جلس نبديكت الرابع عشر على الكرسي البابوي بعد كليمانت — انكر كل دعوى باعتراف الكنيسة الرومانية بوجود اتحاد مع الكنيسة القبطية . وعوضاً عن أن يراسل بطريرك الاقباط رأساً عين مطراناً كاثوليكياً (وهو الاول من نوعه) واعطى له حق التشريع في الديار المصرية . واصل ذلك المطران قبطي اسمه اثناسيوس وكان تعيينه سنة ١٧٤١ واتخذ اورشليم مقراً له واستمر فيها ومنها عين كاهنا يدعى يسطس ماراغليك بصفة نائب عنه في الديار المصرية . وقدارسل البابا بنديكت سنة ١٧٤٥ م لهذا النائب

تعليمات طويلة طالبا اتباعها وتنفيذها . وكان في ذلك الحين رفائيل الطوخي من اهالي مديرية الجيزة الذي كان أخذه الكاثوليك صبياً وعلموه في روميه قد أتم دراسته الدينية فعينه البابا أسقفاً لمدينة أرسينو حيث يظهر انه لم يسمح له البابا بالاقامة طويلا فيها (١) لانه بالنسبة الى معارفه العظيمة قد استدعاه البابا الى رومه ليساعد في تأليف بعض كتب مختلفة باللغة القبطية من ضمنها اجرومية في اللغة القبطية وكتب طقوسية للخدمة الكنائسية . وفضلا عن هذا فقد ترجم عدة كتب يونانية ولاتينية الى اللغتين القبطية والعربية .

وفي سنة ١٧٤٣ مسيحية أرسل ملك الحبشة الى بطريرك الاقباط يطلب منه رسم مطران جديد للاحباش بدل انبا خريستودولس الذي توفي . وكان الوفد الذي عزم على السفر الى مصر حاملا طلب ملك الحبش مؤلفاً من ثلاثة رجال . أحدهم مصري الاصل اسمه جرجس واثنان حبشيان أحدهما اسمه ليكانيس والاخر كاهن اسمه ثيودورس

وفي ذلك الحين كانت سواحل البحر الاحمر كلها في أيدى المسلمين ولم تكن الحبشة قد استرجعت بعد أي ميناء من موانيها القديمة على ذلك

(١) في السنين الاخيرة من القرن الثامن عشر كان الكاثوليك قد تمكنوا من الانتصار قليلاً في أعمالهم اذ امكنهم اغراء اسقف جرجا القبطي لاعتناق المذهب الكاثوليكي . فأصبح هذا الاسقف في حالة اضطهاد شديدة ليس من الاقباط فقط بل ومن المسلمين ايضاً فالتزم بالهروب الى روميه وأقام فيها حتى مات سنة ١٨٠٧

البحر . فلما وصل الوفد الى مصوع قبض عليهم حاكمها المسلم وسجنهم وأخذ منهم عنوة نصف أموالهم التي كانت معهم لينفقوا منها في سفرهم الى مصر وهددهم بالموت أو اعتناق الاسلام . فاختفى جرجس المصري ولا يعرف للآن ما اذا كان قد قتل أو دبر طريقة هرب بها ونجا من السجن . أما ليكانيوس فبعد عذاب شديد سلم أخيراً بمطالب الحاكم واعتنق الاسلام . اما تيودوروس الكاهن الحبشي فهو الوحيد الذي اطلق لحال سبيله لان الحبشة كانت قد شعرت بما وقع لوفدها فدفعت عنه فدية للحاكم المسلم واستمر في سفره حتى وصل القاهرة سالما وحده. ولما ابلغ الخبر للبطريرك القبطي لم يتمكن هذا من ارسال مطران جديد للحبشة الا في سنة ١٧٤٥ . ولما وصل المطران الجديد للحبشة مع الكاهن الحبشي وقع له ما وقع للوفد عند مجيئه فطرحا في السجن . ولكن تيودوروس الحبشي اجتهد في اختراع حيلة يهرب بها زميله المطران وقد تمكن فعلا من تهريبه ولكن وقع هو في خطر الموت لاتيانه ذلك الامر على ان المقادير شاءت ان تنجيه اذ بينما كان الاستعداد جارياً لقتله ادركته فدية من ملك الحبشة فتركه حاكم مصوع ووصل الحبشة سالما .

وكانت قدم الكاثوليك قد ثبتت جيداً ذلك الحين في البلاد المصرية. ولو انهم لم يغروا كثيراً من ابناء الكنيسة القبطية للدخول في مذهبهم لكن قد تبعهم كثيرون من السوريين المقيمين في مصر وغيرهم من ابناء الكنيسة اليونانية وكانت لهم كنائس كثيرة خاصة بهم امتلأت بالذين لم

يتبعوهم من قبل ولكنهم كانوا بلا شك يحسبون مرتدين عن مذهبهم الاصلي .

فلما سمع السلطان بتزايد النفوذ الاوربي في البلاد المصرية بواسطة تلك الكنائس اللاتينية جزع وقلق باله . فأمر بطاريرك الكنيسة اليونانية في مصر بأن يمنع اعضاء كنيسته من الصلاة في كنائس اللاتينيين وفرض على ابناء الكنيسة اليونانية ضريبة مالية قدرها الف كيس بالتضامن اذا خالفوا ذلك الامر . فما كان من السوريين الا انهم دفعوا هذه الضريبة للسلطان واستمروا على صلواتهم في كنائس الكاثوليك . واتخذ احد امرأ المصريين هذه المناسبة فرصة سانحة لمآربه فسجن أربعة من مبشري اللاتينيين وفرض عليهم دفع مبلغ عظيم من المال بصفة فدية لهم اذا أرادوا الخروج من القطر المصري

وقد كان الاقباط ممنوعين عن الحج الى أورشليم من عدة قرون فكان هذا المنع مصدر حزن دائم للمتدينين منهم . ففي سنة ١٧٥٣ م (١١٦٦ للهجرة) عزم الاقباط على تجديد المساعي في هذا السبيل واجتهدوا للحصول على غرضهم بالرشوة مهما كلفهم ذلك من المال . ومن كبار الاقباط الذين كانوا يسعون في ذلك سكرتير احد كبار الامراء فهذا تعهد بالمخابرة مع ذوى الشأن بالنيابة عن امته . وبمساعيه اقتنع شيخ الجامع الازهر بالاذن للاقباط بالحج الى أورشليم مقابل اخذ رشوة قدرها الف دينار (٧٠٠ جنيه انكليزي) اذ أصدر فتوى شرعية صرح بها للاقباط ان يحجوا ويعودوا وهم في امن وسلام بدون ان يتعرض لهم احد من

المسلمين. صدرت هذه الفتوى وبلغ الامر الى الاقباط فطار فؤادهم فرحاً وهموا بالتجهيز للحج باسرع من البرق . واتفقوا فيما بينهم على ان نقطة المقابلة التي يجتمعون فيها للمسير معاً في قافلة واحدة للحج تكون في شرقي مدينة القاهرة . فكانت هذه النقطة تغص بمئات من الاقباط يوميا . وجهزوا العطايا والنذور التي سيقدمونها عند القبر المقدس واعدوا التختروانات لحمل النساء والاطفال واجروا لهم حرسا من البدو لمرافقتهم في الطريق . فانتشر خبر حج الاقباط في جميع الانحاء فاستقبله جميع المسلمين بعين الحمق والاحتقار وحنقوا على الشيخ عبد الله الشبروني شيخ الجامع الازهر لتصريحه لهم فلما رأى هذا نفسه مهانا من المسلمين للفتوى التي اصدرها بذلك سلك طريق الرقة والملاطفة معهم فلم يفلح ووبخوه على الرشوة التي اخذها فأنكر في بادىء الامر اخذه للرشوة ولو انه في الواقع اخذ علاوة على مبلغ الرشوة المتفق عليه مبلغا آخر بصفة (بقشيش) اذ ذاك . فلما رأى ان انكاره للرشوة غير مقبول اتخذ له وسائط اخرى لاعادة كرامته بين المسلمين . فاستدعى طلبة الازهر وجمع خلقا عظيما من الاوباش وهيجهم بتحريض ديني على الاقباط الحجاج وانتهي تحريضه بامره اياهم بأن ينقضوا على قوافل الاقباط السائرين آمنين في طريقهم الى الحج. ولم يحتج هؤلاء الاوباش طبعاً الى تكرار القول او الاشارة بل قام جمع هائل منهم مسلح بالعصي والحجارة وساروا حتى انقضوا فجأة على الاقباط فضربوهم بالنبابيت والحجارة وسلبوا مؤونتهم وذخائرهم وكل ما معهم وسبوا

نساءهم. ولم تنفع بعدئذ مساعي كبار الاقباط في رد المسلوب والمنهوب او اخذ تعويض بل ذهبت كل النفقات العظيمة التي انفقها الاقباط هباءً منثوراً

الفصل السبعون

علي بك الكبير

سنة ١٧٥٥ مسيحية ١٤٧١ للشهداء و١١٦٨ للهجرة

كان الامير الذي خرج له بأس عظيم من عصابات القاتلين وهو علي بك الكبير واحد معتوقي احد الامراء الكبار وبعد موت سيده قتلاً بالطريقة المعتادة كان هو نفسه في خطر الموت الى امد غير قصير. وقد جمع ثروة طائلة حينما كان في حيازة سيده المتوفي صرفها في شراء المماليك أو اسرى الحروب ليحصن بهم نفسه وقت الهجوم عليه من الاعداء. فلما آن الوقت الذي خان هجموا عليه فعلاً وبعد معركة دموية هائلة في شوارع القاهرة هزم علي بك وفر هارباً الى الصعيد مع بعض البكوات المماليك الذين اعتصبوا معه . وبعد أن جمع من الصعيد قوة من الرجال تستحق الذكر نزل ثانياً الى القاهرة وهزم الامراء خصومه في معركة دموية عظيمة وظل يطاردهم حتى اوصلهم الى طنطا

وبوصولهم لهذه المدينة لم يكونوا في أمن لان قوة علي بك كانت

قد ازدادت فهاجمت طنطا ايضاً ببطش شديد . وقد حفر اثنين من الامراء الخنادق حول المدينة تحصيناً لها ومنعاً لهجوم الاعداء عليها غير أن احد هذين الاميرين قتل والتجأ الامير الثاني الى الجامع الاحمدي مختبئاً فيه فلما انهكه الجوع واصبح على وشك الهلاك سلم نفسه للاعدأ فذبحوه بعد ذلك بقليل .

ومن ذلك الحين انفرد علي بك بتولي الحكم على القطر المصري واستبد فيه مدة عشرة سنوات غير انه لم تحدث في تلك المدة قلاقل تذكر الا في سنتي ١٧٦٣ و١٧٦٥ حيث قامت ضد الامير المذكور فتنة عامة ادت الى نفيه بضعة اشهر وكانت مدة حكمه كلها رعب وفزع حيث أن جيوشه لم تكن مخلصة له والبكوات المماليك الاخرين كانوا مقاومين له من جهة اخرى ونشاء عن ذلك أن الناس كانوا يذبحون بالعشرين أو الثلاثين دفعة واحدة من الذين كان هذا الامير يشك في اخلاصهم له أو يسيء الظن في سلوكهم والخوف منهم على هلاكه ولذلك حذر على غيره من الامراء مشترى المماليك الاصاغر الذين كان البكوات يأخذون منهم رجال حروبهم ثم وضع يده على كل ممتلكات الذين نفاهم أو قتلهم واستخدم طبيباً من اتباع الكنيسة اليونانية ليدس السم لخصم له لم يتمكن من الهجوم عليه وقتله علناً لكن حيلته هذه لم تفلح ايضاً .

وكان كل رجل غني سواء كان مسلماً أو قبطياً معرضاً في ذلك الوقت المظلم للهلاك والتعذيب والسجن حتى يسلم كل ما يملكه الى الحاكم .

ونذكر من الذين نالهم الحيف كاتباً يهودياً في جمرك بولاق مات تحت العصا والكرباج بعد ما دفع ٤٠٠٠ قطعة ذهبية فدية عن نفسه . وفي سنة ١٧٧٠ فرض ضريبة خصوصية على جميع سكان القطر المصري على السواء بخلاف الضرائب الاخرى الموجودة والتي ما انزل الله بها من سلطان والتي كان الناس يئنون منها ويتأوهون حيث اضطرت كل قرية أن تدفع ١٠٠ ريال . ولم يقتنع الاقباط من المسلمين بما كان يدفعه اخوانهم الاقباط من المسيحيين بل الزموهم بدفع ١٠٠٠٠٠ « مائة الف » ريال زيادة على هذه الضريبة واليهود ٤٠٠٠٠ ريال . ورأى علي بك أن مدير الضربخانة المصرية الرجل المسلم قد جمع ثروة طائلة فنفاه واستولى على جميع ما يمتلكه حتى ملابسه واسلحته وكتبه

واجتهد السلطان اكثر من مرة أن يغتال حياة ذلك الامير القوي فارسل في عام ١٧٦٨ امراً الى والي مصر حينئذ يطلب منه فيه رأس علي بك فشعر جواسيس علي بك بذلك وحذروه فلم يتخذ فقط الحذر بل ارسل فريقاً كمن لسفير السلطان القادم من الاستانة وقتله في مكمن واخذ منه ذلك الفرمان السلطاني وفي اليوم التالي عقد مجلساً من المماليك البكوات وقرأ عليهم هذا الفرمان ثم قال لهم واني اؤكد لكم اني اذا قتلت كما شاء السلطان لحدثت مذبحة عامة تقتلون فيها جميعاً ولهذا يجب عليكم أن لا تعترفوا قطعياً بسيادة السلطان الحالي بل انتخبوا سلطاناً غيره منكم كما كان في العهد السابق . فأمنوا جميعاً على اقواله وبعدها استدعى

الوالي وامر في الحال أن يترك الديار المصرية فسافر الوالي حالا واعلن علي بك استقلال الديار المصرية تحت سلطته . وفعل كذلك رجال سوريا مع واليهم التركي واعلنوا استقلالهم مثل علي بك وكان سلطان تركيا وقتئذ مشغولاً في حربه مع الروسيا فلم يتمكن من اتخاذ الوسائط القوية ضد سوريا ومصر . ولكنه ارسل يأمر والي دمشق بتجنيد الجيوش اللازمة لقمع العصاة في سوريا فنفذ ما امر به ولكن قام ضده الشيخ الظاهر الذي كان حاكما على عكا وقتئذ ومعه ٢٥٠٠٠ الف مقاتل علاوه على ستة الآف ارسلهم الى شمال سوريا فضرب والي دمشق وقهره . اما علي بك فقد جرد جيوشه ضد قبائل البدو الهواره الذين غزوا صعيد مصر وتسلطوا عليه وكانوا اسياداً لكل المنطقة الواقعة ما بين اسيوط واصوان بضع سنوات فقهرهم علي بك واخضعهم لسلطته وبذلك اصبحت مصر كلها من الشمال الى الجنوب خاضعة تحت سيادته ولم يكتف بذلك بل قام وهجم فجأة على رجل كان زعيماً للبدو في الجهة الغربية لشواطيء النيل وقتله هو زعماءه البالغين اربعين شخصاً . وبذلك انتهى كل ما كان يخشى منه علي بك . وبالرغم عن معاملته الشديدة للاقباط وقسوته عليهم فان الرجل الذي كان يثق باخلاصه ويعتمد عليه كان قبطياً يدعى المعلم رزق رقاه من وظيفة سكرتير الضربخانة المصرية الى مدير حساباتها . وقد كان المعلم رزق هذا على شيء من العلم وخصوصا علم الفلك الذي مهر فيه واصبح من رجاله المعدودين . وقد جاءت خبرته هذه فرصة عظيمة للمستر بروس

السائح الانكليزي الشهير الذي اخترق افريقيا الى بلاد الحبشه . ذلك أن بروس المذكور لما أن وصل الى ميناء الاسكندرية عام ١٧٦٨ اصدر المعلم رزق الاوامر اللازمة بعدم التعرض له في طريقه وبأن يدخل كل ما يحمله مجانا بدون رسوم عليه فسر الرجل بهذا الجميل الذي اعتبره من حسن حظه ولما وصل القاهرة ارسل هدايا ثمينه للمعلم رزق الذي لم يقبل تلك الهدايا بل ردها مع رسول وزوده بمثلها واعطاه خطاباً لطيفاً للمستر بروس يرجوه فيه أن يزوره بعد أن يستريح من عناء السفر ليستعمل الآلة الفلكية لاغراضه العلمية وقد تحصل له ايضاً على براءة حماية من على بك بعدم التعرض له مطلقاً طول اقامته بالديار المصرية كما انه بتوصية منه تمكن ان يقضي ايامه في حصن بابليون حيث خصص له البطريرك بضع غرف تحت امرته في ذلك الحصن وبعد أن اقام بضع ايام هناك ابتدأ في سياحته فسافر الى الصعيد في باخرة نيلية . فلما أن وصل من اصوان الى الاقصر اتجه نحو القصير وسار عن طريق البحر الاحمر الى بلاد الحبشة ثم عاد من الحبشة الى مصر برا بان سار في مجاهل افريقيا حتى وصل الى اراضي السودان التي كانت في ذلك الحين مهجورة ، غير مأهولة وفي حالة انحطاط شديد كما كانت كذلك دائماً . أي بعدان قامت دولة زنجيه اسلاميه وسحقت الدولة المسيحية التي كانت تحكم البلاد من الجنوب . وبعد ان بسط ولاة ذلك الملك الزنجي مؤسس تلك الدولة وبسطوا نفوذهم على جميع الاقطار السودانية من سنار . وقد صادف ذلك السائح العظيم عقبات

شديدة في طريقه من حيث احتقار الاحباش له وعدم اهتمامهم بامره وبمهمته فضلاً عما ناله من الذم الشديد والقدح الذي ما بعده من مزيد ومع كل ما لاقاه فقد وقع هو ايضاً في خطأ فوق المؤمل من نبوغه ويظهر ان ذلك الخطأ لم يلاحظه عليه احد وهي انه لم يكتشف ابداً محل الكنيسة القبطية الاصلي في بلاد الحبشة

ومع أن بطريرك الاقباط كان يزوده دائماً بجوابات التوصية التي لا يستطيع بدونها السير قدماً واحداً في سياحته وهو آمناً على حياته. ومع انه كان يتكلم باخلاص ويشكر الذين ساعدوه واظهروا له العطف من ابناء تلك الكنيسة فان ما كتبه في تاريخه كله كان على الكنيسة اليونانية لانه كان يعتقد أن مرقس بطريرك الكنيسة اليونانية الارثوذكسية هو الذي تتبعه كل الديار المصرية وبلاد الحبشة ويظهر انه لم يسبق له المعرفة بان هذا البطريرك قبرصي بدليل انه لم يقض الا زمناً قصيراً من حياته الى هذه الديار المصرية

وما وصل المستر بروس من سياحته هذه الطويلة الى مصر حتى كان علي بك الكبير قد سقط من شامخ عظمته التي اقترف عدة جرائم عظيمة في سبيل الوصول اليها . على أن سقوط علي بك وهلاكه لم يرجع الى مساعي سلطان تركيا الذي كان استعد علي بك لمحاربته بعد ما بنى القلاع والاستحكامات الحربية في الاسكندرية ودمياط ولا الى انتقام احد الامراء البكوات الذين شتتهم هنا وهناك وتفاهم بل يرجع الى ما اصابه

من خيانة احد مماليكه الاخصاء المسمى محمود ابو الذهب (١) الذي كان اشتراه صغيراً ورباه مع عبيده ولما أن اشتد ساعده اعتقه ورقاه مع امثاله فشب على اخلاق سيده وطباعه كثر النزوع الى العلاء ميالا الى الخيانة. وقد رقي اولا الى وظيفة سنجق ثم عينه علي بك قائدا للجيش الذي انتصر به مراراً في سوريا والحجاز ودفعه هذا النصر وهو في سوريا الى تأليف مؤامرة من الضباط الذين اتحدوا معه على عصيان مولاه علي بك وبدلا من أن يسير مع معسكر الجيش للحرب انقطع في الطريق ورجع ثانياً الى مصر ورفض العودة الى ميدان القتال. فلما أن راى علي بك خيانة ابو الذهب ولاحظ أن الجيش كله في جانبه لم يتجاسر لمعاقبته علناً بل أصر على قتله غدراً بان امر بمحاصرة منزله ليلاً فلما شعر بذلك ابو الذهب خرج سريعاً في مقدمة اتباعه واخترق صفوف المحاصرين وفر هارباً الى الصعيد حيث اتحد في الحال مع البكوات وجيوشهم الناقمين على علي بك الذي ارسل وراءه تجريده عسكريه لمطاردته لكن رجالها جميعا خانوه واتحدوا مع رجال محمود ابو الذهب الذي كان يرشي الناس باليمين والشمال من بضع سنين ولم يعد منهم الي القاهرة الا نفر قليل من الذين ثبتوا على الولاء له واخبروه بما كان من امر رفقائهم. فجرد

---

١ دعي ابو الذهب لانه لما رقاه مولاه علي بك الكبير لوظيفة سنجق كانت عطاياه وانعاماته للشعب الذي يهنئه بالعملة الذهبية بعكس اقرانه الذين كانوا ينعمون على الناس بالفضة وظل طول حياته ينعم بالذهب

حملة عسكريه اخرى وظل يجند الجيوش ويرسل وراء ابو الذهب تجريده بعد الاخرى بقيادة قائد يدعى علي بك ليقابل ابو الذهب ويصالحه اما علي بك نفسه فتحصن مع باقي جيوشه عند دير البساتين الذي اخذه من الاقباط وجعله حصنا حربيا ثم بنى المعاقل والحصون والطوابي من نهاية ذلك الدير الكائن على شاطيء النيل حتى اخر سفح المقطم ووضع المدافع الكبيرة في ذلك الخط الحربي العظيم بين تلك الحصون العظمية ولكن مع كل تلك الاستعدادات والاستحكامات الحربية فان ابو الذهب نزل لمحاربته وتغلب عليه وهزم جيوشه التي خانته اغلبها وانضمت الى جيوش ابو الذهب فلما راى علي بك ذلك خامره اليأس وتيقن أن اخرته قد دنت . فلما جاء الليل هجر مركزه بعد أن اسرع في جمع ذخائره وكنوزه وممتلكاته الخصوصية وامواله وفر هاربا من القاهرة الى سوريا فدخل ابو الذهب دون أن يضطر لعمل حربي أو لرفع سلاح لان الاهالي وباقي الامراء والمماليك كانوا من اعوانه كما تقدم ولكن مع سنوح هذه الفرصة لابو الذهب وامتلاكه البلاد المصرية بهذه السهولة فان اول اعماله كانت سلب وحرق دير البساتين الذي كان متخذه علي بك خصمه ملجأ له . ثم دخل القاهرة دخول الفاتح القاهر وسار يقطع رأس كل رجل يشتبه في ولائه لعلي بك وامر بجمع كل العمله التي ضربها المعلم رزق من ايدي الجمهور وضرب خلافها باسمه . وبعد أن استقر على اريكته كتب لسلطان تركيا انه خلص البلاد من علي بك واكد له انه

سيظل حاكماً لها وخاضعا لسيادته وعبر عن ميله واستعداده لقبول والٍ جديد على مصر من قبل الباب العالي . ثم امر بعض البكوات المماليك بكتابة جواب لعلي بك في سوريا يرجونه فيه الرجوع الى مصر واكدوا له بانهم يخونون محمد ابو الذهب وينضمون معه حالما يعود . اما على بك فقد تجددت له قواه الحربيه في اثناء ذلك بواسطة مصدرين عظيمين وهو في سوريا اولهما انه اقام المخابرات بينه وبين دولة روسيا (ولا يخفى أن الروسيين هم الاعداء الالداء الطبيعيين للاتراك العثمانيين) فاقرضته روسيا قوة الحرب والطوبجيه « المدافع وما يختص بها » ثم الذخائر الحربية وثلاثة الآف من العساكر الالبانيين . وثانيهما انه عقد محالفة جديدة مع الشيخ الظاهر والي عكا كما أن احد قواده قام بتجريدة حربية واعاد افتتاح طبريه ومدينتين على شاطيء سوريا بخلاف يافا وغزه والرمله وليدا وعاد منتصراً لعلي بك الذي تنازل عن هذه البلاد بعد افتتاحها الى الشيخ الظاهر والي عكا .

فلما وصل الى على بك ذلك البلاغ والدعوة الكاذبة من المماليك المصريين حول حالا وجهة جيوشه الى مصر وسار بهم حتى وصل الى الصالحيه وهناك التقى بجيوش ابو الذهب فانتصر علي بك في اول معركة قامت بين الجيشين ولكن مماليكه الخائنين ظهر منهم نوع التراخي فلم يثق بحربهم وحدهم مع جيوش ابو الذهب الذي لما انس من نفسه انهزاما في المعركه الاولى وقف بين جيوشه المصرية يخطب متحمساً

ويحرضهم على الاستقتال في الحرب استقتالا وحماساً دينياً لانه كان يقول لهم أن الله لا يسمح لعلي بك الذي هجر الدين الاسلامي ودخل في محالفة مع النصارى الكفار أن ينتصر عليهم وعلاوة على هذه الخطب الحماسيه الدينية فانه تمكن بواسطة الدسائس والخدع والرشوه مع ابراهيم بك ومراد بك المساعدين العظيمين لعلي بك واتحد معهما على عصيان سيدهما والانقلاب عليه وقت الحرب والانضمام مع الجيوش المصرية . فعلاوه على الرشوه العظيمة التي اخذها مراد بك من ابو الذهب اشترط عليه ايضاً انه اذا خان علي بك وانضم معه يعطيه الست نفيسه زوجة علي بك وهي امرأة شركسية الاصل بارعة في الجمال . فقبل ابو الذهب بهذا الشرط ولما التحم الفريقان في الحرب خان البيكان علي بك وانقلبا عليه بانضمامهما الى صفوف ابو الذهب فلما راى جيش علي بك ما كان من امر مراد بك وابراهيم تقهقر وهرب ولكن استمر عشرة من المماليك الذين ظلوا على الولاء لعلي بك في الدفاع معه باستقتال عظيم حتى تغلب عليهم رجال ابو الذهب وذبحوهم عن اخرهم وجرح علي بك ايضاً جرحاً مميتاً فحملوه الى القاهرة حيث توفى فيها بعد سبعة ايام . وقيل أن ابو الذهب اوصى الاطباء الذين ارسلهم لعيادته أن لا يشفوا على بك من جرحه

مات علي بك الكبير بعد تلك الاعمال الحربية والسياسية العظيمة ومن عظيم اعماله الاصلاحية المباني العظيمة الكثيرة العدد التي شيدها في البلاد المصرية من العشرة سنوات حكم فيها . واخص اعماله من هذا

النوع في بولاق حيث شيد سوراً عظيماً وسوقاً كبيراً جاء منظر ذلك السوق رديئاً لانه حال بين مناظر الحدائق الغناء التي كانت هناك ويقول الجبرتي انه من اقبح المبانى التي شيدت . وفي النصف الاخير من ذلك العصر شيد الامير عبد الرحمن عمارات كثيرة عظيمة اذ قد بنى ورمم ثمانية عشر جامعاً كبيراً في القاهرة . منها جامع المغربلين وجامع السيده السطوحيه قرب باب الفتوح وجامع سيدنا الحسين وجامع السيده زينب ولكن هذا لم يتم بناؤه الا بعد وفاة علي بك والامير عبد الرحمن ببضع سنوات . ثم جامع السيده سكينه . واخر يدعى جامع السيده عيشه . وجامع ابو السعود الجارحي وجامع الشريفين الكردي وجامع الشيخ الحنفي وثلاث جوامع اخرى لم يتبين اسمها في التاريخ ضمن الجوامع الجديده التي تشيدت . وشيد ايضاً الامير عبد الرحمن كثيراً من المدارس والسبل « محال عمومية للشرب » هذا ما عدا الجسور والكباري والمنازل الخصوصية .

ولكن كل هذه الاعمال العظيمة لم تشفع له لدى الجبرتي المؤرخ العظيم الذي وصمه بوصمة البخل الشديد الذي لا يطاق وهي الخله التي جعلته يجمع كثيراً من الاموال بطريقة غير شرعية وهو كان المخلص الوحيد لعلي بك الكبير ولكن علي بك لما راى نفسه قوي الجانب وفي امن من بطش اعدائه ومن معاكسة حزب عبد الرحمن له قابل اخلاصه بالنفي الى الحجاز . ولكن عاد فاستدعاه من الحجاز سنة ١٧٧٦ م حيث

كان قد طال عليه مدة النفي واصبح رجلاً عجوزاً فتوفى بعد عودته للقاهرة ببضعة ايام .

ولما استتبت الاحكام والبلاد في يد محمد بك ابو الذهب استدعى كثيراً من الامراء المماليك الذين كان نفاهم علي بك وصرح لهم بالعودة لحالتهم القديمة واعطاهم امتيازاتهم التي كانت قد سلبت منهم . ولكن لم يتمتع بالقوة العظمى التي كان تتوق نفسه اليها في البلاد من بضع سنين . وفي سنة ١٧٧٥ م غزا سوريا التي كان معظمها باقياً تحت يد الشيخ الظاهر . فهجم على يافا واخذها عنوة وذبح سكانها كالغنم عن اخرهم يهودياً ومسلماً ومسيحياً على السواء وسبا النساء واعطاهن فريسة باردة لعساكره ووزع عليهم ايضاً الاطفال كرقيق . فهالت هذه الفعال الدموية المفزعة كل البلاد السورية . فترك الشيخ الظاهر مدينة عكا بعد أن امر السكان باتخاذ الوسائط والشروط التي يمكنهم اتخاذها مع ابو الذهب وليس عكا فقط التي سلمت لجيوش ابو الذهب الفاتحة بل سلمت له ايضاً كل المدن الاخرى بدون مقاومة بالكلية . فارسل ابو الذهب الى رجاله في القاهرة يأمرهم بتزيين القاهرة وانارتها بالانوار احتفاً به لانتصاراته في الشام . ولكنهم بعد أن اقاموا الزينات الباهرة تلقوا اخباراً بانه مات في الشام واعتقد المصريون عقب وفاته بان موته كان لشدة فرحه بنجاحه وانتصاراته .

مات محمد بك ابو الذهب وترك مصر في يد ثلاثة من كبار المماليك

البكوات لانه من عهد أن صارت البلاد في يده الى أن مات كان الباشوات (الولاة) يحضرون ويؤبون من ولي القسطنطينية بدون سلطة ولا نفوذ لانهم لم يكونوا الا عبارة عن العوبة في يد المماليك يمثلون بها عظمة السلطان العثماني ويجعلونه راضياً عن البلاد بسلطته الاسمية وجزيته السنوية . اما المماليك الثلاثة الذين تولوا البلاد فهم اسماعيل بك الذي عهد له حكم البلاد المصرية مدة غياب ابو الذهب في فتوحاته السورية . ثم ابراهيم بك محافظ القاهرة ثم برادبك الذي ارتقى الى وظيفة القائد العام للجيوش المصرية على اثر وفاة ابو الذهب وكل هولاء البكوات كانوا من خدام وعبيد علي بك الكبير وخانوا سيدهم كما تقدم واصل المملوك الاول اسماعيل بك غير معروف اما الاثنان الاخران فمن اصل شركسي .

ولم يمض وقت طويل على هولاء الثلاثة الا وقام النزاع والخصام بينهم فانشقوا على بعضهم بان اتحد مراد وابراهيم ضد اسماعيل بك وبعد مناوشات ومعارك حربية بينهم كانت نتيجة تلك المعارك وقوع التعاسة والشقاء بطرق متعدده لا تحصى على الاهالي الابرياء . ثم قامت معركه هائله هزم فيها اسماعيل وخلا الجو للاميرين الجركشيين . فهجر اسماعيل البلاد ولكنه عاد اليها بعد بضعة شهور بعد أن جدد قواه وهجم على اعدائه فما اكتسب الا انهزاماً ساحقاً في الصحراء الواقعة على مقربة من حلوان . ثم هرب واختفى في احدى المغاور الكائنة في سفح المقطم

وظل مختبئاً فيها ثلاثة ايام اما اعداؤه مراد وابراهيم فنهبا بيته وجميع ممتلكاته وقتلا جميع من في بيته وظلا ينهبان ويسلبان من الاهالي في طول البلاد وعرضها مهزأين بقوة السلطان بدليل انهما قدما اليه التقارير الضافية يثبتون فيها أن الاموال التي تستحق لمصر من الباب العالي تزيد عن الجزية السنوية التي تدفعها له وفي المدة بين عامي ١٠٧٧ و١٧٨٠ م كانت الحكومة الفرنساوية ارسلت المسيو سونيني للسياحة في البلاد المصرية وكان الغرض من بعثته هو اختبار حالة البلاد العلمية والسياسية لان الحكومة الفرنساوية كانت تفكر وقتئذ في الحملة التي ارسلتها بعدئذ بقيادة قائدها العظيم نابوليون بونابرت . ولو أن المستر سونيني كان بلا شك من فطاحل العلماء الا انه عدم خبرة وحالة اخلاقه الشخصية لا تؤهلانه للسياحة والبحث في مصر وفضلاً عن ذلك فانه كان يصدق كل شيء يقال له ولو كان الكلام مما لا يقبل التصديق سيما ما يكون ضد المصريين وعلى الخصوص الاقباط منهم . وكان ذو تحزب شديد ومغرض جداً للمماليك الظالمين المستبدين . ولو انه التزم أن يكتب في تقاريره أن هولاء المماليك هم المسؤلون عن خراب وتعاسة البلاد . وصرف معظم اقامته في مدينة رشيد التي كانت المدينة الوحيدة التي يتمتع فيها الاوروبيون بحرية اكثر من كل بلد اخرى في مصر . اما في القاهرة فبالكد ما استطاع أن يظهر نفسه خارج بوابة حي الفرنساويين بالنسبة لحالة المدينة المزعجه المرتبكه ثم قام في حملة من رشيد الى وادي النطرون . وبعدها قام في حملة

اخرى من القاهرة الى الصعيد مسلحاً بخطاب من مراد بك . [١] وهو متنكر بصفة طبيب فبكل صعوبة بهذه الحيلة امكنه أن يواصل سيره حتى مدينة الاقصر على امل ورجاء أن يصل الى الحبشة عن طريق السودان . ولكن لما انتشبت حرب اهلية في الصعيد التزم أن يعود الى القاهرة . وذكر في تاريخه أن كل الاورباويين في القاهرة يستخدمون البرابرة في منازلهم ما عدا الفرنساويين الذين حذرت عليهم حكومة فرنسا ذلك من عهد ما قتل المسيو دي رول سنة ١٧٠٦ م .

ولما راى السلطان عبد الحميد الذي ارتقى العرش العثماني سنة ١٧٨٤ م أن الجزيه الماليه حتى لم تسدد له من مصر القائم بامرها مراد بك قصد المداخلة في الامر والنظر في هذا التقصير . وما كان يعتني أو يلتفت الى مضايقة مصر العمرانية أو مركز نائبه على مصر الذي اصبح صفرا بل كل عنايته والتفاته هو للحصول على الجزية المالية ولذلك عزم على محاربة

---

(١) ذكر المسيو سونيني في تاريخه عن مصر انه بعد أن طرد اسماعيل بك منفياً احب مراد بك أن يقتل احد اصحاب اسماعيل كان قد التجأ متحصناً في القلعه فاستحضر مهندساً انكليزياً اسمه روبنيسون وطلب منه أن يحرق له القلعه فابى المهندس الانكليزي ذلك وتحجج في اعتذاره أن مثل هذا العمل يحتاج لمارس (آلات ساحقة) وبومب ولا يمكنه استجلاب هذه الادوات من جهة اقرب من مدينة البندقيه . فمراد بك عوضاً عن يقطع رأس هذا المهندس كما كان يظن المسيو سونيني اطلق سبيله واعطاه الف سكوين والسكوين قطعة عملة ذهبية على عصر جمهورية البندقية تساوي خمسة واربعين غرش صاغ مصري

مصر وضربها .

ففي سنة ١٧٨٦م [1] (١٢٠٠) هـ واذا بالجيوش التركيه وصلت الى الاسكندريه بقيادة حسن باشا فلما شعر بها الاميران مراد وابرهيم بك هما الي صدها فقامت بين الفريقين معركة دموية هائلة دارت فيها الدائرة على المملوكين الذين فرا الى الصعيد وتركا حسن باشا سائرا بجيشه الى القاهرة بدون مقاومة [2] فتسليم وخضوع الاهالي الابرياء بكل ارتياح لم يخلصهم بالاسف من بواعث البؤس والتعاسة التي حاقت بهم بطرق مختلفة من جنود الجيوش التركية التي كانت تترك كل بلد تمر عليها خراباً

---

(١) في اوائل سنة ١٧٨٦ كان الباب العظيم لجامع السلطان حسن قد تم بناه وافتتح باحتفال ديني عظيم وهدمت الدكاكين والحائط التي كانت بنيت امامه وقد كان هذا الباب مبنياً من منذ خمسين سنة ولكن لما قتل الاحدى عشر اميرا من طائفة الغفارية سنة ١٧٣٦ م قد حرق القاتلين باب هذا الجامع العظيم ليختبئوا فيه من اعين المنتقمين

(٢) لما علمت الحكومة الروسية أن سلطان الدولة العلية قاصد ارسال حملة حربية الى مصر اوعزت الى قنصلها في الاسكندرية بتعليمات سرية أن تحد محالفة مع البكوات المماليك ضد الدولة العلية . ففي الحال ابتدأ القنصل بفتح المخابرات بين مراد بك وابراهيم بك في هذا الصدد ولكن هذان المملوكان رفضا كل مداخلة اورباوية ظناً منهما انهما كفؤا لمقاومة الدولة العلية وحدهما بعد أن يتما استعداداتهما الحربية لكن لما وصل حسن باشا التركي بجيوشه الى الاسكندرية فجأة كانه قد سبق السيف العزل

بتقهقرها في طريقها الى القاهرة وكان الفلاحون سعداء الحظ في تلك البلاد لانهم هم الذين يتمكنون من الهروب قبل وصول الجيش التركي الى بلادهم راضين بالنجاة بانفسهم مقابل ترك محصولاتهم وممتلكاتهم وزراعاتهم ضحية لتلك الجنود

وقد دخل حسن باشا بجيشه الى القاهرة في اول اغسطس سنة ١٧٨٦م وكانت اول اعماله مصادرة كل ممتلكات المملوكين العاصيين وبيع كل شيء لهما في المزاد العمومي حتى نساؤهما الخصوصية ثم ارسل وراءهما حملة تركية الى الصعيد . وبعد وقوع مذابح دموية عظيمة من الجانبين وخراب الصعيد كله هربا الى السودان . وعادة الحملة التركية الى القاهرة

وقد مكث حسن باشا محتلا البلاد بجنوده مدة سنة اعاد في اثنائها اسماعيل بك الى قوته الاصلية وجعله شيخ البلد . ثم حاكم عدد عظيم من المماليك المشهورين بكثرة المشاغبة في البلاد . وبذا تمتعت القاهرة بالامن في شوارعها طول مدة اقامته فيها . لكن هذه البلاد التعيسة الحظ لم تتقدم للامام الا قليلا جداً بعد هذا النظام الذي اتاه حسن باشا. فقد حل بالبلاد وقتئذ طاعون المواشي بوضع عظيمة اذ قد نفق به كل مواشي القطر المصري تقريباً وقد زاد الحكام الطين بله على الاهالي اذ عوضاً عن أن يخففوا الضرائب مراعاة لمثل هذه الظروف قد زادوها اكثر مما كانت

وقد تألم الاقباط كثيراً وذلك كما هي العادة اذ دائماً يكون لهم القسط الاوفر من كل مصيبة تحل بالبلاد . فانه مع مشاركتهم اخوانهم المسلمين في مصايب طاعون المواشي فان حسن باشا القائد التركي اوجد لهم طريقة اضطهاد منتظمه . وانهم بعد وفاة ابو الذهب قد انقضى فصل راحتهم وهناؤهم واول ما امر به حسن باشا هو اعادة كل القوانين الخبيثة المفسدة القديمة وتنفيذها عليهم كما كانت في العصور الاولى وكان يترقب لهم بل ويبحث عن طريق ينتحل فيه سبباً لمضايقتهم وسلبهم ونهبهم . وانزل كبار الاقباط الذين ارتقوا للمناصب العالية في عصر علي بك الكبير الى وظائف صغرى جداً واضاع قوتهم ونفوذهم . ونهب منازلهم ومنازل اولادهم . واغتصب ممتلكاتهم وهدم (١) عماراتهم . وعلاوه على بعث انواع الاضطهادات القديمة من قبرها لم يكتف حسن باشا بذلك بل اوجد لهم اهانات كثيرة . منها انه اطلق منادين في الشوارع انه لا يجوز لاي قبطي أو يهودي أن يركب دابة على الاطلاق ولا يقتني له عبداً أو جاريه

---

(١) لم ينج من هذا الاضطهاد الا المعلم ابراهيم الجوهرى الذي كان باشكاتب المالية لانه بذكاه جعل نفسه من العموم محترماً في عيني المسلمين والاقباط معاً . ولما كانت احكام البلاد في يد ابراهيم بك ارتقى ثانياً الى درجة عظيمة من المقام وبتأثيره الادبي على الحكام المسلمين تمكن من السماح للبطريرك باعادة بناء الكنائس والاديرة واوهب كثير من اراضيه وامواله للكنيسة القبطية ولما توفى مشي في جنازه ابراهيم بك احتراماً له .

ومن ذلك الحين فصاعداً لا يجوز أن يسمى احد من هذين العنصرين باسم من اسماء الانبياء أو الرسل المذكورين في التوراة وكل من يكون اسمه من هذا القبيل يلزم تغييره في الحال. فغير الاقباط الذين لهم معاملة مع المسلمين اسماءهم باخرى. ومن ذلك الحين صار الاقباط يسمون انفسهم امام المسلمين الذين يعاشرونهم ويعاملونهم باسماء ويعرفون فيما بينهم باسماء اخرى. واما الان فاسم القبطي الاصلي اصبح علماً فقط للعائلة واعظم الاقباط اتخذوا اسماء والقابا تركيه

وقد نفذ حسن باشا بقوة بطشه هذا الامر في ايام قليلة فقط وصار يغتصب كل الجوار والعبيد الذين عند الاقباط اذ صرح لعساكره ان يهجموا على منازلهم ويطردوا بالقوة الى خارجه كل جارية او عبد يجدونه فيه ـ ولا بد ان يكون ذلك درساً طبيعياً خاصاً للاقباط ـ وجمع حسن باشا كل هذا الرقيق في فرقة عظيمة وساقهم الى القلعة حيث عرضهم للمزاد العمومي. واشترى العساكر اغلب هذا الرقيق وجعلوا القلعة سوقاً للرقيق يبيعون فيه العبد او الجارية بثمن فادح لكل من يطلب المشتري.

ثم امر حسن باشا بحصر عدد الاقباط وعدد بيوتهم وكل ممتلكاتهم وفرض عليهم ضريبة ٥٠٠ كيس نقدية يدفعونها للحكومة وزاد عليهم ضريبة الانفس مضاعفه اذ الشخص القبطي الذي كان يدفع ضريبة ديناراً عن نفسه (لا فرق بين رجل وامرأة كبير او صغير) الزمه ان

بدفع دينارين ثم الاقباط الذين كانوا مستخدمين في دوائر كل من مراد بك وابراهيم بك وهما الاميران العاصيان اللذان حضر لتأديبهما قد زاد عليهما الضريبة ضعفاً آخراً. لانه في ذلك الحين كان ذا ثروة واسعة وكل دائرة من دوائر كبار الاسلام لا يستخدم في ديوانه وحصر اشغاله وحساباته الا الاقباط لما هو مشهور عنهم من الاجتهاد والذكاء والامانة ولذلك بلغت ضريبة الاقباط الذي كانوا مستخدمين في دائرتي مراد وابراهيم ٧٥٠٠٠ خمسة وسبعين الف ريال وكان ذلك في زمن البطريرك يوحنا الثامن عشر. الذي لم ينج هو من اضطهاد حسن باشا اذ أمر هذا القائد بضبط خزينته واخذ امواله. ولكن لحسن حظ البطريرك ان السلطان ارسل في خريف سنة ١٧٨٧ م (١) يستدعي حسن باشا من مصر ليقود حمله عسكريه في الحرب بين روسيا والدولة العلية. فقام حسن باشا لاوربا وترك البلاد في يد اسماعيل بك بدون منازع له ولا معارض. لان عبدي باشا الوالي الجديد من قبل الدولة العليا كان وجوده كعدمه. وكانت

(١) في أوائل هذه السنة وقع الاقباط أيضاً في مصائب عظيمة جديدة. وذلك انه تصادف مرور عبدي باشا والي الدولة مع اسماعيل بك في حي من أحياء المدينة تصادف انه لم يمر فيه من قبل فسأل اسماعيل بك وهو راكب بجانبه ما اسم هذا الحي فما كاد اسماعيل بك يجاوبه بأن اغلب هذا الحي مأهول بالمسيحيين الا واصدر عبدي باشا امره بهدم بيوت هذا الحي في الحال فتدارك كبار الاقباط الامر قبل تنفيذ الهدم ووعدوا بدفع ٣٥٠٠٠ خمسة وثلاثين الف ريال دفع السوريون منهم سبعة عشر الفاً والباقي دفعه الاقباط

قوة اسماعيل بك في الحقيقة محصورة جداً في حد معلوم لان الاميرين مراد وابرهيم كانا لا زالان عاصين (١) وواضعين يدهما على صعيد مصر لغاية شمال المنيا

وظلت احوال الضيقات والمرائر والشدائد العظيمة تتوارد بضعة سنين . اذ يقول الجبرتي ان في ذلك الوقت . كان دولاب الاعمال وحركة الاشغال العمومية واقفة بالمرة وكنا نشعر بتعاسة اكثر مما رأينا طول ايام حياتنا . من ذلك ان الطرق تخربت وما كان يوجد نقطة واحدة في أمن من السلب والنهب والبطش بالمارة اذ لو لم تقع تلك المصائب بواسطة الامراء المماليك يمارسها العرب البدو . وهكذا كانت الحال في جميع انحاء القطر اذ لم يكن احد يأمن على حياته او ممتلكاته . وحتى قافلة الحج الى مكة لم تنج من رجال الخطف والنهب. وكان اسماعيل بك يجتهد عبثاً في تقوية مركزه باستجلاب الجنود الالبانية والروملية من بلاد الدولة العليه فان هذه الجنود الغريبه كانت تزيد بزور جديدة في الشقاق والنزاع بين الالايات المختلفه في الجيش

---

(١) يقول الجبرتي في تاريخه انه في سنة ١٧٨٩ وصل لتركيا سفير هندي من قبل السلطان حيدر الهندى يطلب من سلطان العثمانيين مساعدته في حربه ضد الانكليز في الهند فقال له السلطان عبدالحميد ان يذهب الى مصر ويطالب رجال القرعة منها . ويقول الجبرتي لما حضر هذا السفير الى مصر وصار يعمم الذين يريدون التجند معه لم يتبعه كثيرون من المصريين كما كان ينتظر

وفي اوائل ربيع سنه ١٧٩١ م (١٢٠٥ هـ) اصيبت البلاد بوباء عظيم لانه كان كثير الوقوع في هذه البلاد التعيسه في بحر العصرين السابع عشر والثامن عشر. وقد مات اسماعيل بك بالوباء بين الالوف الذين ماتوا به. فبموته خلى الجو لرجوع الاميرين مراد وابراهيم الى القاهرة وكان قد اختلف الامراء الباقين بالقاهرة فيما بينهم على من منهم يخلف اسماعيل في امارة البلاد. فدخل الاميران مراد وابراهيم القاهرة في يونيو أو يوليو من تلك السنه واعترف بهم الباقون والشعب انهما اسياد البلد الاصليين واصبحا حاكمي البلاد ثم رأيا ان عائليتهما هلكتا وممتلكاتهما قد يمت ووضعا ايدهما على ممتلكات الامراء الذين ماتوا بالوبأ وتزوجا بارملاتهم وحازا عبيدهم وجواريهم . وأمرا الجنود السوريين والالبانيين الذين استحضرهم اسماعيل ان يغادروا البلاد حالاً في ظرف ثلاثة ايام.

وفي تلك السنة ايضاً لم يرتفع فيضان النيل لدرجة تذكر بالمرة فعجز محصول البلاد عجزاً عظيما وكان ذلك زيادة تعاسة وشقاء للاهالي. فصار مراد بك وابراهيم بك يطوفان شوارع المدينة ويقبضون على التجار الذين يبيعون الغلال باسعار فاحشة للاهالي تخفيفاً لاحوال المجاعة فلم يجد ذلك نفعاً لانه بعد أن يذهب الاميران الى سبيلهما من امام التاجر يعود لبيع الحبوب باسعار فاحشه جداً. اما الاميران فقد خزن لانفسهما اشوانا ملآنه بالغلال من الوجه القبلي لكن كانت هذه الغلال مخزونة في منازلهم ولا يفرطون للبيع أو للتصديق منها للاهالي الذين يموتون

جوعاً . ولذلك يقول الجبرتي سادت في طول البلاد وعرضها احوال الظلم والاستبداد وعدم العدل .

وفي سنة ١٧٩٣ هجم العرب مرة ثانية على قافلة الحج وقتلوا اغلب الحجاج ونهبوا ما يملكون . فقامت ثورة عامة من المصريين على الاميرين لانهما لم يقوما بايقاف ذلك العدا فانقلب عليهما المصريون عموماً مسلحين وغير مسلحين ولم يتمكن الاميران من الخلاص من هذه الثورة الا بعد أن استكتبا كبار مشايخ الاسلام باتمام اصلاح طريق الحج وتامينه على الحجاج ووضع حد لتلك السرقات والنهب والسلب ويرسلا المرتبات المعتاده الى مكه حتى لا يعد للعرب سبيلا للاعتدى على الحجاج . ولكن بالاسف لم يدم العمل بهذا القرار الا مدة شهر فقط وعاد بعده السلب والنهب اكثر مما كان اولا . وكانت حالة مصر الاجتماعية في نهاية القرن الثامن عشر اردأ من كل حالاتها في القرون التي تقدمت هذا القرن من بعد الفتح الرومانى . اذ اندثرت صناعتها وكسدت تجارتها وانتكست حالتها الى حالة الهمج والبربرية التي ذهبت بتمدن السودان وذهبت ايضاً بارض مصر الخصبه وتمدن مصر التاريخي ولكن بفضل الاوروباويين الذين كانوا فيها وقتئذ وبفضل تعضيدهم بالامتيازات الدولية التي لدولهم تمكنوا من استبقاء شرارة الحياة التجارية الضعيفه التي كانت باقيه لمصر لانهم لم يكونوا غير مرتاحين لتلك الحالة الآيلة الى الدمار . وان الفرنساويين الذين كانوا وقتئذ يحلمون بغزو وفتح بلاد كل العالم نسوا أن الفرصه تمد لاحت

والوقت قد دنى في احتلال مصر

الفصل الحادي والسبعون

دخول الفرنساويين

سنة ١٧٩٨ مسيحية و١٥١٤ للشهدا و ١٢١٢ للهجرة

وصل بونابرت العظيم الى مرفأ الاسكندرية في اول يوليو سنة ١٧٩٨ بسبعة وثلاثين الفاً من رجاله ولما رسى بدراعته خارج المرفأ أرسل قارباً لداخل المنيا يستقدم فيه القنصل الفرنساوي للمداولة معه قبل الابتداء في اعماله الحربية . فلما ذهب اليه القنصل اخبره انه في ٢٨ يونيو اي قبل وصوله بيومين كان الانكليز تحت قيادة نلسن هنا في مياه الاسكندرية يحثون على أسطول الفرنساويين . ولما وجدوا انه لم يشعر بهم احد في الاسكندرية اقلعوا مسافرين ثانياً للبحث على الفرنساويين في بحر الروم . ومع ذلك مدة وقوف الاسطول الانكليزي في مياه الاسكندريه كان تمكن الاميرال نلسون في الاسكندرية من مقابلة السيد محمد كريم محافظ القاهرة وحذره من الخطر القادم المحدق به من الفرنساويين . ولكن حكام مصر المسلمين لارتكانهم واتمامهم وهي

الخلة المتولدة فيهم من الجهل بتقدير الاحوال والظروف قد رفضوا كل محالفه او مساعده من جانب الانكليز

اذ قال محافظ القاهرة ومن كان حاضراً معه في الاسكندرية من الحكام المسلمين للاميرال نلسون ان البلاد ملك السلطان فلا يمكن للفرنساويين أو غيرهم أن يمسوها بشيء . فما كان من الاميرال الانكليزي الا انه انسحب من الاسكندرية باسطوله . ثم ارسل السيد محمد كريم الى القاهرة يخبر رجالها بما كان . فقوبل هذا الخبر هناك بذات الاحتقار وعدم التصديق الذي قوبل به في الاسكندرية . وصار الامراء يتباهون مفتخرين بعظمتهم الفارغة جهراً امام الناس قائلين ان كل الاوربا ويين عموماً لا يمكنهم الوقوف امامهم لحظة واحدة في ميدان القتال وان واجهوهم في معركة لا يكون نصيبهم الا السحق فقط تحت حوافر خيولهم (خيول الامراء)

وبعد سفر نلسون بثلاثة ايام ظهر الاسطول الفرنساوي في مينا الاسكندرية لاعين الناظرين . فاندهش حاكم الاسكندرية وأرسل رسالة مستعجلة مختلفة المعنى كثيراً الى مراد بك بالقاهرة يقول له فيها (مولاي: ان الاسطول الذي اقترب لنا تماما اراه كثير العدد جداً وغير ممكن معرفة اول بوارجه الحربية من اخرها فاستحلفك بالله ونبيه أن ترسل لنا بعض رجال من جيشك .)

فلما وصلت هذه الرسالة الى مراد بك ركب وتوجه تواً الى منزل

زميله ابرهيم بك (وهو مستشفى القصر العيني الآن) واخبره بما كان فعقدا مجلساً منهم اومن رجال الحكومة . فصرفوا وقتاً طويلاً في لوم واتهام بعضهم بعضا في اهمالهم لوصول الخطر لهذه الدرجة واخيراً اتفقوا على ان مراد بك يقود جيشه ويسير به متجهاً نحو الاسكندرية على شاطىء النيل الايسر ليقابل جيش الفرنساويين وابرهيم بك يحتل بولاق بجيشه ويحفظ معه قوة عظيمة للدفاع عن القاهره اما ابو بكر باشا الطرابلسي والي الدولة العلية ارسل رسولاً سريعاً الى القسطنطينية يطلب المدد .

وفي اثناء ذلك كان مركز جميع المسيحيين في القاهرة اورباويين ووطنيين حرجاً جداً وحياتهم في غاية الخطر . وذلك لان المسلمين اجتمعوا في ديوان الحاكم وقرروا ان اول الوسائط التي يتخذوها عند اقتراب الفرنساويين هي قتل كل مسيحي في القاهرة في مذبحة عمومية . وقليل من المسلمين الذين كانوا يعرفون سوء عاقبة هذه السياسة وصعوبة هذا العمل الفظيع في مثل هذه الظروف ولكن كان الامير ابرهيم بك اكثر تودداً للمسيحيين من زميله مراد . فوعد بالاستمرار على حمايتهم وحافظت زوجته على كثير من العائلات الاورباوية . اما الاقباط فكان المسلمون يسبونهم ويلعنونهم كل يوم بطريقة علنية ويهددونهم بالذبح والنهب في اول فرصة . ثم هجم المسلمون على كنائسهم واديرتهم ومنازلهم بالسلاح ويقول الجبرتي انه بكلمة واحدة من الحاكم المسلم اصبحت كل البلاد المصرية في لحظة واحدة مسرحاً للسرقات والمذابح بعد ولا يحدى

ونزل بونابرت بجيوشه الى البر في الاسكندرية بدون ادنى مقاومة ولا كفاح . وتسلقت جنوده في الحال اسوار الطوابي المتهدمة وحصنتها تحصينا تاما جعلتها امنع من العقاب .

اما الحكام المسلمون فظلوا داخل تلك الطوابي يقذفون النيران من فتحاتها مدة قليلة ولكنهم سلموا للفرنساويين بعد ظهر ذلك اليوم بلا شرط ولا قيد وتركوا امرهم للمنصورين عليهم يفعلون بهم ما ارادوا لكنهم ما فعلوا بهم الا خيراً .

اما السيد محمد كريم فسلم نفسه لبونابرت بعد أن تيقن بفشله وخذلانه فعينه حاكماً اهلياً للمدينة تحت امرة القائد كليبر الذي تركه بونابرت مع ثلاثة آلاف محارب بصفة حامية للاسكندرية . وتأسس في الحال مجلس بلدية مؤلف من بعض الاعيان وكبار التجار وانزلت المطابع من السفن الى البر وجهزت لطبع الاعلانات والمنشورات والقوانين والاوامر باللغة العربية وهي التي كان يصدرها نابوليون بونابرت مدة اقامته في القطر المصري . وكان معنى تلك المنشورات تقريباً من معنى واحد وملخصها الحض على مساعدة المصريين المهضومي الحقوق كي يتنفسوا الصعداء وتحريض الطبقة الواطية من المصريين للقيام بمساعدة منقذيهم (الفرنساويين) من الاستبداد وجور المماليك . وبهذه المنشورات أيضاً تأكيدات عظيمة بان الفرنساويين هم في الحقيقة ونفس الامر مسلمون حقيقيون وبها ايضاً تهديدات بالعقاب الصارم الذي

يقع على من تظهر عليه اقل مخالفة أو معارضه (١) . وقد تكلم بالتفصيل اتنام عن هذه المنشورات الثلاث المؤرخون العظام الذين كتبوا عن الاحتلال الفرنساوى لمصر وهم المستر ريم في كتابه (مصر الفرنساوية) وعبد الرحمن الجبرتي في كتابه (تاريخ مصر في عصر الفتح العثماني) والمستر بانون في تاريخه (تاريخ الثورة المصرية)

وقد برح بونابرت مدينة الاسكندرية في ٧ يوليو من تلك السنة زاحفاً بجيشه الى الرحمانيه وقد تعب رجال جيشه جداً من العطش وشدة الحرارة طول ذلك اليوم — ولما وصل الرحمانيه ارسل الجنرال دوجوا مع اورطة من الجيش الى رشيد لحماية الاوربيين هناك الذين كانوا في خطر عظيم . وبعد وصول الجنرال المذكور لرشيد ونجاحه في مأموريته استأنف بونابرت السير بجيشه زاحفاً الى القاهرة فكانوا كلما مروا على قرية وجدوها خربة خالية من السكان الذين كانوا بمجرد شعورهم باقتراب

---

(١) من اعظم غلطات نابوليون في السياسة اعلانه عن نفسه انه مسلم ومصادقته للمسلمين بمجرد وصوله للديار المصرية — فانه لم يصدقه أي فرد من المسلمين في اعترافاته بالاسلام بل ادى هذا الاعتراف الى أن المسلمين مزجوا رعبهم من الفرنساويين بنوع من الاحتقار — وكان هذا الاعتراف بالاسلام من نابوليون نازعاً ثقة المسلمين خاصة في كل ما يختص بالفرنساويين وهادماً كل الثقة والامانة في عموم الافرنج وهذا الاعتقاد من المسلمين كان لنا اول مساعد ذو قيمة عظيمة في معاملتنا للشرقيين ومن اعظم زلات نابوليون ايضاً الزامه كل الخاضعين له بلبس الوردة الحريرية المثلثة الالوان .

الفرنساويين يحملون كل ما يمكنهم حمله من ذخائرهم ويهربون هائمين على وجوههم وقد صادف جيش بونابرت صعوبات والآم قاسية جداً لشدة احتياجه للمؤونة .

وتقابل الفرنساويون عند شبرابيس بمراد بك ومعه ٤٠٠٠ من المماليك الراكبين ووقعت بين الطرفين موقعه هائلة انتهت بانهزام مراد بك وانسحب متقهقراً نحو القاهرة تاركا مدافعه وذخائره الحربية في طريقه . وانتقى له موقعاً في امبابه وحصنه جيداً عند ضفة النيل وجاء ابراهيم بك امامه في الضفة الاخرى من النيل عند بولاق وبنى له حصناً حربياً منيعاً ومكثا ينتظران العدو وصده عن الدخول للمدينة .

وفي ٢١ يوليو وصل الجيش الفرنساوي الى امبابه وابتدأت المعركة العظمى في ذات اليوم بين الفرنساويين والمصريين وكانت تلك المعركة الهائلة هي القاضيه على حظ مصر — وقد ابلى المماليك في هذه المعركه بلاء حسناً ولكن رجال جيشهم كانوا غير محصورين داخل النظام العسكري بل كانوا يحاربون كأنهم في جهاد بدون اتباع تعليمات قوادهم وبالاجمال فان محاربتهم كانت غير منتظمة كالاحوال الحربية من بدأ اشتباكهم مع الفرنساويين — وبعد اشتداد المعركة بين الطرفين بضع ساعات هرب مراد بك متقهقراً وتبعه من معه من المماليك ووقف بضع ثوان امام قصره في الجيزه حيث تمكن من اخذ امواله وذخائره وكنوزه وهرب الى الوجه القبلي مسرعاً بدون انتظام . لانه علم أن المماليك الذين تركهم في

وجه الفرنساويين في امبابه قد وقعوا في مذبحة عظيمة وكثيراً منهم اغرقهم الفرنساويين في النيل ولكن اغلبهم ذبحوا كالاغنام في وسط المعركة . ولما سمع ابراهيم بك بضياع كل شيء ترك حصنه في بولاق وفر هارباً مع بكر باشا الى القاهرة .

وكان الرعب قد اخذ ماخذه في قلوب جميع سكان القاهرة وهرب من يقدر على الهروب الى الوجه القبلي وتضاعفت اجر دواب النقل التي يؤجرها القوم في حمل اموالهم وذخائرهم . وفي يوم السبت كان طيار الفارين والهاربين جارفاً جداً ولكن مع الاسف ما كاد يصل اولئك المنكودي الحظ الى بوابات المدينة الا وصادرهم العرب البدو وانقضوا عليهم انقضاض الباشق على العصفور بايعاز من ابراهيم بك الذي استدعاهم لهذا الغرض بل كانوا يسلبون الاموال والذخائر والكنوز من اصحابها ويمزقون ملابس النساء ويصيرونهن عرايا بعد مس كرامة معظمهن وكان يقع ذلك حتى لنساء الطبقات العليا من المصريين وكل من يبدو منه ادنى علامة للمعارضة أو المقاومة رجلاً كان أو امرأة ذبح ذبحا اما الذي يمكنه أن يعود ثانياً الى منزله داخل المدينة فانه يعد نفسه سعيداً بنجاته من ايدي اولئك السالبين . ويقول الجبرتي (في كل تاريخ مصر لم ير السكان ليلة ارعب واكثر هولاً وفزعاً من تلك الليلة . ومن ترتعد فرائصه لسماعه بتلك الاهوال فكم تكون احواله متى شاهدها)

دخل الفرنساويون القاهرة يوم الاثنين واتخذ بونابرت له مركزاً في القصر الذي كان بناه حديثاً احد الامراء في الازبكية . واشتغل بونابرت في هذا المركز بتأسيس ديوان لحكومة القاهرة مثل الديوان الذي اسسه في الاسكندريه . وعين الجنرال ديبوي رئيس الديوان بصفة محافظ للقاهرة . وعين الجنرال بوسلين مديراً عاماً للمالية المصرية . وكان رجال ذلك الديوان مؤلفين من اثنين من كبار المشائخ من سلالة عربية مصرية وثلاث مماليك انتخبهم هذان الشيخان واثنين افرنج من مستوطني الديار المصرية قديماً . وكانت اول اوامر بونابرت لهذا الديوان فرض تحصيل ٥٠٠٠٠٠ خمسماية الف ريال من الاهالي لسد حاجيات الجيش الفرنساوي — وقد سمح لرجال جيشه بنهب منازل المماليك اما جميع المصريين الذين كانوا يخافون أن يسلبو كالمماليك كانوا يحصلون على بارآت الحماية من بونابرت ويعلقونها على ابواب منازلهم فلا تمسها ايدي السالبين . اما الامن العام فكان عظيم جداً بدرجة لم تشاهدها مصر من اجيال مضت . وفرض بونابرت غرامات وعقابات صارمة على الاهالي الذين لا يكنسون ويرشون الشوارع ويضيئون القناديل على ابواب منازلهم . ورفع كل البوابات الخشبية الكبيرة التي كانت مستعملة من مدة جيل أو اثنين لتغلق على كل شارع أو حارة فتجعله مستقلا عن باقي شوارع المدينة — وهو حذر عظيم من الاهالي وقت حكم المماليك — وقصد بونابرت من رفع هذه البوابات هو أن ينفذ الشوارع على

بعضها فيتمكن بذلك رجال الطوافه من الحامية الفرنساوية من اختراق كل الشوارع ليلا حفظاً للامن وتعين المسيو م . سامويل برنارد ناظراً للضربخانة المصرية واستمر صك النقود على الطريقة القديمة العاديه وعليها طغراء السلطان العثماني الحاكم .

وبعدئذ ارسل بونابرت القوة اللازمة من جيشه للبحث على ابرهيم بك الذي هرب من امامه بمن معه من المماليك الى الوجه البحري . فاشتبكت القوتان في معركة هائلة كان النصر فيها حليف الطرفين وان كان كل منهما يطلب النصر لنفسه واخيراً فر ابرهيم بك في اغسطس الى سوريا والتجأ الى الجزار في عكا

واتفق انه في اول اغسطس رجع الاميرال نلسون الى الشواطئ المصرية مقتفياً اثر الفرنساويين — والقت بوارجه الحربية مراسيها بالقرب من خليج ابو قير — حيث كان راسيا الاسطول الفرنساوي

وفي غروب شمس ذلك اليوم ابتدأت معركة ابو قير البحرية الشهيرة وظلت حتى ظهر اليوم الثاني من اغسطس الى ان انتصر نلسون على الفرنساويين بعد ان حطم كل بوارجهم الحربية ولم يبق منها الا اربعة اصبحت اسيرة للاسطول الانكليزي

ووقع خبر انهزام الاسطول الفرنساوي وتحطيمه كالصاعقة على كل فرنساوي في مصر . وبذل بونابرت جهده ليخفف من اهمية الامر على عقول الاهالي ولما علم بان احد السوريين الذي تجرأ على قول الحقيقة عن

الاسطول عاقبه عقاباً صارماً — ولكن شعر المسلمون وعلموا رويداً رويداً بحقيقة الامر وقبل مضي شهرين على ذلك اقاموا ثورة هائلة في القاهرة . وفي الواقع ان فضائل الفرنساويين كانت ضد اميال المصريين بقدر ما كانت رذائلهم . ولذا اجتهد المصريون باغرا وتحريض كل طبقات الامة في جميع انحاء القطر ضد الفرنساويين — اما المماليك فكانوا طبعا اعداءهم الالداء — كذا العرب والمسلمون المصريون استقبحوا امر اسلام الفرنساويين الكاذب — وتذمروا جداً من النواهي والمحذورات البيروقراطية المقضية التي لا يمكن لفرنساوي ان يحكم بخلافها — وسخطوا على الاوامر والتعليمات الصحية التي قضت بتفتيش المنازل الخصوصية حتى اماكن الحريم — وزادهم سخطا وحنقا امر الترخيص للجنود الفرنساوية بهتك اعراض النساء الوطنيات (١)

اما الاقباط فلم يستقبحوا فقط اعتراف الفرنساويين الكاذب بالاسلام بل ايضاً لم يغشوا ضمائرهم باعتقادهم امكان بقاء امة عظيمة كالامة الفرنساوية بلا ديانه بالمرة كما كانت هذه حالة الفرنساويين تلك الايام . وكان الاقباط يلقبون الفاتحين بالقوة الكاثوليكية

(١) لم يدهش المصري اعجاباً في وقتنا الحاضر اكثر من كيفية سلوك جنودنا الاحتلالية في هذا الامر — وهو تقريباً الامر الوحيد الذي لاجله جميع سكان القطر المصري يمدحون الانكليز حتى انهم يقولون (انهم حتى لا يثقون بالعسكري المسلم المستقيم ثقتهم بالعسكري الانكليزي)

الرومانية وهي القوة التي كانت تجتهد دائماً بضياع بلادهم ووطنيهم .

اما سبب الثورة التي قامت ضد الفرنساويين في ٢٢ اكتوبر سنة ١٧٩٨ فكان الداعي فرض جزية على المنازل بالقاهرة بامر نابوليون . ذلك أن مشايخ وعلماء الازهر كلفوا تلاميذهم بدعوة جميع المسلمين الى الجامع الازهر — فلما اجتمعوا كلهم وخطب العلماء في وسطهم خطب التحريض هبوا جميعا في ثورة عامة وكان اول هجومهم على منزل الجنرال كفاريلي — ثم اقاموا المتاريس والحواجز في الشوارع وصار يقبضون على كل الفرنساويين المارين في الشوارع ومن ضمنهم اربعة من اعضاء المجلس العلمي الفرنساوي وحكومة بونابرت وذبحوهم جميعا عن اخرهم وبالمثل ذبحوا كثيراً من الاقباط — بهذه الطريقة — ولكن اولئك المسلمون الجهلاء الاوباش ما امكنهم التحفظ على الرواني والمتاريس الحربية التي ملأت المدينة من الشمال والشرق فانهم في اليوم الثاني صاروا يتنفضون تحت المدافع الفرنساوية وصدرت الاوامر للمشايخ يطلبون منهم ارشاد الثائرين للخضوع فقابل اولئك الثائرين تلك الاوامر بالاحتقار فصدرت اوامر بونابرت بالابتداء في اطلاق القنابل

وبعد اطلاق القنابل بشدة بضع ساعات خصوصا على الجامع الازهر واحياء سيدنا الحسين تنازل عناد الشيوخ وسلموا . فدخل الفرنساويين المدينة وهدموا المعاقل والحصون والمتاريس واحتلوا الجامع الازهر وادخلوا فيه خيولهم وجعلوه كالاصطبل بل كسراو القناديل

ومحوا الايات القرآنية المنقوشة على جدران الجامع وقبضوا على كثيرين من العوام والخواص وقطعوا رؤوس كثيرين من الطبقات الوسطى وكتب بونابرت نفسه في خطاب خصوصي للجنرال رينيه انه في تلك الظروف كان كل ليلة يقطع ثلاثين راساً من اجسامها ارهابا لباقي الثائرين

وكان الجنرال ديسيه قد قام بامر بونابرت في فرقة من الجيش مقتفياً اثر مراد بك في النيل حيث كان مقيما عند الفيوم يجدد قوته الحربية فوقعت بينهما اول معركة في ٨ اكتوبر عند جهة يقال لها سدمنت الجبل بقرب مدينة بني سويف انتهت بانهزام مراد بك انهزاماً تاماً وخسر الفرنساويين ٤٠٠ قتيل وجريح . واحتل الجنرال ديسيه اقليم الفيوم وترك فيه حامية من رجاله وكر وراء مراد بك مقتفيا اثره في صعيد النيل الى أن عثر به ووقعت بينهما معركة شديدة في ٢٣ يناير سنة ١٧٩٩ هزم فيها ايضاً مراد شر هزيمة وفر هارباً ووراه الفرنساويون يطاردونه الى أن احتلوا حدود مدينة اصوان فاستمر مراد في هروبه الى أن دخل بلاد النوبة فاكتفى الفرنساويون بمطاردته لهذه النقطة ولم يتوغلوا وراه في النوبة ولو انهم احتلوا جزيرة انس الوجود وحصنوا اصوان وعند عودتهم الى القاهرة قابلهم احد البكوات المماليك الهائمين في عرض البلاد مع كثير من من اتباعه ووقعت بين الطرفين عدة مناوشات عنيفة في مدينة طيبة (الاقصر)

وفي اثناء ذلك كان الفرنساويون مطمئنين بالمرة على ثبات مركزهم بمصر الا أن الانكليز سدوا عليهم الطريق باحتلالهم جميع الشواطي المصرية فمنعوا بذلك اي مدد يأتيهم من بلادهم وعلاوة على ذلك فان الاتراك كان يستعدون لاعادة مصر لقبضتهم بواسطة الزحف عليها من طريق سوريا فعزم بونابرت مبدئياً أن يكون بجانبهم

وحوالي اخر يناير سنة ١٧٩٩ غادر بونابرت الديار المصرية عن طريق العريش ومعه ١٥ الف جندي ولما سار الى العريش ضرب اهلها فسلموا له بعد مقاومة بضع ايام واعاد حامية المماليك الذين كانوا فيها الى القاهرة ووصلوا تلك العاصمة اسرى وتفرج عليهم كل اهلها . ثم ظل نابوليون سائراً في طريقه الى يافا فهجم عليها وامتلكها في ٥ مارس سنة ١٧٩٩ فاختبأ من حاميتها ٤٠٠٠ محارب في خان بها ثم عرضوا تسليم انفسهم اليه على شرط حفظ حياتهم والا يستمروا في المحاربة دفاعاً عن انفسهم حتى يموتوا في ساحة الوغى — فقبل الفرنساويون هذا الشرط وقدموا الاربعة الاف رجل اسرى الى بونابرت فرفض امضاء هذا الشرط الذي قبل به اركان حربه مع تفهيمهم له أنهم قبلوا ذلك الشرط تجنباً من اجراء مذبحة بلا فايدة وبعد يومين امر بونابرت بذبح الاسرى المذكورين فذبح رجاله الاربعة الاف اسيراً ذبح الانعام فكانت مجزرة هائلة تقشعر منها الابدان على شاطيء البحر . وكان هذا العمل الفظيع مشوها التاريخ بونابرت بين جميع الشعوب

وقد هدم بونابرت بعمله هذا الفظيع كل اساطير نجاحه في سوريا لان كل مسلم في بلاد سوريا سمع بحادثة يافا هذه صار يفضل أن يحارب مستقتلاً ويموت في ساحة الحرب عن أن يسلم نفسه للفرنساويين وعلاوة على ذلك فان الاربعة آلاف جثة التي تركها بونابرت على شاطىء البحر بدون دفن قد انتنت وافسدت الهواء فسببت انتشار الطاعون انتشاراً هائلاً اكتسح عدد عظيم من رجال الجيش الفرنساوي .

وسار بونابرت الى عكه قاصداً فتحها بمن سلم من رجال جيشه من الطاعون — ولكن صار في شدة الاندهاش لما وصلها ورأى في مياهها اسطولا انكليزيا مستعداً للدفاع عنها . فابتدأ في محاصرتها يوم ١٨ مارس سنة ١٧٩٩ ولكن ذهبت كل تدبيراته في اخذها ادراج الرياح لان السير سدني سميث ومن معه من الضباط الانكليز بذلوا كل جهدهم في الدفاع عن المدينة . ثم تقدم الجنرال سدني سميث قائداً بنفسه الجيوش الانكليزية واشتبك مع الفرنساويين وبعد نزال قليل خلص المدينة من ايديهم بعد أن استمروا في محاصرتها مدة شهر تقريباً وقد هجم الفرنساويون نجاة عليها في اليومين الاخرين من الحصار فخسروا مالا يقل عن ٧٠٠ رجل . فايقن بونابرت بذلك أن حملته على سوريه عادت بالفشل وصمم على العودة الى مصر — فارسل جواباً الى ديوان القاهرة الذي اسسه اعلن به انه لم يترك حجراً على حجر — لكن رجال القاهرة كانوا على علم تام باحوال بونابرت وما جرى له حتى أن مؤرخهم المشهور عبد الرحمن الجبرتي

ضحك كثيراً على جواب بونابرت وعدد ستة عشر سبباً كان يمكن لبونابرت أن ينتحلها عذراً لتقهقره من عكا لو كان توخى قول الحق في جوابه للمصريين

تقهقر الجيش الفرنساوي بانتظام الى يافا لكنه صادف في طريقه صعوبات هائلة — لان يافا كانت ملآنة بالطاعون وزاد عدد المرضى والجرحى حتى اصبح من المستحيل على بونابرت ايجاد وسائط لنقلهم معه — واخيراً فرز عدداً عظيماً من الغير القادرين على المشي منهم وشحنهم في قوارب وامرهم بالسفر الى دمياط بحراً — وسار هو ومن معه براً الى العريش ولكن اولئك الذين تركهم في البحر لما لم يكن عندهم من الماء والمؤونة ما يكفيهم ولعدم وجود البحارة القادرين على تسيير القوارب بحراً اضطرهم اليأس أن يتجهوا نحو بواخر الاسطول الانكليزي الذي كان راجعاً ايضاً من عكا الى مصر مقتفياً اثر بونابرت . فاستقبل السير سدني سميث هولاء البؤساء بكل رقة وحنو وانزلهم في بواخره الحربية على الرحب والسعة وامدهم بكل ما كانوا في حاجة اليه وارسلهم بالحرس اللازم الى دمياط

اما المرضى الذين تركهم بونابرت في يافا فقد امتلات بهم المستشفيات وقد كتبت عليهم التعاسة والشقاء . ذلك انه لما اقترب الترك بجيوشهم كانوا ولا يزالون غير قادرين على المسير فلاضطرار نابوليون الى التقدم السريع الى مصر امر رئيس اطباء الجيش ان يسم كل الجرحى ليموتو

او يخلص منهم ويفر مسرعاً الى مصر فابى الحكيمباشي تنفيذ هذا الامر بالكلية والى الآن لم يثبت لنا التاريخ ان كان مساعد الحكيمباشي نفذ امر بونابرت وسم الجرحى الفرنساويين أو ان الاتراك ذبحوهم عن اخرهم ثاني يوم وصولهم الى يافا

وفي ١٤ يونيو دخل بونابرت القاهرة دخول الفاتح القاهر وعمل لنفسه موكباً عظيماً — بالموسيقي والاعلام — وذكر الجبرتي في تاريخه ان الجنود الفرنساويين كانوا جميعاً في غاية التعب والخوار ووجوههم يعلوها الاصفرار وهو ما تؤيده القرائن كلها

ولما دخل بونابرت القاهرة كان مراد بك قادماً اليها من الصعيد ايضاً بعد أن الف جيشاً عظيماً وقسمه الى قسمين احدهما على شاطيء النيل الشرقي والاخر على الشاطيء الغربي . بينما كانت قوات انكلترا والداولة العلية قادمة بحراً للجهوم على الفرنساويين في مصر . فأسرع بونابرت واشتبك في معركة كبرى مع المماليك وانتصر عليهم . وقد كان مراد بك عازماً على ضم جيشه الذي على شاطيء النيل الشرقي الى جيش ابراهيم بك في سوريا — فجاء انتصار نابوليون ضربة قاضية ووقع في يد الفرنساويين ٧٠٠ جمل محملة بالذخائر وكنوز المماليك الذين تفرقوا بعد هذه المعركة شذر مذر في كل جهة من البلاد .

اما القسم الثاني من جيش مراد بك الذى كان يقوده بنفسه على الشاطيء الغربي من النيل قاصداً الوصول به الى شاطيء البحر عند الاسكندرية ولكنه

لما عرف أن قوة عظيمة من الفرنساويين كامنة له في الطريق عدل عن عزمه وعاد بجيشه الى الجيزة حيث هجم عليه نابليون نفسه بقوة من رجاله وهزمه شر هزيمة فاضطر ان يفر هاربا ثاني مرة الى الصعيد .

وفي ١٥ يوليو سنة ١٧٩٩ سمع نابوليون باقتراب الاسطول العثماني من ابو قير فقام في الحال بجيشه لملاقاته ووصل الاسكندرية في ٢٣ منه فوجد الجيش العثماني قد نزل من المراكب الى البر . وكان السير سدني سميث مرافقاً للعثمانيين باسطوله وقد نصحهم بكل انواع النصح أن يحصنوا مركزهم جيداً ضد الجيش الفرنساوي القادم بسرعة من القاهرة فلم يسمعوا نصحه فاضطر الى ارسال بعضا من جنوده ليعززوا هذا التحصين ويكونوا مثالا للجنود العثمانية فلم يات ذلك بفائدة ولم يمكنه بهذا الصنيع أن يتغلب على جمود وفتور همة العثمانيين - فلما وصل الفرنساويون بدأ الاتراك بالاهتمام لتحصين موقعهم ولكن قد سبق السيف العزل واشتبك الفرنساويون معهم حالا في معركة هائلة كان النصر فيها حليف نابوليون حيث هزم العثمانيين شر هزيمة واستولى على مهماتهم وزخائرهم ومدافعهم وهرب كثير من الاتراك عوماً في البحر ولجأوا الى المدرعات البريطانية . اما الترك الذين كانوا داخل طابية الاسكندرية فرفضوا التسليم للفرنساويين وصرفوا وقتهم في الدفاع وبعد محاربة سبعة ايام باطلاقه المدافع خرجت الحامية من الطابية بلا سلاح وسلمت للفرنساويين وطلبت منهم الرحمة . فامر نابوليون الفح

فرنسها وأسكرته خمرة هذا النصر ولكنه مع الاسف لم يدم طويلاً حيث لحقه الخزلان في اليوم نفسه كما ترى ---

ذلك ان نابوليون كان قد سمع اخباراً غير حميدة عن الجمهورية الفرنساوية في نشأتها الحديثة واراد الوقوف على اخبار اكيدة يعلم منها الحقيقة ويطمئن بها على بلاده . وقد قال المسيو ريم المؤرخ ان نابوليون اتفق مع السير سدني سميث على مبادلة الاسرى . وهذه هي عبارة هذا المؤرخ الفرنساوي القلة على سوء تصرف نابوليون وتسرعه في الحكم على الامور قبل فحصها قال :

« لم يكتف السير سدني سميث الانكليزي بقبول طلب نابوليون فقط بمبادلة الاسرى بل اكرم مثوى الضباط الفرنساويين الذين اتوا له حاملين اقتراح مولاهم نابوليون وعاملهم بكل رقة وعطف وعرض عليهم ان يأخذوا كل الجرائد والمراسلات المتأخرة التي صادرها اثناء ورودها للقائد العظيم بونابرت من فرنسا لانه قال لهم انه واثق ان لا الضباط ولا خواص الفرنساويين في الجيش الفرنساوي يحزنون أو يستأون باستلامهم انباء واخبار وطنهم الذين مضى عليهم زمناً طويلاً وهم متغربون عنه . قال المسيو ريم ايمكننا في مثل هذه الظروف ان نقول بان بونابرت تسرع في قبول تقدمة كان يرجو أخذها ؟ أو من الضروري القول بان عدونا أخفى لنا خدعة حربية تحت طبقة شفقته وهي التظاهر بالعطف على رجالنا واظهار حسن نيته ؟ لماذا رغب الجنرال سدني سميث اذاً في ايصال

اخبار اوربا لنا لو لم يكن قد سبق له العلم بفاجعة فرنسا المشؤومة . وهو لم يمني نفسه بالسرور الخبيث والانشراح الحقدي بحزننا وما يجب ان نشعر به من الاسف نحو حالة بلادنا فقط بل عرف ايضا علاوة على ما تقدم ان تلك الجرائد التي يقدمها لبونابرت ستهيج اعصابه وتوجد عنده رغبة شديدة نحو سرعة ايابه لاغاثة وطنه وبهذه الرغبة الفجائية يعتبر بونابرت نفسه سعيداً بمبارحة مصر حالا ولو بشروط صلح وتسليم »

« فيالها من سعادة لسيدني سميث حيث تمكن بدهائه بواسطة هذه الخدعة من اكتساب ما بذلت انكلترا كثيراً من القرابين والذبائح بلا جدوى لاكتسابه! أذ لو فرضنا وهجر بونابرت جيشه وخرج بمفرده لمقابلة سدني سميث لكان هذا الاخير أخذه اسيراً ومتى وقع بونابرت اسيراً فلا ريب ان الفرنساويين كانوا يغادرون الديار المصرية في الحال » . انتهى

والتعليق على هذه الحادثة لا حاجة اليه الآن لكن يمكن يقال بان الجنرال الانكليزي سيدني سميث لم يكن يتوقع تاويل وتفسير بشاشته ورقته البسيطة للفرنساويون بهذا النمط . اما الجنرال الفرنساوي فعمل ما كان ينتظره مواطنيه منه تماماً

وعلى اثر هذه الحادثة عزم نابوليون على ترك جيشه في مصر والرجوع الى اوربا لكي يمثل على مرسحها حركاته العسكرية واعماله المألوفة . وقد كان متالماً من كل شيء عمله في رحلته الى الشرق اولا لفشله في

سوريا ثانياً لحالة الحكومة الاصلحية التي اسسها في مصر على بطيء ولم تكن على ذوقه في النهاية . ثم عدل عن ذلك ورجع الى القاهرة ودخلها دخول الفاتح القاهر ثانية . وفي الحال تخابر سراً مع الجنرالين برتبيه وبورين والاميرال جانتيوم واطلعهم على نواياه ثم امر الاميرال برتبيه المذكور أن يجهز الاربع البوارج الحربية الباقية من جميع الاسطول الفرنساوي الذي اعدمه الانكليز دون أن يشعر بذلك الاميرال الانكليزي . ثم افهم عامله الجنرال كليبر بانه متوجها الى رشيد وعين له يوم ٢٤ اغسطس لمقابلته هناك . وبينما هو يخدع الجنرال المذكور بهذه الوعود الكاذبة كتب ايضاً الى الاميرال جونتيوم بانه سيبارح الديار المصرية يوم ٢٢ اغسطس لانه قد سمع بان اخر بارجة حربية انكليزية بارحت مياه الاسكندرية يوم ١٧ منه وهذا كل ما كان بونابرت ينتظره لمبارحة مصر .

غادر نابوليون بونابرت القاهرة في ١٨ اغسطس سنة ١٧٩٩ الى الاسكندرية ومنها البحر الى فرنسا . وذاع امره للجيش المعسكر بقرب رشيد فاستعد كليبر بجيشه لذلك الرحيل . ولكنه لما وصل الى رشيد عرف بالخدعة التي عملها معه نابوليون وبمجرد وصوله اليها وصله خطاباً من نابوليون يخبره فيه بانه عهد اليه بالقيادة العامة في مصر نيابة عنه ومنحه ايضاً سلطة ابرام الصلح مع سلطان تركيا اذا كان يرى ذلك مناسباً . اما كليبر فغضب جداً من هذا الامر الذي اتاه معه نابوليون وحنق

حنقاً عظيما ورجع في الحال الى القاهرة واصدر اعلاناً للجيش في ٢٦ ستمبر سنة ١٧٩٩ يعلن فيه سفر نابوليون الى فرنسا بدون ما يخبر احداً بذلك وان قوة الجيش الفرنساوي صار تخفيضها الى نصفها وان اعداء الفرنساويين اصبحوا ثلاث قوات عظمي وهي تركيا وانكلترا وروسيا وليس المماليك المصريين واشار الى الحالة التي اصبح عليها الجيش الفرنساوي وخاصة من قلة وجود الكساوي . ومع أن بونابرت كان قد حصل الضرائب من الاهالي سلفاً فانه ترك نقصاً في ميزانية الجيش نحو اثني عشر مليونا من الفرنكات .

وكان لم يزل لمراد بك قوة حربية عظيمة في الصعيد واخذت جيوش الاتراك ترد من سوريا بطريق البر علاوة على الاسطول المظيم الذي ارسلوه لدمياط . فلما راى كليبر حرج موقفه في وسط هذه الصعوبات الهائلة اعلن عزمه على مفاتحة السلطان في عقد الصلح معه

وقد هجم الجيش العثماني اول مرة على دمياط فرده الجنرال كليبر على اعقابه ولكنه عرف أن موقفه اصبح صعبا ولا رجاء له بالنجاح فابتداء بمخابرات الصلح في شهر نوفمبر اولاً على ظهر بارجة السير سدني سميث وبعد ئذ استئناف المخابرات مع الصدر الاعظم الذي كان حضر مع الجيوش التركية وعسكر بها في جهة العريش . على أن هذه المخابرات لم تنجح لان الاتراك كانوا بدؤا بالهجوم على العريش وظهر أن النصر سيكون حليفا لهم خصوصا لتمرد جنود الفرنساويون على ضباطهم في تلك

الجهة وتمنعهم عن محاربة الاتراك .

على انه رغماً عن ذلك كله قد نجحت مخابرات الصلح على نوع ما وامضيت معاهدة بذلك في العريش يوم ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ تقضي بان يسمح الانكليز والعثمانيين للجيوش الفرنساوية باخلاء الديار المصرية مع المحافظة على شرفهم العسكري ومجدهم الحربي

ففرح المصريون بذلك فرحاً عظيماً وفرضوا على سكان القاهرة ضريبة قدرها ثلاثة الآف كيس من الجنيهات دفعوها بسرعة ونشاط وابتهاج على سبيل المساعدة للفرنساويين لاجل سرعة رحيلهم من بر مصر

وفي اثناء ذلك وصلت رسالة الى الجنرال كليبر من الاميرال كيث القائد العام للاسطول البريطاني في البحر الابيض التوسط بتاريخ ٤ يناير سنة ١٨٠٠ يقول فيها انه تلقى من لندن اوامر صارمة من جلالة ملك انكلترا نفسه تقضي عليه بان لا يسمح للفرنسويين بمغادرة مصر قبل أن يسلموا سلاحهم وبوارجهم ومهماتهم الحربية التي لهم في مينا الاسكندرية .

فاضطرب كل من السير سدني سميث وكليبر لانقلاب الحالة لهذه الدرجة وكتب سميث يحتج على اذلال واهانة الجيش الفرنساوي بهذه الحالة التي لا يستحقها . اما كليبر فرفض رفضاً باتاً أن يخلي مصر بهذه الشروط . ولما ضغط عليه الصدر الاعظم بسرعة الانسحاب من القاهرة لان الوقت المعين لذلك بموجب معاهدة العريش قد انقضى . التزم أن

يستعد للقتال . وكان قد ضاعف قوة جيشه بانضمام الحامية الفرنساوية التي كانت في صعيد مصر اليه وفي ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ اشتبك مع الترك في معركة هائلة عند عين شمس بضواحي القاهرة دارة فيها الدائرة على الاتراك فانهزموا امام الفرنساويين شر هزيمة وفروا من وجه كليبر فتبعهم واخذ يطاردهم بشدة حتى اوصلهم الى الصالحية . غير انه في اثناء ذلك قامت ثورة اخرى ضد الفرنساويين في القاهرة — ذلك أن ناصف باشا القائد العام للجيش العثماني تظاهر بالهروب من امام الفرنساويين وتركهم يطاردون الصدر الاعظم ودار هو من خلفهم ورجع الى القاهرة فدخلها فاتحاً باسم السلطان وابتداء عمله فيها بذبح جميع الاقباط ونهب كل الاحياء المسيحية واستفحل شر التعصب الاسلامي بحالة فظيعة في جميع انحاء القاهرة حتى صار الاتراك والمسلمين يبحثون عن كل مسيحي فيذبحونه بلا شفقة ولا رحمة وكانوا يذبحون كل الرجال ويفضحون النساء ثم يجلدوهن عرايا ويقطعون روس الاطفال امامهن . ودامت هذه الحالة الفظيعة مدة يومين كاملين قبل أن يرجع الفرنساويون من مطاردة الصدر الاعظم وقبل أن تصل الى اهالي القاهرة انباء انتصارهم في هليو بوليس (عين شمس) فلما علم المسيحيون من الاقباط والسوريين بعودة الفرنساويون اخذوا يفرون من المدينة ويلتجون اليهم بواسطة تسلق الحيطان ونحو ذلك وكان الفرنساويين قد قطعوا طريق الدخول الى القاهرة من جهة النيل . اما ناصف باشا فلما رأى بان لا قدرة له على

مقاومتهم ولا الوقوف امامهم قد اخلى القاهرة لهم ولكن المتعصبون من المسلمين قاموا عليه ومنعوه من ذلك ولما كان عدهم مؤلفا من اكثر سكان القاهرة فلم يعد في وسعه مخالفتهم

على أن الفرنساويين احتلوا بولاق عنوة واداروا فيها السلب والذبح ومنها قصدوا القاهرة وعملوا فيها الالغام تحت ابوابها التي كانت مقفلة حتى نسفوا بعضها ودخلوا منها الى المدينة ظافرين منتصرين . ويقول الجبرتي في تاريخه أن تلك الليلة كانت انحس وارعب الليالي التي مرت على سكان القاهرة في ذلك العصر لان الفرنساويين لم يكتفوا بالذبح والسلب والنهب بل كانوا يحملون مشاعل ملآنة بالزيت والاسبرتو ويشعلون بواسطتها كل شيء يصادفونه في طريقهم

وعلى أثر ذلك امر الجنرال كليبر باقامة زينة فاخرة في القاهرة مدة ثلاثة ايام احتفالا بدخوله اليها منتصراً على الاتراك وبمجرد دخوله امر بجمع غرامة (١) من اهالي هذه المدينة التعيسة قدرها ١٢ مليون فرنك بصفة عقاب لهم . ثم عقد محالفة مع مراد بك زعيم المماليك الذين كان جل مجيء الفرنساويين الى مصر لقصد ابادتهم من ارضها . وبموجب

(١) وعهد كليبر جمع هذه الغرامة الى احد اعيان الاقباط المدعو يعقوب الذي كان ثابتاً وحافظاً مركزه ضد ناصف باشا مدة ثلاثة ايام في منزله . وقد ذكر الجبرتي في تاريخه حالة الفقر المدقع الذي وقع فيه المسلمون بسبب هذه الغرامة بكيفية تتألم منها عواطف القارئ ·

تلك المعاهدة تصرح لمراد بك أن يبقى متسلطاً على بلاد الصعيد على شرط أن يمد الفرنساويين بكل مساعدة تلزم لهم ضد الأتراك

بقي الفرنساويون وجيوشهم متروكين في الديار المصرية بعد رحيل بونابرت عنها تحت قيادة قائد واحد بات في حرج وزاد موقفهم صعوبة في ظرف آخر ثم ساءت احوال ذلك القائد واصبحت ظروفه خطره محفوفة بالهلاك وقد دخلت فعلا في دور الهلاك الحقيقي واليك البيان

في يوم ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ كان الجنرال كليبر يتمشى بعد الانتهاء من مائدة الفطور في حديقة الجنرال داماس فانقض عليه بغتة احد المسلمين المتعصبين في لباس الانكشارية وقتله فآلت القيادة العامة بعد ذلك للجنرال مينو الذي اعتنق الاسلام كما فعل قبله كثيرون من الفرنساويين امثاله استجلاباً لرضاء المسلمين واقترن بابنة احد سكان القاهرة من الطبقة الواطية

واول شيء عمله الجنرال مينو هو انه فصل الجنرالين لامس وداماس من خدمة الجيش الفرنساوي وكانا معارضان له في اعماله ثم رفت كل المسيحيين الموظفين في ديوان القاهرة الذي انشأه بونابرت من وطنيين واجانب وسلم كل الاعمال لجماعة من المسلمين استبدوا بها كثيراً . ثم جعل الاحوال الشخصية المتعلقة بالميراث والزواج ونحوه خاضعة لمنطوق الشريعة الاسلامية

وفي ٢٣ فبراير سنة ١٨٠١ لما راى الاتراك فشلهم وعجزهم التام عن

اخراج الفرنساويين من الديار المصرية — جاء بغتة اسطول انكليزي يحمل خمسة عشر الف محارب والقى مرساه في خليج ابو قير . ولكن كان عدد هولاء الجنود من الانكليز اقل بكثير عن عدد جنود الفرنساويين لان الذين خرجوا منهم بواسطة الانكليز بعد ئذ كانوا ٢٤٠٠٠ جندياً وكان الجيش الفرنساوي قد امتاز على الجيش الانكليزي بمعرفة احوال ومواقع البلاد المصرية واعتياده على طقسها

وقد نزل الخمسة عشر الف جندي انكليزي الى البر بالرغم عن معارضة الجنرال فرايانت قائد الحامية الفرنساوية بالاسكندرية واستعدوا لمقاتلة الفرنساويين وساروا متجهين الى الاسكندرية وهناك اشتبك الفريقان في معركة هائلة دامت عدة ايام الى أن وصلت النجدة من القاهرة الى الحامية الفرنساوية ففازت هذه وخسر الانكليز ١١٠٠ رجلاً . ولكنهم بالرغم عن هذه الخسارة العظيمة ظلوا ثابتين في مركزهم حتى اتتهم النجدة من انكلترا

وعند وصول المدد للجيش الفرنساوي من القاهرة بقيادة الجنرال مينو اشتبك هذا الاخير مع الانكليز ايضاً في معركة دموية هائلة كان الظفر فيها الى الانكليز فتقهقرت الحامية الفرنساوية الى الاسكندرية بعد خسارة ١٧٠٠ رجل

على انه قد جرح في هذه الموقعة قائد الجنود الانكليزية الجنرال السير رالف ابركرومبي وابت عليه شهامته التخلف عن القتال لاجل هذا

الجرح بل استمر في حومة الوغى حتى انتهت المعركة فاصابه من ذلك ضرراً كبيراً بسبب استمرار نزيف الدم من جراحه بحالة تعذر شفائها وتوفى على الاثر فحزن عليه الانكليز حزناً عظيماً . وعهدوا بالقيادة العامة على جنودهم الى الجنرال هنتسن وقد وصلته نجدة جديدة قدرها ستة الاف محارباً من الاتراك والارناؤوط وكان برأس احد فرق الارناؤوط ضابطاً تركيا بسيطاً ساعدته الاقدار بعد ذلك وصار والياً على مصر هو المرحوم محمد علي باشا الشهير

وقد استمر القتال سجالاً بين الفرنساريين من جهة والانكليز والاتراك من جهة اخرى الى يوم ١٩ ابريل من تلك السنة وفيه سلمت حامية رشيد الفرنساوية سلاحها الى الجيش الانكليزي والتركي — وقد قطعت هذه الجيوش خط الرجعة على الجنرال مينو الفرنساوي الذي كان معسكراً في الاسكندرية بواسطة هدم الجسر الضيق الذى كان قائماً بين ابو قير وبين اراضي بحيرة مريوط القديمة (وهي الاراضي التي لا تزال مغمورة بالمياه الى الآن) فاضطر الفرنساويون على اثر ذلك الى ترك مركزهم في الرحمانية ووصلت اخبار انكسارهم مبالغاً فيها الى القاهرة فنشاء عن ذلك حدوث هياج شديد اوجب الفرنساويين الى عمل منشورات الى سكانها التعساء يؤكدون لهم فيها أن الجنرال مينو سيرجع الى القاهرة قريباً مكللا بالظفر على الانكليز الذين مات منهم كثيرون بالدوسنتاريا والرمد والجوع والعطش وان كثيرون منهم فروا من

معسكرهم والتجأوا الى معسكر الفرنساويين الذين انسحبوا من دمياط بخدعة حربية ليغشوا الانجليز ويهلكوهم عن اخرهم

وفي ذلك الوقت كان الاضطهاد على الاقباط عظيماً وفي كل يوم يقتل منهم خلق كثير ولكنهم كانوا يقابلون المصائب بالصبر وكان الفناء محدقاً بهم من كل جانب فسلموا امورهم لله وعولوا على أن يقاتلوا في سبيل حفظ عرضهم ودينهم الى اخر نقطة من حياتهم . اما يعقوب احد اعيانهم الذي كان يعتبر عميدهم في ذلك الحين وهو الذي ذكرنا خبر تحصنه في منزله ثلاثة ايام ثابتاً للدفاع ضد هجمات المسلمين وقت مذبحة ناصف باشا . قد وجه كل همته في هذه الظروف الحرجة ايضاً للدفاع عن جميع اخوانه الاقباط الموجودين في القاهرة فاشتغل زمنا طويلا في تدريبهم على مقاومة أي هجوم يقع عليهم حتى يمكنهم المدافعة عن ارواحهم وممتلكاتهم ثم جند منهم فرقة عظيمة ودربهم على الحركات العسكرية وسلحهم بطريقة منظمة حسب نظام الجيش الفرنساوي نفسه وكان معظم الذين انتخبهم لهذا الغرض من اقباط الوجه القبلي وكان الجميع خاضعين لاوامر يعقوب ويقبلون تعليماته الخاصة بالدفاع عن بني جنسهم بكل فرح وابتهاج . وابتدأ يعقوب بهدم كثيراً من البيوت التي تخربت في الحوادث الاخيرة فى الاحياء التي كان يقطنها الاقباط (١) وبنى

(١) هجر الاقباط حيهم بعد ذلك الحين . وهو الموجود الان بكلوت بك وكان من ضواحي القاهرة . ولم يبق من الاحياء القبطية القديمة غير اماكنهم في حارتي الروم وزويلة

من انقاض تلك الخرائب سوراً عالياً منيعاً حول الحي الذي جمع فيه كل الاقباط اخيراً وشيد فوقه الابراج القوية من داخل هذا السور وعمل للسور بوابتين عظيمين ورتب جنديين قبطيين يقفا بالتوالي على كل باب والسلاح على اكتافهما بصفة حراساً يمنعون كل غريب من الدخول ووضع لذلك نظاماً عسكرياً حسب النظام العسكري الفرنساوي كما شهد الجبرتي بذلك وقد نشأ عن هذه المساعي العظيمة والاجرآت الكبيرة التي قام بها ذلك البطل المقدام الجنرال يعقوب ان الامة القبطية قد نجت من مذبحة فظيعة تشيب من هولها الاطفال وقعت عند احتلال الاتراك للقاهرة ثانية. وقد تخرب ذلك الحي الذي استعمله يعقوب كحصن أو طابية حربية بعد تلك الايام بقليل ثم هجره الاقباط لما سمحت لهم الظروف بالخروج منه بعد اطمئنانهم على حياتهم . ويعقوب نفسه لم يعد في وسعه الاقامة في تلك الحصون بعد خروج الفرنساويين من مصر ورجوع الامر والنهي في البلاد للاتراك وحدهم فاضطر الى ترك الديار المصرية وخرج مع الجيش الفرنساوي ومعه اكثر رجال فرقته القبطية ولم يعد في وسعه الرجوع لارض اجداده خوفاً من الاستبداد فمات في فرنسا بعد مهاجرته اليها ببضع سنوات . ومن دواعي التعاسة التي توالت على مدينة القاهرة في تلك الايام انتشار الطاعون فيها بدرجة مريعة جداً مات بسببه يومئذ خمسمائة رجل من الحامية الفرنساوية وكانت وطأة الطاعون في الصعيد اكثر منها في القاهرة وافنى هذا الداء القتال خلائقاً

كثيرة وخرب بلاداً برمتها خليت من السكان بالمرة . ومن جملة الذين ذهبوا ضحية ذلك الوباء الفتاك مراد بك زعيم المماليك مات به في بني سويف فالتزم ابرهيم بك وكيله ان يسلم مقاليد اموره الى الجنرال هتشنسون الفرنساوي لانه كان شيخاً هرماً ولا قدرة له على المحاربة

وفي ١٠ يونيه سنة ١٨٠١ اصدر الفرنساويون منشوراً لجميع سكان القطر المصري هذه صورته

(ليكن معلوماً لدى جميع سكان هذه الديار ان القطر المصري اصبح من جملة املاك الدولة الفرنساوية . فضعوا هذا الامر نصب أعينكم وآمنوا به اتقاء لرؤوسكم كما تؤمنون بوحدانية الله . فلا تغرون ولا تغشون انفسكم بالفاتحين القادمين فانه ليس في مقدرتهم شيئاً يأتونه ضدكم ولا ضد الفرنساويين فاولئك الانكليز هم لصوص كافرين وليس في وسعهم اتيان اي عمل غير بذر بذور الشقاق والخصام بين الشعوب وبعضها والعمل على تهييج كل امة ضد الاخرى)

وفي ١٦ يونيه حاصر القاهرة الجيش المتحد من الانكليز والترك والمماليك . وبينما هو يتأهب للهجوم على القاهرة في يوم ٢٢ منه اخذ قائد الجنود الفرنساوية في فتح باب المخابرة مع قواده في امر الصلح وقد اوقفت هذه المخابرات اهوال وفظائع كثيرة كان لا بد من حصولها لو بدىء في القتال وفي ٢٦ منه انتهت المفاوضات وامضيت معاهدة بين الطرفين مفادها ان الجيش الفرنساوي يخلي مدينة القاهرة

ويبرح الديار المصرية كلها عن طريق رشيد . وما انقضى يوم ١٠ يوليو حتى اصبحت القاهرة خالية من الجيش الفرنساوي وقد حل محله الجيش الانكليزي ولما كانت الاوامر المعطاة الى الجنرال هتشنسون تقضي عليه بطرد الفرنساويين من القطر المصري بدون تعرض لمسألة ضمه الى انكلترا فلذلك قد التزم ان يسلم مدينة القاهرة الى الاتراك وسار بجيشه الى رشيد حتى يلاحظ نزول الفرنساويين منها الى البحر ويطمئن على مبارحتهم البلاد المصرية

وصل رشيد فباشر سفرية ١١ الف من العساكر الفرنساوية وثلاثة الآف من الملكيين التابعين لهم حيث انزلهم بنفسه في المراكب البحرية في تلك المينا ء على أن بعض افراد الفرنساويين رغبوا البقاء من انفسم في البلاد المصرية وتظاهروا باعتناق الدين الاسلامي حتي تطيب لهم الاقامة فراى الجنرال هتشنسن بانه لا خوف من تخلف هولاء الافراد في الديار المصرية فتركهم لشأنهم وسافر الى الاسكندرية حيث حاصر باقي الجيش الفرنساوي الذي كان لا يزال معسكراً فيها وقد كان عند هذا الجيش الوقت الكافي الذي يتمكن فيه من الاستعداد لمقاتلة الانكليز ومنعهم عن محاصرتهم ولكن الجنرال مينو تكاسل عن ذلك كثيراً حتى ضايقه الانكليز والزموه بان يمضي معهم عهداً في ٢٩ اغسطس من تلك السنة يقضي باخلاء الاسكندرية ومبارحة الديار المصرية حالاً

واراد الانكليز ضبط المجموعات العلمية والرسومات والتآليف التى انها اعضاء اللجنة العلمية الفرنساوية في القطر المصري وهي اللجنة التي اسسها نابوليون في القاهرة عقب احتلاله لها. ولكنهم عدلوا عن ذلك اجابة لرجاء وتوسلات العلماء الفرنساويين التي قدموها بطلب اعفاء مؤلفاتهم وذخايرهم العلمية من أن تلحق بها المصادرات الحربية

ومما لا ريب فيه أن مباحث ومجهودات اللجنة العلمية الفرنساوية التي رافقت حملة نابوليون العسكرية قد اتت بفوائد عظيمة باهرة جداً هي في الحقيقة اهم بكثير من عمل الحملة الفرنساوية نفسها التي لم تستفد منها فرنسا ولا مصر الا الخسائر الجمة والمتاعب الكبيرة والتعاسة الكبرى بلا فائدة. بينما الكتاب والعلماء الذين درسوا وبحثوا ورسموا وجمعوا والفوا اثناء تلك الحملة قد قدموا للعالم خدمات جليلة ومؤلفات نافعة هي اهم واعظم ما يقرأ في تاريخ مصر. وما عدى ذلك لا يشاهد الانسان الآن من اثار احتلال الفرنساوي لمصر الذي دام من سنة ١٧٩٨ الى سنة ١٨٠١ غير طواحين الهوا الباقية انقاضها الى اليوم على تلال القاهرة وبعض كتابات منقوشة على الحجر ترى هنا وهناك على صخور النيل وشيء قليل من اثار قنابل المدافع ظاهرة الى الآن على جدران بعض الجوامع الكبرى في القاهرة

ولم يكن الانكليز يتوقعون خروج الفرنساويين من مصر بهذه السهولة ولذلك كانوا مستعدين لهم بقوة عسكرية كبرى من الجيوش

الهندية تبلغ ٦٠٠٠ هندياً بقيادة الجنرال برد علاوة على الجيش الانكليزي نفسه الذي كان على اهبة السفر الى مصر عند اول اشارة

اما الجنرال برد المذكور فقد جاء الى حدود مصر بالجيش الهندي بطريق البحر الاحمر ونزل في ميناء القصير وسار براً من القصير الى قنا ومن قنا سار محاذياً للنيل الى الوجه البحري وكان سكان الوجه القبلي يهللون به اثناء مروره عليهم غير انه وصل الى القاهرة متأخراً حيث تصادف وصولها اليها حال انسحاب الجيش الفرنساوي منها فاضطر هذا الجيش الهندي أن يعسكر بجزيرة الروضة عدة اسابيع ثم سافر بعد ذلك بحراً عن طريق رشيد

وقدصادف الاقباط الشدائد والاهوال اثناء الاحتلال الفرنساوي بما لا يمكن التعبير عنه . فان الفرنساويين بالرغم عن اعتناق كثيرين منهم الديانة الاسلامية قد استخدموا كثيراً من الاقباط في مصالح البلاد العالية وساووا بينهم وبين المسلمين في كل شيء الامر الذي اوجد الحقد والغيظ والكراهة الشديدة عند المسلمين ضد الاقباط (حتى أن الجبرتي وهو في مقام المؤرخ لم يتمالك عن اظهار حقده وسخطه كما تراه مسطراً في تاريخه ولا سيما حينما يرى الاقباط يركبون الخيل ويحملون السلاح مثل المسلمين) ومن الغريب أن الاقباط كانوا دائماً اول المضطهدين سواء وقت الاضطرابات والثورات التي حصلت في بدء الاحتلال الفرنساوي أو في الثورات التي قامت ضد الفرنساويين عند احتلالهم للبلاد أو في

وقت خروجهم منها . وعند مبارحتهم مصر عم السلب والنهب والقتل فيهم بدرجة لا تطاق حتى أن مساكنهم كلها تقريباً عمها الدمار والخراب والذين سلموا منهم من الموت بعد خروج الفرنساويين بنوا لهم منازلا جديدة وكنيسة جديدة بدل الذي تخرب لهم

وكان البطريرك القبطي على عهد الحملة الفرنساوية الانبا مرقس الثامن وهو من اهالي طموه بمديرية الجيزة وكان قد انتظم في سلك الرهبنة بدير انبا انطونيوس وانتخب بطريركا بالقرعة الهيكلية وبارتقاءه للعرش البطريركي غير الاساقفة اسمه الاصلي من يوحنا الى مرقس حسب عادة الكنيسة القبطية . ونأتي هنا بفلذكة من اعماله نقلا عن المصادر القبطية الاصلية . فقد ذكر المستر بتلر المؤرخ الانكليزي أن الشعب القبطي في ايامه قاسى من الضيقات والاحزان والبلايا والنوائب والنكبات والمصائب والشدايد مالا يحصى وحصل كل ذلك بنوع خصوصي في السنتين اللتين عقبتا ارتقائه الى الكرسي البطريركي ووجد مذكوراً في تاريخه العبارة الاتية « أن خلقا كثيرون من بلاد الافرنج يقال لهم الفرنساويون اتوا وامتلكوا مصر فقام ضدهم سكان القاهرة فكانت الحروب سجالا بين الطرفين مدة ثلاثة ايام فالتزم البطريرك بتغيير محل اقامته من حارة الروم الى الازبكية . ثم اتي وزير من بلاد تركيا مصحوباً بجماعة من الشعب الانكليزي وطردوا الفرنساويين من مصر . وتألم الشعب القبطي كثيراً على يد الفرنساويين فتخرب كثير من الاحياء القبطية واصبحت

خالية خاوية كالصحراء وهدمت وخربت كنائس عديدة وقاسى البطريرك ذاته مصائب عديدة وهي التي الجأته لتغيير اقامته من حارة الروم الى الازبكية حيث بنى بطرخانة عظيمة وكنيسة كبرى دعاها كنيسة ماري مرقس الانجيلي وهو اول بطريرك سكن الازبكية وكان دائماً مشغولاً ومهتماً في بنا وترميم الكنائس والاديرة التي تخربت وكان دائماً متيقظاً وساهراً على الوعظ والتبشير بين شعبه ويبذل اقصى جهده في تعليمهم اللاهوت وطريق الصلاح ليلاً ونهاراً وقد رسم عدداً عظيماً من الاساقفة ولما تنيح مطران الحبشة ووصله وفد مؤلف من اعيان ورهبان وكهنة تلك البلاد حاملاً اليه جواب من امبراطور الحبشة يرجوه فيه تعين مطران جديد لتلك البلاد اجاب طلبهم ورسم لهم مطراناً جديداً باحتفال عظيم وأرسله مع الوفد الى الحبشه مزوداً بالدعوات والبركات وكثيراً من الكتب والمواعظ المشتمل اغلبها على مبادىء العقيدة الارثوذكسيه الصحيحه لانه سمع بهرطقه كثير من الاحباش » انتهى

اما بطريرك الاسكندريه اليوناني الذي كان معاصراً للاحتلال الفرنساوي فهو بارتنيوس من اهالي بلدة باغوس من اعمال اليونان وغالباً انه هرب من الديار المصريه اثناء ذلك الاحتلال حيث لم يعثر له على اي عمل في التاريخ يثبت وجوده فيها في ذلك الحين

اما نائب بابا روميه وقتئذ فكان الاب متى . ومما يحسن ذكره هنا أن حالة الكاثوليك واليونان لم تكن يومئذ باحسن من حالة الاقباط الاصليين

الفصل الثاني والسبعون

محمد علي باشا

سنة ١٨٠٢ مسيحية و١٥١٨ للشهدأ و١٢١٧ للهجرة

بعد انسحاب الفرنساويين استلم يوسف باشا الصدر الاعظم زمام الاحكام في القاهرة باسم جلالة السلطان بمساعدة الجنرال هتشنسون وكان حسين قبطان باشا اميرال الاسطول العثماني لا يزال في ابي قير والاسكندرية .

ولم يترك الاتراك فرصه اعادة امتلاكهم للبلاد المصرية بدون القيام فيها كعادتهم بتقديم مذبحة دموية علامة امتلاكهم أو رجوعهم الى التسلط على كل قطر قبل رحيل الانكليز من مصر حصلت مذبحتين احداهما في الاسكندرية واخرى في الجيزة وهاتان المذبحتان قللتا عدد المماليك البكوات . ذلك أن يوسف باشا دبر لهم مكيدة مع زميله حسين قبطان باشا فاتفق الاول أن يهجم عليهم في الجيزة ويقتلهم واتفق الثاني على أن يدعو الاخرين في وليمة بابي قير باسم الجنرال هتشنسون الانكليزي لانه لو كانت الدعوى من غير الجنرال المذكور لما اجيبت . وقال قبطان باشا في دعوته ان غرضه من الاجتماع بهم في معسكره المفاوضه معهم فيما يجب اتخاذه من الوسائل لاصلاح حالة البلاد فاجابوا دعوته وهم في ريبة

من مقاصده على انهم لم يكونوا يستطيعون رفض الدعوه خشية من ارتياب العثمانيين والانكليز في مقاصدهم . فلما وصلوا ابا قير رحب بهم حسين قبطان باشا ودعاهم الى النزول معه في قاربه الخصوصي ليسيروا معاً الى الجنرال هتشنسون الانكليزي بحجة المفاوضه معه على ظهر دراعته في بعض الشؤون فركبوا حتى صاروا على مسافة من البرجاً قارب صغير من جهة الدوارع وقال من فيه انه لديهم تحرير باسم قبطان باشا من جلالة السلطان ومخابرات اخرى مهمه وكان ذلك حيلة دبرها الباشا الذي ركب حالا ذلك القارب الصغير وسار به وبقي المماليك وحدهم فارتعبوا واذا عدافع العثمانيين تنصب عليهم فعرفوا المكيدة ثم ابتدأ ملاحون القارب بالذبح فيهم . فالتزموا أن يلتجئوا بالانكليز لوتوقهم بهم اكثر من الاتراك الذين نكصوا بعهدهم وقد ذبح منهم الاتراك سبعة والباقين اصيبوا بجراح كبيرة والقوا بانفسهم في البحر وعاموا حتى وصلوا الى المراكب الانكليزية لان البر كان بعيداً . ويقول الجبرتي ان الانكليز اغتاظوا وحنقوا جداً على هذا الصنيع فدخلوا الاسكندرية وطردوا كل الاتراك منها ثم قفلوا كل بواباتها واشغلوا حصونها برجالهم ودعوا الاتراك للخروج لمحاربتهم فكان جواب الاتراك انه لم يسبق لهم مخاصمة مع الانكليز فلا يريدون محاربتهم وظلوا ساكنين في خيامهم . وقال الجبرتي ايضاً مثبتاً باندهاش واعجاب ان الانكليز ليس فقط اعتنوا بالبكوات المجروحين ومنهم عثمان بك البرديسي بل ايضاً دفنوا المذبوحين باحتفال

عسكري واحترام عظيم كأنهم من عظماء الانكليز

اما المكيدة التي عملها يوسف باشا بمماليك القاهرة فانه ارسل فرقة تهاجمهم في الجيزة فوثب عليهم جنود الاتراك وقتلوا منهم عدداً كثيراً وحرقوا بيوتهم فالتجأ كبارهم الى الانكليز لحموهم رغماً عن اصرار يوسف باشا على طلبهم. وقد ادهش المصريون واعجبهم كثرة اعتدال الانكليز وحسن صنيعهم وخلوص نيتهم. وقد قال الجبرتي مستفهما لماذا يتركون البلاد للسلطان بعد وقوعها في قبضة ايديهم يأخذوها لانفسهم حالاً. واثبت الجبرتي ايضاً نتيجة مباحثه دارت بين المسلمين في هذا الموضوع فقال: انهم انتهوا في بحثهم على ان الله سبحانه وتعالى اكراماً للدين الاسلامي قد غطى على بصيرة الانكليز واعماهم عن النظر الى صالحهم الخصوصي حتى اهملوا انتهاز تلك الفرصة السانحة.

وقد وقع المسيحيون وعلى الخصوص الاقباط في آلام مرعبة هائلة من جرا تعصب الاتراك وذلك ان الجنود التركيه ابتدأت ان تتسلط عليهم فتفرقت في احيائهم وصارت تنهب وتسلب وتفتك فيهم كل آونة واخرى.

وقتل يوسف باشا ثلاثة من اكابر الاقباط بحجة انهم كانوا يساعدون الفرنساويين على الاتراك واخذت كل اموالهم وممتلكاتهم وبعد ذلك بقليل امر ايضاً بقطع رأس المعلم ملطي القبطي الذي كان رئيساً لديوان الحقانية ايام الفرنسيس فالتزم كل من يقدر على الفرار منهم ان يهرب من

القاهرة ويختفي من وجه الاتراك . وبعد ذلك أيضا اخذ الاتراك شيئا فشيئا يطلبون مبالغ طائلة من هذه الطائفة النصف مائة بصفة غرامه أو فدية عن انفسهم وبعد مبارحة الانكليز للمياه المصريه اصبحت احوال البلاد رديئة جداً وتاريخ الجبرتي ملآن وجه بعد وجه بتفصيل اهوال مظالم واستبداد الاتراك وقبائح وكبائر وفواحش جنودهم التي ارتكبوها ضد الاقباط خصوصا والمسيحيين عموما بدون رادع ولا قصاص .

وبعد انسحاب الجنود الانكليزية بسبعة اسابيع بقت البلاد تتنازع في يد العثمانيين فرأى يوسف باشا الصدر الاعظم الذي كان في القاهرة ضرورة تولية والي عثماني على مصر فعين كخيا حسين قبطان باشا وهو شاب من مماليكه المقيمين بالقاهرة اسمه خسرو اناضولي الاصل ولما كبر تحرر وارتقاء حتى صار باشا ثم كتب الصدر الاعظم للسلطان يطلب التصديق على تعينه فجاء الفرمان المؤذن بذلك .

وتولى خسرو باشا على مصر في ١٢ جماد اول سنة ١٢١٦ هـ ولم يكن للباب العالي سلطة في مصر الى على اسكندرية والقاهرة وكانت باقي البلاد في يد من بقي من المماليك فناهضهم خسرو باشا فلم ينجح ولم يكن ليستطيع دفع مرتبات الجنود فثاروا في ٢ مايو سنة ١٨٠٣ م واحاطوا بخازنداره وحبسوه في بيته فاطلق عليهم خسرو باشا المدافع فتداخل طاهر باشا اركان حربه فاتهمه خسر باشا باتحاده مع العصاه فاغتاظ طاهر وانضم الى جانب العصاة حقيقة وهدم الاسوار فخاف خسرو باشا وهرب بحاشيته

نحو المنصورة وجمع طاهر باشا القضاة وارباب الديوان فاقروه على مصر بدل خسرو باشا موقتا حتى يصادق السلطان .

وفي ٢٥ مايو سنة ١٨٠٣ م لاقى طاهر من الجيش ما لاقاه خسرو وذلك ان اثنين من الاغوات في الجيش وهما موسى واسماعيل تشكيا اليه من تاخير الرواتب فجردا سيفهما وقطعا راسه والقياه من الشباك وحرقوا سرايته . فاصبحت مصر بغير والي .

وفي هذه الفرصة امكن لذلك الرجل العظيم المغفور له محمدعلي باشا رأس العائلة الخديوية اظهار ما اختص به من البسالة والاقدام وما جعله الله فيه من الفضائل التي قدرّ له أن يبثها في هذا القطر السعيد

ولد هذا الرجل العظيم في مدينة قوله من اعمال مكدونيه غربي الروملي . ومن الحقائق المدهشة عن هذا الرجل هي انه ولد من اصل حر أي ليس من الرقيق كاصل المماليك الا انه اصبح الحاكم الاعظم في بلاد لم يحكمها الا الرقيق والمماليك من عدة اجيال . وقد اشهر هذا الرجل نفسه بمهارته في الحروب بفرقته الالبانيه التي كان جندوها ايضاً كلهم من اصل مكدوني مثله وكانوا يحبونه جداً ويتعبدون له طول حياته . وقد لاحظ بفكره الثاقب أن طريق العظمة والسلطان مفتوحان تحت قدميه فابتدأ سيره في ذلك الطريق باتحاده مع المماليك الباقين في مصر وكانوا انفسهم اقل كرهاً في نظر المصريين من الاتراك . فتمكن محمدعلي بمساعدة المماليك أن يأخذ مدينة دمياط وقبض على خسرو باشا اسيراً في ١٤ ربيع

اول سنة ١٢١٨ هـ واتى به الى القاهرة وسجنه في القلعة . فلما بلغ الباب العالي ذلك ارسل والياً جديداً وهو علي باشا الجزايرلي (الطرابلسي) ولكن في سنة ١٨٠٤ هجم عليه المماليك وذبحوه اثناء عودته الى سوريا .

وفي خلال ذلك عاد رئيس المماليك محمد بك الالفي من انكلترا وكان سافر اليها يطلب مساعدة دولتها وترأس المماليك واصبح ذا حزب قوى ضد محمد علي لان الالفي كان يطمح في ولاية البلاد . فالتزم القائد محمد علي أن يهاجمه تجاه قبل أن يتمكن هذا الخصم من تدابير مكيدة خطره ضده فالتزم الالفي بالهروب الى الصعيد والتجأ بالبدو .

وفي هذه الفرصة طلب قنصل انكلترا مقابلة ابراهيم بك احد المماليك وعثمان بك البرديسي زعيمهم الثاني وقال لهما انه لا يود البقاء بعد الان في هذه البلاد التي يحكمها رجال لا يعرفون يتصرفون بشؤونها وعملهم منحصر في قتل بعضهم بعضاً بمكايد وحيل لا تشكر . ثم انسحب حالا وبارح الديار المصرية قاصداً انكلترا واراد القنصل الفرنساوي أن يفعل مثله فالحوا عليه البقاء . وفي غضون ذلك فرض القائد محمد علي على الاقباط غرامة قدرها مايتان الف ريال كي يتمكن أن يصرف منها مرتبات جيوشه وامر أن خمسين الفا منها يدفعها المعلم غالي وكيل دايرة الالفي وهو قبطي كاثوليكي وثلاثين الفا يدفعها ورثة فيكتور وكيل دايرة عثمان بك البرديسي الذي مات وقتئذ وهو ايضاً قبطي كاثوليكي والباقي يدفعه

الاقباط الارثوذكس الاصليين

وبعد ذلك اصبح القائد محمد علي وقدقويت شوكته لا يحترم ولا يبالي بكل الذين لا يهمهم في البلاد الا صالحهم الشخصي ولا يخاف تاثيرهم فهجم فجأة على سراي اكبر مخالفيه وهو عثمان بك البرديسي وهو شركسي واصله مملوك مراد بك فالتزم البرديسي أن يدافع متقهقراً بمماليكه وهرب الى الصحراء في جنح الليل لعدم امكانه مقاومة قوة محمد علي العظمى ثم استدعى محمد علي احمد باشا خورشد محافظ الاسكندرية واقره واليا على مصر بمصادقة المشايخ والعلماء في القاهرة الذين وافقوا دعوة محمد علي وجعلوا ايضا محمد علي قائمقاماً له وصادق السلطان على ذلك في ٢٢ محرم سنة ١٢١٩ هـ (مارس سنة ١٨٠٤ م) ومن دهاء محمد علي انه جعل كل الاموال اللازمة لاصلاح البلاد على الاهالي في عهدة خورشد باشا حتى يقع العيب عليه اذا اساء الناس في تحصيلها اما هو فوقف متحببا للشعب وسار معهم جنبا لجنب ينتقد معهم احوال المظالم والمغارم التي كان الباشا يامر بها .

وفي ١٤ مايو سنة ١٨٠٥ كانت كل تدابيره ومشروعاته قد افادت في وصوله الى مبتغاه واصبح في ذلك الحين ذا بشاشة ودهاء محبوبا من الاهالي والمشايخ والعلماء حتى وساروا يتوسلون اليه بان يستلم مقاليد حكومة البلاد لانهم ملوا من معاملة خورشد باشا . غير أن محمد علي تظاهر بالامتناع وعدم الرغبة في ذلك فالحوا عليه هم ورجال الجيش ايضاً وقالوا له لا

نرضى الا بك حاكما علينا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير فقبل رجاءهم فاحضروا له كركا وعليه قفطان وقام السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي والبساه اياه وبعثوا الى خورشد باشا يعلمونه بعزله . ولكن لم يكن خورشد باشا مثل الذين تقدموا من الولاة سريع الانقياد لاوامر المصريين بل ظل ثابتاً واظهر العناد وقال (اني مولى من طرف السلطان واقبض راتبي من خزينة جلالته فلا أعزل بامر الفلاحين ولا ازل من القلعه الا بامر من السلطنه) ثم حصن نفسه في القلعة واستعد للدفاع

ولما كان محمد علي قد وضع أساس مشروعه على قواعد متينة لم يخف من تهديدات جورشد باشا لان تركيا كانت بعيدة عنه ومصر كلها كانت في جانبه فاستعد لمحاصرة الباشا في القلعة ونصب حولها المدافع وكتب الطرفان الى الاستانه يشتكيان وكان العلماء والمشايخ والاهالي والجند في جانب محمد علي . وفي هذا الاثناء أطلق مدافعه من سفح المقطم على القلعة والقلعة أطلقت مدافعها على المدنية فدام حصار القلعة حتى يوم ٩ يوليو سنة ١٨٠٥ ووصل في يوم ١١ ربيع أول سنة ١٢٢٠ هـ الفرمان السلطاني فقرأه في بين محمد علي العلماء والمشايخ والاعيان وكان بعنوان محمد علي باشا والي جدة (١) سابقا ووالي مصر حالا وكان مضمون الفرمان السلطاني تولية

(١) لان السلطان فى ٣٠ صفر سنة ١٢٢٠ اى قبل توليته على مصر بشهر كان أرسل له خط شريف بتوليته على جده وألبسه خورشد باشا الفروة والقاووق المختصان بهذه الرتبة

محمد علي على ولاية مصر من ابتداء ٢٠ ربيع اول (٢١ يوليو سنة ١٨٠٥) حيث رضي بذلك اهالي مصر وعلماؤها وجيشها وان احمد خورشد باشا معزول عن مصر وانه يتوجه الى الاسكندرية ثم الى القسطنطينية

ولما كان محمد علي على جانب وافر من حسن التدبير والسياسة والعقل الراجح عرف انه بهذا التعيين لم يصل الى اعلى ما تصبو اليه نفسه ولكنه تأكد ان لاجل الوصول الى ذلك لا بد له من اتباع سياسة الحذر والتأني مع الشجاعة والاقدام . ولسوء الحظ كانت وسائط حذره من اعدائه هي الطريقة العامة التي يتخذها كل الشرقيين . ومعنى هذه الوسائط هي الخيانة والغدر ويعقبهما مذبحة عامة .

وكان المماليك منتشرين في البلاد وخصوصا في الصعيد حيث يقيم زعيمها الالفي والبرديسي وقد التف حولهما جمهور من المماليك وتعاهدا مع قبائل عظيمة من البدو . ولما علم الالفي بتولية محمد علي باشا على مصر تخابر مع خورشد باشا الذي كان لم يزل في القاهرة ان يتحد معه على عزل محمد علي باشا ويعيده واليا ثانيا على مصر ويخضع هو (الالفي) لسلطة الدوله العلية ويضرب بسيفها . ومن جهة اخرى خابر دولة انكلترا ووعدها انها اذا عضدت مشروعه يكون مستعدا ان يسلمها القطر المصري فعرقل قنصل فرنسا مسعاه واخذ يخابر محمد علي في امر الصلح

اما محمد علي فاخذ في تدبير مكيدة له ومن معه وذلك انه اوحى لاحد رجاله ان يكتب لزعيمي المماليك ان محمد علي باشا قد رضي

بمصالحهما وانه يعطيهما رشوة طائلة اذا قدما الى مصر واوعز ايضاً الى عامله الذي كتب ذلك انه عند مجيئهم يدخلهم المدينة في اليوم الذي يكون فيه محمد علي واتباعه مشغولين باحتفال جبر الخليج . ولكي يخفي حيلته ولا يجعلهم يفهمونها اشار عليهم بضرورة دورانهم حول المدينة ودخولهم من باب النصر حتى يضطروا الى المرور قرب القلعة في طريقهم من منتصف القاهرة الى الحارة المعوجة التي اصبحت الان شارع محمد علي المشهور .

فقبل المماليك وزعماؤها دعوة محمد علي وفرحوا بالرشوة ولكنهم لم يعلموا انهم وقعوا في المصيدة . ووضع محمد علي مكامن من رجاله الالبانيين المخلصين في الطريق وامرهم بالاستعداد لاى اشارة وحالما دخل المماليك في تلك الحارة المعوجه الضيقة انقض عليهم اولئك الالبانيين وأطلقوا عليهم الرصاص بلا رحمه

فطلب بعض قواد المماليك ان يسلموا على شرط ان يحفظوا حياتهم من الموت فتركوهم ولكنهم ذبحوهم كلهم ثاني يوم ما عدا اثنين او ثلاثة دفعوا فدية هائلة عن انفسهم ليؤجلوا ذبحهم . وبعد ذلك أرسل محمد علي باشا الى بلده واستقدم عائلته منها الى البلاد المصرية واستعد على توطيد اقدامه فيها . ونجح محمد علي في السنتين التاليتين لذلك في احباط مساعي الباب العالي التي توجهت الى خلعه وتمكن بوسائط اخرى تحت ستار تهديد وبواسطه رشاوي علنيه ايضاً من الحصول على فرمان من السلطان

بتثبيته على ولايه مصر في نوفمبر سنه ١٨٠٩ على شرط انه لا يتعرض للمماليك الذين صدر عفو السلطان عنهم. وفي تلك السنه مات عثمان بك البرديسي ومحمد الالفي موتا طبيعيا فخلا الجو لمحمد على. ولو ان الانكليز ارسلوا حمله الى مصر سنه ١٨٠٧ بحجه ان تثبيت محمد على عليها يخل بنفوذها ولكنهم لما وجدوه قوي السلطه ويعتمد عليه فى حفظ الموازنه بين الاتراك والمماليك بنظام انسحبوا بعد ان احتلوا مدينه الاسكندريه شهرا

ومن ذلك الحين حتى سنه ١٨٤٧ اخذت قوى عقله في انحطاط فآلت حكومة مصر الى ابنه ابرهيم باشا . ومحمد علي لم يحكم فقط على مصر بل ملكها لانه من سنة ١٨٠٧ الى سنة ١٨١٠ م قام باعادة تمثيل حوادث السلب والنهب بافظع معانيها فاستأ السلطان سليمان الثاني منه واعد له مكائداً لكنه تمكن بوسائط عظيمه بسبب من التفرد بالملك حيث الغأ حجج املاك الاراضي وصادر اصحابها بطرق اخرى مكنته من امتلاك كل الاراضي المصرية لنفسه واعلن من ذلك الحين فصاعداً انه المالك الوحيد لكل الاراضي المصرية وان كل حقوق الملكيه والاقطاعيه تمنح بواسطته فجأت اليه التظلمات والاستعطافات والصراخ من كل طبقات المصريين في كل بلد واقليم فلم يعبأ بها محمد علي وظل ثابت الجأش معتمداً على جيشه الهائل من رجال الارناؤط . فالتزم المصريون البوساء أن يخضعوا كعادتهم لتلك المظالم الهائلة حيث لم يكن في وسعهم مقاومة

تلك القوة الهائلة (١)

الا انه كان لم يزل في البلاد كثير من المماليك القدماء وكان عددهم كافياً لجعل محمد علي يشعر انه للآن لم يصبح الحاكم المطلق والسيد المتصرف في كل شيء وفي كل نفس في البلاد فعزم على تطهير البلاد من هذه البقية ايضاً حتى لا يقف شيء منها في طريقه .

وفي شهر فبراير سنة ١٨١١ امر بجمع جيوشه لتوديع ابنه طوسون باشا الذي كان مسافراً الى بحيث جزيرة العرب لقمع ثورة الوهابيين الذين كان استفحل امرهم فيها ضد الدولة العلية وكانت حملة طوسون باشا هذه مؤلفة من ٤٠٠٠ محارب اعدها له والده وتعين يوم الجمعة لوداعها ووداع قائدها الى قبة العزب . ولذلك اجتمع لهذا الغرض جمهور الوجهاء والاعيان وفي جملتهم المماليك بملابسهم الفاخرة . وكان ترتيب الاحتفال يقضي بان يسير الجميع بانتظام الى القلعة وامامهم طوسون باشا لكي يلبسه والده الكسوة العسكرية هناك علامة على القاء القيادة العامة اليه في تلك الحملة وقد رافقه عدد عظيم من الجند في هذا الاحتفال

ولما احتشد جمهور الناس في القلعة يوم الجمعة ٥ صفر سنة ١٢٢٦ هـ اول مارس سنة ١٨١١ م وكان محمد على باشا منتظراً هناك فاستقبل الجميع

---

(١) قد وهب محمد علي باشا مقداراً عظيما من تلك الممتلكات المغتصبه الى اتباعه الاتراك ولكن بقي كثيرا منها لنسله واراضي الدومين والدايرة السنية هي جزؤ من تلك الاراضي المغتصبه من الفلاحين المصريين .

في سرايته بكل ترحاب وقدمت لهم القهوة وغيرها ولما تكامل الجميع وبينهم المماليك وجاءت الساعة امر محمد علي باشا بسير الموكب فسار ونزل من القلعة من المنزل الضيق الموصل لباب العزب الذي كان اصلحه محمد علي ببناء سلالم له . وكان المماليك يكتنفهم الفرسان والمشاة في اخر الموكب فلما اقتربوا من باب العزب من ابواب القلعة في مضيق بين هذا والحوش العالي غلق الجنود الالبانيين (الارناؤوط) ابواب القلعة فجأة باوامر محمد علي باشا وهجم الالبانيون على المماليك وصاروا يذبحونهم والجيوش المنظمه تصب عليهم نار المدافع والرصاص فهلك جميعهم ما عدا اثنين أو ثلاثة فرنساوي الاصل وصاروا مماليكا بعد أن اسلموا ايام الحملة الفرنساوية بسبب عدم حضورهم هذا الاحتفال لدواعي مختلفة

وكان عدد المماليك الذين هلكوا في هذه الحادثة اربعمائة وستين ونجا منهم ايضا مملوكان احدهما احمد بك زوج عديله هانم بنت ابراهيم بك الكبير والثاني امين بك الذي هرب من تلك المصيده الجهنميه لما علم بالمكيدة وكان سبب هروبه حادث [1] غريب ولم يكن هولاء كل ضحايا محمد علي من المماليك فقط بل نودي في المدينة بامر محمد علي وفي سائر البلاد أن كل من يظفر باحد المماليك في أي محل يقبض عليه ويقتله

---

(١) المتداول على الالسنة أن أمين بك هذا كان داخل القلعة فعند ما حصلت المعركة وسمع قصف المدافع همز جواده فوثب به من فوق السور الى جهة الميدان فقتل جواده وسلم هو

ايما يجده فقي بضعة ايام بعد ذلك الامر بلغ عدد المقتولين من الامراء المماليك ما ينوف عن الالف وكان بعضهم أيضاً يأتي بمن يمسكه من المماليك الى كخيا بك فيقتلهم ثم نهبت بيوت المماليك المقتولين في مصر وسلبت امتعتهم واعطيت نساءهم للعساكر التركية الذين اطلقت لهم السراح في سلب ونهب بيوت هولاء المماليك . ومن ذلك الحين اصبح الناس قلما يسمعون باسم مملوك في مصر (١) وكان محمد علي دائماً شديد الحذر بعيد النظر فنزل ثاني يوم من القلعة وامر بايقاف القتل والنهب ومنع الالبانيين من قتل المماليك الذين يجدونهم بل صاروا يجمعونهم

(١) غير الذين قتلوا هرب كثير منهم الى جنوب مصر وسكن جزء منهم في مديرية اسيوط و بعض منهم تعاطى تجارة الرقيق في السودان والبعض اقام في بلاد أخرى في الصعيد وامتلكوها وحولوها الى معاقل وحصون يأوى فيها اللصوص وقطاع الطرق . وفي سنة ١٨١٢ م سقط جماعة من المماليك ونهبوا دير الايباب وحرقوا مائة رق عليها كتابات اثرية قديمة كانت بقايا المكتبة القديمة لهذا الدير ولكن ٩٠ في المائة من المماليك ماتوا بحوادث ووقائع قبل أن يبلغوا الخامسة والثلاثين من العمر حتى في ايام عظمة سلطانهم في مصر وكانت ممتلكاتهم وبيوتهم وحريمهم وجوارهم وعبيدهم أن لم يمتلكها قاتلوهم فانها كانت تباع وتضاف اثمانها لخزينة الحكومة والقليل من نسل اولئك الذين كانت سيرة حياتهم حميدة وشريفة اطلق عليهم المصريون لقب عبد اللاوي (أي لا يصلحون لشيء) واصبحوا لا فرق بينهم والمسلمين المصريين

ويسوقونهم كالغنم الى الذبح في القلعة . وبعد نجاح الالبانيين نجاحاً تاماً في حملتهم الشاقه على الوهابيين اظهروا امارات التعب . فقبض محمد علي على قوادهم ونفاهم حالاً من بلاد مصر وسمح لهم باخذ ما نهبوه في حملتهم . ثم نظم محمد علي باشا جيشه على النسق الاوروبي وعين له الضباط الكثيرين من الفرنساويين لتدريب الجنود واعتنق بعض من هؤلاء الضباط الفرنساويين الديانة الاسلامية واسس مدرسة عسكرية في الخنكه وايضاً مدرسة للطوبجيه في القاهرة ومعامل تسبك المدافع واصطناع جميع حاجيات الجند بمناظرة المهندسين والمرشدين من الفرنساويين . وقد كان محمد علي باشا رجلا ذا مقدرة وقوة على القيادة ولا يشوب ارادته ومقدرته أي مانع ديني أو مبدأ اخر يعوق اغراضه فكان غير متعصباً بل الذي جعله نصب عينيه في حياته أن يكون سيد الديار المصرية ولذا قد بذل كل جهده في القضاء على كل شيء يقف في طريقه الذي يوصله لتلك الامنيه المبتغاه وكان من جل رغائبه أن يكون سيداً عادلاً طيباً ويفعل احسن ما يفعل لتحسين البلاد التي وضع فيها قدميه وبتلك المزايا يمتاز محمد على ويختلف كثيراً عن الحكام المسلمين الظالمين الذين حكموا مصر قبله ولكن مما يحسن ملاحظته انه لم يأت احد هؤلاء الحكام ما اتاه محمد على من الاستبداد في سبيل تأييد ملكه . وقد اعتنق الاسلام مثلما اعتنق كثير من كبار المستبدين في العالم الديانه المسيحية لانه عرف ان اعتناق الاسلام امراً لازما بالطبع وبحسب مقتضيات السياسة لتنفيد مآربه

ولكن على الاجمال لم يكن مقيد نفسه بالاعتقاد في اي ديانه واذا كان يقف في طريقه رجل أو عشيرة با كملها فما كان عمله معهم الا كنسهم ببساطه من طريقه اما بطريقة الغدر أو بهجوم علني أو خلافه بحسب ما تقتضيه الظروف . وكان طبعه أن ينتخب احسن الناس امانة واستقامة لخدمته لا يلاحظ في ذلك دين أو وطنية أو جنسيه وبهذا المبدأ أحاط نفسه بكثير من الاورباويين المسيحيين لانه شاهد ولاحظ بلا خلاف انهم اكثر نشاطا واجتهاداً واحسن تعليما وهمة فلذا كان يركن اليهم ويثق بهم اكثر من المسلمين . والغى وابطل كل القوانين الاستبداديه والاضطهاديه التي كانت موضوعه ضدهم وكان يعاقب عقوبه صارمه كل الذين يشتم منهم رائحه القيام بثورة التعصب الديني وفي ذلك الحين كان ينتخب بقدر امكانه نوابغ الارمن أو الكاثوليك أو بعض الاورباويين المسيحيين من اجناس مختلفه ويجعلهم في خدمته لانه لاحظ بفكره الثاقب وبعيد نظره للمستقبل انه لو استخدم الاقباط الوطنيين في وظائفه ولو أن فيهم الكفاءة الا انه حاذر وقوع خطر في المستقبل منهم اذا قوية شوكتهم وازداد نفوذهم في البلاد التي لا ينسون انهم اصحابها الاصليين . ولكن كان ناظر ماليته الحقيقي هو المعلم غالي الذي كان وكيل دائرة الامير محمد بك الالفي وقد نهب بيت المعلم غالي وسلب ما فيه في تلك الايام . وكان محمد على باشا دائما يصغى لوشي الوشاة الذين اتهموا المعلم غالي في ذنب كاذب وذلك طمعاً باموا له التي يريدون اخذها

منه فاصدر محمد على باشا امره سنة ١٨٢١ بقتله وبعضهم يقول ان المعلم غالي جلب على نفسه هذه المصيبة لانه ارسل للسلطان تقريراً حقيقياً عن المالية المصرية . ويقول البعض الاخر انه لسبب عدم طاعته للاوامر التي صدرت له بتحصيل ضرائب من بعض القرى بالقوة وبغير طرق قانونية محللة . ولكن مهما كانت الاسباب ومهما كان ذنبه فانه كان سبباً في تخلص محمد علي منه وقد كان قتله امام ابراهيم بك بن محمد علي وطوبيا بك بن المعلم غالي نفسه بدون ادنى محاكمة أو اثبات ذنب .

وكان وزير خارجيته بوغوص بك وهو مسيحي ارمني الاصل ثم اخلفه ارتين وهو من جنسه ايضاً . ونظم بحريته مثل جيشه البري بواسطة رجال من الفرنساويين من اهل الفن . وكان الانكليز هم رجال الدولة الوحيدة التي كان محمد علي يخاف سطوتها فكان يستخدم منهم القليل جداً بقدر الامكان ولكن بحكم الضرورة التزم أن يرسل لانكلترا يطلب كثيراً من مهندسيها لاستخدامهم في اعماله .

وبعد أن سحق محمد علي قوة الوهابيين في بلاد العرب واسس قوته في مصر على اساس متين لا يمكن هدمه حول دفة انظاره الى السودان .

ومن عهد سقوط الممالك المسيحية في السودان في النصف الاخير من القرن الخامس عشر لم توجد حكومة منظمة في القسم الاعظم من السودان الكائن بين وادي حلفا وحدود الحبشة الشمالية الغربيه . وادعى

ملوك سنار الصغار العبيد جنساً والمسلمون ديناً السلطة الاسمية على النوبة من ابتداء القرن السادس عشر ولكن حقيقة الحال التي لا ريب فيها أن السودان كانت في ايدي جماعة من العرب تجار الرقيق الذين عاشوا في تلك البلاد على السلب والنهب بين سكان السودان المستقلين الذين كان بينهم قليل من المسيحيين .

ولو أن محمد علي باشا كان بلا دين ولا يعتقد بالاديان الا انه كان يعرف انها ذات اهمية عظمى في السياسة وتمكن من اعتماد مشروع حملته وتحسينها في اعين رعاياه المسلمين بان ارسل ثلاثة من علماء الاسلام مع الحملة واعطاهم التعليمات اللازمة ليس فقط ليجتهدوا ويؤثروا بتبشيرهم ووعظهم على السودانيين ليعتنقوا الاسلام بل لتفهيمهم وجعلهم يعتقدون أن الطاعة العمياء في الامور الزمنية والروحية هي بلا شك فرضاً واجب القيام به للخليفة امير المؤمنين

وفي يونيو سنة ١٨٢٠ م (شعبان سنة ١٢٢٥ هـ) بارحت الحملة القاهرة في النيل وهي خمسة الآف جندي نظامي ومعهم بعض العربان وثمانية مدافع وركبت في اسطول مؤلف من ثلاثة الاف مركب صغيرة وقائدها اسماعيل باشا احد اولاد انجال محمد علي باشا وقامت على البر قوة خيالة لتلحق بتلك الحملة عند اصوان . وصادفت الحملة صعوبات قليلة في طريقها حتى وصلت دنقله وبربر وشندي بعد أن قطعت في النيل الشلال الاول فالثاني فالثالث حتى السادس وقد اخضعت كل ما مرت به من

القرى والبلدان بدون مقاومة الى أن وصلت اخيراً الى سنار حيث وجدت اثار التمدن القديم الذي زرع الاقباط (١) المصريون بذوره في تلك البلاد وانشأوا فيها كثيراً من الفنون والصنائع والمعامل بقدر ما امكنهم .

ولما وصلت حملة اسماعيل باشا الى سنار وجدت الخصام قائماً كما هي عادة الشرقيين بين اخوين يتنازعان على عرش السودان فبددت شملهما جنود الحملة بدون صعوبة . ثم جاء اسماعيل باشا بملك من السوادنيين كان مخلوعا ومسجونا واقامه على العرش بصفة نائب في حكم البلاد عن محمد على باشا وبذا انتهت مأمورية ضم البلاد السودانيه الى مملكة محمد على المصرية .

«١» المعروف عند الناس عامة ان الكنيسه المسيحيه القديمه محيت من السودان قبل القرن التاسع عشر ولو ان البلاد وقعت في تعاسة عظيمه وصارت الديانه المسيحيه لا تمارس فيها الاسراً فانه بقى فيها بعض من الاتقياء المسيحين في بعض الاقاليم السودانيه يتحملون عسف المسلمين حتى عصرنا هذا . ولما ذهب الجرنال غوردون الى الخرطوم سنة ١٨٨٥ وجد باقيا فيها اسقف قبطي من الكنيسه المصريه وكان في ابروشيته سبعة كنائس ودير للراهبات وبعث الجرنال غوردون الاسقف بامان الى القاهره قبل سقوط مدينة الخرطوم في ايدي الدراويش وبعد ذلك اعتزل الاسقف الخدمة الدينية ولايعلم ماذا تم لكنائسه واقباطه على عهد المهدى .

اما اسقف الخرطوم فمات في ربيع سنة ١٨٩٧ مسيحية اثناء تأليفنا هذا التاريخ

ودام السودان معتبراً اسمياً جزءاً من املاك مصر حتى سنة ١٨٨٦م ولكنها لم تكن ملكا مقيداً أو سائداً فيه السلام ولو انه كان يمكن لمصر ان تنشيء فيه حكومة منظمة

ولكن ما اصاب اسماعيل باشا القائد الذي نجح في فتحها اظهر حقيقة ضعف قوة مصر على السودانيين . وتفصيل ذلك انه اثناء رجوع اسماعيل باشا بجنده عبر النيل الى شندي في البر الشرقي وتعرض لملك شندي لتقصيره جباية الاموال فاستدعي اسماعيل باشا هذا الملك واسمه نمر وقال له (عليك ان تاتيني قبل خمسة ايام بملء قاربي هذا من الذهب والفين من العساكر) فاستعطفه الملك ليتنازل عن القدر فقبل منه اسماعيل باشا عشرين الف ريال فضه عوضاً عن الذهب فاجابه على ما أراد لكن التمس تطويل الاجل . فضربه اسماعيل باشا بالسيف على وجهه قائلا (لا . ان كنت لا تدفع المبلغ فوراً ليس لك غير الخازوق جزاء) فسكت نمر واضمر الشر وصمم على الانتقام وطيب خاطر الباشا ووعده باتمام ما يريد وفي تلك الليلة صار يرسل التبن الجاف احمالاً الى معسكر اسماعيل باشا علفا للجمال انما جعله حول المعسكر كانه يريد اشعاله . وفي المساء جاء نمر ومعه جماعة من الاهالي ينفخون بالمزمار ويرقصون رقص السودانيين المعروف فطرب اسماعيل باشا وضباطه من منظرهم وزاد عدد المتفرجين من الاهالي حتي اصبح كل أهل المدينة هناك فامرهم ملكهم نمر بالهجوم فهجموا على اسماعيل باشا ورجاله بغتة واشعلوا النار

في التبن فمات اسماعيل باشا وكثيراً ممن كانوا معه بين قتل وحرق وفي اليوم التالي اتموا على الباقين وساقوا سلبهم الى المدينة . فاغتاظ أحمد بك الدفتردار الذي جاء من مصر عقب ذلك بمدد وأقسم ان ينتقم لاسماعيل باشا بقتل عشرين الفاً من السودانيين لحارب الملك نمر وهزمه وصار يقتل في السودانيين ويتفنن في اساليب القتل حتى أنفذ قسمه بتمام قتل العشرين الفاً وبذا تم افتتاح السودان

وكان ضعف الدولة العليه المتزايد واشتغالها باحوال اليونان جعلت السلطان غير قادر على التداخل في شوون نائبه الشديد البأس محمد على باشا في مصر . وكان اليونانيون بعد ان عاشوا زمنا تحت نير الاتراك واستعبادهم مثل المصريين قد افاقوا وقاموا يمثلون بالمصريين وهبوا في وجه الدولة طلباً للاستقلال .

وذلك المثال لم يتجاسر المصريون على القيام بمثله (١) . واتخذ محمد على باشا حرب اليونان مع الدولة العليه فرصة سانحة لاشغال معظم جيشه الذي كان بلا عمل بعد الحمله السودانيه فارسله لمساعدة السلطان في

---

(١) ولو ان عرابي باشا دبر سياسته بالارتكان على كثير من الانكليز. فانه لم يكن الاشجاعا عسكريا مقداما كالشكل الذي كان يوجد منه كثيرون لسؤ الحظ في البلاد المصرية اثناء الالف سنة الاخيرة ولو نجح في ثورته لوقعت البلاد في اعظم التعاسة ولم تقم في مصر قبل عرابى ثورة اهليه عامة عظيمة مثل ثورته من عهد القرن التاسع للميلاد

حروبه وهو اشغل نفسه في اصلاح مصر التي جعلها ملكه الخاص . وكان يرغب في تحسينها رغبة طبيعية . وكان حاد الذكاء فبالرغم عن غلطاته المرعبة التي قاده جهله بارتكابها فان احوال مصر الماديه تحسنت تحسيناً بيناً على ايامه . واصبحت في عز ورخاء . لانه اعاد زراعة القطن واحيا كثيراً من الصنائع بعد موتها تحت نير احكام الاتراك المسمه . وحفر كثيراً من الترع الجديدة واخصها ترعة المحموديه باسكندرية . وانشاء المستشفيات ومدارس طبيه بتعليمات وارشادات الفرنساويين . وايضاً صرف مبالغ طائلة في ايجاد فاوريقات ومعامل للصناعه . وقد هدم الهياكل المصرية القديمة في انحاء البلاد ليبني المعامل التي لم تستعمل كلها ابداً . واوجد الامن في ربوع البلاد المصرية . وانشاء للمدن والبنادر بوليسا منظما لحمايتها وملاحظتها وهذا أول شكل من نوعه رأته البلاد المصرية بعد اجيال طويلة . وبالنسبة لاجتهاده ونشاطه عادت طرق قوافل التجارة والبريد ثانيا بين مصر وبلاد الهند وبلاد الشرق الاخرى في اسيا وعلاوة على كل ذلك فانه أوجد مطبعة كبرى عظيمة في بولاق فكانت تطبع وتنشر الكتب المترجمة من اللغات الاجنبيه الى العربية وتبيعها باثمان بخسه جداً كي تنشر العلوم والمعارف بين المصريين . ثم اهتم بالحالة العلميه فشكل مجلسا للمعارف العمومية . فتح مدارس كثيرة لتعليم شبان القطر وكان يرسل بعضاً منهم الى أوربا لتتميم دروسهم على مثل الارساليات العلميه فى هذه الايام وغرس كثيراً من البساتين

والاشجار في الجيزة وشبرا واوجد حديقة الازبكية ومصلحة الصحة وقسم القطر الى مديريات

ومع كل هذا النجاح فان محمد على كان لم يزل مثابراً في السير الى أخر غرضه المقصود وهو الاستقلال التام بالاسم والفعل . وفي سنة ١٨٣١ م رأى ان الوقت قد حان لتتميم هذه الامنيه . وقد كان وقتئذ الباب العالي مشغولا في ثورات استقلال السرب وبوسنيا واليونان سراً وسياسيا كل من فرنسا وانكلترا وروسيا . فانتحل محمد على حجة ركيكة لفتح سوريا .

ففي نوفمبر سنه ١٨٣١ م ارسل ابنه ابراهيم باشا يقود حمله بريه وبحريه فوصل سوريا وأخذ غزه ويافا بدون مقاومه أما عكا فدافعت دفاعا هائلا مدة ستة شهور واخيراً سلمت فى ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ ثم سار ابراهيم باشا الى دمشق فاخضعها ولم تدافع الا يسيراً وبارحها الى حمص حيث كانت الجنود العثمانية تنتظره لرده عن فتح سوريا تحت قيادة محمد باشا والى طرابلس فعسكر ابراهيم باشا فى حمص يوم ٨ يوليو سنة ١٨٣٢ م فهجم عليه محمد باشا فقهره ابراهيم باشا واستولى على حمص فخافت سوريا سطوة هذا القائد العظيم فسلمت له حلب وغيرها ووقعت كل سوريا في قبضته . ولكنه لم يقف عند هذا الحد من النصر العجيب

بل لما تشكى والي طرابلس امر انكساره للباب العالي خاف هذا

سطوة ابراهيم باشا وارسل رشيد باشا بستة الاف من الجيوش العثمانية لايقافه عند حده . وكان مع ابراهيم باشا ثلاثة الآف من الجنود المصرية فقط فسار نحو الاستانة لملاقاة رشيد باشا فالتقى الجيشان في دسمبر سنة ١٨٣٢ م في كونيه جنوبي اسيا الصغرى وبعد حرب هائلة تغلب ابراهيم باشا على الجنود العثمانية مع انها ضعف جنوده وتقهقرت بقائدها رشيد باشا فاخترق ابراهيم باشا اسيا الصغرى وتهدد القسطنطينية بالفتح فخافت الدول العظمى التي لاتريد أن تنظر وجود دولة اسلامية جديدة مصرية قوية تقوم على انقاض الدولة العثمانية القديمة فتداخلوا في الامر وفي مقدمتهم روسيا فانفذت الى مصر البرنس موارفيف لمخاطبة محمد علي بايقاف جيشه المنتصر عن التقدم الى القسطنطينيه وهددته بالحرب أن لم يذعن فبعث الى ابنه ابراهيم باشا أن يتوقف عن المسير الى الاستانة . ثم عقدت معاهدة الصلح بين محمد علي باشا والسلطان بمساعي الدول من مقتضاها أن تكون سوريا قسماً من مملكة مصر وابراهيم باشا يكون حاكماً عليها وجابياً لخراج اذنه . وتم ذلك الوفاق في ٢٤ ذي القعده سنة ١٢٤٦ هـ (١٤ مايو سنة ١٨٣٣) ويدعى وفاق كوتاهيا .

فعاد ابراهيم باشا الى سوريا واهتم بتدبير احكامها وتنظيمها على النسق الذي اتبعه ابوه في مصر وجعل عاصمة ملكه انطاكيه وابتنى فيها قصراً وقشلاقات وتساهل تساهلاً تاماً مع الدروز والمارونيين وسائر ملل

النصارى وصار يستخدم منهم من يليق لخدمته في مستعمرة ابيه محمد علي متخذاً خطة ابيه لا يبالي بالوطنية أوالدين . ولم يضغط الاعلى اليهود فقط ولكن لم يضطهدهم اضطهاداً علنيا بل لم يرفع عنهم دواعي الانحطاط (١) والضعف ولم يدافع عنهم المصائب والمضايقات التي كان المسلمون يقومون بها ضدهم وكان ابراهيم باشا سائراً بكل حكمة ودراية خشية سوء العقبى ومع ذلك لم ينج من ثوره قام بها جماعة من جبال نابلس اطفأ نارها محمد علي نفسه . وذلك بانه اوجد للمسلين الثائرين عذراً قاموا بسببه في فواحش وكبائر هائلة ضد اليهود وكان مسيحيو الناصره وبيت لحم واورشليم سياخذون نصيبهم من بلاياهولاء الثائرين لولا ان دافعوا عن انفسهم حتى جاءتهم النجده من مصر بامر محمد علي باشا

وفي سنة ١٨٣٥ م اصاب مصر كوليرا دامت عدة اشهر واثرت تأثيراً مرعبا في اهلها . وكان يوجد طبيب فرنساوي يدعى كلوت (وهو كلوت بك) الذي سمي باسمه احد شوارع محمد علي الجديدة وهذا الطبيب اثار ايات الاعجاب به في نفس محمد علي باشا لتصرفه العظيم بتخفيف وطأة الكوليرا عن الاهالي فانعم عليه بلقب بك

---

(١) قيل أن مسلمي دمشق شكوا الى ابراهيم باشا من أن قباحة المسيحيين قد زادت عن الحد حتى انهم صاروا يظهرون في الشوارع راكبين الخيل فنصح ابرهيم باشا المتذمرين بكل هدو ورزانه قائلا اذا كنتم تريدون الظهور ارفع واعظم من النصارى فاركبوا الجمال (فتكونوا اعلى منهم مقاما)

وبين الكثيرين من الزائرين الاوربا ويين لبلاد مصر التي كانت اكثر امناً واكثر باعثاً لسرورهم مما كانت لاهلها انفسهم كما لم تزل للآن هو ؟؟ المستر لاند التلميذ الطائر الشهرة . هذا الف كتاباً دعاه (المصريون الحديثون) على ان عنوانه الحقيقي يصح ان يكون (سكان القاهرة الحديثون) وهو لذيذ جدا يستحق أن يقرأه كل واحد . واهميته تنحصر في وصف المسلمين القاهريين الذين عرفهم المؤلف واقام بين ظهرانيهم في سنة ١٨٢٥ م . وفي فترة اخرى من سنة ١٨٣٣ الى سنة ١٨٣٥ م وتعرف بهم تمام المعرفة . اما الاقباط فكانوا ينظرون اليه بعين الظن والريب . ما عدا واحد منهم فقط اجتهد كثيراً أن يتعرف به ويكتسب صداقته بالرغم عن مخالفة ابناء جنسه ومع ذلك لم يتمكن المستر لاند من المحادثة معه . ومن الغريب ان جل قصد هذا الزائر كان الحصول على بعض معلومات عند الاقباط يثبتها في كتابه وبكل تعب تحصل على بعض مواضيع طفيفة وبالاسف كانت كلها غير صحيحة

ومن سنة ١٨٣٨ الى ٣٩ زار محمد علي باشا بنفسه بلاد السودان ليتأكد حقيقة من وجود مناجم الذهب التي قالوا لها عنها وترك القاهرة تحت عناية حفيده عباس باشا وفي أثناء غيابه انتهز السلطان الفرصة لاثارة الحرب عليه بمصر فلما عاد محمد علي باشا الى مصر ذعر من استعدادات الباب العالي فكتب الى ابنه ابراهيم باشا يستحثه للاستعداد للدفاع فحشد ابراهيم باشا جنوده لدفع الجنود العثمانية القادمة براً

وكان الفيكونت بونسو نوبى سفير انكلترا في الاستانة قد نصح السلطان بالعدول عن ذلك المشروع المهلك فجاء نصحه عبثا وتهجم السلطان على خراب نفسه . فسار الجند العثماني والتقى بالجيوش المصرية وحصلت مواقع شديدة بين الجيشين في نزيب انتهت بانهزام العثمانيين انهزاماً تاماً وتقهقرهم الى مرعش . واتفق في اثناء ذلك وفاة ساكن الجنان السلطان محمود خان الذي لم يسمع نصيحة سفير انكلترا في ٢٦ ربيع اخر سنة ١٢٥٤ هـ « ٣٠ يونيو سنة ١٨٣٩ م » قبل بلاغه خبر انهزام جيشه . فتولى الخلافة بعده ابنه السلطان عبد المجيد وفي ذات اليوم الذى نودي به سلطاناً في القسطنطنية سار الاسطول العثماني الذى كان جهزه ابوه بقيادة فوزي باشا بعد اطلاق مدافع التحية والتعظيم للسلطان الجديد وزين المراكب وحول دفة وجهته الى الاسكندرية حيث تعاهد هذا الاميرال الخائن بتسليم الاسطول ليد محمد علي باشا وكانت هذه التصرفات سرية لم يطلع عليها مطلقا الكبتن ووكر القائد البحري الانكليزي الذي كان مرافقا للاسطول العثماني . فعند وصول الجميع للاسكندرية استقبلهم محمد علي باشا كاصدقاء فلما ادرك الكابتن الانكليزي الامر الذي كان مخيما على مخيلته كالظلام أبى العوده على اسطول العثمانيين وعزم على الرجوع وحده ثانياً الى القسطنطينية .

والتزم محمد علي باشا من ذلك الحين أن يعمل حسابا لوجود مانع جديد قوي اكثر تعرضاً للوقوف في سبيل مشروعه ونوال قيمة ما

تطمح اليه نفسه وهذا الحاجز الجديد الذي يعترضه هو اقوى من كل ما تقدم من الموانع التي اعترضته في سبيله — واعني بهذا المانع — معارضة كل الدول العظمى له وعرقلة مسيره وعلى الخصوص دولة انكلترا

وان جئنا هنا بالحقائق التي أثرت على الدول الاوروباوية العظمى وجعلتها تنوي على ايقاف محمد علي عند حده لاحتاج الحال لشرح طويل ممل . فنقول الآن هنا ان محمد علي باشا لم يقتصر على ما اكتسبه من امتلاك مصر والسودان بل من الواضح ان نفسه كانت تطمح الى اعمال أحسن من ذلك فكان يحلم بالفتح العام ويخضع مملكة بعد مملكة بجيشه الذي وان كان صغيراً لكنه احسن من جنود الجيوش التركية المتوحشة التي لا تعمل شيئاً في الحرب الا الضرر .

فلما انست الدول الاوروباوية المتحدة عزم محمد علي باشا على هذا المشروع اجتهدت في وضع حد لمشروعاته ومطامعه في الفتح واتحدت على تنفيذ ذلك الحد فاوفدت الحكومة البريطانية الكولونيل هودج ليبلغ قرار الدول الى محمد علي باشا .

وحوالي اخر سنة ١٨٣٩ م نزل الكولونيل هودج في الاسكندرية واستعمل كل لطف ورقة في مخاطبته مع محمد علي سياسيا ليوصله الى الامر المراد اخباره به بالتدريج فلم تأت هذه السياسة بفائدة والتزم الكولونيل بتبليغ محمد علي باشا رسميا في يناير سنة ١٨٤٠ م انه جاء نائبا عن انكلترا ليخبره بان دولته وباقي الدول الاوروباوية العظمى لا توافقه

على اتمام مشروعاته وطمعه في الفتوحات ولا تسمح له القيام بها.
وقال له السفير ان شاء فليحصر فتوحاته في قارة افريقيا كلها فقط ويبني له في تلك القارة مملكة عظيمة تشرح خاطره وتسد مطامعه فلا تعارضه الدولة في ذلك أما في اوربا واسيا وكل ما يختص بهما فلا تسمح له الدول بذلك مطلقا

وكان محمد على باشا مثل كثير من الحكام والقواد الشرقيين فانه لم يعترف باهمية الامر الذي بلغ اليه تحت ستار لطيف ورقيق المخابرة وكان معتزاً بقوته لانه كان لديه اذ ذاك نحو ١٤٦ الفاً من الجنود النظامية و ٢٢ الفاً من الباشبوزق منها ١٣٠ الفاً تحت قيادة ابنه ابراهيم باشا في سوريا والباقون متفرقون في الحجاز وسنار وجزيرة كندي ومصر عدا تلامذة المدارس الحربية الذين في مصر

ولم يصدق محمد على باشا ان انكلترا كانت تخابره في ذلك جدياً فتخابر مع السفير عن « حقوقه » فجلبت نتيجة هذه المخابرة مذكرة شديدة من حكومة انكلترا انه ليس له « حقوق » الا التي يعطيها له السلطان ورضيت الدولة بها شرطا انه يمكن سحبها في أي وقت. فبعد ان اطلعه السفير الانكليزي الكولونيل هوردج على كل تلك الاقتراحات رأى منه رفضاباتاً بعد طول المخابرات فالتزم بقطع المخابرات مع مع في شهر مارس سنة ١٨٤٠ م

وفي ١٥ يوليو سنه ١٨٤٠ م (٢٤ جماد اول سنة ١٢٥٥ هـ)

معاهدة في لندن وامضيت من كل دول انكلترا والنمسا وروسيا والمانيا والدولة العلية مقتضاها ان مصر تعتبر جزءا من أملاك الدولة العلية وان محمد علي باشا يكون من الولاة التابعين لهذه الدولة وان يعطيه جلالة السلطان ولاية مصر وراثية لنسله بشرط ان يكون لجلالته الحق المطلق في ان يختار من عائلة محمد علي من يريد لتوليتها وان تضمن له الدول المذكورة هذا الامتياز وعلاوة على ذلك يستمر مالكاً طول حياته ولاية عكا وجنوب سوريا وفي هذه المعاهدة انه ان لم يقبل محمد علي بنودها وشروطها في بحر عشرة ايام من تاريخ وصولها الى مسامعه تسحب منه ولاية عكا وجنوب سوريا وبعد عشرين يوما تعتبر كل حقوقه ساقطة ايضا في مصر وسوريا.

وفي اغسطس سنة ١٨٤٠ قام رفعت باشا سفير الدولة العلية حاملا هذه المعاهدة وعقد مجلسا في مصر مع محمد علي باشا وابلغه كل بنودها ومعانيها. وجاء ثاني يوم قناصل الدول الكبرى المذكورة وانتظروا التصديق على شروط وبنود معاهدتهم. فاتكل محمد علي باشا على مساعدة فرنسا له ولو انه لم يعارض ويرفض كثيراً من بنود تلك المعاهدة ولكنه استعمل المحاولة والمراوغة والتمهل وغرضه من ذلك وجود وقت يتبصر فيه. وبعد انتهاء العشرين يوما سأله قناصل الدول لاعطاء اخر قرار فطلب التاجيل لوقت اخر ولم يكن يظن ان الدول تقدر ان تنفذ في معاهدتها من التهديد. ولكنه عرف حالا ان الامر حقيقة

وان الشروط لاغش فيها اذ رأى قبل انتهاء السنة كل سوريا في يد الجيوش العثمانية والقائد العام عليهم السير تشارلس سميث الانكليزي . ورأى أيضا الاساطيل الانكليزية والنمساوية والعثمانية حاصرت كل الشواطيء السورية والمصرية وهرب ابنه ابراهيم باشا الذي في سورية الى الجبل . وتحت فرنسا عن التداخل الذي كان ينتظره محمد على باشا منها . وفي ٢١ نوفمبر سنة ١٨٤٠ وصل الاسكندرية الكومندور نابير وبعد قليل ارسل عدة خطابات رسمية لمحمد على باشا أوضح له فيها صريحا ان الدول تسمح للباشا ببقائه في مصر اذا أسرع بالخضوع وقبول شروط المعاهدة بلا امهال . ففهم محمد على جيداً معنى تلك الملحوظات التي تعرضها عليه انكلترا. وامضى بسرور على اتفاقية مبدئية عقدت بينه وبين نابير وقنصل انكلترا في ٢٧ نوفمبر مضمونها ارجاع الاسطول العثماني الذي أخذه بالغش من الاميرال فيرزي باشا العثماني واخلاء سوريا على شرط ان الدولة الانكليزية تضمن بقاءه في مصر . فلم يسر الباب العالى ولا الاميرال الانكليزي ولا السير تشارلس سميث من هذه الاتفاقية واتبعوا باب العدل وقالوا ان نابير تعدي العدل في شروطه . ولكن انكلترا رضيت بها وتنفذت . وفي ٤ فبراير سنة ١٨٤١ م سحب محمد على باشا جنوده من سوريا وبلاد العرب وخانيه . وفي ١٣ منه الموافق ٢١ ذي الحجة سنة ١٢٥٦ هـ ارسل له جلالة السلطان خطاً شريفاً بتثبيته على مصر مع حقوق الوراثة لاعقابه . ثم صدر ايضاً فرمان اخر يثبت ولايته على نوبيا

ودارفور وكردفان وسنار واصبحت حكومته بعد ذلك الفرمانيين محصورة في مصر والسودان . فقنع محمد على باشا بما قسم له من البلدان وعكف الى اصلاحها داخليا وعمل على ارضاء جلالة السلطان فانفذ اليه ابنه سعيد باشا لتقديم فروض العبودية . وبعد ذلك الحين مرت على مصر ست وخمسون سنة يحكمها امراء من سلالة ذلك النادر المقدام والفاتح (١) الهمام محمد على باشا المقدوني

وظل محمد على متكدرا من تلك الحوادث اثني عشر سنة . حتي قبل موته باثنى عشر شهراً اصبح غير قادر على الاحكام . ويظهر ان نجمه السعيده وحظه العظيم ابتدأ ان يهجره بعد سنة ١٨٤٠ م

وفي سنة ١٨٤٣ م زار مصر طاعون المواشي بدرجة مرعبة واصبح من المتعذر جداً الحصول على البهايم لعمليه حرث الارض فالتزم محمد على باشا باستخدام خيول الجيش في الزراعة . وكان يرى بعض الاحيان الجمل والحمار مربوطان معاً في المحراث، في كثير من القرى كان الفلاحون يعلقون انفسهم في المحراث ويجرونه بدل البهايم . وفي تلك السنة دام

---

(١) واثناء كل الحوادث المتقدمة اجتهد محمد على في فتح وتسهيل الطريق الموصل للهند من داخل البلاد المصرية كما كان قبلا . وكان هذا الصنيع الذي يشف عن بعد نظره في السياسة باعثا لايجاد علائق المحبة العظيمة بينه وبين انكلترا وصك تجار بومباي مداليه شرف له باسمه مكتوب عليها ايات التكريم والمدح والثناء

فيضان النيل طويلا على الارض وبتأخير نزول المياه ضاعت الفرصة على الفلاحين لتجهيز ارضهم للزراعة · وقيل انه هلك بهذا الطاعون مائتان الف ثور . وفي السنة التالية خربت مصر أيضاً بطاعون الجراد وانتشرت الكوليرا أيضاً في فصلي الشتاء والربيع واصبح في مصر اربعة اعداء اشداء هم طاعون المواشي والجراد والكوليرا وزيادة الفيضان

اما السودان فلم يكن قد ضم بعد الى مملكة مصر الا ان احمد باشا الذي ولاه محمد علي باشا على السودان وهو من المماليك لم يكن الا تاجراً عظيماً في الرقيق بدرجة هائلة وكان يعضده جيش منظم لجلب الرقيق والاتجار به فضلا عن استخدام نفوذه الرسمي في ذلك

وكان محمد علي باشا غير عالم بشيء من ذلك لان رجال حكومته لم يطلعوه على حقيقة الامر خوفاً من تأثير الكدر عليه حيث كان قد طعن في السن وأثرت على صحته نتائج الحوادث المتقدمة ولا سيما ضغط الدول عليه التي اهبطت مساعيه حتى ملّ من مباشرة الاحكام ولذلك كانت ترفع اليه التقارير الخاصة باحوال البلاد منقحة وملطفة ومحذوفاً منها كلما يحدث الكدر

وكان حاكم السودان يفتح جميع المراسلات التي ترد على الخرطوم ويحرقها بما فيها مراسلات الاوربا ويين والتجار وكان اهل السودان في ضيق شديد من استمرار تعدي الحكام والعساكر على خطف أطفالهم

منهم وتصديرهم للمتاجرة بهم كالاغنام والسلع ولم يكن من يرثي لشكواهم ويغيثهم من هذا الكرب غير السائحين الاورباويين الذين لا يعرفون المحاباه ولا تحزب لجانب من الطرفين .

وقد نشأ عن هذه الاحوال وعن تسخير عدد عظيم من الفلاحين البؤساء في الاشغال العمومية ان سكان القطر المصري كلهم اصبحوا يئنون تحت انياب الفقر سنة اكثر من سنة وايضاً وصلت البلاد المصرية الى حالة تعاسة هائله واصبحت مديونة بينما كانت الاموال تبذر تبذيراً بلا فائدة على المعامل الصناعية والقصور والمنازل التي يبنيها الاورباويون في اكبر المدن المصرية فتضايقت البلاد حتى كثرت مهاجرة الناس سنة ١٢٥٩ هـ (سنة ١٨٤٤ م) لتعذر دفع الرسوم المطلوبة منهم والحاح الحكومة في طلبها بكل واسطة واذا خلت قرية من اهلها اضافت الحكومة رسوما على القرية الاخرى بجانبها فكثر اللغط في البلاد كل ذلك من سوء تصرف العمال . فرأى ابراهيم باشا ان اخفاء تلك الاحوال عن ابيه ربما يؤول الى خراب البلاد فأخذ على نفسه تبليغه ذلك فكلف شقيقته في ٢٥ يونيه سنة ١٨٤٤ م ان تبلغ الامر اباها بطريقة لطيفة وغير رسمية (خوفاً على صحته) ما وصلت اليه البلاد من العسر واشتداد الازمة الماليه اشتداداً هائلا وقتئذ فلما ان بلغته اشتمل محمد علي غيظاً فخاف وزراؤه المسيحيون والتزموا تبليغه نتيجة الحال رسميا يائسين . ولكن محمد علي في ذلك الوقت لم يكن كما كان في اول نشأته وذلك

بسبب كبر سنه وتوالي المصائب عليه بعد ان افل نجم فتوحاته فان عقله ضعف فحمل هذا البلاغ على مكيدة اعدوها له فبرح سرايه في الاسكندرية واقام عند صهره محرم بك بجانب الترعة المحمودية وصار يقسم مصرحا بانه محاط بقوم خائنين ولذلك فهو مستعد للتخلي عن الحكومة والذهاب الى مكة فحاول ابناه سعيد باشا وابراهيم باشا مخاطبته واقناعه بالحقيقة فلم يصغ لجاءه سامي باشا اعز اصدقائه فلم يقتنع الا بما سبق اليه فهمه وقال ان مصائب بلادي ما نتجت الا من خائنين دسوا السم في الدسم فاستنتج من اعماله انه اصيب بنقص في عقله ثم سافر محمد علي باشا مع طبيبه الى القاهرة فعرض الناس الولاية على ابنه ابراهيم فأجابه انه لا يقبلها طالما كان ابوه حيا . ولما وصل محمد علي باشا القاهرة عاد الى صوابه وروعه وفطن لنفسه فجمع رجال حكومته ووبخهم على اخفاء تظلمات الاهالي عنه ثم تداخل ابراهيم باشا في الامر وصرف المشكل

وفي سنة ١٨٤٦ م وصلت محمد على باشا دعوة رسميه للذهاب لتقديم فروض العبودية لجلالة السلطان الاعظم في الاستانة فعرف محمد على باشا ان هذه الدعوة معناها طلب تقديم رشاو وهدايا هائلة للسلطان ورجاله .

فوصل الاستانة في ١٩ يوليو سنة ١٨٤٦ م ونزل في سراي رضا باشا وتشرف بالمثول بين يدي امير المؤمنين فرحب به ولما اراد تقبيل لاعتاب الشاهانيه امسكه واجلسه بجانبه ومكث معه ساعة يتحادثان ثم

انصرف شاكراً وزار عدوه القديم خسرو باشا وتصافيا وفي ١٧ اغسطس سنة ١٨٤٦ م برح الاستانة الى قوله مسقط راسه فأنشأ فيها المدارس لتعليم الفقراء وملاجىء للضعفاء والمساكين ثم برحها قاصداً الاسكندرية فقوبل بالانوار وسار منها الى القاهرة فتقاطر اليه المهنئون افواجاً وكان يقابلهم وعلى صدره الطغراء الشاهانية تتلألأ كالشمس. وكان ابنه ابراهيم باشا قد اصيب ايضاً بانحراف في صحته فسار الى اوربا ترويحا للنفس فصادف ترحاباعظيما في سائر المالك الاورباويه ولاسيما فرنسا وانكلترا وعاد الى مصر في اواخر صيف سنة ١٨٤٦ وتقابل مع ابيه وهنأ بعضهما بسلامة الوصول الى الوطن بعد سياحتهما.

وكانت آخر مشروعات محمد علي باشا الاصلاحية الخطيرة في آخر حياته هي القناطر الخيرية التي وان يكن.اصل فكرة تشيدها ينسب الى قريحة وذكاء احد المهندسين الفرنساويين لكن هذه الفكرة ظلت في عالم الخيال ولم تجد طريقا لظهورها في عالم الوجود الا بعد خمسين سنة بواسطه ذكاء احد المهندسين الانكليز الذي عرض مشروعه على محمد علي وابان له عظيم فائدته للري فاقر محمد علي باشا على مباشرة العمل وقام بوضع الحجر الاول منها سنه ١٨٤٧ م باحتفال عظيم جدا. وحوالى آخر هذه السنه اصبحت صحته وابنه في انحطاط . وفي يونيه سنة ١٨٤٨ م زاد ضعفه كثيرا وازدادت فيه ظواهر التخريف والبله فلم يكن بد من انتقال عنان الاحكام الى ابنه ابرهيم الذى بعد

تثبيته في الولاية بفرمان سلطاني راجعه المرض واشتد عليه بغتة ففارق هذا العالم في ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ م وبعد وفاته باحدى عشرة ساعة دفن بجوار الامام الشافعي (مدفن العائلة الخديوية) جنوبي القاهرة كل ذلك وابوه محمد علي باشا في الاسكندرية وقد اخذ منه المرض مأخذا عظيما وما زال يهزل جسدا وعقلا حتي توفى في ٢ اغسطس سنة ١٨٤٩ م . ولم يستغرب الناس موته لانه ظل ينازع طويلا . وفي ٣ منه تقاطر الاعيان والقناصل الى سراي رأس التين لحضور مشهد ذلك الرجل العظيم فاذا به في قاعه الاستقبال موضوعا في نعش تغطيه شيلان الكشمير وعلى صدره سيفه والقرآن وعلى رأسه طربوشه الجهادي الاحمر التونسي وحوله ٢٢ من العلماء بالملابس الرسمية يتلون القرآن بانغام محزنة فعزى الناس سعيد باشا اكبر عائلته الذى نقله الى القاهرة ودفنه في جامع القلعة .

وهكذا مات محمد علي بعد ان وضع الاساسات المتينة الكافلة لضمان اعضاء عائلته من غوائل الموت المعتاد حصولها في الاقطار الشرقية .

وكان عباس باشا حفيد محمد علي غائبا في مكة فاستقدم حالا لاستلام زمام الاحكام فوصل القاهرة في ٢٤ دسمبر سنة ١٨٤٩م بعد ان قضى فروض الحج واخلف عمه ابرهيم باشا على الاريكة المصرية بدون حدوث اي صوت معارض لانه اكبر ابناء العائلة وجاءه الفرمان الشاهاني من الاستانة مؤذنا بذلك .

الفصل الثالث والسبعون

الاحتلال الانكليزي

سنة ١٨٥٤ مسيحية و١٥٧٠ للشهداء و١٢٧٠ للهجرة

ان تاريخ الديار المصرية في الخمسين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر حسن جدا ولذا فاننا نثبت حوادثه هنا بفصل قصير ونسرد الحوادث حتى نصل بالقارىء الى الاحتلال الانكليزي للبلاد فنقول

ارتقى عباس باشا الاريكة المصرية وهو ابن طوسون باشا ابن محمد علي باشا . ولحسن حظ مصر لم تطل مدة حكمه عليها الا ست سنوات . وكانت أخلاقه الخصوصية وصفاته رديئة فتقهقر نفوذه في البلاد وتوفي في وسط عائلته[١] في شوال سنة ١٢٧٠ هـ الموافق يوليو سنة ١٨٥٤ م .

واخلفه على الولاية سعيد باشا ابن محمد علي باشا وكان يشبه عباس من أكثر الوجوه . وابتدأت البلاد تتنازل بالتتابع الى درجات الفقر المدقع تحت أحكام سعيد باشا وخلفه الاكثر عظمه والذي لا يقف في وجه اغراضه علة الا وهو اسماعيل باشا لانهما سارا بحسب الغريزة الشرقية

---

(١) كانت قساوة واستبداد عباس باشا شديدة على نسائه خصوصاً . فانه خاط يده فم احدى جواريه عندما رآها تشرب الدخان وتركها مخيطة الفم تتخبط من الالم والجوع حتى ماتت ببطء .

الحقيقية بان ابتدأت أعمالهما من الطرف المخالف ولم يكن لاي منهما ميل للاختلاط بالرعايا المصريين والعطف عليهم سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين ولم يكن لهما أي ميل لصالح الفقراء من الرعايا الذين كانوا يساقون للاعمال الشاقه تسخيراً في انجاز الاشغال والاعمال العظيمة التى أثارت تعجب الاوروباويين ووصلت نتيجة الضرائب القادحه على الاهالي الى درجة هائلة جداً جعلت الفلاحين المصريين جميعاً مديونين لجماعة اليونان الذين يقرضونهم أموالهم بفوايظ فاحشة وكان يقترضها الفلاحون لتسديد طلبات ومطامع الحكومة التي كانت تعد كأنها بلا خديوي

الا انه الى سعيد باشا تنسب كل شؤون التمدن الحديث الذي انتشر في القطر المصري بعد ان كان متخرباً . وينسب الى سعيد باشا الذي قام بنشر ذلك التمدن بارشاد الفرنساويين كأبيه هدم الهيا كل القديمة ليبني بانقاضها في المعامل الصناعية فأوجد دار الآثار المصرية (الانتيكخانة) ودور الحفر والبحث على الآثار في تانيس وسايس وطيبس وكينوبوليس وبواستيس (تل بسطه بالزقازيق) واتريبيس وهليوبولس (عين شمس) وممفيس وسقاره وأبيدوس ودندره وطيبه وادفو . وفي أيامه أيضاً أنشئت السكة الحديدية بين مصر والاسكندرية وبين الاولى والسويس وكان فساد الاحكام في السودان مستمراً وتجارة الرقيق منتشرة في مصر باوسع معانيها وفي ايام سعيد واسماعيل هرع كثير من الاوروباويين الى البلاد المصرية وخصوصاً اليونان والطليان والفرنساويين وتوطنوا فيها .

وهم الذين تمتعوا حقيقة بالادارة المصرية التي لم يستفد منها المصريون الا القليل . أما الاقباط فكان مصرح لهم التمتع بالحرية والتساهل وهي المزايا التي منحهم اياها محمد علي وتساووا بالمسلمين من بعض الوجوه حيث من منذ الفتح العربي للديار المصرية سنة ٦٤٢ مسيحية لم يكن مصرحاً لاي مسيحي مصري من الحاكم المسلم ان يحمل سلاحاً وذلك عقب انتهاء الثورة القبطية العظيمة التي حدثت في القرن التاسع عشر وجعلت من المستحيل على أي قبطي التمكن من حمل السلاح . وكانت الضرائب الخصوصية التي يدفعونها علاوة على الاضطهادات والاختلاسات الغير القانونية التي تقع عليهم سبباً شدد عضلات جماعات الجنود الاجنبية للحرب لانهم منعوا من الاندماج في سلك العسكرية في جيوش الاحتلال المختلفة التي حلت بمصر وكانوا ميالين لهذا المنع ليعيشوا بهدؤ وسكينه وان خالفوا روح اجدادهم الحربيه التي كانت غريزيه منهم بالرغم عن هذا المنع وميلهم اليه وقد ظهرت تلك الروح باجلى مظاهرها في القائد يعقوب القبطي الذي تولى قسماً كبيراً من الجيش في عهد الفرنساويين . الا ان مع ذلك كله نقول بكل اسف ان الاقباط كانوا على مثال الانكليز في عهدهم القديم من حيث هروبهم من الخدمه العسكريه طالما وجدوا تحت قيادة معلمين من المسلمين حتى لا يحاربوا ضد امتهم القبطية . لان الجيوش الاسلامية في مصر كثيراً ما كانت تساق لتعذيب الاقباط الغير المسلحين اكثر مما كانت تساق في حرب

عليه قانونيه ضد عدو اعتيادي . ولكن لما اصدر سعيد باشا امره ان كل المصريين بدون تمييز في الدين يكونوا تحت طلبات العسكرية فاستعمل المسلمون هذا القانون آلة لاضطهاد المسيحين فقبضوا في اسيوط على كل الذكور في اغلب البيوت القبطية وساقوهم للعسكريه ولم يتركوا ولا واحدا منهم لاعالة النساء والاطفال ولما انتظم الاقباط في سلك العسكرية اتخذ المسلمون منهم خطه عموميه لاضطهادهم وتعذيبهم ليجبروهم على تغيير دينهم . ولم يكن لهم رجاء ولا في الارتقاء في وظائف الجيش على عهد شعبه كما هم فاقدين ايضاً هذا الرجاء في الجيش المصري الجديد هذه الايام (١) ولذلك فان ذلك القانون الذي اصدره سعيد باشا جاء ضربة هائلة وسبب التعاسة والشقاء على الاقباط — حتى التزم بطريركهم كيرلس الرابع الملقب (بابي الاصلاح القبطي) رفع تظلمات شعبه الى الانكليز (٢) فاجبر سعيد باشا برفع تلك المظالم عن الاقباط ليس بواسطة حكومة انكلترا بل بتأثير بعض رجال الانكليز الذين كان يخشاهم ويخشى بأسهم ويحافظ على عدم تكديرهم .

---

(١) ولو ان الضباط الانكليز لا يعلمون هذه الحقيقة الا انه يظهر انها معلومه جيدا عند كل المصريين وانه مهما كانت ضرورة استخدام القبطي في الجيش فانه امر ترقيته فيه لا يتعدى درجة معلومه

(٢) ان قنصل جنرال فرنسا المسيو ساباتيه عرض على البطريرك استخدام نفوذه الفرنساوي في مساعدة الاقباط على شرط ان البطريرك يصدر امرا لامبراطور الحبشة بدخول اليسوعيين واقامتهم في تلك البلاد .

وبذلك التزم سعيد باشا باعفاء الاقباط من الخدمة العسكرية ولكن لم يترك هذا الصنيع هبأ للبطريرك بل كتم غيظه منه واتخذ الوسائط اللازمة لسمه باسم الحكومة ومات البطريرك المسكين مسموما نظير جهاده في سبيل راحة شعبه . وبعد موته صارت الحكومة تطرد مئات من الاقباط الموظفين في مصالحها .

وكان عباس باشا الغى المدارس الحربية التي انشأها محمد علي باشا فاخذ سعيد باشا تلاميذها الباقين منها واستخدمهم في جيشه وخرب الكتبخانة التي كان ابتدأ محمد على بجمع الكتب فيها وابادها

وفي ايامه ثارت مديرية الفيوم على الحكومة فاخمدها وبنى قلعة عند القناطر الخيرية سماها القلعة السعيدية سنة ١٢٧١ هـ وأدى فريضة الحج. وولى البرنس حليم باشا حكمداراً على السودان وزار سوريا سنة ١٨٥٩ م (١٢٧١ هـ) وكان اثناء مروره في شوارع بيروت ينثر الذهب على الناس

وفي سنة ١٢٧٨ هـ (١٨٦١ م) توفي المغفور له السلطان عبد المجيد وتولي الخلافة بعده السطان عبد العزيز وفي يوم السبت ٢٦ رجب سنة ١٢٧٩ هـ أو ١٧ يناير سنة ١٨٦٣ م توفى سعيد باشا في الاسكندرية ونقل الى مدفن العائلة في القاهرة واخلفه اسماعيل باشا وهو ثاني أبناء المرحوم ابراهيم باشا بن محمد على باشا وكان اسماعيل باشا بارعاً في العلوم متقنا

فن الهندسة والرسم . واليه ينسب خصوصا ذلك الحمل الثقيل من الديون الباطلة التي تخرب أعظم مملكة تكون أقل ثروة طبيعية مثل القطر المصري ومع ذلك فان تلك الديون الهائلة انزلت بمصر الى حضيض الافلاس المدقع بالرغم عن ثروتها الطبيعية .

وكان اسماعيل باشا فيه روح الميل الى تعظيم نفسه ورفع مقامه الى مصاف السلاطين والملوك كاميال جده الاكبر محمد على ان هذا كان قليل الاشتغال والمتاعب بوساوس ووشايات الاعداء بسائر أنواعها عن ذلك . ان حبه للشهرة والعظمة كان سبباً لتحسين مصر الاقتصادية والادية فانه مدد سكة حديد أخرى في انحاء الدلتا وحفر كثيراً من الترع وأنشأ مصلحة البوسطة وأنشأ السلوك التلغرافية والمدارس وأوجد الامن والضمان على الارواح والممتلكات ما عدا حوادث القتل والنهب التي كانت تحدث في سبيل صوالحه الشخصية . كان معظم مصروفاته الخصوصية تقريباً على الحريم الذين بلغ عددهن نحو الف امرأة اسكنهن [1] في قصور مختلفة صرف على بنائها من الاموال التي كان يقترضها

وكانت الحرب الاميريكية في تلك الايام سبباً في جلب السعادة والرخاء العظيم على مصر عدة سنوات . فكثرت الطلبات على القطن

---

(١) معظم هؤلاء النسوة البائسات هلكن جوعا عند ما عزل اسماعيل عن الاريكة المصرية لو لم يتداركهن نجله توفيق باحساناته .

المصري في تلك السنين بلا حد وكان المزارعون المصريون يقبضون عنها أثماناً عظيمة توهموا انها ستدوم الى الابد ولكن حصل رد فعل لتلك المطالب وكانت النتيجة خراب كثير من المزارعين وكثير منهم سقطوا بلا رجاء في قوة أيدي المداينين اليونان الذين أقرضوهم الاموال بالربا الفاحش

وأحسن شيء جميل ونافع وثمين (للمصريين) وآخر صنيع نافع في أيام حكم اسماعيل هو قناة السويس. فكانت تلك القناة نصراً عظيما للفرنساويين وأعظم عمل موافق لصالح الانكليز. ولكن فائدتها للمصريين يداخلها الريب والشك واشترى اسماعيل هذه القناة من عالم الوجود بحياة الالوف من رعاياه المصريين لانه لم يصرف عليها فقط آخر فلس جمعه من الفلاحين التعساء بل اقترض على اثمانها أموالا طائلة من كل قطر يقبل اقراضه. ولما أصبح من الواضح انه ان لم يتخذ لحاملي سندات دين اسماعيل الوسائط القوية لصيانة أموالهم لما ردّت اليهم الاموال ولا أرباحها فمكنوا على دول أوروبا العظمى بالتداخل في شؤون اسماعيل المالية. فجاءت وفود مالية مختلفة للمراقبة والتفتيش على نظارة المالية فاظهر اسماعيل باشا المقاومة والعند لاولئك المراقبين الماليين

وشرع المالي الالماني العظيم بمفاتحته رسميا وله الفضل الاول في

ابتداء المخابرة وعقد المجالس القضائية وأخيراً أصدرت المحاكم الاهلية (١) قراراتها لصالح الحكومة الالمانية التي كانت تطالب مصر بمبالغ عظيمة من ديونها . فانكر اسماعيل باشا هذه الاحكام ورفض دفع الاموال المطلوبة . فاتخذ البرنس بسمارك السياسي الداهية الالماني العظيم عند اسماعيل هذا سببا لاقالته من الاريكة الخديوية . اما فرنسا وانكلترا رفضتا التداخل والدولة العلية كانت أضعف من ان تفعل ما فعلته المانيا ولا تقوى على عزله . وفي ١٩ يوليو سنة ١٨٧٩ م وصله تنبيه رسمي بالاستقالة وبعد ان كظم اسماعيل غيظه وحنقه خمسة أيام كان في اثنائها الاوروباويون القاطنين في القاهرة يترددون في حقيقة الخبر واذا به قد انتشر في القاهرة خبراً مفاده ان اسماعيل باشا سلم عرشه المصري واعتزل الملك ويوم ٢٦ يونيو نزل هذا الحاكم المعزول من القلعة ووَلي مكانه ابنه محمد توفيق باشا

وكان توفيق باشا الوحيد في حسن الاخلاق من بين حكام الدول الاسلاميه المختلفه الذين حكموا مصر وكان الناس لا يفهمون اخلاقه مدة حياته حتى مماته ولم ينل من انصافهم له الا القليل . وكان يصعب على الاورباويين وشعبه الاعتقاد بوجود اي واحد مخالف لتعاليمه

(١) كانت هذه المحاكم في الحقيقة احسن ما نفحت به مصر من النفع العظيم ايام حكم اسماعيل والمصريون مديونون بالشكر والثناء لمؤسسها ناظر النظار المسيحي المعروف لهم وهو نوبار باشا

ومبادئه. وكان من طبعه الاقتصاد والاعتكاف عن مخالطة الغير فاعتبر الناس ذلك منه بلادة او غباوة وتمهله بالضرب بصرامة للدفاع عن صوالحه الشخصيه او ضمان نفسه اعتبروه كذلك ضعفا فيه وليس تأنّ منه ورزانة وسعيه واجتهاده المخلص لاشتغاله جيداً مع العناصر المتضادة والمتناقضة حوله لصالح بلاده في غالب الاحيان كما نسبوه لعدم الاخلاص. وكان توفيق مسلما تقيا. ولكن قلبه كان خاليا من كل عوامل التعصب والحماس الديني وهذه العوامل اصبحت جزءا عظيما من دستور الاسلام. وخاطر بنفسه بين ابناء دينه نحو (الدوسة) وبعض مفاسد وبدع اخرى لا تليق من الدين الاسلامي. وكان مقتصراً على زوجة واحدة التي كانت له خير رفيق ومعين. ولكنه كان يظهر العطف والشفقة على مئات النساء البؤساء اللواتي تركهن ابيه وكان يبذل ما في وسعه لراحتهن

ولما ارسل اسماعيل يستدعيه امامه في ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ ظن مع كل من في القصر انه سيسمه كما هي العادة ليتخلص منه حيث كانت الدول واضعة نظرها عليه. وكان طيب القلب. حسن السريرة. فكانت زوجته تتضرع اليه بدموع غزيرة لتسكبه ليهرب حيث كانت توجد الفرصة ولا يقدم نفسه للموت. وقيل انها ركضت وراءه بملابسها المنزلية

(١) طبقا للشريعة الاسلامية القديمة القاضية بان الذكر الارشد في العائلة هو الذي يرث الولاية المصرية فتوفيق باشا لم يكن الوارث طبقا للشريعة. وقد رشى اسماعيل الباب العالي ليأخذ امتياز حصر الخديوية المصرية في اكبر ابنائه الذي لم تكن علاقاته معه على ما يرام.

لتمنعه عن الخروج فلم تتمكن من ذلك لان توفيق خرج مسرعا بدون تمهل لاعتقاده بلا شك انه يؤدي الواجب عليه. وبعد ذلك ببضع سنوات رفض بتاتا دعوة الادميرال الانكليزي له ليسرع ويلتجيء في باخرته الحربية (سنة ١٨٨٢) مع انه يعرف جيداً انه لا يوجد فرد واحد من رجاله يثق ويعتمد عليه. وكان ينتظر في ذلك اليوم ان رجال جيشه العصاه الثائرون سيقتلونه. واثناء أيام الثورة المفزعة المرعبة التي أعقبت ضرب الاسكندرية بالمدافع كان توفيق يخرج تقريبا بمفرده لاعادة الطمأنينة والامانة بين الاهالي الثائرين والمضروبين. ولم ينجُ بحياته من خطر الهلاك الا لحسن حظه في تعرفه بأحد الشبان الانكليز الذى كان أبيه موظفا في الحكومة المصرية واسرع هذا الشاب في الحال وأوقف طلق المدفع الذي كان سيذهب بحياة توفيق.

وموته الذي جاء بغير أوانه سنة ١٨٩٢ جعل ترك الانكليز لبلاده أدبيا من المستحيل. وبالكد لم يكن يوجد فرق عظيم بين جنازتين رسميتين مثل الفرق الذي بين جنازة توفيق وجنازة أبيه اسماعيل التي اتبعته بعد زمن يسير. ذلك لان جنازة توفيق لم تكن منتظرة بالمرة كما كان يعتقد الكل. فلما توفي فجأة لم يكن وقت كاف يمكن الحكومة من القيام بالاجرآت اللازمة للاحتفال بتشييعه. ولكن لما ذاع خبر موته فزع وهرع كل الشعب المصري على اختلاف أجناسه وأديانه وعليه علائم الحزن والاسف وازدحم الخلق في كل الشوارع واصطفوا فيها

صفوفا متواصلة بكثرة هائلة وهم ساكتون صامتون واذا أطلق ولدآ صوته كانوا يسكتونه كان الجميع على رؤوسهم الطير حتى اقترب المشهد فسرى صوت حزن عام كسريان التيار الكهربائي بين جميع القوم المحتشدين . ولم يبق ولا واحد في القاهرة الا وخرج لرؤية المشهد والموظفون والتجار تركوا حوانيتهم والملاحون تركوا مراكبهم ليشاهدوا تلك الجنازة الوطنية . وبعض الانكليز الذين شاهدوا النعش بحزن مغطيا غطاء بسيطا ومحمولا بين ذلك الشعب المتكاثف كأنهم رأوا كل ما كانوا يحبوا ان يروه من المشاهد الرسمية الدينية التي كانت تقام من زمن مديد في مصر . وكانوا يظنون انه لا يوجد شيء يوقظ سكان القاهرة المختلفي الاجناس الذين ليس لديهم الا شقشقة اللسان . فلما أنسوا الحزن على هؤلاء القوم عرفوا خطأهم فيما كان يظنون .

ولما مات اسماعيل وانتشرت الاخبار في القاهرة انه سيرجع اليها ثانيا ليدفن في مدافن العائلة الخديوية فالدهشة والرعب اللذان ساد بين معظم السكان الوطنيين كانت مما توجب الضحك والسخرية . وأول ما ابتدأوا بعجوبهم هو انهم أبوا ألا يعتقدوا بان اسماعيل ليس ميتا بل حيا وصاروا ينوحون ويقولون ان الانكليز يعملون حيلة في ارجاعه ثم صاروا يقولون للانكليز (قد وعدتم ان اسماعيل لا يرجع مصر طول ايام حياته — ثم بالطبع هو مات — ليرجع ثانية بجنازته) هل اتخذتم الوسائط اللازمة ؟ هل ارسلتم الاطباء الانكليز لفتح النعش قبل نزوله

على البركه وتأكدتم أن اسماعيل فيه؟ كلا لم تفعلوا ذلك — سوف ترون . أن اسماعيل راجع بجنازته بصفته ميتا ولكنه لما يرى نفسه انه في وسط البلاد فانه يكشف الخدعه ويقوم في الحال ويقبض على البلاد بيد من حديد — فماذا نعمل اذاً؟ واصبح كل واحد يعرف ما الذي سيحدث قبيل ذلك وكل الذي كان يعتقد هذا الاعتقاد كان يترك مشاهدة الجناز الرسمي وحتى الذين أجبروا على حضوره انسحبوا من المشهد بجهل في نقط مختلفه على طول الطريق . فما وصل المشهد شارع محمد علي حتى كنت ترى الذين يتبعونه ليس الا جماعة الاوباش يعملون غاغة بلا فائدة الذين كانوا يظهر اما انهم غير مكترثين به أو اعداء له . ثم اسرعوا بدفنه في جامع الرفاعي الغير متمم البناء . ففرح كل المصريين لما صدقوا أن جثته حقيقية دفنت وان الخوف من قوة ضرره انتهى

ونرجع لتاريخ توفيق فنقول أن فضائله التي كان متحليا بها هي التي جلبت الخطر على عرشه . فعرابي العاصي كان قد سقط مع اصحابه في ذلك الحين الى درجات الذل والهوان باسباب نبذ طاعته وفساد سلوكه وانحرافه عن جادة الحق ايام اسماعيل . ولكن عاد اسماعيل فاحبه في اواخر حكمه ورقاه الى رتبة اميرالاي في الجيش واقسم يمينا مغلظا بين يدي اسماعيل انه سيكون في جانبه وتحت امره حتى الممات . وبعد ذلك القسم بثمانية واربعين ساعة توجه عرابي ليقدم فروض العبودية الى توفيق خديوي مصر الجديد الذي لما ارتقى على الاريكة الخديوية المصرية بذل جهده في

تفهيم الناس انه يعفوعن كل واحد له ذنب في الماضي . وبعد العفو يكون له حظا وافراً في المستقبل اذا احسن السلوك . فربما كان عرابي يقنع بذلك العفو وتلك الترقية ولا ينزع الى الثوره . ولكن ابت الظروف الا أن تجعل البكوات والبشوات الاتراك الذين تعودوا دائما الازدراء بالاخطار ووضع اساسات التحمس للقتال والضغط على الطبقات الواطيه من الاهالي وهم خلوا من القصاص هالهم أن يروا توفيق قد عزم باخلاص على التعاون والاتحاد بمستشارية الاوروباويين على تجديد البلاد المصرية في الفلاح والنظام كانها مولدة ثانيه فعزموا على اتخاذ عرابي آله لقلب العرش الخديوي والدولة حتى يتخلصوا كما يعتقدون من المراقبة الاوروباوية . وساعدهم على غرضهم هذا مساعدة عظيمة بمساعي ذات معنى مهمه لبعض السواحين الانكليز الذين كانوا يعتقدون حقيقة أن عرابي هو زعيم وقائد حزب وطني مهم فاظهروا في الحال عانا ما ينوونه . ولكن بالنسبة لقلة فطنتهم وفقد رويتهم وسلوكهم ببصيرة قاصرة جعلوا الثوار يعتقدوا أن انكلترا وفرنسا لا تتداخلان في الامر كما وان الحكومة لا تقوى على تشتيت وتبديد ذلك التأثير

ففي شتاء سنة ١٨٨١ — ١٨٨٢ اصبح المركز حرجا وتزايد حراجه يوما بعد الاخر حتى اصبحت الجنود الوطنية في حالة غطرسة ووقاحة وتهديد متزايد وايام عدم الامن على الارواح والاموال قد عادت كما كانت قديما وتعرضوا للسيدات الانكليزيات فصار لا تسلم واحدة منهن من

سبها علنيا . واضحت حكايات القيام بمذبحة عامة في النصارى منتشره في البلاد وبعد بضعة اسابيع جاءتنا تعليمات من الوكالة البريطانية بان كل واحدة وواحد منا يحبس نفسه في صندوق صغير ويأخذ معه ضرورياته وان يستعد الجميع معا للدفاع عن انفسهم ساعة الخطر في أي لحظة .

ولكن في شهري ابريل ومايو لم يقم العصاة بامر مضر علنيا كما كانوا يشيعون وابتدأ الناس يفتكرون في أن الثورة ستكون قاصرة على الخطب التهديدية والاقوال عوضا عن الافعال ورجع اغلب السكان الى بيوتهم في فصل الصيف كالمعتاد .

اما الذين بقوا على الثورة ولم يغشوا بتلك الاقوال وقاموا بتلك الثورة والمذابح الهائلة في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ التي لم تمثل بابشع معانيها في ذاكرة كل واحد للآن فلا لزوم لتكرار سرد تفاصيلها المؤلمة والمحزنة . اما توفيق باشا فسافر من القاهرة الى الاسكندرية ولو انه لم يتاخر للتعرض في قمع تلك الثورة والضرب على ايدي القائمين بها لكن لم يقدران يفعل شيئاً لانه لم يجد احداً من رجال حكومته في حزبه بل رأى الجميع من حزب الثائرين وكان تقريباً منفرداً . وقد كان عنده سبباً جيدا في الاعتقاد بان انكلترا وفرنسا سيتركانه للاقدار ونصيبه في نتائج تلك الثورة . فمال الى التصديق بانكار اشتراك عرابي في جريمة المذبحة وصار يعتقد فيه انه الشخص الوحيد الذي فيه القوة الكافية لحسم الثورة واعادة النظام وكان يعرف من جهة اخرى أن السلطان كان يعضد

عرابي والثوار وحقيقة ذلك فانه في ٢٥ يونيو سنة ١٨٨٢ انعم السلطان على عرابي بالنيشان المجيدي الاكبر . وفي اثناء ذلك كان الاوروباويون يمرون هاجرين البلاد المصرية بالالوف وكانت المراكب البحرية تقلع مسرعة من اقرب المواني المصرية مملوءة بالمهاجرين بدرجة الازدحام الهائل الذي لا يوصف . وكانت قطارات سكة الحديد تقوم من داخلية البلاد الى الاسكندرية وبورسعيد مملوءة بالناس الموضوعين فوق بعضهم حتى سقوف العربيات. ووصل الاسكندرية في يوم ١٥ يونيو فقط اربعة الاف مهاجر. اما التجارة فكسدت بالكلية وبدأت البنوك بترحيل اشغالها وموظفيها الى المراكب الحربية التي كانت تقلع وعليها امم عظيمة من كل الاجناس الاوروباوية وصار رفت ٣٠٫٠٠٠ من الاهالي من خداماتهم الاهلية والاميرية وتركوا بائسين بلا معين يتضورون جوعا في الاسكندرية . وما الاهالي فقط الذين يهربون من وجه الدماه بل ايضا كان كبار العرب والعائلات التركية يسرعون بمبارحة البلاد ويبتعدون عن الثائرين. فانذعر عرابي من تلك الاحوال وادرك بعد فوات الوقت الغلط الذي وقع منه واجتهد في جعل الاسكندرية في مركز ضرر عظيم ضد البواخر الحربية الاوروباوية . فعرض رجال الاسطول الانكليزي على الخديوي أن ينزل ويلتجىء في احدى بواخر الاسطول فابى بقوله انه لا يقدر أن يترك الباقين معه على الاخلاص له (ولو أن الجيش المصري كان كله ضده) كما وانه لا يود أن يهرب وينجو بنفسه ويترك مصر تهاجمها

قوة اجنبيه فترك للقتل في أي لحظة بيد رجال جيشه الثائرين ولكن عطف عليه الانكليز ورجع اليه ثانيا السير وكلاند كولفين يوم ١٠ يوليو ورجاه أن يجيب طلبه وينزل معه الى البحر .

وبعد محاولة الحصول على مساعدة فرنسا بلا فائدة تداخلت انكلترا وحدها في الامر في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وظلت طول ذلك اليوم تطلق مدافعها على طوابي الاسكندرية وما عتم المساء حتى خمدت تلك الطوابي وصارت غير قادرة على المقاومة . ولسوء الحظ لم تنزل الجنود الانكليزية الى البر بعد ذلك لامتلاك المدينة ونتج من هذا التأخير انه بعد يومين قلبت تلك المدينة التعيسة الى ديوان أبالسه أو مجمع شياطين بواسطة الجنود المتمردين الذين أبوا اطاعة أمر الانسحاب من الطوابي وبواسطة السفلة والرعاع من الاهالي . وغصّت الشوارع من هؤلاء الاوباش الهائجين وهم يصرخون قائلين (نذبح النصارى ! نذبح النصارى !) وصاروا ينهبون كل شيء يصل تحت أيديهم واطلقوا النيران في المنازل فعم أجيج واشتعال النار في جميع انحاء المدينة . واحترقت نقطة المنشية الكبرى وتخربت عن آخرها ما عدا الكنيسة الانكليزية وأغلب البيوت التي في الشوارع الاوروباوية الكبرى . ولما التزمت القوات البريطانية للنزول الى البر يومي ١٣ و ١٤ يوليو سنة ١٨٨٢ — كانت مدينة الاسكندرية في حاله مرعبة ومذعرة مما

ولكن من بعد نزول الجنود البريطانية اليها لم تعد تتدهور الى حالة

أشنع مما كانت فيها بل أخذت في التحسين . وفي أغسطس من تلك السنة احتل الاسطول الانكليزي قناة السويس لئلا يردمها الثائرين ويسدونها ووصلت في الحال نجدة بريه مسرعة من انكلترا للمساعدة على الهجوم . وبعد عدة مناوشات بين العرابيين والانكليز كان عرابي يرسل الى القاهرة أحسن أخبارها السارة . وآخر معركة فاصلة بين الانكليز والثائرين كانت في التل الكبير في ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ اذ بدد الانكليز شمل كل المصريين المحاربين وهرب عرابي الى بلبيس حيث ركب قطاراً وسافر به الى القاهرة في مساء تلك الليلة ولما وصلها أخذ يدبر وينظم طريقة في تخريب وقتل وسلب كل المدينة ولكن قبل ان يبتدىء العمل الفظيع في ١٥ ستمبر سنة ١٨٨٢ خيب الانكليز تدابيره ورحموا المدينة وأهاليها بسرعة الحاقهم به لانه بعد ان انقضت المعركة في يوم ١٣ ستمبر وفر عرابي أسرع القائد الانكليزي بتجهيز فرقه خيالة صغيره تحت قيادة الجنرال دراري لو وأرسلها في ذات اليوم بعد المعركة لمتابعة عرابي فقطع رجالها خمسة وستين ميلا على ظهور الخيل ودخلوا القاهرة الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم التالي أي يوم ١٤ منه وفي الحال طلب الجنرال دراري من حامية العباسية التسليم وهي حامية قوية مؤلفة من ٦٠٠٠ مقاتل فسلمت للانكليز بدون شرط عند أول اشارة . ولكن كانت حامية مصرية أخرى في القلعة يربو عددها نحو أربعة آلاف رجل فارسل الجنرال دراري الكولونيل واطسون

في كتيبتين من فرقة فرسان الحرس الرابعة ليأخذ القلعة حالا . ولكن عندما أوقف رجال الكتيبتين الانكليزيتين الجمة الخيول كان قد حان الغروب وأظلمت الطريق امامهم فلم تنثن عزيمتهم لاهمية ماعهد اليهم انجازه فتشجعوا وقاموا في الحال لانجاز الامر وساروا حتى وصلوا بوابات القلعة وأرسلوا الى القائد المصرى الذي فيها يطلبون منه اخلاها من جنوده حالا بعدان يسلموا سلاحهم للجنود الانكليزية فاصطف كل الجنود البياده المصرية في صفوف وألقوا سلاحهم وساروا يعبرون خارجين من بوابات القلعة امام قبضة من الجنود الانكليزية وحالما خرج آخر واحد من المصريين وتفرقوا جميعا أسرع الانكليز ودخلوا القلعة وأغلقوا بواباتها عليهم. وقد علمت من جواب كتبه لي أحد أصحابي الذي كان مرافقاً لذلك الركب الانكليزي الشهير (قال فيه انه ما كان على الانكليز ان يفعلوا الا ان يظلوا منتصبين على خيولهم صامتين حتى مرّ آخر عسكري مصري امامهم وبعدئذ ترجلوا وضجعوا على الارض مثل أكوام الحطب) . ولكن كان باقيا على الانكليز ان يأخذوا جبل المقطم وهو المتسلط على القلعة

ولما اختبر الكولونيل واطسون حالة الجنود المصرية تشجع ولم يعد يخشى بأسهم فأرسل أحد الضباط المصريين الذي كان يرشد الانكليز عن كل شيء وكلفه ان يتوجه لحامية المقطم ويكلف قائدها ليسير بجنوده الى قصر النيل ويسلموا سلاحهم هناك فذهب الضابط المصري وعاد

بعد ساعتين ومعه مفاتيح الحصن وأخبر الكولونيل واطسن ان أوامره تنفذت

وكان عرابي اثناء هذين اليومين مشغولا في ارسال الرسائل البرقية الى محمود سامي والقاريء يجد ترجمة تلك الرسائل في تأليف المستر رويل عن غزوة الانكليز لمصر فهي كتابة تلذ قرأتها جداً خصوصاً سؤالاته عن وجود جيشه الذي تركه في التل الكبير لانه اختفى بالمرة . وفي الحقيقة ذلك لأن جيش التل الكبير لم يكن الا مجموع فلاحين بؤساء أجبروا على ترك مزارعهم وحمل السلاح في خلق قادمين ليس لهم معهم فائدة ولاهم من تابعي دينهم فبعد كسرتهم في المركة تفرقوا أيدي سبا وبعد قليل رجع الفلاح الى بيته في قريته وكانوا يرصعون الطريق بملابسهم ومهماتهم الحربية التي كانوا يتزيون كي لا يعرفهم أحداهم جنود . أما الجنود الذين كانوا في كفر الدوار وأبو قير ورشيد فسلموا أيضاً بدون حرب . وعبد العال الذي كان متحصناً في دمياط امتنع في بادىء الامر عن التسليم ولكنه لما سمع ان الانكليز قادمين لضربه سلم في الحال

وفي ١٧ ستمبر سنة ١٨٨٢ أمضى الخديوي علي أمر عال يقضى بانحلال الجيش وتفريقه لان أغلبه كان قد رجع ثانياً لساحات القتال . واحتل الانكليز كل المراكز العسكرية التى هجرها المصريون وقبضوا على زمام البلاد وظلوا فيها حتي اليوم.

ولا يمكننا ان نتكلم في هذا الكتاب عن كل الاسباب التي حملت

انكلترا ان تحتل الديار المصرية أو تبقى فيها لانه خارج عن موضوعنا وانما نقول بوجه الاجمال ان المعروف عند كل الناس ان اسراع الانكليز في دخول مصر ليس فقط انقذ القاهرة من الخراب والاوروباويين من الخطر الهائل الذى كان محدقاً بهم بل أيضاً جاء سداً حصيناً لمنع وقوع اضطهاد عام ضد الاقباط الذين كان أغلبهم يعرفون حرج موقفهم امام المسلمين وكان يستعد كثيرون منهم للاستشهاد الاكيد الذي كان سيحل بهم لو نجح عرابي في مساعيه قبل ان يدركه الانكليز حتى انه بعد الحوادث العرابية بزمن زار أحد السياح الانكليز الكنائس القبطيه التي في وادي النطرون فوجد فيها صورة صلاة شكر لله باللغة العربية كان الاقباط يتلونها في الكنائس تذكاراً لله على مجيء الانكليز.

وتقريباً كل طبقات المصريين الذين يتحدثون عنا يكرهوننا ويودون التخلص منا لاسباب لا يمكن لنا ايضاحها.. ولكن تلك الاسباب لا تخجل أي انكليزي على الاطلاق مع علمهم ايضاً ان كثيراً من جماعات المصريين الذين كانوا يشتغلون أشغالا شاقه وهم ساكتون لا يتجاسرون على تقديم الشكر للانكليز سواء كانوا مسلمين أو اقباطا — وان تجاسروا للشكر لا يشكرون — ومثلهم في ذلك مثل الخوف الخرافي الذى يقود كثيراً من الاوروباويين ان يتجنبوا كل شعور مؤثر ويهيج لغيرتهم الوطنية

ومع ذلك فالحقائق واضحة تنطق شاهده لنفسها لان من يقلب الكتب يجد فيها مايدل على ذلك كله. ذلك لان الشرقيين ذوي ذاكره

قاصره. والجيل الذي يتخرج هذه الايام من المدارس الحديثة النمط لا يعرفون شيئاً عن الايام الماضية في بلادهم — كقوة الضرائب الفادحة التي كان الحكام المستبدون يفرضونها على الفلاح المسكين الذي كان يجد ويتعب طول السنة ويصرف ثمرة اتعابه لدفع ضرائب كعدمها . لا يعرف أبناء هذا الجيل الاشغال الجبرية بلا أجرة التي كان يسخر فيها أجدادهم — لا يعرفون الضرب بالكرباج يميناً وشمالا الذي كان يستعمله الحكام في الناس حتى من باب مجرد المزاح والهزل — لا يعرفون ان المحصولات كانت تخزن وتبقى على الارض حتى تتلف عن آخرها من نفسها لعدم وجود المال اللازم عند الفلاح ليقدم منه رشوة لمعاون الحكومه ليأتي ويجري شؤون وظيفته لتثمينها — لا يعرفون ان حتى ماء الحياة كان لا يعطى الا للغني والفقير يترك حتى يموت عطشاً كما كان في سنة ١٨٧٩ . لا يعرفون ان كل هذه المظالم القديمة قد خيم عليها العدل في هذه الايام . ولكن لا يقدر المصريون أهمية تلك المزايا والاصلاحات العظيمة التي أتاها الانكليز في بلادهم قبل الاوان حيث ان المثل الانكليزي يقول اذا كان يلزم ثلاثة أجيال لايجاد رجل حقيقي فلاشك انه لا يلزم اقل من ذلك لايجاد أمه حقيقية

الفصل الرابع والسبعون

الكنيسة القبطية في القرن التاسع عشر

سنة ١٨٠٩ مسيحية و١٥٢٥ للشهداء و١٢٢٤ للهجرة

كانت حالة الكنيسة القبطية في بدء القرن التاسع عشر في أسفل درجات الانحطاط سواء أن كان في عدد شعبها أو في الظروف والمصائب التي حلت بها . ومن اول فتوحات مصر المتتابعة بواسطة كثير من الحكام المسلمين لغاية فتح الفرنساويين لها والاقباط البؤساء مسيحيو الكنيسة الوطنية المصرية هم اول من يقع على رؤوسهم مساوىء الفاتحين والمصائب التي ترافق وتعقب كل فتح . وعلاوه على الفقر المتزايد في الممالك العثمانية فان الاضطهاد الديني المزمن يزيد الرعايا العثمانيين تعاسة على تعاسة وعلى الخصوص اقباط مصر الذين ولو انهم كانوا طول حياتهم على أيام السلاطين المماليك عائشين عرضة للسلب والنهب والاضطهاد يومياً طبقاً لامزجة واميال مضطهديهم المسلمين فانهم على الاقل كانوا يستخدمون في التمرينات الفنيه العظيمة الفائدة التي كانوا يمارسونها . فكان المسلمون يستخدمونهم في بناء الجوامع الجميلة التي تعتبر اعظم مثال لصناعة النقش الحجري الشرقيه وفي كثير من الاحيان كانوا يستخدمونهم في تصوير خطوط اليد التي يوجد منها الآن مجموعات كثيرة معروضة في الكتبخانة

لخديوية ولا ننكر بلا شك أن المسلمين كانوا يميزون القبطي المسلم
تماعند ما توجد ظروف التمييز والتفضيل عن القبطي المسيحي لان
لاول اعتنق الاسلام والثاني باق مصر على اعتقاده فالمسلمون كانوا
يستخدمون الاقباط المسيحيين اكثر من الاقباط المسلمين . ولكن اغلب
الاقباط الذين أضاعوا دينهم المسيحي يظهر انهم ايضاً أضاعوا معه المعارف
الصناعية والفنيه التي ينبذها دينهم الاسلامي الجديد وينهي عن ممارستها
ويحرمها . الا أن صناعة الاويمه (النقش على الخشب) والنقش على النحاس
والترصيع كانت لم تزل تستخدم بنسبة قليلة في المنازل الخصوصية .
ولكن صناعة النقش والرسم (التصوير) ماتت بالكلية وبعد فتح
العثمانيين لمصر ما كان يوجد الا قليل من المباني العمومية المهمة
ذات النقوش الثمينة كما ولا يوجد أيضاً أي كتابة يدوية على الحجارة
مثل تلك الكتابات الجميلة التي كان يكتبها الصناع المصريون من القرن
الثاني عشر الى الخامس عشر مذ كان يدفع لهم أجور عظيمة توازي قيمة
اتعابهم . ومنظر منزل أو اثنين من المنازل الخصوصية في القرن السادس
و السابع عشر يدل على ان ذلك الاثر الذي عاش زمنا طويلا من أجمل
صناعة بني الانسان التي كانت في الاجيال الغابرة كثيرة الوجود أو هي
من العادات في الديار المصرية . وحتى لما أصبحت دولة محمد علي المقدوني
هي الحاكمة للبلاد الآن لم تلاحظ صد طيار عوامل تحقير ومحو الاثار
المعمارية العظيمة بل أيضا عجلت في اخلا السبيل لذلك الطيار حتى يسرع

في ازالتها . والذوق الفرنساوي بارداً معانيه ساد الآن في البلا
وأصبحت مبانيها وصنايعها على النسق الحديث . وقلت الرغبة والامبا
عن ذي قبل لطلب الحرف والصنايع اليدوية الفنية التي برع فيها الاقبا
براعة عظيمة . وأصبح الناس لا ينظرون بعين العظمة والوقار الا لمهار
صناعة أسلاف الاقباط وهم المصريون القدماء ولذا صار الاقبا
يتدهورون في درجات الهبوط حتى أفقدوا تلك المزية العظيمة من
أيديهم بالمرة وأصبحوا لا يصلحون الا كتبه في مصالح الحكومة . وفي
زمن ارتقاء محمد علي على الاريكة المصرية كان تعداد الاقباط المصريين قليل
جداً اذ لما أراد محمد علي ان يحصر تعدادهم وجدهم ١٥٠٠٠٠ نفس فقط لكن
عمال التعداد نسوا حاره من القاهرة لم يحصروها وهذا أقل عدد وصل
اليه الاقباط بعد ان كانوا يعدون بعشرات الملايين في مصر والسودان
ولم يوصلهم لدرجة التلاشي من الوجود تقريبا الا تلك الاضطهادات
الدينية العظيمة التي أتاها معهم الاسلام منذ الفتح الاسلامي . الا انه في
سنة ١٨٥٥ قد أحصاهم البطريرك فوجد عددهم لا يقل ولا يزيد عن
مايتان وسبعة عشر الف نفس (٢١٧٠٠٠) بينما كان كل تعداد سكان
القطر المصري في ذلك الحين خمسة ملايين من النفوس . وقد تلاحظ
انهم تحسنوا تحسيناً بيناً من ابتداء أيام محمد علي باشا فصاعداً . وبالرغم
عن غبنهم وخسارتهم وشبوب وانفجار الاضطهادات التي كانت تقع عليهم كل
آونه وأخرى فانهم كانوا ثابتين في خطة التحسين المضطرده .

وبينما كانت الكنيسة القبطية الوطنية في احط درجات الموت اوائل
القرن التاسع عشر فان الكنيسة اليونانية (الملكية) كانت اردأ منها بكثير .
فقد كانت على وشك الفناء في القرن الثامن عشر . ويوجد كثير
من اسماء البطاركة الذين تعاقبوا رئاستها ولكن لم يشتهر من سلسلة تلك
الاسماء الا واحداً فقط وهو البطريرك فموئيل الذي ترأسها سنة ١٧١٠
مسيحية اما الباقون فكانوا كلهم من الاجانب ولم يقم منهم في مصر الا
القليل جداً ولم يكن لهم اساقفة بل عدد قليل من الكهنة ولكن بعد
جلوس محمد علي على العرش المصري ابتدأت روح الحياة تحرك في
عروقهم كالاقباط . لان بطريركهم هيروثيوس الذي قام بين ظهرانيهم
على خلاف عادة اسلافه كان على جانب عظيم من التقوى والجهاد
في خدمة امته التي كان عددها نحو خمسة الاف نسمة وكانت ميالة اليه ومحبة
له . كان وقد تولى هذا البطريرك رئاسة الكنيسة اليونانية عام ١٨٢٥ فاحسن
الصلات مع الكنيسة القبطية حتى انه لما توفى عام ١٨٤٦ وشيعت جنازته
باحتفال عظيم جدا كان رجال الاكليروس القبطي جميعا من ضمن مشيعيه .
وعلى اثر وفاته حدث شقاق ونزاع عظيمين بين هيئات الاكليروس في
القسطنطينية الذين كان يعضدهم حزب قوي في الديار المصرية وحزب
آخر من الملكيين المصريين (المصريين الذين يتبعون الكنيسة اليونانية)
الذي وان كان قليلا لكنه كان عظيما ومحترماً ولم يكن منشأ هذا النزاع
الا الاختلاف على من يجب تعينه بطريركا في مصر بدل المتوفي . الا

أن ذلك النزاع اوقع الطائفة اليونانية في حالة الارتباك والاختبال وكان الجالس على عرش ماري مرقس الانجيلي طول مدة النصف الاول من القرن التاسع عشر هو البطريرك بطرس السابع الذي أخلف البطريرك مرقس سنة ١٨٠٩ ولم يمت بطرس الا في سنة ١٨٥٤ مسيحية وكانت مدة جلوسه أطول من كل مدد البطاركة الذين تقدموه في التاريخ. وقد كان ذلك الرجل سامي الاخلاق واسع العقل كثير الانشراح والسرور من التحسين العظيم الجديد الذي تم على أيامه. كثير الرغبة باخلاص ليرفع كنيسته وشعبه من وهدة الانحطاط. ولكن مشروعات المرسلين الكاثوليك الذين قاموا في القرن الثامن عشر أخيراً لتدبير طريقة لتأسيس كنيسة متحدة حقيقية في مصر كانت تحتوي بالاخص على المسيحيين الملكيين. لكنها تجرأت أيضاً على سحب واغراء كثير من شعب الكنيسة القبطية الى حظيرتها فدعى ذلك الى ايجاد سوء المظنة عند انبا بطرس بطريرك الاقباط في النفوذ والتيار الغربي

ولكن حصل اثناء ذلك ان شعباً غريباً قام لتعضيد الكنيسة القبطية (١) المصرية حتى تتقدم وتنموا بدلا من ان يزداد ضعفها بواسطة المساعي التي قام بها الكاثوليك لتبديد أعضائها واغرائهم على الدخول في المذهب الكاثوليكي وقد بدأ تلك المساعي العظيمة جناب المحترم المستر

(١) قام الانكليز قبل هذه المره ببذل المساعي لمساعدة الكنيسة اليونانية (الملكية) ولم يلتفتوا للكنيسة القبطية الوطنية بالمره

هنري تاتام الانكليزي الذي وجه التفاته خصوصا في اثناء بحثه على الكتابات اليدوية القديمة التي كانت كلها من صنعهم فكتب الى المحتشم المستر هولي رئيس الاساقفة بانكلترا يحضه على القيام بواجب الكنيسة الانكليزية نحو الكنيسة القبطية القديمة التعيسة وابتدأت المخابرات بينهما سنة ١٨٣٦ مسيحية ودامت متواصلة بضع سنوات. وكانت شركة التورات قبل ذلك قد طبعت أربعة أناجيل باللغتين العربية والقبطية قامت شركة طبع الكتب المقدسة بطبع ترجمات عربية من التفاسير المصرية القديمة.

ولم يكن المستر تاتام أول من هام وله له البحث في الكتابة اليدويه المصرية القديمة ولو انه أول رجل انكليزي حض الكنيسة الوطنية الانكليزية للمجيء وأخذ بيد الكنيسة الوطنية القبطية المصرية المداسة تحت الاقدام ومساعدتها. وفي سنة ١٨٣٣ م جاء أيضاً المستر كرزون الى الشرق للبحث على الكتابات اليدوية القديمة وزار أكثر وأهم الصوامع والاديره المصرية (١). ولسوء الحظ فانه كان مجبوراً مثل باقي

(١) وجد المستر كرزون في دير وادي النطرون تلك المصابيح الزجاجية الجميلة لم تزل معلقة في الكنائس وهي المعروفة عند العموم أنها من صناعة العرب وقاصرة علي تزيين الجوامع فقط الآن مع ان العرب نقلوا تلك الرسوم البديعة عن اشكال ورسوم القناديل التي كان يصنعها الاقباط وخصوصاً أجمل أشكالها ما كان يستعمل عندهم للكنائس واللوازم الدينية ولكن المستر كرزون رأى ان كل المعامل القديمة التي كانت تصنع فيها تلك القناديل في وادي النطرون قد اندثرت بالكلية من زمن طويل وتلاشت الأنموذجات التي نقل منها العرب شكل قناديلهم.

السواحين الذين تقدموا ان يأخذ كل معلوماته بواسطة مترجمين من المسلمين اكثروا من اجتماعهم بالسواحين حتى صار الاقباط يسيئون فيهم الظن . ولكن ملحوظاته الشخصية عما رآه والاتفاقات الغريبة التي صادفها والمملوءة بكثير من الفائدة واللذة وعلى الخصوص بعد عدة اكتشافات كان المستر تاتام قادراً على الحصول على كثير من الكتابات اليدوية الثمينة من الاديرة القبطية . وكانت زيارة المستر تاتام للديار المصرية من سنة ١٨٣٨ الى سنة ١٨٣٩ م وصادفته مشاق واتعاب عظيمة جداً حتى تمكن من معرفة ودرس بعض الشيء عن الكنيسة القبطية وايجاد أصحاب له واصدقاء من أبنائها . وقد جاء مصر أيضا عام ١٨٣٠ المستر ليدر موفدا من قبل جمعية التبشير فأوجد الصلات الحبية بينه وبين الاقباط وتمكن بذلك من ان يعضد ويفيد المستر تاتام وجناب رئيس الاساقفة بانكلترا فوائداً جمة وقد زار المستر تاتام أديرة وادي النطرون وتحصل على تصريح بأخذ كثير من الكتابات اليدوية الثمينة منها . ومن ضمن ما أخذه كتابة الثالوث الاقدس بخط البطريرك كيرلس الاكبر الذي نسخها في سنة ٦١١ م فيكون مضى عليها الآن (سنة ١٨٩٧ م) ١٢٨٦ سنة فهي من الآثار القبطية العظيمة وأيضاً وجد أكثر من ثلاثمائة قطعة من الخطوط اليدويه السورية القديمة غاية في الجمال ومكتوبة على رقوق الغزال بخلاف عدد عظيم من الكتب المهمة المهملة والمفقود منها أوراق كثيرة . وهذه الآثار التي لا تقدر قيمتها هي

الاثر الباق للمكتبة القبطية القديمة التي كانت بدير السوريان ثم حملت بعدئذ الى دار الاثار البريطانية

وبعد ان وصل المستر تاتام الى انكلترا في مارس سنة ١٨٤٠ م قدم الى سيادة رئيس الاساقفة مذكرة عظيمة ومهمة للغاية مبينا فيها حال الكنيسة القبطية المصرية بالاختصار وذيل تلك المذكرة بالالحاح بحرارة على الكنيسة البريطانية طالبا منها مساعدة تلك الكنيسة التعيسة وأسهب في أقواله حتى أبان ان هذه المساعدة يمكن اتخاذها فرصة سانحة للتأثير على المصريين الاقباط

وزار مصر أيضا قسيس انكليزي آخر يدعى ت . جرعشو في شتاء سنة ١٨٣٩ ـ ١٨٤٠ تصادق مع كثيرين من أعضاء الكنيسة القبطية المصرية وكانت نتيجة هذه الصداقة انه كتب الى رئيس أساقفة انكلترا يحضه على مساعدة هذه الكنيسة المصرية. وفعلا عرض عليه رسما عن ايجاد كلية لشبان الاقباط الذين يرغبون تعليم اللاهوت للاندماج في سلك الاكليروس ويصبحون قسوسا متعلمين ينفعون كنيستهم القبطيه . وقد أنشئت فعلا تلك الكلية وظلت فاتحة أبوابها للطلاب عدة سنوات بادارة المستر ليدر لكن بعدئذ همدت عزيمته ووهنت شجاعته لما آنس الضعف في هذا المشروع وكان نجاحه قليلا ولسوء الحظ أبطل الكلية وغلقها سنة ١٨٤٨ م . مع ان البذور التى بذرها المستر ليدر في بضع سنوات قد أثمرت حتى في نسل الذين يتعلمون فيها . ولو كان يعلم المستر ليدر

لم يتم رسامة قسيس واحد من تلاميذ مدرسته لكنها أخرجت بعد تمادي الوقت البطريرك العظيم المعروف كيرلس (بأبي الاصلاح) ...ن كان من تلاميذها لربما كان تشجع وواظب على عمله ولم يعطل ...سة .

ومما يحسن ذكره ان الكنيسة القبطية مع ما مرّ عليها من الايام ...ة السوداء على أشدها لم تهمل أبداً تعليم أبنائها . فقد كان لها في كل ...يه مدرسة يتعلم فيها أبناؤها الكتابة والقراءة ولكنها أهملت البنات ...عدة أجيال وتركتهن يلتقطن حسب رغبتهن من ثمرات التعليم كل ...تأ يمترن عليه كالعصفور الذي يلتقط الحبوب التي تصادفه عفواً حينما يسعى ...ا غذاءه لان الكنيسة لم تضع لهن طريقة تعليم منتظمة في المنازل ...ي المدارس . ولكن قد لاحظ البطريرك المشهور كيرلس أبو ...سلاح الذي أخلف البطريرك بطرس سنة ١٨٥٤ رداءة هذه الحالة ...ف ما ينتج من المساويء فأسس مدرستين منتظمتين الاولى للبنات ...خرى للبنين وقد كان التعليم فيهما عظيما والعلوم التي تدرس من أرقى ...دروس من نوعها في المدارس العالية والراقية

وقد كان الانبا كيرلس المعروف بأبي الاصلاح قبل ان يتولى ...ة البطريركية رئيساً منذ سنوات لدير أنبا انطونيوس الشهير وعند ...ته من الدير ليشغل العرش البابوي ابتهج به الشعب القبطي لدرجة ...ل التصديق ولما علم أقرانه الذين كانوا يدرسون معه ان له رغبة في

اصلاح الكنيسة صاروا يلغطون بتعينه حتى لما اجتمع مجمع الا
القاهرة لانتخاب بطريرك وقد نقص عدده ١٢ عضواً عن المعتاد لم يسمعو
كيرلس في ثم كل قبطي لانتخابه بطريركا . ثم ان هؤلاء الاساقفة
الكبر سنهم وجبنهم غالبا قد ترددوا في تزكية وتسليم قوة عظمى لي
غيور مثل كيرلس الذي تربى تربية أجنبية وقد أشيع وتأكد النا
كانوا على عزم لانتخاب راهب أبله جاهل راح اسمه عن ذاكرتي
فثار عليهم الشعب ثورة حقيقية واستصحب معه جماعة من الا
المتسلحين وأسرعوا جميعا الى الكنيسة الكاتدرائية حيث كان الا
مجتمعين بها لاجراء الانتخاب فهجموا عليهم وأبطلوا الانتخاب بالقوة
فما كان من هؤلاء الاساقفة الشيوخ المساكين العقول الا انهم هر
الكنيسة ثم التزموا ان يرضخوا ويقبلوا صوت نواب الشعب و
الاتفاق بين الطرفين (الاساقفة والعلمانيين) بطريقة تحكيم غريبة
وهي انه يصير تأجيل انتخاب البطريرك ويصير تدشين كيرلس
لبابيلون (القاهرة) على شرط انه اذا أظهر كفاءة تامة في
الاسقفية ينتخب بطريركا . ولكن كانت مواد هذا التحكيم ال
غير أصولية بالمرة لانه طبقا لمواد القوانين الكنائسية القبطية لا
تحليل أو تأويل تلك المواد التي منها عدم جواز انتخاب أسقف ل
البطريركية ولكن بالرغم عن ذلك فقد قام الاساقفة بمعاهدتهم مع ال
بكل أمانة وانتخبوا كيرلس على العرش البابوي الخالي حتى قبل ان

التجربة .

غير انه من الاسف لم تدم رئاسة كيرلس الكهنوتية الا سبع ت صرف اثنين منها في الحبشة والباقية في مصر الا انه مع هذا القصير قد افتتح حركة الاصلاح العظيمة بنفسه ولم تقف هذه ة بعدئذ بل تقوت وانتشرت بقوة حية حتي استلمها أبناء الحاضر ذلك عدا عن المدارس التى شيدها بجوار الكنيسة درائية التى أعاد بناءها كلها مرة ثانية لانها كانت بلا قباب الذكر بالنسبة لسرعة تشييدها في بادىء الامر لتخريب وتهديم حي ط القديم أيام عودة الترك للبلاد ثانياً سنة ١٨٠٢ مسيحية وخصوصاً م بناؤها على نفقة أحد الاعيان الاقباط الكرماء على عهد البطريرك الثامن .

وقد كان كيرلس أبو الاصلاح عالماً بأصول دينه فلما ان ارتقى الباوي رأي شعبه واقعاً في خطية عبادة الاصنام وذلك لسجودهم نات التي يعتبرونها مقدسة ومرصوصة على جدران الكاتدرائية فعند ماشيد الكاتدرائية الجديدة لم يسمح بنقل تلك الايقونات جمعها كلها ووضعها على بعضها وحرقها باحتفال كبير امام جمع عظيم اس . ووقف في وسط الجمع المحتشد من رعيته وخطب فيهم مبينا هذا الحريق . ولما أن انتهى من وعظه أشار بيده الى كوم الحريق انظروا لهذه الصور الخشبية التي تعودتم احترامها لدرجة العبادة ـ

ها هي صارت رماداً لا تنفعكم ولا تضركم ! فالله وحده هو الذي يستحق العبادة والسجود) ولا يسعنا اظهار الاسف الشديد على عمل كيرلس هو لانه قد اندثر شيئاً عظيماً من الآثار الفنية الجميلة العظيمة الصنع في سبيل درسه (١) العظيم الذي ألقاه على شعبه ولكن فن التصوير أصبح تقريباً معدوماً بالكلية في مصر من عهد الفتح العثماني حتى ان الصور التي رسمت لكاتدرائية البطريرك مرقس الثامن التي حرقها كيرلس كما تقدم كانت تدل على غشم المصور وأردأ صنعاً من الصور التي كانت موضوعة على جدران الكاتدرائية التي جدد بناءها كيرلس المصلح . والدليل على ذلك انها لو كانت صور جميلة الصنع حقيقة لما سمح كيرلس مطلقاً بحرقها ونقول بالاجمال عن هذا الموضوع ان الاقباط في ذلك العصر لم يكونوا قد فقدوا شعور جمالهم حتى في أيام جهلهم لم يحرموا تقريباً من شعور التاريخي بالكلية والبرهان الحسي لذلك والذي يستحق الذكر البناء العظيم

(١) والامر الغريب الذي نستنتجه من هذه الحادثه ان الاقباط الذين كانوا في عهد البطريرك كيرلس كانوا مداومين على تأدية ذات الاحترام الزائد لصورهم المقدسه كابناء الكنيسة اليونانية . مع ان الاقباط في كل العصور الماضيه لم يظهروا أي دليل أو برهان لاعتقادهم باية فائدة من عبادة الايقونات . وابناء الكنيسة القبطية هذه الايام لا يلتفتون للصور المعلقة على جدران كنائسهم اكثر مما نلتفت نحن للصور التى في الزجاج الملون على شبابيك منازلنا الانكليزية مع ان صور العباده في المنازل القبطية اندر منها في منازلنا

الذي شيده نخله بك الباراتي في الحصن الروماني (قصر الشمع) وهذا النبيل هو علماني تقي من أبناء الكنيسة الوطنية (القبطية) تعهد بتجديد كاتدرائية بابيلونه القديمة المشهورة باسم كنيسة المعلقة ونحوها [١] أيضاً على نفقته الخصوصية . وكان يحفظ جيداً على كل قطعة قديمة الصنع جميلة المنظر وبقي حارسا عليها حتى انه بعد اتمام البناء صار ينقلها بكل حذر ويوضعها في المحل المعد لها . وبعد ان تم البناء والترتيب صار يتعذر جداً على الناظر بعد امعان النظر والتفحص الدقيق ان يميز بين الكنيسة الجديدة والقديمة . غير اننا لما نتذكر أعمال التخريب والتوحش الذي كنا مخطئين فيه بانكلترا عند ابتداء تجديد الكنائس ونعتقد ان كنيسة المعلقة هي أول مثال من نوعه في التجديد لا نقدر ان نعجب بانفسنا ومع ذلك فان علماء الاثار الانكليز بالكد يشهدون شهادة حسنة لنخله بك الذي صرف ٦٠٠٠ ستة آلاف جنيه من ماله الخاص على ذلك التجديد

---

(١) أغلب الكنائس القبطية تجددت منذ دخول الانكليز في البلاد الا ان ابتدأ العمل في التجديد كان قبل دخولهم أي من ابتدا سنة ١٨٨٩ م . ومما يحسن ذكره بالاسف أن أعظم خسارة حلت بالاقباط كانت بسبب أحد السياح الانكليز . اذ قدم مايةجنيه انكليزي بصفة رشوه لاحد الرهبان الادنياء ليسمح له أن يسرق بعض أبواب الكنائس الجميلة المقدسة المشغولة بالاويمة من خشب أرز لبنان و يأخذها معه الى باريس وقد تم ذلك . و بعدئذ صار بيعها الى المتحف البريطاني وموجودة فيه الى الآن

وهو مبلغ عظيم لم يوقعه فيه الاضعف معارفه في التاريخ .

وكان السبب في كل هذه النفقات الباهظة أيضا انه أتم ترميم طابية حصن تراجان التي تخرب نصفها تقريباً وقد كانت هذه الطابية أهم حصن يخفي الاقباط وراءه أثمن شيء لديهم حتى يحفظوه في مأمن من الاعداء . ولم يكن للكنيسة مدخل مناسب لها بل كان الانسان يصل اليها من داخل برباء ذات ممرات ضيقة تنفذ من البوابة الصغيرة الموجود على مقربة من الزاوية الشمالية الشرقية من الحصن . والتزم نخله بك ان يهدم كل ما في طريق السلالم الجديدة وكل ما في أقرب نقطة من السور القديم وفتح له مدخلا جديداً من البناء الروماني الصلد الذي يبلغ عرضه نحو ثمانية أقدام ولم يكن هذا فقط أردأ ما فعل . فان أحد البرجين العظمين المتاخمين لمدخل الحصن الجنوبي القديم قد هدمه حتى لا يعترض اقامة حائط جديد كما ان البرج الثاني كاد يلاقي نصيبه لو لم يكن حظه سعيداً وتحولت انظار نخله بك عنه . ولما سمع اللورد كرومر بما هو جار في حصن الرومانيين أصدر أمره الذي لا يحلم أحد في مصر بنقضه أو المجادلة فيه . فلم يقدر أحد بعدئذ ان يمس حجراً واحداً من بقايا ذلك الحصن الروماني .

ومن ذلك الحين أصبحت الاثار القبطية تحت عناية لجنة حفظ الاثار العربية مما سر غالب الاقباط من حيثية حماية كنائسهم وحفظها من تطرق الخلل أو يد السالبين اليها . وفوق ذلك فقد صادق البطريرك أيضاً على عدم التصريح لاجراء اصلاحات أو ترميمات أو اعادة أبنية

قديمة دون موافقة اثنين من أعضاء لجنة حفظ الآثار تنتخبهما اللجنة لهذا الغرض . وحقيقي ان البطريرك التمس من اللورد كرومر ان يوجه عنايته لهذا الامر وان يصدر منشوراً ينهي فيه السياح ان لا يغيروا أو يرشوا خفراء وحراس الكنائس كي يسهلوا لهم السبيل في سلب بعض الذخائر الفنيه القديمة التي لم يزل موجود بعضها في الكنائس فالتزم اللورد ان يعترف للبطريرك الحالي ان سلطته لا تسري على السياح الذين يعتبرون الآن أساس الخطر الحقيقي الذي يحدق بآثار الكنائس القبطية .

وقررت جمعية التبشير الانكليزية ان العمل الذي أسسته الكنيسة البريطانية في مصر في سنة ١٨٤٨ م قد هجرته في السنة التالية لتوليه البطريرك كيرلس الرابع على العرش البطريركي وحلت محلها في ذلك العمل الكنيسة الامريكية بواسطة جمعية التبشير المشيخية التي كانت مثابرة على عملها قبل ذلك الوقت بزمن طويل ولكن هذه الجمعية الاخيرة قد حذت حذو جمعية التبشير الانكليزية ومع ان مبدأ عمل الجمعيتين في هذه البلاد هو لبث روح الديانة المسيحية بين المسلمين وليس للتبشير بين الاقباط فانهما كانتا كباقي الارساليات الدينيـة التي لهذه البلاد فلا تجد الا صعوبة وبطئاً شديداً في نجاحهما مع المسلمين فلم تيأس وتترك عملها بل كانت تجتهد في تلمذة تلاميذها من أبناء الكنيسة القبطية والحقيقة التي لا ريب فيها ان هذه الكنيسة تستقبح جداً وتنكر على تلك الارساليات عملها .

وكنيسة المبشرين الانكليز الحديثة التي أنشأت في مصر سنة ١٨٨٤ مسيحية لا يستقبحها الاقباط لان الكنيسة القبطيه تعترف ان كنيسة انكلترا هي كنيسة أسقفية حقيقية ورسلها لا يقودون أبناء الكنيسة القبطيه الى الهرطقه ولا يعلمونهم الاعتراف بعظمة بابا روميه الذي تحتج عليه الكنيسة القبطيه بعزيمة راسخه من منذ أكثر من أربعة عشر جيلا ولكن مع ممنونية الاقباط وشكرهم الزائد الى المشيخيين الاميركان لانعطافهم نحوهم والمساعدة المرضيه التي يلاقونها منهم — فانهم أي الاقباط يحزنون حزنا شديداً من أعماق قلوبهم لانتشار مذهب المشيخيين بين الخائنين والمنشقين من الاقباط

ولا بد ان يكون دائماً منبع أسف شديد عند أعضاء الكنيسة الانكليزية الذين عهد اليهم العمل في أول الامر وبتقصيرهم وانحرافهم عن جادة الصواب قد أنجز العمل عن يد أعضاء كنيسة أخرى التي يقضي عليها دستورها بان نجاحها يتوقف على ضرر الكنيسة الوطنية المصرية بمقدار الضرر الذي يصيبها فيما اذا نجحت في اتمام مأموريتها — فنحن الذين وضعنا يدنا على المحراث ونظرنا الى الوراء أصبحنا آخر الشعوب ذوي الحقوق في انتقاد طرق الغيورين من الرجال والسيدات الذين قاسوا عبء الحمل الثقيل وحرارة شمس النهار في وسط كروم الرب

واجتهد البطريرك كيرلس بتقريب الاعتراف بالثلاث كنائس في مصر بين شعبه وهي الكنيسة القبطية والكنيسة اليونانية

والانكليزية . ولكن مساعيه هذه قد القت سوء المظنه به عند الحكام المسلمين في مصر فاعتبروا ذلك المشروع خيانة منه وخروجاً عليهم فدبروا طريقه لاعدامه فتوفي مسموماً . وبعد وفاته أصيبت مصر بحركة اصلاح لم اتصل اليه حتي الآن

وخلفه الابناء ديمتريوس على السده البطريركيه الذي كان رجلا صالحا وعادلاً ولكنه لم يكن كفوءاً للقيام باعمال ومشروعات سلفه حتى انضم في عهده كثيرون من الاقباط الذين كانوا يرغبون في زيادة التعبد والجنوح الى الحياة السياسية الراقيه الى الكنيسة المشيخيه الاميركيه اما باقي ابناء الكنيسه القبطيه الوطنيه الذين تربوا على معرفة زهاء ومجد كنيستهم الاصليه وطقوسها الاسقفية فوقعوا في يأس عظيم . وهذا العمل حدا البطريرك ان يحرم الكنيسة الهرطوقيه (الاميركيه المشيخيه) التي كانت قد أسست لها دعائم ثابتة في الديار المصرية وعلى الخصوص في الوجه القبلي . ولكن ذلك لم يرق في عيني الطبقة المتعلمه من الاقباط العلمانيين لان الحرم في نظرهم لا يعتبر عمل ديني عظيم جادت به كنيستهم ولا هو من النجاح والفائدة على شيء البته (١)

---

(١) وفي سنة ١٨٦١ مسيحية التي ارتقى فيها الانبا ديمتريوس على العرش البطريركي انشأت مس هواتلي مدارسها المشهورة في القاهرة بالفجاله . وكان قصدها من فتح هذه المدارس هو جذب ابناء المسلمين الى الديانة المسيحية ولم تكن تقصد ذلك مع الاقباط ولو انها تصدت كثيراً في ذلك للسوريين المسيحيين

ولما توفي الانباء ديمتريوس تشاور الشعب القبطي فيما بينه واقر قبل ان ينتخب بطريركا جديداً ان يطلب منه اعتماد مشروع سنه لاصلاح الكنيسة . وقد اجتهد كردينالات رومه ليقيدوا باباهم المقبل بمثل ما فعل الاقباط وبذات النتيجة التي توصلوا اليها هؤلاء .

وقد بني الشعب القبطي عمله هذا مع البطريرك على أساس مادة في القانون الكنائسي الذي تمشي عليه الكنيسة القبطيه كما روي ذلك ابن العسال الذي عاش في القرن الثالث عشر ونص هذه المادة في القانون المذكور هي : —

يجب على البطريرك ان يشاور علماء واتقياء رجال شعبه من الاكليروس والعلمانيين (وعلى الخصوص الاشخاص الملتفين حول الملك الحاكم) جمعاً وانفراديا في كل الشؤون الهامه المختصه بالشعب والكنيسة وما يقرون عليه يجب تدوينه)

فاعتماداً على ما ذكر قد وضع نخبة الاقباط مشروعا المقصود منه تأسيس مجلس ملي في ابرشيه مكون من فرعين اكليريكي والثاني علماني ويكون هذا المجلس تحت رئاسة أسقف الابرشيه وينتخب أعضاؤه كل خمس سنوات من الحائزين على حقوق الانتخاب واعتمدوا هذا المشروع بامضاء وموافقة مطران الاسكندرية ووكيل الكرازه المرقسيه والقائم مقام البطريرك وقتئذ لخلو الكرسي البطريركي .

وقد صادق جميع الاساقفه على هذا المشروع ولكن الشعب لم يره

الدواء الشافي للاصلاح المنشود فتفاوض أحد الاعيان مع سعادة بطرس باشا غالي وهذا استصدر دكريتو خديوي بتأسيس هذا المجلس بصفه قانونية رسميه . وبعد جدال واختبارات كثيرة مدة سنتين في شؤون الاصلاح انتخبوا انبا كيرلس الخامس البطريرك الحالي سنة ١٨٧٥ مسيحيه الذي تعهد عند تبوئه العرش المرقسي ان يوافق ويؤيد كل القرارات التى أقرها الشعب قبل انتخابه .

وفعلا ظل البطريرك والمجلس الملي يعملان بيد واحدة واتفاق تام في اصلاح الكنيسة والشؤون المليه الى درجه كانت من نتائجها انشاء المدرسة الاكليريكيه في القاهرة ووضعها تحت رئاسة المتنيح الايغومانوس فيلوثاؤس رئيس الكنيسة الكاتدرائية المرقسيه بالقاهرة لانه كان رجلا نادر المثال في كفاءته العلمية والشخصية . ثم تصادف عقب هذا الوفاق بين الشعب والبطريرك حصول نفور بين الطرفين الجأ البطريرك الى عدم الصبر والتأفف من احتمال قوة سلطة أخرى تعمل بجانبه لم يخضع لها أو يحتملها أحدا من أسلافه . فلما رأي نفسه غير مقتنع بنتائج أعمال وتعاليم المجلس أصدر أمره بغلق المدرسة الاكليريكية وكان من وراء ذلك اهمال الكهنة والقسوس بدون تعليم لاهوتي يؤهلهم لحفظ مراكزهم الكهنوتية ويعظم شأنهم في نظر الشعب الذي أصبح متنوراً عن ذي قبل بعد فوات أزمنة الاضطهادات . ولما لاحظ أعضاء المجلس الملي ان نصائحهم لايلتفت اليها وغير مرعيه انقطعوا عن

الاجماع — وتركوا الحبل على غاربه لانبا كيرلس فحكم الكنيسة والشعب بالطريقة القديمة لغاية سنة ١٨٨٣ م حيث ظهرت عثرات وفضائح ادارية ممتزجة بشطط في امتيازات الكنيسة أدت الى هياج الشعور العام عند الاقباط . وفي ذلك كان قد نما جيل من الشبان الذين تعلم أغلبهم في مدارس الاميركان أو الكاثوليك (اليسوعيين والفرير) ولو انه كان أيضا عدد عظيم من شبان الاقباط المتعلمين ثابتا في ايمانه بكنيسته الاصلية التي تربى آباؤهم في احضانها الا انه نما فيهم أيضا الروح بعدم الميل لحالتها العامة . فصخب كل شبان الطائفة عليها وصاحوا طالبين اعادة انتخاب اعضاء المجلس الملي فسلم البطريرك مطالبهم وأعيدت الانتخابات وفتحت الجلسات وأقرت جملة قرارات . ولكن أبى البطريرك الا انكارها فظلت حبراً على ورق .

وفي سنة ١٨٩٠ اسس بعض صغار الشبان جمعية منهم غرضها اصلاح حال الكنيسة وسموها (جمعية التوفيق القبطية الخيرية) ولفظة توفيق ليس قصدهم تيمنا فقط باسم الخديوي توفيق الذي كان يحبه المسلمون والمسيحيون على السواء بل هي كلمة عربية معناها تمهيد الطريق . وابتدأت هذه الجمعية عملها بنشر نبذات ونشرات باللغة العربية الغرض منها استنهاض الرأي العام بين جميع الاقباط الذين يعرفون القراءة والكتابة — وقد ترجم مؤلفو هذه النشرات بعضها الى اللغة الانكليزية فكانت جميعها تستحق المطالعة والامعان . فكبرت الجمعية وكبر عملها

بسرعة عظيمة واثرت تأثيراً حسناً في الشعب حتى خافها البطريرك وبطانته من طائفة الاكليروس الذين كانوا يرتعدون خوفاً من تغيير الحالة التي هم عليها فبذلوا والبطريرك اقصى جهدهم لحل تلك الجمعية . ولما كان اعضاؤها كباقي الشبان والرجال المتوقدين حرارة وغيرة على ملتهم تحصر قواهم هذه في حدود اختباراتهم العلمية والعالمية قد صدرت منهم بعض غلطات بطريق الاتفاق اتخذها رجال الاكليروس فرصة سانحة فكبروها وهللوا بها واولوها الى مقاصد سيئة . فوشى بهم البطريرك عند الحكومة بتأويل اغراضهم الى خيانة الوطن والخروج على الحكومة . وغرض البطريرك من تلك الوشاية هو غالباً تبرئة نفسه من عمل رجال الجمعية خوفاً على حياته وخوفاً من أن يصادفه ما صادف البطريرك الاسبق كيرلس ابي الاصلاح كما تقدم . لانه ولو أن الاحتلال الانكليزي في هذه الديار قد يحول دون حصول ثورة عامة أو اضطهاد ديني ولكن لا يمكنه الضرب على ايدي من يهيجون الشعب المضطرب بوسائط سرية . واسس البطريرك ايضاً جمعية اخرى ضد جمعية التوفيق وسماها جمعية الحق (الارثوذكس) ومن ثم ابتدأت الملاقات في الفتور بين البطريرك وجمعية التوفيق .

وفي ربيع سنة ١٨٩١ قام الاقباط بمظاهرة عظيمة في القاهرة حضرها مندوبون من جميع طوائف الاقباط الساكنين بلاد القطر المصري . وقام الخطباء يخطبون في جموعهم المحتشدة واخيراً اقروا على

انتداب وفد يقابل البطريرك ويطلب منه بالحاح ضرورة اجتماع المجلس الملي وايجاد الاصلاح المطلوب والالتفات لصوت الشعب

والبطريرك كيرلس الخامس يشبه في طباعه بابا روميه اذ يعتقد الاثنان بعدم ضرورة المجالس الملية . فلما مثل وفد الشعب امام ذلك الشيخ ذرفت عيناه بالدموع وكر خارجاً من الغرفة . فاقر الشعب على عقد اجتماع عام في ساحة البطريكخانة . فكتب البطريرك لسعادة محافظ القاهرة يخطره بما كان وطلب قوة من البوليس للمحافظة عليه وحفظ النظام . وبعدئذ عقد مجمعا مقدسا من تلقاء نفسه (مجمع اساقفة) حضره جميع اساقفة البلاد ورؤساء الاديرة ورؤساء الكنائس الكبرى . ولما تم اجتماعهم قدم لهم ورقة ليوقعوا عليها ولم يمكننا معرفة موضوعها ولكننا نظن انه طلب فيها منهم مساعدته ضد طالبي الاصلاح . ولو أن اغلب الاساقفة اصلهم رهبان ويجهلون القراءة والكتابة فان بعضهم قد ختم تلك الورقة المقدمة لهم بدون قراءة ما بها الا أن بعض القسوس المتعلمين وذوي الدراية قد رفضوا المصادقة عليها . وفي مقدمة اولئك القسوس كان أبونا فيلوثاؤس رئيس الكنيسه المرقسية الكبرى المشهور بين الاقباط بسعة علمه ودرايته . وابونا بطرس ايغومانوس (١) كنيسة الفجالة . وابونا يوسف ايغومانوس

---

(١) ويدعون الاقباط ايضاً القمص . وتقريباً كل اسمائهم واسمائهم اليونانية محرفة وبالكد يعرف الانسان معنى كلمة منها . ولفظة قمص معناها بالانكليزية يضاهي قسيس اكبر أو رئيس ولكن لفظة قمص ويغومانوس عند الاقباط تستعمل ايضا كرئيس الدير

بابيلون وأبونا بشوي أيغومانوس كنيسة حارة الزويله وابونا عبد الملاك ايغومانوس كنيسة ابو سيفين . وقد اصدر البطريرك التعليمات اللازمة للقسوس ورؤساء الكنائس لقراءة تلك الورقة أو المنشور بصوت جهوري على الشعب بعد الصلاة في جميع الكنائس . وبعدئذ استصحب البطريرك لفيفاً من الاساقفة وتوجه لمفاوضة الخديوي توفيق باشا في امره الذي حقق المسألة القبطية بشكل حذافيرها ونصح البطريرك بكل احترام بان يسلم لارادة ومطالب الشعب وبين له انه هو نفسه واقع في مثل هذه التجربه . وقيل أن الجناب الخديوي قال له (قبل احتلال الانجليز لهذه الديار حكمت شعبي بمجرد ارادتي واميالي ولم يكن لواحد ان يسألني أو يحاسبني على ما اعمل . لانى كنت اعد من الظلم أن يقاد الحاكم لسلطة تراقبه . اما اليوم فقد تيقنت أن طريقة الاحكام الجديدة وهى طريقة الشورى صالحه لامتي وعليه تراني لا اقاوم هذه الطريقة مطلقا بل اجتهدت في تعليمها وخضعت للذين يريدون مساعدتي لحكم امتي بطريقة توافقها فاذهب انت اذاً وافعل مثلي ولسوء الحظ توفى توفيق باشا بعد ذلك بقليل جداً . فاستأنف زعماء الاصلاح قضيتهم ضد بطريركهم في عهد سمو الخديوي المعظم عباس باشا حلمي الثاني وطلبوا من الحكومة اصدار قرار وزاري لاعادة انتخاب المجلس الملي . فكان لهم ما تمنوا ولكن لم يحضر البطريرك وقت الانتخاب بل تم تحت رئاسة محافظ القاهرة غير أن الاحوال ازدادت اشكالا وتعقيداً وصارت في حالة معيبه ومشينة للطرفين لان الغرض الاصلي من

الاصلاح اصبح قائما مظلما وقت الجهاد مع اليد العليا أي البطريرك وما وجه الابهام الا التجاء الحزبين الاكليركي والملي الى سلطة الحكومة الاسلامية وهو الامر المخالف تمام المخالفة لنص شريعة العهد الجديد (الانجيل) وكان من الذين يميلون الى حزب الاصلاح من رجال الاكليروس انبا اثناسيوس اسقف صنبو فحرمه البطريرك فنزل الى القاهرة يستسمحه فوجد باب البطريرخانة مغلوقا في وجهه بامر البطريرك الذي بعد ما امر بذلك سافر الى الاسكندرية . واخيراً تغلب حزب الاصلاح ونجح رجاله في نفي البطريرك الى دير وادي النطرون ونفي انبا يوحنا مطران اسكندرية الى دير ماري بولص في البرية . ولكن بعد ذلك عاد في الحال زعماء الاصلاح وتاكدوا أن تصرفهم هذا حرك العواطف الدينية في الشعب وحوّلت امياله عن حزبهم

اما انبا اثناسيوس مطران اسكندرية المحروم الذي كان من حزب الاصلاح وليس من الذين استحقوا النفي مع البطريرك فقد استدعاه الحزب المذكور ليكون نائب البطريرك مدة نفيه . ومع فساد وبطلان حكم الحروم الذي اوقعه عليه البطريرك ومخالفته للاصول الكنائسية فانه تحمله على نية التخلص والتبريء منه بالطريقة القانونية . وبحكمته واعتداله تمكن بارجاع حزب الاصلاح الى الصراط المستقيم . وقسم رجال المجلس الملي اقسامهم الى اربعة لجان . الاولى للنظر في شؤون المدارس وما يؤدي الى تقدمها والثانية لحصر ايرادات الاوقاف والنظر في ما يرقي حالة الكنائس

ونظامها . والثالثة لفحص حالة الكنائس واستئصال عيوبها الشائنه . والرابعة للنظر في حال رجال الاكليروس وترقية احوالهم الدينية والعلمية والادبية — ولكن تصرفهم نحو البطريرك والخوف من حرومه قد ازعج مجموع الشعب حتى تنحى مبتعدا عن حزب الاصلاح وحتى عن الكنائس فاصبحت لا يدخلها الا نفر قليل للصلاة . واجتهد انبا اثناسيوس وبذل كل الوسائط الممكنة لحمل البطريرك لرفع الحروم عنه فلم يفلح فعزم على عدم الاعتراف بذلك الحروم . وساعدته فضائله الشخصية لاسترجاع ثقة الشعب به ونجح في ذلك نجاحا باهراً ولكن بعد ذلك بقليل كان رياض باشا قد انتخب رئيساً للوزارة المصرية . فكان ينظر لكل علامات النهوض الحيوي بين الاقباط بعين ملؤها النفور التام . فبذل جهده في تأسيس متاعب كثيرة لهم واخيراً تمكن حزب الكنيسة القديمة من الاتحاد مع حزب الاصلاح بان اقوم طريق الواجب سلوكه هو الخضوع لبطريركهم بارجاعه ثانياً من منفاه . فتنازل انبا اثناسيوس بكل هدو عن وكالته للبطريركية . وعاد البطريرك من منفاه ودخل القاهرة في احتفال باهر عظيم جداً كدخول القادة الفاتحين . اذ تهافت المسلمون والاقباط من جميع انحاء البلاد لاستقباله والترحيب به بالموسيقى وهم يهللون ويكبرون وحل الاقباط جياد المركبة التي نقلته الى الديار البطريركيه وجروها بانفسهم تعظيما له اما الازدحام فكان شديداً جدا في الطرق والمنازل والاشجار وعلى اعمدة مصابيح الشارع الموصل للدار

البطريركية حتى وقفت حركة الانتقال العمومية بالكلية في ذلك الشارع .

وبالجملة قد كانت المظاهرة مؤثرة جدا وتدل على الاخلاص التام المتأصل في قلب الشعب القبطي نحو بطريركه . ولكن بقدر ذلك الشعور تأسف لعدم اتخاذ كيرلس فرصة انتصاره هذا في استعمال الحكمة مع شعبه . لان اول ماظهر منه بعد رجوعه عدم اتخاذه عادة الشريفي النفوس في مسامحة المخطئين اليهم ومصالحة من يعملون معهم لاصلاح شؤون الامة . لانه لم يتمكن رجال السلام بحمله على مصالحة ومسامحة انبا اثناسيوس وباقي رجال الاكليروس الذين كانوا في حزب الاصلاح الا بكل صعوبة شديدة جداً . وبعد ذلك أبى الاعتراف بالمجلس الملي كما ولم يسمح له بتكملة اعماله الاصلاحية التي كان قد ابتدأ فيها بان أقر ان تكوينه غير قانوني وحقيقة كان ذلك ثم جدد رابطة مع رجال الحكومة الامر المخالف لنص الانجيل . وقد قبل النيشان المجيدى الاكبر من سلطان تركيا الذي أنعم به عليه بعد رجوعه نظير مساعيه التي اتخذها في اهباط وهدم مساعي حزب الاصلاح وقتل روح النهضة الحيوية في شعبه قبل نموها في مهدها . ثم حل المجلس الملي . وانتخب أربعة من رجال هذا المجلس دعاهم اللجنة الملية تنظر معه في شؤون الطائفة لحين تجديد انتخاب مجلس اكليريكي بدلها . وأعاد افتتاح المدرسة الاكليريكية الا انه وضعها تحت ادارة قوم لايليقون بالمره لادارتها فسادت الفضائح والغلطات

الاكليريكية القديمة على مثل ما كانت قبلاً بدون ان يستطيع احد التعرض لها

ويسرنا القول انه بعد عودة كيرلس من النفي ببضع سنوات تغيرت أحوال الكنيسة المصريه الى أحسن من ذي قبل . فان البطريرك وحزب الاصلاح لاحظا ان كنيسة المسيح لا يمكن المحافظة عليها ولا اصلاحها بدون اشراك روح المسيح في ذلك وظهرت رغبة كل من الطرفين الى السلام . وكان نتيجة ذلك الفكر ان مدرسي المدرسة الاكليريكية الغير اللائقين للتعليم فيها تغيروا بآخرين من ذوي الكفاءة والعقول الراجحة القابلة للنور الجديد نور الاصلاح والارتقاء الديني والادبي ثم صرح البطريرك لنفر قليل من طلاب هذه المدرسة للتبشير والوعظ في الكنائس . وبذلك أمل الشعب ان يخلق من هؤلاء الواعظين فريقاً جديداً ينشيء من طبقة قسوس أكثر تنوراً في مهنتهم من الجيل السابق وبالطبع لا يمكن اجراء أو حصول اصلاحات اكثر مما تقدم في عصر ذلك البطريرك الشيخ الهلوع . لانه يخاف من جهة من اتهامه بمواطئته مع الانجليز ومن جهة أخرى من الاميال الهرطوقية التى نمت في عقول الجيل المرتقى الذي تعلم في مدارس الامريكان وانحرف بجهل لاحتقار كنيسته الاصليه .

ومما يجب ذكره قليلا في هذا المقام المساعي الانجليزية التى بذلت في مساعدة الكنيسة القبطية فنقول .

بعد احتلال الجنود الانكليزيه لمصر تأسست حالا جمعية (زيادة انتشار المسيحية في مصر). ولكن تعقدت أعمالها منذ أول افتتاحها لانها رفضت الاعتراف بان الكنيسة القبطية هى الكنيسة المصرية الرسمية. ومن الغريب انها سعت لدى بطريرك الاقباط لمعاونتها بينما كانت تنكر عليه حقوقه الرسمية وارثوذكسيته التى هي عقيدته حتى ان أحد كبار خطبائها اتخذ في أول اجتماعاتها فرصة الفائه خطبه دينيه ليعلن من ان الجمعية ترفض كل هرطقه تؤدى الى هلاك النفس عند الاقباط ومع كل فقد تمكنت هذه الجمعية في بدء أمرها من التأثير بعملها في البلاد قليلا ولو أن كلا الحزبين في الكنيسة القبطية المصرية كانا ينظران اليها بعين المقت والكراهة. (١) وأخيراً يمكني القول انه يوجد في مصر حقل

(١) نوضح هنا تعاليم الكنيسة القبطية الحقيقية في هذا الموضوع مأخوذة من كتابهم التعليم المسيحي: —

سؤال — هل هو (المخلص في تجسده) ينفصل عن الاب والروح القدس؟

جواب — معاذ الله انه ينسب اليه اي انفصال أو انتقال لانه (اي المخلص) كلمة الله الازلية الغير محدودة الذي لا يقدر بانصاف ان يصير منفصلا عن الله وروحه. وبتنازله اي قبوله ولو انه ازلي ان يظهر على الارض في شكل بشري كي يخلص الانسان خليقته وينيله بتجسده مركز النعيم العظيم في مملكته السماوية. ومع ذلك لم ينفصل ابداً عن الاب والروح القدس

سؤال — ما معنى قولك هو وحد نفسه؟

جواب — معناه. ان ابن الله اخذ ناسوته (اي الجسد والروح) وجعلها ...

متسع الا رجاء للعمل وحياة في شديد الحاجة للمساعدة ولكن لا تمكن من السير في ذلك العمل الا اذا عمدت الى اظهار الحقائق كما هي مع أطراحك ظهرياً لكل تحامل حتي تحكم على الاشياء قبل فحصها وينتقد انها مازلت من عوائد القرن الخامس النافذة على القرن العشرين

ويتبع البطريركية القبطيه ثلاثة عشر ابرشيه ستة منها في رتبة المطرانيه . ويوجد بها ٨٣٧ قسيساً أو كاهنا و ٣٧٥ كنيسه الآن وباضافة كنائس القاهرة واسكندريه اليها يصير المجموع ٤١٨ كنيسه قبطيه في الديار

واحداً — شخصي واتحاد مادتي . بلا او فوق الامتزاج . والاختلال او التعقيد ولا استحالة (اي بلا تحول لجوهر اخر) ولا انفصال وبهذا الاتحاد الحقيقي للمادة صار شخصاً واحداً . ومادة ممتازة بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة وعمل واحد : — وهو الابن الوحيد المتجسد

سؤال — ما هو المثال التقريبي لهذا الاتحاد المقدس؟

جواب — هو اتحاد النفس المتكلمة مع الجسد البشري لان النفس هي مادة روحية طاهرة اما الجسد فمادة ترابية محسوسة . وبهذا الاتحاد المتبادل. بدون امتزاج (اختلاط)او استحالة صاروا شخصا واحداً ومادة واحدة وطبيعة واحدة واتحاد النفس والجسد في كل انسان هو اعظم مثال وبرهان حسي لاتحاد اللاهوت الازلي مع الناسوت في شخص المسيح الاله وفي وحدة المادة .

المصريه وبخلاف هذه ايضا الصوامع والاديرة المهمه وثلاثه اديرة للراهبات (١)

﴿ انتهي الفصل ويليه الفصل الخامس والسبعون وهو آخر الكتاب ﴾

(١) عنوان بطريرك الكنيسة المصرية التام هو:— البابا الكلي القداسة بطريرك الاسكندرية وجميع الديار المصرية وبلاد النوبة والحبشة والخمس مدن الغربية وجمع الكرازة المرقسية

الكنيسة المصرية يقال لها عند الاقباط (الكنيسة) والاجانب يسمونها الكنيسة القبطية. ويسمى الاقباط الكنيسة اليونانية (كنيسة الاروام) والكنيسة الرومانية يسمونها (كنيسة الكاثوليك) اي الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية. والكنيسة البريطانية يسمونها (الكنيسة الانجليزية او الانجليكانية). واما الكنيسة المشيخية وكل المنشقين منها او الشيعيين فمعروفة عند الاقباط بالاصطلاح العام (كنيسة البرتستانت).

الفصل الخامس والسبعون

العوائد والمعيشة الاجتماعية

سنة ١٨٩٧ مسيحية وسنه ١٦١٣ للشهداء و ١٣١٥ للهجرة

تمتع الاقباط بانتشار الحرية والتعليم في السنين الاخيرة فكان ذلك سبباً لنسخ كثير من عوائدهم الدخيله عليهم التي اقتبسوها من أبناء الشعوب الغريبة التي تغلبت على بلادهم في أزمنة الاضطهادات الدينية وحلت عليهم من احتلال المسلمين بينهم ولقد كنت ترى القبطي منذ عشرين سنة مضت يخجل كالمسلم ان يراه أحد الناس سائراً في الطريق مع زوجته أو احدى قريباته اما اليوم فترى شبان الاقباط قد عادوا الى سابق عاداتهم وعرفوا ان المرأة المصرية يجب ان تتمتع بحريتها كما كانت في عصر الفراعنة والعصر المسيحى الاول وانه يجب ان تعامل وتحترم على مثيل أختها الغربيه ولذا أصبحوا ميالين لنبذ تلك العوائد الرديئة التي اقتبسوها من المسلمين ظهرياً ومن سوء الحظ ان تلك الحركة الاصلاحية قد نجحت بين الاقباط كثيراً وسيستمرون مثابرين عليها على مهل وحكمة حتى تتوصل المرأة المصرية الى بلوغ مركزها الاصلى والحقيقي فى الهيئة الاجتماعية . وجل ما توجه اليه المرأة القبطية اهتماما اليوم هو تقليد أختها الانكليزية في الطريق المستقيم وفي حرية الفكر

وفي ضبط مركزها الادبي واقتفاء أثرها في الازياء والملابس المعتدلة اللطيفة البعيدة عن كل ضروب الزينة والفخفخة . على انه كان ينتظر ان تخرج عن الحد في حريتها فلا تسير مع زوجها أو أخيها أو أي حارس لها ولا تتقيد بأي قيد من قيود زوجها بل ولا تسلط عليه نفوذها تقليداً النساء بعض الطوائف المحيطين بها لانها لحسن الحظ أظهرت الحكمة والرزانه فلم تجنح الى الخروج عن الحد المطلوب للحريه. وهو عكس ما حصل لرجلها من حيثية تصوره انه يحبس جسده داخل الزي الاوروبي الغير الصحي والغير اللائق تطبيالطقس بلاده وتطرفه في الحرية وبذلك يكون قداقتبس التمدن الاوربي بأكمله

وهناك عوائد كثيرة بين الاقباط ولكنها قديمة اتصلت بهم مع الزمان من مصر الوثنية ومابقى منهافقدأوجدوها بأنفسهم ومنها تلك العادة الممقوتة الموجودة غالباً عند كل الشعوب وهي عادة الحزن على الاموات تلك العادة الوثنيه التي تأخر درجها في كفنها الى هذا الحين . ذلك انه ما تكاد الروح تفارق جسد الانسان حتى يهرع أهله لاستئجار الندابات اللواتي يلبين الطلب في الحال ويحضرن الى منزل المتوفي بالطارت ويحتلن مخادع النساء ويبتدئن بتمثيل منظر من أفظع وأرعب المناظر ويرثن بألفاظ مثيرة ومهيجة للحواس والعواطف . ويجلس في الطريق امام منزل المتوفي أقاربه الحزانى من الرجال أو يجلسون في زاويه احدى غرف الطبقة الارضية من المنزل مكتئبين ساكنين صامتين كأن على

رؤوسهم الطير يستقبلون وفود المعزين الذين عند دخولهم يضعون يدهم في ايدي اصحاب المتوفي فقط بدون كلام ثم يجلسون باحترام صامتين والعادة الوحيدة التي يختلفون فيها عن عادة اسلافهم انهم يصرفون الوقت كله في التدخين . اما في الحريم فتكون جثة المتوفي مطروحة على الارض ومغطاة بشال ومزدحمة حولها نساء عائلته لابسات افخر ما عندهن من الملبوسات (١) ويهيجن بعضهن بالتصويت والولولة لدرجة الجنون والاختبال العقلي . ويحللن جدايل شعورهن ويقطعنها ويلطمن خدودهن بشدة بايديهن المصبوغة بالنيلة ويصوتن باعلى قوة في حنجرتهن مع الندابات اللواتي يضفن عنصراً اخراً من الاصوات بصوت طاراتهن (٢) فيتكون ضجة مفزعة مختلفة بين اصوات النساء وضرب الطارات .

واحياناً تسقط احدى المولولات مغشيا عليها من شدة خوار قوتها . وبالرغم عن ذلك يستمر هذا المنظر المرعب المفزع حتى تحمل الجثة الى المدفن . ونساء الطبقة الاخيرة يخرجن وراء الجثة في صوات وعويل

---

(١) نساء عائلة المتوفي يلبسن افخر الملابس الغالية القيمه المفتوحة الالوان مدة الثلاثة الايام الاولى من تاريخ الوفاة وفي اليوم الرابع يلبسن ثياب الحداد الاعتيادية ويداومن على لبسها مدة سنة وتلبس ارملة المتوفي الثياب السوداء مدة سبع سنوات حداداً على زوجها

(٢) الطار هو طبلة هندية تستعمل في الهند والممالك الشرقية وتعرف باللغة الهندية باسم (تام تام)

هائل الى أن تصل القبر وفي غالب الاحيان يتحمسون بنوع من الرقص المحزن الوحشي حول الجثة عند القبر بينما يكون الرجال جالسين متأثرين بتصبر حول حجارة القبر . ولكن هذه العادة نادر حدوثها الآن، ينتظر درجها في خبر كان بالكلية . لان الكنيسة وحتى الحكومة طالما اجتهدتا بالتداخل في منع وابطال هذه المناظر المعيبة من الجنازات ولكن بالاسف ليس عندهما القوة الكافية للتأثير على أي اصلاح حقيقي دون أن ينضج الرأي العام في الاصلاح ويساعد الكنيسه والحكومة في ابطال هذه العيوب الرديئه

اما الاحتفال بالجناز في الطريق فعلى العموم يكون بالترتيب الاتي :—

في مقدم الاحتفال يمشي القندلفت (خادم الكنيسة) حاملاً صليباً (١) كبيراً من الفضة ثم الشمامسة المرتلين حاملين الاعلام ثم الكهنة ثم النعش وخلفه عائلة الفقيد في وسط جمع كثير من المعزين .

وموتى الاقباط يدفنون دائماً في اكفان . ولكن هذه الاكفان تصنع الان على شكل (٢) الاكفان الاوروباوية الاعتيادية . وتقرأ صلاة

---

(١) لم يسمح المسلمون للاقباط باستعمال صلبانهم في الطريق لمثل هذه الظروف الا من مدة ثلاثين سنة فقط

(٢) ما زال سكان الوجه القبلي يدفنون موتاهم بملابسهم واغلب حلاهم وادوات زينتهم . وقد ابطلت هذه العادة في القاهرة الا انهم غالباً لا ينزعون حلي او ادات الزينة من المتوفي قبل دفنه .

الموتى على الجثة في الكنيسة قبل حملها الى المقبرة للدفن . واهل المتوفي يصومون طول الوقت ما بين الوفاة والدفن . وبعد ذلك يمدهم اصحابهم حالاً بالطعام ويستمرون على ذلك الى اليوم الثاني . ويستمر النساء في الدور الاعلى من المنزل والرجال في الدور الارضي يستقبلون المعزين من اصحابهم ولكن عند النساء يستمر البكاء والنحيب مدة الثلاثة ايام والمغنيات المأجورات (المعددات) ينشدن نشيدا مؤلما في مدح الرجال ويسمى عندهن (تعديدا)

وفي اليوم الثالث يأتي الكاهن ليعزي العائلة فتتحد معه في الصلاة ثم يرش كل الغرف بالمياه المقدسة التي صلى عليها والنساء يسمين هذا الاحتفال (الذي هو في الغالب تقاليد قديمة) احتفال صرف روح الفقيد من المنزل على اعتقاد انها تكون هائمة فيه حتى ذلك الحين وفوق ذلك كله فلا يزال كثير من الاقباط يعتقدون كاجدادهم ان الروح تبقى هائمة مدة أربعين يوما قبل القرار بالحكم على مقرها الاخير . وانها توزن في ميزان بمعرفة الملاك ميخائيل الذي ينوب في هذه المأمورية عن السيد المسيح وما بقاء الروح مدة أربعين يوما في انتظار المقاضاة الا شكل المطهر الذي يعتقد فيه الاقباط اعتقاد الكاثوليك . ثم هناك فريق من الاقباط يعتقد ان الارواح تخرج من عالم الغيب (مقر الاموات أو مساكن الارواح في السماء) وتظل هائمة مدة أربعين يوما في انتظار حكم الديان النهائي بعد الصيام الكبير . وتوجد خرافة قبطية قديمة أيضا تدل

على اعتقاد بعضهم في مطهر ليس من نوع مطهر الكنيسه الكاثوليكية ومؤداها ان الملاك ميخائيل تكون له السلطه التامة في يوم واحد من أيام السنة يفتح فيه أبواب المطهر ويخرج منه كثير من الارواح المتألمة ويحمل منها على قدر استطاعته ويطير بها على أجنحته بسلام .

انتهينا من سرد عوائد المآتم والاحزان ونبتديء الآن بسرد عوائد الزواج والافراح فنقول :—

احتفالات الزيجة عند الاقباط تعتبر في الحقيقة من اعظم واجمل الافراح المستعارة من الشعوب الاخرى . ولسوء الحظ نقول ان تأثير العوائد الاسلامية حتى في مثل هذه الشعائر قد أخذت عند الاقباط مأخذها فكانوا الى وقت قريب يعتقدون ان من الخطأ الفاضح السماح لشاب بمشاهدة خطيبته التى سيعقد زواجه عليها حتى ولا يسمحون بوجود تعارف شخصي بينهما بالمرة كما ولم يكن لاحدهما صوت أو رأي أو ابداً اي فكر بالمرة في امر زواجهما بل وفي غالب الاحيان كانت تعقد صيغة الزيجة قبل بلوغ الزوج والزوجة سن الزواج لانهم كانوا يعتقدون ان الولد يليق للزواج في سن الخامسة عشر والبنت في سن الثانية عشر .ثم تحول رأي الاقباط العام عن هذه العادة بتأثير نواهي الكنيسة ونصائحها فاقلعوا عنها وصاروا لا يسمحون اليوم بالزواج الا عند بلوغ الشاب السنة العشرين من عمره والفتاة السادسة عشرة. ولا يعقد الكاهن صيغة الزيجة الا بعد حصوله على رخصة من البطريرك أو من أحد الاساقفة

وفي سنة ١٨٩٥ اصدر البطريرك منشوراً عموميا لكل رجال اكليروسه يذكرهم فيه بالقوانين الكنائسية المحتمة بعدم قبول عقد الزيجة قبل أن يرى الخطيبان بعضهما بعضاً ويتعاشرا زمناً ما يقف فيه كل منهما على اخلاق وصفات الاخر ثم قبل البدء في عقد الاكليل يجب على الكاهن ان يدعو اهالي العروسين ليتحقق ويتأكد أن كان الخطيبان قد عرفا بعضهما معرفة تامة ويسأل كلا من العريس والعروس على انفراد أن كانوا راضيين بالاقتران من عدمه . وعند تمهيد طريق الزيجة يرسل الفتى للفتاة بواسطة الكاهن خاتما من الذهب أو الماس بصفة هدية يقال لها (الشبكه) . ثم يعين الكاهن يوم الاحتفال بالخطوبة ويقال له عندهم (جابنيوت) ففي عصر ذلك اليوم (نهار جابنيوت) يذهب الخطيب مصحوبا بعدد من اقاربه واصحابه واحد القسوس الى بيت العروس حيث يكون اقاربها ايضاً مجتمعين في منزلها لاستقبال العريس وآله وبعد أن يتكامل عدد المدعوين يقفوا جميعاً مع الكاهن ويتلون الصلاة الربانية . ثم يلقي القس خطبة أو موعظة حسب ما يناسب المقام ينوه فيها عادة الى خطوبة رفقه لاسحق

ثم يجلس الجميع ويتناقشون في تدوين الشروط المدنية (محضر الزيجه) ثم يدفع العريس مهر العروس ثم يتفقون فيدونون في المحضر اليوم الذي يعين لعقد الزيجة . ويختلف المهر بحسب مقدرة العريس المالية انما المهر يكون عادة متراوحا ما بين العشرين والماية جنيه ووالد العروسة

عادة يدفع ضعف المهر ويصرف كل هذا المبلغ في شراء حلي وملبوسات واجر خياطات . وبعد أن يقدم آل العروس المرطبات والحلوى للحاضرين يهنئون العريس على الاقتران القادم المبارك وينصرفون .

واذا كان اليوم الذي يتعين لعقد الزيجة بعد زمن طويل من تاريخ الخطوبة يلتزم العريس أن يرسل لعروسه المنتخبه من وقت لاخر الهدايا (نفقة) من زهور وفواكه . واذا تصادف قبل تاريخ عقد الزيجة عيدالميلاد أو الفصح مثلا يرسل لها العريس فستانا وكمية كبيرة من الكمك والحلويات ولكنه لا يزورها بشخصه ولا يراسلها الا ما ندر

وأكليل الزواج يعقد في ليالي السبت والاحد ولكن محرم في الصيام الكبير وفي كل صيامات الكنيسة اللهم ان لم تقض بذلك ظروف استثنائية في غاية الاهمية — فأول ليالي الفرح ليلة السبت ويقال لها ليلة العروسة (ليلة الحناء) وفي بحر ذلك اليوم تخرج العروسه الى الحمام مع بعض صاحباتها وأهلها . وفي المساء يلبسونها أفخر الملابس وتجلس لاستقبال المهنئين والمهنئات من جميع أهلها وأقاربها وصاحباتها ثم يخضبون يديها ورجليها بالحناء مثل المسلمين . ثم يجلس الجميع الى وليمة العشاء وبعده يصرفون الليل في سماع المغنيات أو المغنيين الذين يؤجرنهم لغرض الانشراح وتسلية النفس . لان العاده عند الشرقيين انه تكون المظاهر فوق الطاقة والكرم فوق المجهود أي ان تعمل كل ما في وسعك لتسلية ضيوفك بنفسك فوق الهمة التى تبذلها لتزيين بيتك بالزهورات والبارق

والاعلام ولا نارته ليلا بالثريات التي تصف على شكل جميل . غير ان النساء يكن منفصلات عن الرجال مثل المسلمين . وفي الغالب لا يدخل المدعوون الى البيت بالمرة بل يقام لهم سرادق عظيم في حديقة المنزل لاستقبالهم وهذه السرادقات وما يتبعها من أدوات الاطعمة والمقاعد والخيم تجهز بواسطة مقاولين يسمونهم (بالفراشين) اما العشاء فيقدم على الطريقة الشرقيه الاعتيادية توضع الاطعمة على صينيه من المعدن مستديرة وكبيرة ليجلس حولها عشرة رجال بالراحة يعطى لكل منهم فوطه وملعقه ورغيف من الخبز — ولكن لا تعطي سكاكين ولا شوك غالبا كما انه محتم على الجميع ان يغسلوا أيديهم قبل تناول الطعام كعادة المسلمين ثم يأكلون باصابعهم بعد ان يمد أعظمهم مقاماً يده أولا واذا حضر قس على المائدة فله الافضيلة في مد يده للطعام أولا دون جميع الجالسين مهما كان بينهم من كبر المقام . ويبتديء بالفاظ البركة والنعمة ثم يأخذ رغيفاً من الخبز ويباركه ويقطعه الى قطع صغيرة يوزعها على الحاضرين معه . ثم يحضر الفراشون موائد أخرى بقدر ما يسع المكان يجلس عليها عشرة ضيوف كما تقدم . وهكذا يتعشى كل الضيوف بتجديد هذه الموائد . وفي أول ليالي الفرح (ليلة العروس) يختفي فيها العريس بعد ان يرسل اثنين أو ثلاثة من أقرب الناس اليه يحملون باقة من الزهور وشمعة كبيرة يشترط ان تكون طول العروسة . وتوقد هذه الشمعة في غرفة نوم العروسة طول الليل حتى الصباح

وفي ليلة الاحد يقال لها (ليلة العريس) يذهب الشبين (أصدق صديق للعريس) مصحوباً باثنين أو ثلاثة من أقرب أهل العريس ليحضر العروسه بالحرس اللازم في احتفال كبير الى بيت زوجها . ومن بضع سنين مضت كان الاقباط لا يتجاسرون على السير في الطرق بمثل هذا الاحتفال الا ليلا فكان أكثر تأثيراً للابتهاج من السير به نهاراً . اذ كان يتقدم الاحتفال جوقة الموسيقي ثم جمع كبير من حاملي المشاعل فكثير من الشبان يحمل كل منهم شمعه في وسط باقه من الزهور ثم صفوف أخرى تحمل المباخر الموقدة التي يتصاعد منها البخور ثم حملة القماقم المملوءة بالروائح العطرية سائرين باتجاه نحو العروس السائرة على قدميها والمتكئة على ذراعي اثنين من أقرب المقربين اليها ومحتشد حولها جمع كثير من السيدات وخلفهن الخادمات

أما الآن فتنقل العروس ومن معها من السيدات في عربات مقفلة (كوبيل) ويحرسها الشبين وأعوانه ويتقدم العربات جوقة الموسيقى اما مركبة العرس فتغطى بشال من الكشمير أو بسجاده غالية الثمن

وبوصول هذا الموكب لبيت العريس يذبحون خروفا أو عجلا على عتبة البيت ويفرقون لحمه على الفقراء وقد ورثوا هذه العادة من المصريين القدماء — ثم يحمل الشبين العروس ويطلع الى مخدع الحريم وعند ما يبارح الموكب منزل العروس وعند دخولها بيت العريس يرشها النساء بالملح وأحيانا بالورد اعتقاداً منهن بطرد تأثير العين الشريره

(الحسد) عنها . وبعد الانتهاء من الاكليل يرتاح القوم قليلا من الزمن يأخذون في اثنائه شيئا من المرطبات والملبس والحلوى .

وقد كانت العادة أن يعقد الاكليل في الكنائس . ولكن في ايام الاضطهاد وهجوم المتعصبين على الاقباط اصبحت مثل هذه الاحتفالات خطره فصارت العادة الآن من زمن طويل أن تقام هذه الشعائر في منزل العريس . فيجهزون التجهيزات اللازمة ويتممون احتفال الاكليل بكل احترام حيث يضع الكاهن المعين طاولة في وسط اكبر غرفة في البيت ويضع عليها الانجيل المقدس مقفول مختوم [١] في علبة من الفضه ويرص حوله ستة صلبان من الفضه الملصوق في كل منها ثلاث شمعات ليكون نورها رمزاً عن الثالوث المقدس . ثم يضع مقعدين امام المائدة لجلوس العريس والعروس عليهما براحة وما عداهما من الحاضرين يظل واقفاً على قدميه طول وقت الاكليل . ثم يلبس العريس في غرفة اخرى حلة عرسه (برنس الاكليل) وهو عبارة عن قلنسوه

(١) بعض هذه الكتب المقدسة لم تفتح من ازمان مائة سنة ومن المؤكد ان هذه العلب الفضية تحتوي على نسخ من الانجيل المقدس ذات قيمة اثرية عظيمة مختوم عليها لعدم امكان استعمالها . وهي طريقة لطيفة جدا في وضع الانجيل المقدس في علب من الفضة التي يمكن تنظيفها لهذا الغرض ويحسن بنا اذا اقتفينا أثر الاقباط في هذا الامر ونضع الانجيل المقدس الخاص بمحاكمنا العدلية داخل علب فضية

أو عبايه من حرير ابيض غالية الثمن كثيرة التطريز تغطي جسمه كله حتى راسه وهذه البرانس هي ملك الكنيسة ويعيرها الكاهن للعريس في مثل هذه الظروف كالتيجان. وبعد ان يلبس العريس هذا البرنس من الرأس الى القدم مع أن عادة عدم كشف الراس محتقره عند جميع الشعوب المسيحية. فانه يشوه أيضا منظر هذه الحلة البيضاء بسبب لبس الطربوش الاحمر الغير اللائق على راسه تحت طرف البرنس. اما العروس فتتزين بلبس حلة حريرية بيضاء ويقنع وجهها بنقاب حرير رفيع جداً على مثال العروس الانكليزية الا انني في بعض الاحيان نظرت عروس قبطية لابسة فستان عرسها من حرير احمر على مثال المسلمين.

وكان من الواجب أن تجلس العروس على يمين العريس قبل كل شيء الا أن الافكار والمعتقدات الاسلامية قد أثرت جداً في العوائد المصرية حيث يتفق كثيراً أن يقام عقد الزيجة لعروس قبطية وعرشها امام مائدة الاكليل خاليا منها أي أن يجلس العريس على كرسيه فقط اما العروس الصغيرة المسكينة فتطل من وراء باب غرفة اخرى وتتفرج على كيفية عقد زواجها. ولا يخرجونها من سجنها الا لما تحل جمل القول ورسوم الطقوس التي لا يمكن للقسيس اجراؤها بدون حضورها — فعند خروجها لغرفة الاكليل لا يصحبها أحد مطلقا من السيدات القبطيات وفي بعض الاحيان يكون الزوج متنوراً متثقفا يحجز زوجته بجانبه بعد الاكليل ويقدمها لاصحابه من الانكليز الذين يتصادف حضورهم.

وطقوس الا كليل عند الاقباط مثل طقوسنا ولكن عادة تتويج العروس والعريس (أي اللذان لم يسبق لهما زواج) وتغطية رؤوسهما بوشاح مطرز رمزاً عن اتحادهما في خيمة واحدة كرفقه واسحق لم تزل متبعه عن اقباط مصر وينتظر استمرار اتباعها (١) وبعد الانتهاء من حفلة الاكليل ينتظر الضيوف حتى طعام العشاء ثم يصرفون بقية الليل في سماع المغنين والالحان اما صاحب المنزل فيفتح ابوابه لمناسبة فرحه الى المدعوين وغيرهم أي انه لا يرفض ضيافة أي فرد سواء كان غريبا أو قريبا حيث يعد ذلك من آيات الشرف . وكثيراً من المسلمين الذين يشتغلون تراجمه للسواحين يرتكنون على هذه العادة ويدعون كثيرين من السواحين الى ليلة عرس بدون انتظار دعوة من صاحب الفرح لثقتهم التامة انه مهما كانت احساسات صاحب الفرح الداخلية لابد وان يستقبل ضيوفه السواحين الغير المدعوين بكل تجله واكرام . والقاعدة المضطردة عند كل السواحين الذين يلبون دعوة ترجمانه المتطفل يكونون على جهل تام من معرفة ما اذا كان صاحب الفرح مسلما أو مسيحيا فتصرفهم هذا مما يدعو صاحب الفرح للشك في الاعتقاد بسمو تربية وتمدن الاورباويين

(١) الطلاق نادراً جداً عند الاقباط وغير مسموح به الا لعلة الزنا ففي هذه الحالة يسمح الاسقف او البطريرك لمن لم يظهر عليه الخطية من احدهما ان يتزوج ثانيا ولكن الطقوس الدينية تختلف قليلاً في الزواج الثاني الذي لا يحذف منه التتويج ويكون كزواج ارمل او ارمله

الذين يزورون مصر . فيدخل اولئك السواحين الى سرادقات الافراح او صالونات المنزل في وسط الحضور بذات ملابسهم الحقيرة المملوءة بالاتربة من شدة جولانهم في المدينة طول النهار ثم يجولون هنا وهناك وسط المنزل كأنهم يتفرجون على معرض صور شمعية ويبدون ملاحظات وانتقادات بصوت عال يدل على سوء التربيه دون ملاحظة ان اغلب المحترمين من الرجال الوطنيين الحاضرين يفهمون اللغات الانكليزية والفرنساوية وغيرها ولانهم لسوء الحظ لا يمكنهم دائماً التمييز بين (الانكليزي والامريكاني) وبالاختصار فانهم بذلك يسببون كسوفا واشمئزازاً عند الانكليز الذين يتصادف وجودهم في الاحتفال من اوله بدعوة من اهل الفرح وحتى ان السواحين الذين لا يذهبون الى الافراح الا بعد طلب دعوة حضور اليهم فانهم يأتون امورا مكدرة لا تليق بهم ولا يجب ان يسلكوها عند وجودهم في اية حفلة وطنية كانت لان اعمالهم هذه يتسبب عنها ان ابناء البيوت العالية من المسلمين قرروا فيما بينهم عدم دعوة السواحين الاوروباويين قطعيا في احتفالاتهم

لنرجع بعد ذلك الى يوم الاثنين وهو ثالث ايام العرس عند الاقباط ويعرف عندهم (بنهار الصباحية) يحضر فيه اقرب المقربين للعروسين ويصرفون معظم اليوم في بيت العريس حيث تقابل العروس كل منهم شخصيا ليعطيها هدية بقدر مقامه وتختلف قيمة الهدية من خاتم الماس الى نقود وغالباً تكون قيمة الهدية من النقود من جنيه انكليزي الى

عشرة جنيهات وتعرف هذه الهدية عنهم (بالنقطة) وكل من يمنح العروس هذه النقطة تقدم له بدلها منديل حرير مطرز من شغل يدها كما ان اصحاب العائلة ايضا يقدمون لها هدايا تستعمل في وليمة الفرح

على ان الاقباط ميالون الى الذريه جداً وتظهر علامات البشر عليهم والفرح حينما يولد لهم ابن او ابنة ويزداد سرورهم على الاخص اذا كان المولود ذكراً ولقد تبقى الوالدة والمولود في غرفتهما مدة اسبوع بعد الولادة مهما كانت العائلة في حالة الفقر حيث تتطوع لخدمتها كثيرات من صاحباتها وقريباتها ثم في اليوم السابع (السبوع) يقرون على الاسم الذي اختاروه للطفل بواسطه اجتماع جلسة من افراد العائلة . واذا كان المولود هو البكر قدم اهل الوالدة مائدة الغذاء لجميع صاحباتها. ثم يبتدأون بوضع الطفل التعيس في جملة تجارب واختبارات . فاول عذابه ومضايقته ان يدقوا هونا من نحاس اصفر قرب اذانه الى ان تكاد تشق . ثم يهزونه في غربال ولقد يستحب الانسان اطفال الاقباط للطفهم ودقتهم ومنتهى الجاذبية التى تكون فيهم واحسن الاطفال طبعا وجمالا طفلا قبطيا رأيته في الشهر الخامس من عمره له شعر كثيف لطيف وعينان لامعتان زرقاويتان ويهدر ويقرقر ويبقبق (يناغي) بانشراح طول النهار مع انه يتنقل من يد بنت الى اخرى بطريقة يعجبها الطفل الانكليزي امام ذلك الطفل فقتاة مسكينة لا تجاوز عمرها الخامسة عشرة ولكني افرح بان اقول انها المتزوجة الوحيدة في وسط اربع او خمس من صاحباتها واقرانها اللواتي من

سنها او اكبر منها قليلا .

وبعد ان يتم ازعاج الطفل المسكين في اليوم السابع من عمره بتلك الوسائط الخرافية . تلبس امه ثوبا ابيض وتأخذه على ذراعيها وتدور به في كل غرف المنزل في شكل موكب . ويؤلف هذا الموكب من اولاد المدعوين بان يمسك هؤلاء الاولاد الشمع في ايديهم واحياناً المباخر ويمشون صفين امام الوالدة ويرتلون غناء الولادة وحولهم جميع المدعوين . اما والد ووالدة الام الصغيرة فيعملان كعكا يقال له (كماجه) ويوزع جزء من هذا الكعك مع بعض حلويات وفواكه ناشفة الى كل العائلات التي لها صلة تعارف بالعروسة والعريس . ثم بعد هذا يحضرون في مساء اليوم المذكور قارورة ماء فارغة ويكسونها بالحرير ويزينونها بالحلي والجواهر وتوضع في طشت من النحاس مسطح وتلصق ثلاث شمعات في حافته على ابعاد متساوية وتسمى كل شمعة باسم ينتخبه احد اعضاء العائلة ثم يوقد هذا الشمع والشمعة التي لا تذوب الا في النهاية بعد الشمعتين الاخيرتين يسمون الطفل باسمها . ثم يضع كل من الضيوف الحاضرين شيئاً من النقود في الطشت ومجموع هذه النقود تعطى للوالدة علاوة على ما يعطيه لها والدها .

وطبقاً لقوانين الكنيسة المصرية القبطية يجب تعميد الولد حينما يبلغ اليوم الاربعين من عمره والفتاة حينما تبلغ اليوم الثلاثين ولكن لسوء الحظ فان المنفذين لهذا القانون قليلون جدا حيث كثيراً ما يترك الاطفال

بلا عماد حتى الشهر الخامس أو السادس . وتمارس رسوم التعميد في الكنائس ان لم يكن الطفل على وشك الموت فيعمد في البيت . ويتم هذا التعميد بواسطة تغطيس الطفل ثلاث مرات في حوض مملوء بالماء البارد الرائق المرشوش بقليل من الزيت الذي يقال له زيت المعمودية ولا يشدون الطفل الان بالزنار أو الحزام الذي كان يستعمل بصفة علامة يميز بها المسيحي المصري (القبطي) من سواه .

ويتخذ في الكنيسة المصرية مثل كنيسة روما الاشبينية (الكفالة) واسطة لتأسيس علاقة مادية وروحية بين الكفيل وعائلة المولود ولذا خطر على الاقباط أن لا يتزوجوا ببنات اشبينه أو اشبينته طالما يعتبرون كاخوة لهم واخوات

وبعد تغطيس الطفل ثلاث مرات في المعمودية يمسح بالزيت المقدس (الميرون) ويقدم لتناول السر الالهي . ومن عوائد الاقباط أن يسموا الطفل وقت المعمودية باسم آخر خلاف الاسم الذي اختير له في اسبوع الميلاد وانتخاب الاسم الجديد يكون على العموم على اسم قديس يكون عيده في ذلك اليوم الذي يعمد فيه أن لم يفضل والديه تسميته باسم قديس محبوب عندهم . وفي الغالب اسم جرجس ومريم عام عند كل الاقباط

على ان كثيرا من الاقباط المستخدمين في دوائر الحكومة يتخذون اسماً ثالثاً خلاف الاسم المسيحي ويستعملونه لقباً اعتياديا وفي الغالب هذا الاسم الثالث لا يكون مسيحياً فيصبح الشخص غير معروف بين الناس

لا بهذا الاسم الاخير اما اسماؤه المسيحية فتستعمل فقط في الاحتفالات والرسوم الكنائسية ولذا فان الطفل الذي يعمد باسم مرقس يصير معروفا عند كل الناس باسم (اسكندر) . أو الصبي الذي يعمد باسم باسيلي يرسل للمدرسة باسم (زكي) الخ . وبعض الاسماء اليونانية القديمة قد تحرفت وتغيرت تغييراً غريباً من عهد ما ابتدأ الاقباط يفقدون استعمال لغتهم الاصلية فاسم فيلوثاؤوس تحرف الى العربية باسم عبد المسيح . واسم فيكتور اصبح الآن بقطر . واسم تيودوروس اصبح تادرس الخ

والختان متبع على العموم عند الاقباط خصوصاً في الارياف ولكن لا يوجد شيء يميز الاقباط من المسلمين عند مظاهراتهم المقرونة بالاختتان — كما ولا يوجد عند الاقباط ما يثبت أن اتباع الختان هو تنفيذ لطقس ديني . بل هو فقط احتياط صحي يتبع وقت ما يجب اتباعه . ويتبع ايضاً الاقباط العادة القديمة المتعلقة بتضحية خروف او كبش عند ما يريدون وضع حجر الاساس الاول في بناء عمارة عظيمة وهكذا يفعلون أيضاً على عتبة البيت الجديد بعد تمام بنائه

واكثر الاقباط مواظبة على حضور الصلاة في الكنائس رجالهم اما النساء اذا ذهبن فانهن يقضين الوقت في محادثة بعضهن بعضاً بغوغاء وضوضاء بدلا من الانتباه للصلاة . ولا شك انه لا يوجد علاج شافي لهذا المباديء المعيبة الا اذا سمحوا للسيدات بالجلوس في وسط الكنيسة عوضاً عن نفيهن في اروقة مقامة في اعلى الكنيسة

وعالية علوا يستحيل عليهن أن ينظرن منه أو يسمعن ماذا يحصل أو ماذا يقال في دار الكنيسة ومن الواضح أنه قبل اشتداد خوف الاقباط من المسلمين كان النساء يجلسن منفصلات عن الرجال كما هو جار الآن في كثير من الكنائس الانكليزية وان كان الانكليز وسيداتهن يجلسون في ساحة واحدة بلا ادنى حجاب ولا حاجز بين الفريقين. على اني وجدت في كنيسة قبطية قديمة اربعة حواجز يقف خلف الاول المترشحون للتعميد ثم تقف النساء وبين هؤلاء واولئك يجلس الرجال ثم القسوس فصدر الهيكل وخلفه معابد يحتوي كل منها على مذبح لا يستعمل الا بعضه الآن

والقاعدة المتبعة في الكنيسة المصرية هي نفس المتبع في الكنيسة البريطانية من ضرورة تناول النوعين من الاسرار المقدسة وان تناولها الاقباط ثلاث مرات في السنة منها مرة في عيد الفصح. ويتناولها الانكليز مرات عديدة غير أن عدم الاعتناء والاهمال الشديدين هما اللذان يمنعان غالبا ابناء الكنيسة من تناول الاسرار المقدسة في المواعيد المقررة لها حتى اصبح اعضاء الكنيسة المصرية على الغالب لا يتناولون الاسرار الا في كل سنة مرة. ومن الغريب انهم يقولون أن مرة واحدة تكفي في الصيام الكبير. ويستعمل الاقباط في الاسرار المقدسة خمرا خصوصيا معتقا يقال له (ابا ركه) ويصنعونه لهذا الغرض داخل الكنائس. اما كيفية استخراجه فهي أنهم ينقعون الزبيب في الماء ثم يهرسونه هرسا ثم يكررون عصيره حتى يصير رائقاً وبعد ئذ يتركونه في اوعيته حتى

يختمر . وقد اصبحت هذه العادة ضرورية جداً بالنسبة لكثرة الاضطهادات المريعة . وفي القرن التاسع والقرن الحادي عشر (انظر الفصل الحادي والاربعين من الجزء الثاني والفصل السابع والاربعين من الجزء الثالث) قد خربت كروم العنب واصبح استخراج الخمر أو جلبه من الخارج من الامور المحرمة قطعياً على الاقباط . وقد كان غرض المسلمين من ذلك التضييق هو انهم يعطلون على الاقباط ممارسة اسرارهم المقدسة . وقد نجح المسلمون تدريجاً في استئصال زراعة الكرم بالكلية من البلاد ومنع جلب العنب من الخارج . فصار الاقباط يلتزمون في جلب الزبيب من الخارج ويعملون منه الخمر الذي يرغبونه داخل الكنيسة بطريقة سرية . اما الآن فقد الغيت بالطبع هذه التحذيرات التي تستوجب عمل الاباركه من الزبيب. غير ان الاقباط استمروا في اتباع عادة استعملت في اول ابتدائهن بواسطة بعض رجال الاكليروس المتحمسين لكي يفسدوا الاسرار المقدسة. اما عن ملبوسات وترتيبات الكنيسة القبطية فانا لا نكتب عنها شيئاً لان المستر بتلر كتب عنها في كتابه (الكنائس القبطية) بغاية الاعتناء والتفصيل . وضنهما بعض التعبيرات التي يعير بها الاقباط جماعة من الغربيين الجهلاء الذين يحكمون على الامور قبل فحصها ويجب على الاقباط ان يحتجوا عليها احتجاجا شديدا ليوقفوهم عند حدهم وعند اسناد الوساخة والفوضى اليهم

في بيوتهم وفي كنائسهم (١) ثم ان كنائسهم على الغالب غير نظيفة وناقصة كثيرا من النظام بوجه عام مع وجود خادم خصوصي مؤجر لتنظيفها وترتيبها وقد لا انسى في هذا المقام ان من مائة سنة تقريبا كانت كنائسنا في انكلترا على حاله كنائس الاقباط الان . وامامي الان تأليف عجوز انكليزية تصف فيه الوساخة والقذورات وعدم النظام في الكنائس الانكليزية مما ينطبق وصفها على حالة الكنائس القبطية في هذه الايام غير اني اتمنى كثيرا ان لا اسمع عن الكنائس القبطية شكاوي من قبيل ما سمعته من ان النساء يستعملن اوراق كتب الصلاة لتزيين رؤوس اولادهم الذين يجلسون معهم . وقد ابتدأ الاقباط ان يستيقظوا من سباتهم ويقوموا الاصلاح كنائسهم وانا مؤملون كثيراً ان يجيء اليوم القريب الذين يعرفون فيه كيفية المحافظة على كنائسهم وابقائها على الدوام النظيفة

والكنائس القبطية كغيرها تقدم لها الهدايا والنذور من ابنائها حسب طريقة الكنيسة الانكليزية . وتكون التقدمات عموما صغيرة ولكن البطريرك المصري (القبطي) له سلطة وقوة كالسلطة التي يستعملها السماسرة

(١) ان العدل يلزمني ان اذكر شيئا من اعذار الاقباط فاقول ان القاهرة كائنة على شاطئ نهر غزير لا ينقطع ماؤه . ولكن احياء الفقراء فيها يتألمون لقلة المياه . لان من اعمال اسماعيل باشا الخبيثة ايام حكمه انه ترك المدينة في قبضة شركة اجنبية واحدة هي شركة المياه التي يتألم منها السكان كثيراً

الاكليريكون في انكلترا . فبارادته ومشيئته يعين ناظراً او امين الخزينة لكل ابرشية . فهذا الموظف يجمع كل الاموال المستحقة للكنيسة وايجارات الوقف الخ ويسلمها للبطريرك الذي يدفع ماهية معينة للكاهن المخصص لهذه الوظيفة ويصرف الزائد من النقود على لوازمات الكنيسة بحسب ما يراه ضروريا . وقد قامت منازعات وخصومات ما بين البطريرك وحزب الاصلاح بسبب رغبة الاخير في استلام زمام ايرادات الكنيسة وتأييد رغبته بادلة أهمها انه لا يجوز لاي شخص واحد حتى ولا البطريرك نفسه ان يتولى ادارة ايرادات الكنيسة تحت تصرفه الشخصي المحض دون ان يقدم حساباً عن ذلك لعموم الشعب ومنها انتخاب مجلس علماني (مجلس ملي) لاستشارته في توزيع الايرادات بالطرق اللائقة لها بحسب احتياجات الكنيسة والشعب ومنها وجوب صرف أغلب الايرادات في سبيل التعليم . أما البطريرك فانه واقف حجر عثرة في سبيل مطالب هذا الحزب متمسك بحقوقه الشرعية مثل باباوات رومية ويقول ان فكره اكثر عدلا من فكرهم . ولكن قد اتفق الرأي العام القبطي على انه ولو ان البطريرك الحالي غير حكيم ومفرط في ايرادات الكنيسة تحت ايدي رجال الاكليروس فانه امين وغير محب للذات في التصرف لما هو مؤتمن عليه . وينتظر الاقباط انه بمجرد خلو الكرسي البطريركي منه يرجعون حالا الى عوائد المسيحية القديمة بان ينتخبوا لبطريركهم الجديد رجلا يكون كاهنا متعلما متزوجا محنكا في التجارب والاختبار بدلا عن رجل

قديس جاهل من رهبان وادي النطرون يصبح بطريركا عليهم

والحق يقال انه مع وجود فقر كثير عند الاقباط الا انه لا يوجد في الحقيقة نوع الاحتياج او الشحاذة بينهم الا القليل لان ذوي الاحسان منهم لا يجهلون حالة ابنائهم المحتاجين . حتى ان المثريين منهم او اصحاب الرواتب العالية يعتقدون بالبداهة الطبيعية ان من الضروري مساعدة اقربائهم الذين لا يعملون ما عدا تلك الجهة التي يقطنها الاقباط عند الحصن الروماني (بمصر القديمة) حيث علمهم السياح درسا شريراً بكثرة هباتهم عليهم فاتخذوا الشحاذة مهنة في تلك الجهة النيلية اما في سائر البلاد وفي كل مكان يغمر فيه السياح الاهالي بهباتهم فقلما تجد قبطيا واحداً خرج اليهم اومد يده ليطلب كسرة خبز او درهم من اي كان وانما كثيرا مارأيت ان بعض الاولاد الاقباط يطلبون كتبا من السياح ولا يطلبون منهم نقودا ولما سحت لآخر مرة عام ١٨٩٤ في اعالي النيل رايت صياح الناس والاولاد علي وعلى باقي السياح طالبين البقشيش ثم احتاطوا بنا بشكل لا يطاق وبالبحث والملاحظة لم اجد بينهم قبطياً ثم لما اتجهت الى الاحياء القبطية في اسنا واصون لاحظت ادبا كثيراً وسكونا عظيما ولم اسمع قبطيا واحداً يطلب بقشيشا على مثال احوال المسلمين البحته التي أصبحت عندهم عادة . وفضلاً عن ذلك فان كل الاقباط تربوا على احتراف بعض الحرف والصنايع اليدوية أوالتجارة التي تغني فقراءهم عن عيشة الكسل وعلى الاعتماد عدم الشحاذه وذلك بعد أن تخزلوا من الاستخدام في دوائر

الحكومة . من النادر حينما تجد الاقباط يشتغلون خدمة في المنازل أن لم يقبل عليها واحد منهم ببساطة وسذاجة وليس عند الاقباط الذكاء اللازم لعمل أي شيء اخر خلاف ما تقدم .

ومنذ سنة ١٨٨٤ قد تحرر الاقباط من كل المضغفات القضائية ولم يبق من ظلمهم وشكواهم الحقيقية الا مواظبتهم على موالاتهم للمسلمين علنا بواسطة اغلب كبار الموظفين الانكليز أو الاتراك لانه تقريبا كل الموظفين الكبار الذين يختلط معهم الانكليز من الحزب الذي تسر افئدته كثيراً من الحط على الاقباط . فضلا عن يعملوهم دائما في اظهار الاقباط بمظهر غير محبوب ومقبول لايدفعوا الانكليز الى مديد الاذى ضد الاقباط بكل بساطة وسذاجة — أي أن الانكليزي يقتنع بذلك كقاعدة عمومية — أن لم ير ضرورة امتحان القبطي شخصيا — فيتكلم عنه بحسب اختباره اياه ونادراً لما يتفق للانكليزي أن يتخذ براهينه للقبطي على اساس الانجيل وللمسلم على اساس اخر اوطىء كثيراً من البراهين التى يستعملها لنفسه . وقد تكلمت كثيراً على الصعوبات والعثرات الملقاة في طريق ترقية الاقباط في الجيش ومثلها تقريبا في كل دوائر الحكومة . وفي الحقيقة أن انكليزيا عظيما أتى مصر « نعني به لورد كرومر » على تصميم النية على أن لا يستخدم فى المصالح الاميرية الا المسلمين « باعتقاده ان المسلمين أصحاب الاكثرية من المصريين الحقيقين » ونفذ غرضه بقدر امكانه ويظهر انه من عهد محمد علي الى الآن لم يتعين قبطي في وظيفة مدير أو

وكيل مديرية ولو انه ارقى من المسلم واذكى واشد دهاء وولاء . ولكن على كل حال هذه مصاعب صغيرة يكابدها شعب عظيم تألم شديد الالم اكثر من الف سنة ومعظم الاقباط ممتنون من الحماية التي يتمتعون بها في عصر جلالة مليكتنا فيكتوريا ؟

﴿ انتهى بحمده تعالى الجزء الرابع وهو خاتمة أجزاء الكتاب ﴾

﴿ في اول نوفمبر سنة ١٩١٠ ميلادية ﴾

خاتمة اضافيه

بقلم صاحب جريدة مصر الذي تولى ترجمة وطبع هذا التاريخ

قد تم ولله الحمد ترجمة وطبع هذا التاريخ النفيس الذي هو تاريخ اقدم الحوادث لاقدم الامم وهو التاريخ الثابت المحقق لجميع حوادث مصر السياسية والاجتماعية والملية ايضا التى وقعت فيها من اول ايامها الى الاحتلال الانكليزي مقترنا ايضا بتواريخ جميع بلاد الشرق في تلك الحقبة الطويلة من الدهر وفيه الايضاح الوافي لاشهر الحوادث التى وقعت ايضا في بلاد الغرب اثناء تلك الاجيال الطويلة وكان لها اتصال او علاقة ببلاد الشرق

فهو من هذا القبيل تاريخ عام لاهم الحوادث التى وقعت في العالم كله في الازمنة القديمة والحديثة وتاريخ خاص لذلك الشعب النشيط العجيب الذي نشأ منذ اول عمران المسكونة بالجنس البشري وقطن هذه

البقعة الشمالية من قارة افريقيا على ضفتي النيل حيث لعب ادواراً مهمة فيها وفي سائر الممالك والبلدان المجاورة له عادت بالرقي العجيب والتقدم الغريب على جميع سكانها كما عادت عليه بالفلاح والنجاح قرونا طويلة بل هو الشعب الذي انار الدجى بمصابيح العلم والهدى في العالم كله كما تدل على ذلك اثار رقية الباقيه الى اليوم تناطح السحاب رغما عن اعتداء جميع امم وقبائل الارض عليه وعليها حديثا . ذلك الرق الذي قال عنه اشهر علماء اوربا في هذا العصر هذه العبارة المأثورة (اننا لو افتخرنا مهما افتخرنا بعلوم واختراعات اوربا الحديثة نقف مبوهتين امام ما كان للمصريين القدماء من ذلك مما تظهره اثارهم العجيبة كل يوم)

فهذا الشعب هو الشعب القبطي الذي لبث من عصر الرومانيين الى الان عرضة لاضطهادات ونكبات وويلات لا حد لها ولا نهاية ورغما عما عملت فيه السيوف والنيران في كل تلك الازمان من الفظائع التى افنت قواه وانقصت عدده الى ما دون العشر بقي الى اليوم وهو شعب قوي امين لله والناس وثابت على مبادئه القويمة الاصلية لا تزعزعه عنها اي كارثة ولا يثني عزيمته اي اضطهاد مهما طال زمانه وتعددت انواعه

ولا شك ان حضرة السيدة الفاضلة والكاتبة المجيدة البارعة المس ا . بتشر التي قضت عدة اعوام تعاني المشاق والاوصاب في جمع هـذا التاريخ الذي عجز عنه جميع الاقباط انفسهم لجديرة بالشكر الوافر والحمد المتواصل من جمهور مجموعهم وافرادهم بل من المصريين اجمعين على هذه

الخدمة الجليلة التي خلدت لها اعظم ذكر لا يمحى مدى الدهر

هذا ومن الذين لهم الفضل الاكبر على ترجمة هذا الكتاب الجليل الى العربيه سعادة مرقص بك سميكه والمرحوم الطيب الذكر رفله بك جرجس والذين باشروا الترجمة بالذات هما حضرتي الفاضلين اسكندر افندي تادرس من مزارعي السودان الان ونسيم افندي فهمي احد موظفي ادارة سكة الحديد فقد ترجم اولهما الجزئين الاول والثاني وثانيهما الثالث والرابع وتحملا في ذلك اتعابا تذكر لهما بالشكر الوافر والثناء العاطر . ولا يفوتنا هنا ان نشير الى القراء التشجيع العظيم الذي لقيناه اثناء مباشرة ترجمة وطبع هذا الكتاب على نفقتنا الخصوصية من عميد الامة القبطية المرحوم الخالد الذكر بطرس باشا غالي بعد ان علم بما تكبدناه في ذلك من الاتعاب الجمة والنفقات الكثيرة خصوصا بعد احتراق ما كان ترجم وطبع منه واضطرارنا الى تكرار ذلك بنفقات جديدة فقد كتب اليناً من الاسكندرية رحمه الله كتابا رقيقا بخط يده الكريمة يتضمن ارق العبارات واجملها يمتدح منا هذا العمل ويثني علينا لاجله اطيب الثناء مما دل على ما كان له من الاهتمام بكليات الامور وجزئياتها طيب الله ثراه

هذا وبما ان هذا التاريخ يقف عند بداءة ايام الاحتلال الانكليزي لمصر ولا يشتمل الايام التي تليها ونظراً للحوادث الكثيرة التي وقعت في هذه الفترة وهي ليست بقصيرة قد اخترنا الله في وضع جزء تاريخي مخصوص لها حسب ما لدينا من المعلومات التامة عنها وبالله المستعان وله الحمد على نعمائه في كل حين وكل ان (تادرس شنوده المنقبادي)

فهرست

تاريخ الامة القبطية و كنيستها

المجلد الاول

صحيفة

(ا) مقدمة المؤلفة

(ج) فهرست المجلد الاول

(د) مقدمة صاحب جريدة مصر

(و) جدول بطاركة الكنيسة القبطية

١ الفصل الاول — مجيء قيصر الى مصر

١٤ « الثاني — مجيء المسيح الى مصر

٢٣ « الثالث — كرازة مرقس الانجيلي

٣٣ « الرابع — بطريرك واحد وسبعة قياصرة

٤٣ « الخامس — رواد النيل في القرن الثاني

٥٢ « السادس — المدرسة اللاهوتية الاولى

٦٢ « السابع — اوريجانوس

٩٦ « الثامن — اضطهاد ديشيوس للمسيحيين

١٢٣ « التاسع — اضطهاد فاليريان للمسيحيين

١٤٦ « العاشر — مار آمون ومار انطونيوس

صحيفة

١٥٥ الفصل الحادي عشر — الجهاد في سبيل الحرية

١٦٩ « الثاني عشر — تاريخ الشهداء

١٩٦ « الثالث عشر — جدال اريوس

٢٠٨ « الرابع عشر — البدعة والانشقاق

٢٣٣ « الخامس عشر — غريغوريوس وجورجيوس من كبدوكيه

٢٥٨ « السادس عشر — اوبة اثناسيوس ووفاته

٢٧١ « السابع عشر — انحطاط الامة المصرية

٢٨٥ « الثامن عشر — اخر اسقف اريوسي في الاسكندرية

٣٠١ « التاسع عشر — سقوط هيكل سيرابيس

٣١٨ « العشرون — الاخوة الطويلو القامة

٣٣٩ « الحادي والعشرون — سينيثوس

المجلد الثاني

٢ الفصل الثاني والعشرون — شنوده الاخميمي وغيره

٢١ « الثالث والعشرون — كيرلس الكبير

٣٥ « الرابع والعشرون — منافسة الباباوات

٤٥ « الخامس والعشرون — مجمع خلكيدونية

٥٧ « السادس والعشرون — نتيجة الشقاق بين الكنائس ومركز الاروام في مصر

صحيفة	
٧٢	الفصل السابع والعشرون — زمن الراحة والسلام
٨٢	« الثامن والعشرون — كل اول وله اخر
٩٩	« التاسع والعشرون — ثورة الثلاثة اخوة
١٠٤	« الثلاثون — الفتح الفارسي
١١٦	« الحادي والثلاثون — مشروع الاتحاد
١٢١	« الثاني والثلاثون — الفتح الاسلامي
١٤٤	« الثالث والثلاثون — المسلمون في مصر
١٥٢	« الرابع والثلاثون — فتح السودان
١٥٨	« الخامس والثلاثون — عبدالعزيز
١٧٢	« السادس والثلاثون ـ ظلم ولاة مصر وجورهم
١٨٣	« السابع والثلاثون ـ عصيان الاقباط وسقوط الدولة الاموية
٢٠٢	« الثامن والثلاثون ـ ظلم الدولة العباسية للاقباط
٢١٦	« التاسع والثلاثون ـ اخر ثورة هائلة للاقباط
٢٢٧	« الاربعون ـ مقابلة ولي عهد السودان للخليفة
٢٣٧	« الحادي والاربعون ـ احمد بن طولون
٢٥١	« الثاني والاربعون ـ العمري واعماله الخطيرة
٢٦١	« الثالث والاربعون ـ مدينة ابن طولون الجديدة وجامعه
٢٧٦	« الرابع والاربعون ـ الدولة الاخشيدية

المجلد الثالث

صحيفة

٢ الفصل الخامس والاربعون — فتح الفاطميين لمصر
١٠ « السادس والاربعون — بناء القاهرة
٢٣ « السابع والاربعون — اضطهاد الحاكم بامر الله
٣٦ « الثامن والاربعون — شنوده وخرستودوس
٥٠ « التاسع والاربعون — بدر الجمالي الارمني
٧٦ « الخمسون — تأثير مبادىء الحروب الصليبية في مصر
٩٣ « الحادي والخمسون — انشقاق مرقس بن قنبر
١٠٣ « الثاني والخمسون — حريق بابليون
١١٧ « الثالث والخمسون — الفتح الكردى
١٢٩ « الرابع والخمسون — سلطنة صلاح الدين يوسف
١٤٧ « الخامس والخمسون — النزاع والفتن بين الكنيسة الحبشية وامها الكنيسة المصرية
١٧٢ « السادس والخمسون — الصليبيون في مصر
١٩٥ « السابع والخمسون — البطريرك المرذول
٢١٨ « الثامن والخمسون — القديس لويس في مصر
٢٣٣ « التاسع والخمسون — مصير ملكة مسلمة
٢٦٢ « الستون — فتح السودان مرتين

المجلد الرابع

صحيفة

٢ الفصل الحادي والستون — تخريب الكنائس وهدمها
٣٥ « الثانى والستون — اطول ازمنة الاضطهاد
٥٦ « الثالث والستون — المماليك الشراكسة
٧٣ « الرابع والستون — الفتح العثماني
٩٧ « الخامس والستون — من ردئ الى اردأ
١١٥ « السادس والستون — تأثير الاصلاح في مصر
١٢٩ « السابع والستون — مصر في القرن السابع عشر
٢٠٧ « الثامن والستون — المسيو دي مايه في مصر
١٧٨ « التاسع والستون — استبداد البكوات المماليك
٢٣٢ « التاسع والستون — استبداد البكوات المماليك
٢٥٥ « السبعون — علي بك الكبير
٢٧٨ « الحادي والسبعون — دخول الفرنساويين
٣١٣ « الثاني والسبعون — محمد علي باشا
٣٥٠ « الثالث والسبعون — الاحتلال الانكليزي
٣٧١ « الرابع والسبعون — الكنيسة القبطية في القرن التاسع عشر
٤٠١ « الخامس والسبعون — العوائد والمعيشة الاجتماعية
٤٢٦ خاتمة صاحب جريدة مصر
٤٢٩ فهرست الكتاب

A.U.B. LIBRARY

DATE DUE

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00512653
A.U.B. LIBRARY